رواية

يو هوا

نهر الزمن

ترجمها عن الصينية: يحيى مختار

مكتبة 430

المتوسط

نهر الزمن

مكتبة | 430

مكتبة ٢٠١٩٥٥

在细雨中呼喊

Copyright © 2007 by **Yu Hua**
Arabic Translation Right, 2018 by Yilin Press, Ltd
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.
This Arabic edition published in 2017 by Wisdom House
Sponsored by B & R Book Program

本书获得国家新闻出版广电总局“丝路书香工程”重点翻译资助项目

تمّت الترجمة بشركة بيت الحكمة للترجمة

المؤلف: يو هوا / المترجم: يحيى مختار / عنوان الكتاب: نهر الزمن

الطبعة الأولى: ٢٠١٨.

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-85771-34-5

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

نهر الزمن

ترجمها عن الصينية: يحيى مختار

مكتبة | 430

المتوسط

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

مقدّمة بقلم المترجم

رائعة جديدة من روائع الروائي الصيني العملاق "يو هوا"، نضعها بين يَدَي القارئ العربي الذي لم يعد كاتبُنا غريباً، بالنسبة إليه، فقد سبق وأن تُرجمت له إلى العربية روايات "على قيد الحياة"، و"اليوم السابع"، و"مذكّرات بائع الدماء"، ومجموعة قصصية بعنوان "صيف حارّ جدّاً".

يُعدّ "يو هوا" الأبرز من بين جيل الرّوّاد الذي يضمّ أيضاً "مويان"، و"سو تونغ"، و"سون قان لو"، و"ليو جين يون" وغيرهم من الأدباء المعاصرين. كما أنه أكثر الأدباء الصّينيّيْن المعاصرين بزوغاً على الساحة العالمية. وتشير الدراسات الخاصّة بانتشار الأدب الصيني عالمياً إلى أن أعمال الأديبَيْن "يو هوا"، و"مو يان"، تأتي في مقدّمة الأعمال الأدبية الصينية التي تُرجمت إلى لغات أجنبية، وحظيت بانتشار عالمي واسع النطاق.

تأثّر بشدّة "يو هوا" بمدرسة "لو شون" الواقعية النقدية، كما يمكننا أن نرى من خلال أعماله تأثّره الواضح بأسلوب الأديب التشيكي فرانز كافكا، والأديب الياباني ياسوناري كاواباتا، وكذلك الأديب الإنجليزي تشارلز ديكنز، بالإضافة إلى الروائي الأمريكي الأشهر وليام فوكنر.

توصف أعمال "يو هوا" بأنها نموذج مثالي للكوميديا السوداء، لا تخلو من النظرة المأساوية للحياة، إلا أنها حافلة بالفكاهة، في الوقت نفسه، وهذا جزء لا يُجتزأ من شخصيّته، فهو دائم المزاح، ولكنْ، بشكل

تهكّمي ملآن بالتّمرّد على الواقع. كُنتُ قد التقيتُ به خلال منتدى الأدباء الصّينيّيْن والعرب، على هامش معرض (أبو ظبي الدولي للكتاب) العام الماضي، وأتذكّر حينها أنه كان قد أجاب عن سؤال لأحد الحضور حول السبب وراء تخلّيه عن ممارسة مهنته كطبيب أسنان، واشتغاله بالعمل الأدبي، حيث قال: "لقد كرهتُ النَّظَر إلى أفواه المرضى، والعَبَث بأسنانهم المصابة قبيحة المنظر، وكذا تحمّل رائحة أفواههم الكريهة، وكُنتُ دوماً أَغْبِطُ المثقّفين والأدباء على عملهم المريح، وحُرّيّتهم في التّمتّع بأوقاتهم، وطالما تمنّيتُ أن أكون واحداً منهم".

"صرخات تحت رَذَاذ المطر" هي أولى الروايات الطويلة الذي أبدعها كاتبنا خلال مشواره الأدبي الطويل الممتدّ منذ ثمانينيات القرن الماضي حتّى الآن. وبالحديث عن الفترة الزمنية التي أبدع فيها الكاتب هذه الرواية، وهي الفترة التي نشأ فيها ما يُعرف باسم "جيل الرّوّاد" في الأدب الصيني المعاصر الذي يُعدّ "يوا هوا" أحد أبرز وجوهه، نجد أنه قد تخلّى عن الأسلوب التقليدي القديم الذي كان سائداً خلال في فترة الأدب الحديث، ومرحلة ما عُرف باسم "الثورة الثقافية الكبرى". فقد تمكّن من اتّباع مجموعة من الأساليب الغنية والتِّقْنِيّات والأفكار والأساليب السَّرْدِيَّة الحديثة تزامناً مع ما عُرف بمرحلة "الإصلاح والانفتاح"، وتأثُّر الكُتّاب الصّينيّيْن، وخاصّة جيل الرّوّاد، بالكُتّاب الغربيّيْن ونظرياتهم الأدبية، ممّا جعل من هذه الرواية بمثابة تحوُّل جذري في أسلوب الكاتب. ومعروف أن الكتابة الأدبية عند جيل الرّوّاد تركز، بشكل أساسي، على كشف الواقع العَبَثي للإنسان، فالأساس الإبداعي لدى هؤلاء الكُتّاب، وفي مقدّمتهم "يو هوا"، يقوم على فكرة الانتصار لطاقات الحياة البدائية، والتنديد بضعف الإنسان، في محاولة منهم للبحث عن القِيَم التي ضاعت منهم خلال فترة "الثورة الثقافية الكبرى". تلك الفترة التي قيّدت من حُرّيّة الكتابة وأساليبها،

وأصابت التّطوّر الأدبي بالجمود والانغلاق، واتّخذت موقفاً متناقضاً من التّنوّع الأدبي، وعملت على تسييس الأدب، من خلال رؤى منغلقة للاضطلاع بدور سياسي ثوري، حُدّد له، ومن ثمّ، تسبّبت تلك المرحلة في إفراغ الأدب من مضمونه لصالح أيدلوجيا معيّنة، جرّدَتْهُ من استقلاليّته وخصوصيّته، ليصير بذلك نوعاً من الأدب السياسي في المقام الأوّل.

مع انقضاء "فترة الثورة الثقافية الكبرى"، توجّه جيل الرّوّاد، وكان منهم "يو هوا" نحو الحداثة، بوصفها هي المفتاح لفَهْم اتّجاهات الإبداع الحديث، في محاولة منهم لمعالجة التناقضات الاجتماعية التي كانت تعصف بالمجتمع حينها، فالاضطرابات السابقة كانت قد شكّلت تيّاراً يدعو للخلاص الفكري، ودفعت نحو تبديل ملامح التّيّار القصصي، والسبب في ذلك هو تغيّر البيئة الاجتماعية والحالة الذهنية والنَّفْسية لدى الناس. وعلى هذا الأساس، نجد "يو هوا" قد عمد إلى تصوير صراع الإنسان العادي في ذلك الوقت، من أجل البقاء من خلال الرَّبْط بين الشخصيات التي يُصوِّرها في كتاباته والواقع المؤلم الذي يعيشه الإنسان بشكل عامّ، وفي هذا الصَّدَد، يقول "يو هوا": "الإنسان جزء لا يُجتزأ من مجتمعة وعصره، والتعبير الصادق عن مكنون هذا الإنسان هو معيار الكمال".

بدا جلياً تأثّر يو هوا في هذه الرواية بشدّة بأسلوب الروائي الأمريكي الأشهر صاحب نوبل وليام فوكنر (William Faulkner ١٨٩٧ -١٩٦٢)، وخاصّة رائعته الشهيرة "الصخب والعنف -The Sound and The Fury" من عدّة نواحٍ، منها أسلوب السَّرْد الذي يندرج تحت تيّار الوعي، والابتكارات اللغوية، والرَّسْم الحَيّ الصامت للشخصيات، وكذا الانزياح الزمني داخل السَّرْد.

هناك أيضاً سِمَة بارزة، تُظهِر تأثّر يو هوا بأسلوب فوكنر، ألا وهي أنه عادة ما يجعل من مسقط رأسه مسرحاً للأحداث التي تدور حولها أحداث روايته.

لا تخلو أعمال يو هوا من الدراما النَّفْسية والعُمق الانفعالي، كما أنها تجمع بين التجريب التِّقْنِيّ والطابَع المحليّ الذي يُبرِز ارتباطه بالبيئة التي عاش فيها والأشخاص الذين عرفهم. وهو ما جعل من أعماله بمثابة رَسْم حَيّ وصورة مُصغّرة لواقع المجتمع الصيني في ذلك الوقت.

دائماً ما يولي "يو هوا" اهتماماً بالغاً بالوقت داخل كتاباته، فهو يرى أن الوقت بمقدوره أن يُغيّر من ملامح الحياة في أيّ لحظة. ومن ثمّ، اعتمد "يو هوا" على ما أسماه "منطق الذاكرة"، وعن هذا المنطق، يقول: "عندما نقوم بتغيير ترتيب الأحداث في الواقع من حولنا، من خلال إجراء عدّة تغيّرات على مسارها الزمني في الوقت نفسه (وهذا ممكن)، فسوف نحصل على معانٍ جديدة مختلفة تماماً، وبالطبع، فإن هذا التغيير يتمّ عن طريق الذاكرة".

لم يقيّد يو هوا نفسه بالأسلوب السَّرْديّ الروائي التقليدي سواء كان السَّرْد المتسلسل أو المقلوب أو المُكمّل أو حتّى المتداخل، بل بدا واضحاً أنه تحرّر من قيود السَّرْد التقليدي، وأقحم نفسه وسط تركيب مزاجي وسط تراكيب، تبدو للقارئ، وكأنها قصاصات ممزّقة من لوحة مكتملة.

يمكننا تفهُّم اعتماد "يو هوا" على هذا الأسلوب السَّرْديّ من خلال ما ذكره في مقالة بعنوان "طبيعة الزيف"، قال فيها: "دائماً هناك طَرَف ثالث يقبع وسط السَّرْد والشيء المسرود، وهذا الطَّرَف الثالث يستطيع التّغلّب بفاعلية على محدودية الواقع السَّطحي للأحداث، بمعنى أنه

يمكننا بواسطته الانتقال من الواقع الآني البسيط المحدود إلى الجانب المستقبلي المعقّد. وهو ما يعكس تماماً طبيعة أسلوب السَّرْد الغيبي التي انتهجها "يو هوا" في هذه الرواية، بحيث يبدو أنه يحكي للآخرين عن أحوال الآخرين، وليس عن أحواله هو".

الشخصية المحورية في روايتنا هي الطفل "سون قوانغ لين" الذي صار يافعاً بعد، وهو الراوي الذي تجري على لسانه أحداث الرواية، ومن ثمّ، جاء سَرْد روايتنا بضمير المُتكلّم "أنا" كما هو حال أسلوب الكاتب في الكثير من أعماله، حيث يحكي لنا بطل الرواية من موقف المُتفرّج تفاصيل المسار الزمني لأحداث حياته منذ كان في السادسة، إلى أن بلغ الثامنة عشرة.

الراوي "أنا" يظهر في الرواية بصفَتَيْن: الأولى هي "أنا" الطفل، والثانية هي "أنا" البالغ. حيث يسترجع "أنا" البالغ في الوقت الحاضر ذكريات "أنا" الطفل في الماضي، وهو ما يتجلّى واضحاً عبر اختلاط الأزمنة والأحداث داخل الرواية. وعندما يتذكّر "أنا" البالغ معاناة "أنا" الطفل في الماضي، يتحوّل الغضب والبؤس اللذان كانا يسيطران عليه في الماضي إلى عفو وتسامح. وهذا، في الحقيقة، ليس سوى استغلال لِقيم التسامح والتّرفّع لدى الكبار، للتّحرّر من الغضب والكره عند الأطفال.

"سون قوانغ لين" الأخ الأوسط لثلاثة أخوة، الأخ الأكبر "سون قوانغ بينغ"، والأخ الأصغر "سون قوانغ مينغ" الذي مات صغيراً. وُلد "سون قوانغ لين"، وعاش في بيت عائلته بصحبة والده "سون قوانغ تساي"، ووالدته التي لم يردْ اسمها داخل الرواية، وجدّه "سون يو يوان" في قرية، اسمها "الباب الجنوبي"، إلى أن بلغ السادسة، حيث تبنّاه بعدها زوجان، هما "وانغ لي تشيانغ"، وزوجته المريضة "لي شيو ينغ"، ثمّ انتقل للعيش معهما في مدينة قريبة من مسقط رأسه، اسمها "سون تانغ"، وظلّ هناك

إلى أن تُوفيّ والده بالتّبنّي "وانغ لي تشيانغ"، حيث عاد مرّة ثانية إلى قرية "الباب الجنوبي"، وظلّ هناك إلى أن التحق بالجامعة في بكين.

صاغ كاتبُنا شخصيّاته بحِرَفِيّة شديدة، تجعل القارئ يشعر وكأنها شخصيات حَيّة تتحرّك على الورق، يرى دموعهم، ويسمع ضحكاتهم، ويتأثّر بمشاعرهم. الرواية تكشف أفضل ما في النَّفْس البشرية وأقبحه، فنجد الأب قد تخلّى عن حياة الاستقامة، ليتحوّل إلى شخص مُبدّد وماجن، يجلب العار لنفسه ولعائلته، فنراه مرّة يقيم علاقة مشبوهة مع امرأة مطلّقة، وتارة يتحرّش بزوجة ابنه، ويُبدّد ممتلكات بيته، وفي النهاية، يقع في إدمان الخمر، ويموت ميتة مهينة إثر سقوطه ثملاً وسط حفرة الصَّرْف. وأخ أصغر يحاول تقليد أخيه الأكبر في سطوته وشجاعته، فينبري لإنقاذ صديقه الذي سقط في النهر، فيموت بدلاً منه. وأخ أكبر كثير الصمت، كان يتطلّع للانتقال للعيش في المدينة، ولكن محاولاته باءت بالفشل. وأمّ مكلومة كثيرة البكاء خاصّة بعد أفعال زوجها المشينة. وجد عاش حياة مملوءة بالأحداث بداية من عمله في صباه مع والده الحجّار، وهروبه من نيران قُوّات الاحتلال الياباني وصولاً إلى زواجه بزوجة من عائلة ثرية، ثمّ وفاة زوجته، وانتقاله للعيش متنقّلاً بين وَلَدَيْه. هناك أيضاً والدان بالتّبنّي، الزوج رجل عسكري، يدخل في علاقة مع امرأة أخرى، ثمّ ينتحر عندما ينكشف أمره، والزوجة امرأة مريضة غريبة الأطوار، تغادر بيتها بعد موت زوجها تاركة طفلهما بالتّبنّي وحيداً عاجزاً.

وتدور أحداث الرواية في ستّينيات وسبعينيات القرن الماضي بالصين حول حياة طفل منعزل عمّنْ حوله، يحاول أن يفهم حياته غير الطبيعية. كما أنها مملوءة بالكوميديا السوداء والأحداث المتناقضة، فنجد ابناً عاقّاً، يعامل والده بقسوة، وأب عديم الرحمة، يترك طفله وحيداً، ليتزوّج بامرأة

أخرى. نجد مشاهد من الحياة في الريف، ومشاهد من الحياة في المدينة، هناك أصدقاء طفولة وأصدقاء صبا، مزارعون وجنود، أطفال وعَجَزَة، أغنياء وفقراء، شفقة وقسوة، ميلاد وموت، زواج وجنازة، لقاء وفراق، فَرَح وتَرَح.

تتخلّل الرواية الكثير من المشاعر المختلطة والمتناقضة، يمكن للقارئ أن يشعر بها، يراها ويلمسها، تظهر أمامه بطريقة تجعله مغرَماً وحزيناً في الوقت نفسه. وهو ما يعطي انطباعاً بأن النَّفْس البشرية يمكنها الحصول على خلاصها وحُرّيّتها بإطلاق العنان لصرخاتها تحت رَذَاذ المطر، فعندما يتخيّل القارئ البرد المصاحب للمطر الخفيف، يكون الصراخ هو المُتنفّس لراحة النَّفْس.

"نهر الزمن" ليست كغيرها من إبداعات يو هوا، فهي خالية من الخيبة والحسرة اللتَيْن دارت حولهما رواية "على قيد الحياة"، وخالية من القسوة والعنف اللذَيْن دارت حولهما رواية "مذكّرات بائع الدماء"، بل هي تتمحور بالأساس حول الشّكّ المحيط بالمصير الإنساني وتطوّر مشاعر النَّفْس البشرية.

الرواية عبارة عن مجموعة من الذكريات المتفرّقة، علينا أن نُرتّبها، ونربطها معاً، لنحصل على الصورة الكاملة. يريد الكاتب من خلال هذه الذكريات المتفرّقة أن يُعبِّر عن أن الناس يُفضّلون العيش وسط ذكريات الماضي المعلوم بالنسبة إليهم، على أن يعيشوا في أحلام المستقبل المجهول والمحفوف بالمخاطر، وهذا هو السبب في حُبّ الناس لاسترجاع ذكرياتهم القديمة، فالإنسان عندما يكون عاجزاً عن اختيار مستقبله، يحاول التّمسّك بحقّه في العيش وسط ذكريات الماضي. كما أن أفضل ما في الذكريات هو أننا يمكننا أن نجمع شتاتها، ونرتّبها من جديد، كما يحلو لنا، ومن ثمّ، يمكننا الحصول على تجارب أخرى مختلفة. تماماً كما يحدث عندما نرى أحدهم مستلقياً على أريكة في إحدى الحدائق وسط الغروب،

ثمّ نجده مُغمض العينَيْن، وعلى شَفَتَيْه ابتسامة خفيفة، هيئته تلك تجعل مَنْ يراه يُشفق عليه، ولكنْ، لا أحد يعرف أنه يعيش رحلة جديدة وحياة من اختياره وسط نهر ذاكرته.

من الممكن أن نقول إنّ الوقت في هذه الرواية لا يجري بمنطقنا المألوف، فالوقت فيها قد تحوّل إلى أشلاء صغيرة، تلمع بسرعة خاطفة كَفُتَات الزجاج المكسور وسط أشعّة الشمس، حيث أعطى الكاتب لنفسه حقّ التّحكّم في سَيْر مجريات الماضي، وكأنه يجلس بجوار جهاز هاتف قديم، ويضرب على أزراره أرقام تواريخ، اختارها بنفسه، ثمّ يرفع سمّاعته، ويجلس هناك يستمع إلى حديث الطَّرَف الآخر.

لم تخلُ روايتنا من العبارات التي تُبرِز فلسفة الكاتب في الحياة، فنجده يقول: "إنّ تذكّر الماضي أو الحنين إلى الموطن ليس سوى تظاهر بالهدوء والقناعة بعد فقدان القدرة على مواجهة الواقع، فحتّى لو طرأ علينا نوع من المشاعر والحنين، فهو ليس سوى مظهر خارجي".

"نحن لا نعيش على هذه الأرض، نحن، حقيقة، نعيش داخل نهر الزمن. الحقول، الشوارع، الأنهار، البيوت كلها تُشارِكنا الانخراط داخل الزمن. الوقت يدفعنا سواء للأمام أو للخلف، ويُغيِّر من هيئاتنا".

آمل أن تكون هذه الرواية إضافة جديدة، ونافذة يطّلع منها القارئ العربي على الأدب الصيني الذي لا يزال مجهولاً لدى الكثيرين في عالمنا العربي، ولم يستوفِ حقّه بعد.

مع تمنّياتي بقراءة ممتعة.

يحيى محمّد مختار/ بكين – أكتوبر -٢٠١٧

المؤلف: يو هوا

\

وُلد الروائي الصيني الشهير "يوهوا" في الثالث من أبريل عام ١٩٦٠ في مدينة هانغتشو حاضرة مقاطعة تشهجيانغ، في جنوب الصين. ثمّ انتقل في طفولته، بصحبة والدَيْه الطبيبَيْن، إلى بلدة هاي يان، في المقاطعة نفسها. وترجع أصول عائلته إلى بلدة قاوتانغ، في مقاطعة شاندونج.

كان قد عمل هو الآخر كطبيب أسنان، ولكنه ترك ممارسة الطّبّ، وتفرّغ للعمل الأدبي إيماناً منه بأن الإنسان في حاجة إلى العلاج الروحي أكثر منه إلى العلاج الجسدي. التحق بمعهد لو شون للأدب في بكين، وهو المعهد نفسه الذي تخرّج فيه الأديب مو يان الحاصل على جائزة نوبل في الآداب، وهناك تعرّف إلى زوجته الشاعرة تشن هونغ. بدأ باكورة إنتاجه الأدبي عام ١٩٨٣، حيث نشر أولى قصصه القصيرة، بعنوان "النجوم" في العدد الأوّل من مجلّة "أدب بكين" عام ١٩٨٤، وهو العام نفسه الذي انتقل فيه للعمل في المركز الثقافي، في بلدة هاي يان القريبة من مسقط رأسه.

يُعدّ "يوهوا" الأبرز من بين جيل الأدباء المعاصرين الذي يضمّ أيضاً "مويان"، و"سو تونغ"، و"سون قان لو"، و"ليو جين يون" وغيرهم من الأدباء المعاصرين. كما أنه أكثر الأدباء الصّينيّيْن المعاصرين بزوغاً على الساحة العالمية. وتشير الدراسات الخاصّة بانتشار الأدب الصيني عالمياً، إلى أن أعمال الأديبَيْن "يوهوا"، و"مو يان" تأتي في مقدّمة الأعمال الأدبية الصينية التي ترجمت إلى لغات أجنبية، وحظيتْ بانتشار عالميّ واسع النطاق.

تأثّر "يوهوا" بمدرسة "لو شون" الواقعية النقدية، كما يمكننا أن نرى من خلال أعماله تأثّره الواضح بأسلوب الأديب التشيكي فرانز كافكا، والأديب الياباني ياسوناري كاواباتا، وكذلك الأديب الإنجليزي تشارلز ديكنز.

أبدع "يوهوا" العديد من الأعمال الأدبية المتنوّعة، منها الروايات الطويلة والقصص القصيرة والمقالات. من أهمّ رواياته: "على قيد الحياة" (١٩٩٢)، "مذكّرات بائع الدماء" (١٩٩٥)، "الأشقّاء" (٢٠٠٥)، "اليوم السابع" (٢٠١٣)، وغيرها.

تحوّلت بعض أعماله إلى أفلام سينمائية، مثل فيلم "على قيد الحياة" الذي أخرجه المخرج الشهير زانغ ييمو (حاز على جائزة التحكيم الدولية في مهرجان كان السينمائي الدولي عام ١٩٩٤)، حيث كان هذا الفيلم كان سبباً في ذيوع صيته في وقت مبكّر.

تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة، وحصل على العديد من الجوائز الأدبية المحلّيّة والعالمية، منها جائزة "جرينزان كافور" الإيطالية عام ١٩٩٨، و"وسام الفروسية الفرنسي للأدب والفنون" عام ٢٠٠٤، كما فاز بجائزة "الإسهام المتميّز في الكتاب الصيني" عام ٢٠٠٥ وغيرها من الجوائز.

الفصل الأوّل

الباب الجنوبي

في عـام ١٩٦٥، انتابت أحد الأطفال حالة لا تُوصَف من الرعب تجاه الليل المظلم. استرجعتُ ذكريات تلك الليلة التي تساقط فيها المطر الخفيف، كُنتُ قد استغرقتُ في النوم، طفل وديع وُضِعْتُ في الفراش مثل الدمية. قطرات الماء المتساقطة من حافّة السقف تخترق حاجز السكون، بينما كان انخراطي تدريجياً في النوم هو نسيان تدريجي لقطرات المطر المتساقطة. في ذلك الوقت تقريباً، بينما كُنتُ مستغرقاً في النوم بكل سكون وطمأنينة، بدا وكأنه قد ظهر أمامي طريق مُوحِشة، على جانبَيْه أشجار وحشائش، تفسح الطريق أمامي بالتتابع. ترامى إلى مسامعي صوت أشبه بصوت بكاء امرأة قادم من بعيد، صوت مَبْحُوح دوّى فجأة وسط سكون الليل المُطبِق، وهو ما جَعَلَني لا أتمالك نفسي من الارتجاف في تلك اللحظة التي استرجعتُ فيها ذكريات الطفولة.

شاهدتُ نفسي، طفل مرتاع جحظتْ عيناه من الرعب، وجهه مُشوّش في الظلمة. استمرّ صوت أنين تلك المرأة لفترة طويلة، كُنتُ خائفاً متعجّلاً، أنتظر قدوم صوت آخر، صوت يجيب عن صوت صراخها، يُهدِّئ من صوت أنينها، ولكنه لم يأتِ. أستطيع الآن أن أستوعب سبب هَلَعي حينها، هو أنني لم أسمع صوتاً آخر، يجيب عن صوت تلك المرأة. لم يعد هناك ما يجعل المرء يرتعد خوفاً أكثر من صوت صرخات الوحدة والعجز.

توالت مع ذلك ذكرى أخرى، ألا وهي قدوم بضع نعجات بِيْضٍ، تسير

فوق الحشائش الخضراء على حافّة النهر. من الجليّ أن هذه إشارة إلى قدوم النهار، وطَمْس لمشاعر القلق التي سببّتْها الذكرى السابقة، إلا أنه كان من العسير، بالنسبة إليّ، أن أعرف تحديداً أين كُنتُ حين انتابني ذلك الشعور.

ربّما كان ذلك بعدها بعدّة أيّام، حيث خُيّل لي أني سمعتُ صوتاً يجيب عن صراخ تلك المرأة. كان الوقت قرب الغروب، موجة مطر شديدة قد انتهت لتوّها، والسُّحُب الداكنة تجري في الأفق كالدخان الكثيف. جلستُ بجوار البركة خلف المنزل، ووسط هذه الأجواء الرطبة، رأيتُ رجلاً غريباً قادماً نحوي. كان يرتدي لباساً أسود، بدا لباسه الأسود وهو يسير أشبه بالراية التي تُرفرف تحت الغيوم. كان اقتراب هذا المشهد سبباً في تردّد صوت صراخ المرأة بوضوح من جديد داخل أعماقي فجأة. بدأتْ نظرات ذلك الرجل الغريب الحادّة تَرْمُقُني من بعيد، بينما كان يقترب منّي. وبينما كان الرعب يعتصرني، استدار الرجل بجسده، وسار وسط الممرّ الترابي مُبتعداً عنّي تدريجياً. كانت الريح تضرب ملابسه السوداء الفضفاضة مُصدِرَة صوتاً كصوت رفرفة الرايات. بعدما صرتُ يافعاً، غالباً ما كُنتُ أودّ أن أتوقّف طويلاً عند هذا المكان عندما كُنتُ أتذكّر أحداث الماضي، كُنتُ مُندهِشاً من نفسي، وددتُ لو عرفتُ لماذا فهمتُ أن صوت رفرفة ملابس ذلك الرجل الغريب هو إجابة على صوت صراخ تلك المرأة في تلك الليلة المُمطِرَة.

أتذكّر أنه في صباح أحد الأيّام، كان صباحاً رائقاً مُنعِشاً، كُنتُ أجري خلف بعض الصِّبْيَة في قريتنا، أطأ بقَدَمَيّ فوق أرض طينية ناعمة، وعشب أخضر يتراقص مع النسيم، وأشعّة الشمس حينها كانت أشبه بالألوان المتناسقة، تنعكس على أجسادنا، لم تكن شديدة السطوع، تُؤذي العين.

كُنّا نركض مثل النعاج التي تركض عند حافّة النهر. ركضْنا طويلاً حتّى وصلْنا عند معبد قديم مُتهالِك، حينها شاهدتُ عدّة شِبَاك عنكبوت هائلة الحجم.

ربّما كان ذلك في وقت سابق، حيث جاء أحد أطفال قريتنا قادماً من بعيد. لا أزال أتذكّر وجهة الشاحب، وشَفَتَيْه المُرتجفَتَيْن، وهو يقول:

"هناك شَخص ميّت".

كان الميّت يَرْقُدُ أسفل شِبَاك العنكبوت. نظرتُ إليه، كان هو ذلك الرجل الغريب ذا الملابس السوداء الذي سار نحوي ليلة البارحة. وبالرغم من أنني حاولتُ جاهداً أن أتذكّر حالتي النَّفْسية حينها، إلا أنني لم أنجحْ. ذكريات الماضي التي جالت بخاطري سلبتْني حالتي المزاجية التي كُنتُ عليها في البداية، لم يتبقَّ منها سوى الهيكل الخارجي. جزء من المشاعر التي جالتْ بخاطري حينها هي مشاعري الحالية. فحقيقة وفاة رجل غريب فجأة، لا تُمثِّل، بالنسبة إلى طفل مثلي في السادسة، سوى القليل من الدَّهْشة التي لن تستمرّ طويلاً. كان مستلقياً فوق الطين الرَّطْب، مُغمض العينَيْن، بدتْ على ملامحه الراحة والسكينة. لاحظتُ أن ملابسة السوداء قد لُطِّخَت بالطين عن آخرها، صارت مُرقّطة كتلك الأزهار المجهولة المغطّاة بالتراب على جانبَي الطريق الترابية. كانت هذه أوّل مرّة أرى فيها شخصاً ميّتاً، كان أشبه بشخص نائم. وكان هذا هو شعوري الحقيقي عندما كُنتُ في السادسة من عمري، أن الموت في الحقيقة هو النوم.

بعدها كُنتُ دائم الخوف من ظلمة الليل، رأيتُ نفسي أقف على الطريق عند مدخل القرية، وظلمة الليل تزحف قادمة مثل مياه الفيضان، تلتهم عينَيّ، وتلتهم كل شيء. استلقيتُ على فراشي وسط العتمة، لا

أجرؤ على النوم لفترة طويلة، والسكون من حولي يجعل الخوف في داخلي لانهائي. ظَلَلْتُ أصارع النوم مرّة تلو الأخرى.

يداه القويّتان تَجْذِبَانني نحوه بشدّة، وأنا أُقاوم باستماتة. كُنتُ خائفاً أن أصبح مثل ذلك الرجل الغريب، أن استغرق في النوم، ولا أستيقظ أبداً. ولكن الإرهاق تمكّن منّي في النهاية، فاستسلمتُ مستغرقاً في النوم. عندما استيقظتُ في صبيحة اليوم التالي، اكتشفتُ أنني لا زلت حَيّاً، نظرتُ إلى أشعّة الشمس المتسرّبة من شقّ الباب، حيث كانت سعادتي لا تُوصَف، لقد نجوتُ!

آخر ذكرياتي عندما كُنتُ في السادسة حينما كُنتُ أركض. استعادت ذاكرتي أيّام المجد الخوالي لمصنع بناء السفن في المدينة، حيث كانت أولى السفن الإسمنتية التي بناها المصنع على وشك الوصول للنهر عند قرية الباب الجنوبي. هُرعتُ بصحبة أخي الأكبر إلى شاطئ النهر. في الماضي، كانت أشعّة الشمس زاهية، تسطع على وجه والدتي الشّابّة، وشاحها المزركش بخطوط زرقاء مربّعة يتهادى بمصاحبة نسمات الخريف، وأخي الأصغر يجلس في حجرها، يُحملق بعينَيْه في حَيْرَة. ووالدي ذو الضحكات الرّنّانة يسير عاري القَدَمَيْن وسط الطريق الترابية. لماذا ظهر ذلك الرجل الضخم ذو البزّة العسكرية؟ كان يسير كورقة شجر تطير في الهواء وسط الغابة، ثمّ توقّف وسط أفراد أسرتي.

امتلأتْ حافّة النهر بالمُتفرّجين، سَحَبَني أخي الأكبر من يدي، ثمّ تسلّلْنا من بين أقدام الرجال، والأصوات المتشابكة تحيط بنا من كل اتّجاه. وصلْنا إلى حافّة النهر، ثمّ مَدَدْنا رأسَيْنا من بين قَدَمَي أحدهم، نتطلّع يمنة ويسرة تماماً كالسُّلَحْفَاة.

كانت أكثر اللحظات إثارة هي عندما دقّتْ أصوات الطبول والصُّنُوج

التي ملأت الأجواء، وتعالت أصوات الناس على جانبَي النهر ابتهاجاً، ثمّ شاهدْنا سفينة إسمنتية تشقّ المياه قادمة نحونا، معلّق فوقها عدّة حبال طويلة من الكتّان، والحبال مزيّنة بأوراق مُلوّنة، وكأنها أزهار تتفتّح في الهواء، وعدد من الشباب على متن السفينة يقرعون الطبول.

سألتُ أخي الأكبر بصوت عالٍ:

"يا أخاه، ممَّ صُنعت هذه السفينة"؟

التفت نحوي، وأجابني بصوت عالٍ أيضاً:

"صُنعتْ من الحجارة".

"ولماذا لا تغرق، إذنْ"؟

"يا لكَ من غبيّ، ألا ترى أنها معلّقة بالحبال من الأعلى"؟

كان "وانغ لي تشيانغ" ذو البزّة العسكرية قد ظهر فجأة وسط هذه الأجواء، وهو ما اضطرّني أن أقطع ذكرياتي عن الباب الجنوبي لخمس سنوات. ذلك الشخص الضخم سَحَبَني من يدي، حيث غادرْنا قرية الباب الجنوبي، ثمّ ركبْنا سفينة، لم ينقطعْ دَويّ أبواقها، وهي تسير وسط نهر طويل حتّى اقتربت من مدينة اسمها سون تانغ. لم أكن أعرف أن والدَيّ قد تركاني لشخص آخر، فقد كُنتُ أعتقد أنني ذاهب لمكان آخر لِلّعب واللّهو. على تلك الطريق الضّيّقة بينما كُنتُ أسير بصحبة "وانغ لي تشيانغ"، مرّ جدّي المثقَل بالمرض بجانبي، وفي مواجهة عينَيْه المفعَمَتَيْن بالقلق، قُلتُ له مَزهوّاً:

"ليس لديّ وقت، لأتحدّث إليكَ".

عندما رجعتُ وحيداً إلى الباب الجنوبي بعدها بخمسة أعوام، التقيتُ جدّي على هذه الطريق مرّة أخرى.

بعد فترة قصيرة من عودتي إلى البيت، انتقلتْ عائلة اسمها "سو" من المدينة، واستقرّت عند الباب الجنوبي. وفي صباح أحد الأيّام، قام ولدان من عائلة "سو" بنَقْل منضدة مستديرة من داخل البيت، ووضعاها أسفل إحدى الأشجار، ثمّ جلسا يتناولان الطعام.

كان هذا مشهداً شاهدتُهُ وأنا في الثانية عشر من عمري. ولدان من سكّان المدينة يلبسان قمصاناً وسراويل، اشترياها من المتجر، يجلسان هناك. وأنا أجلس وحيداً بجوار البركة، لا أرتدي سوى سروال من قُماش يدويّ، حيك يدوياً. ثمّ شاهدتُ أخي الأكبر ذا الرابعة عشرة مُمسِكاً بيد أخي الأصغر ذي التسعة أعوام، يسير متّجهاً صوب هذَيْن الوَلَدَيْن. كان أخواي يرتديان مثلي، عاريا الصَّدْرَيْن، وقد اسمرّت بشرتهما من أشعّة الشمس، وكأنهما سَمَكَتَا قُرْمُوْط.

قبل ذلك كُنتُ قد سمعتُ أخي يقف عند ساحة التجفيف يقول:

"هيّا بنا، لنرَ ماذا يأكل هؤلاء القادمون من المدينة".

من بين هؤلاء الأطفال الذين تمتلئ بهم ساحة التجفيف، لم يكن هناك مَنْ يرغب أن يسير برفقة أخي الأكبر تجاه هذَيْن الغريبَيْن سوى أخي الأصغر ذي الأعوام التسعة. بدا أخي الأكبر شجاعاً واثقاً، وهو ويخطو بخطواته الواسعة. أمّا أخي الأصغر، فكان يُسرِع الخطى مُحاوِلاً اللحاق به، بينما كانت سلّة قصّ العشب المعلّقة في ذراعَيْهما تتمايل بلا توقّف.

وضع الولدان القادمان من المدينة أوانيَ وعصي الأكل من أيديهما،

وشرعا يرقبان أخوَيّ بحَذَر. لم يكترثْ أخوَاي لهذه النظرات، بل سارا بجُرأة أكبر بجوار مائدتهما المستديرة، ثمّ استدارا من خلف الغرفة، وعادا ثانية. بالمقارنة مع أخي الأكبر، بدتْ خطوات ونظرات أخي الأصغر أقلّ جرأة.

بعد عودتهما إلى ساحة التجفيف، سمعتُ أخي الأكبر يقول:

"أبناء المدينة يأكلون الخضروات أيضاً، مثلنا تماماً".

"ليس هناك لحم"؟

"ليس هناك أيّ شيء".

حينها قال أخي الأصغر مُعلّقاً على كلامه:

"هم يأكلون المخلّلات مضافاً إليها بعض الزيت، أمّا نحن، فنأكلها دون زيت".

دفعه أخي الأكبر بيده مُعترِضاً، وهو يقول:

"أنتَ لا تفهم شيئاً، ما الداعي للاستغراب، بشأن الزيت؟ بيتنا أيضاً فيه زيت".

استمرّ الأخ الأصغر في اعتراضه قائلاً:

"هم يأكلون زيت السمسم، لا يوجد في بيتنا مثله".

"أنتَ جاهل حقّاً".

"لقد شَمَمْتُ رائحته".

رجعتُ وحيداً إلى الباب الجنوبي، وكأنني بدأتُ حياة التّبنّي من جديد

بعدما تُوفيّ "وانغ لي تشيانغ" وأنا في الثانية عشرة. غالباً ما كان يخالجني شعور غريب في تلك الأيّام، فقد كُنتُ أشعر أن وانغ لي تشيانغ ولي شيوي ينغ هما والداي الحقيقيان، أمّا عائلتي التي تقطن عند الباب الجنوبي، فمعاملتها لي ليست سوى نوع من الإحسان والصَّدَقَة. هذا النوع من البُعدْ والاغتراب كان سببه في البداية حريق هائل. فعندما قابلتُ جدّي مصادفة، ورجعتُ بصحبته إلى الباب الجنوبي، تصادف وجود حريق هائل فوق سقف بيت عائلتي.

هذه المصادفة جعلت والدي ينظر إليّ أنا وجَدّي نظرة مملوءة بالشّكّ والرِّيبة فيما بعد، وكأننا نحن مَنْ جلبْنا معنا هذه الكارثة. أحياناً كُنتُ أقف بجوار جدّي دون قَصْد، حينها كان والدي يصرخ بتعصُّب، وكأن سقف الغرفة الجديد الذي بناه لتوّه قد اشتعل مجدّداً.

تُوفيّ جدّي في العام التالي من عودتي إلى الباب الجنوبي. جعلتْ وفاته والدي يُقلع عن نظراته المملوءة بالشّكّ والرِّيبة التي يُصوِّبها تجاهي. إلا أن مكانتي في البيت لم تتحسّن. فقد كان أخي يكرهني، ربّما تأثّر في ذلك بوالدي. فكلّما اقتربتُ منه طلبَ منّي أن أغرب عن وجهه على الفور. وهكذا صرتُ بعيداً عن أشقّائي أكثر فأكثر بمرور الوقت، الأطفال في قريتنا كانوا دائماً ما يتبعون أخي الأكبر، ومن ثمّ، صرتُ بعيداً عنهم أيضاً.

كل ما في وسعي هو الحنين إلى حياتي السابقة في بيت "وانغ لي تشيانغ"، وكذا أصدقاء الطفولة في مدينة"سون تانغ". تذكّرتُ أحداثاً مُفرحة، لا حصر لها في الماضي، ولم أكنْ قادراً على نسيان بعض الأحداث المؤلِمة في الوقت نفسه. كُنتُ أجلس وحيداً بجانب البركة، أتذكّر المآسي السابقة. كانت ابتساماتي ودموعي في عزلتي سبباً في شعور أبناء القرية بالدَّهْشة. فقد صرتُ أشبه بمخلوق غريب في نَظَرهم بمرور الوقت. بل

حتّى إنني كُنتُ مثل أداة هجوم في أيديهم عندما كان أحدهم يتشاجر مع والدي، حيث كانوا يقولون إن طفلاً مثلي لا يُنجبه سوى شخص مقيت.

خلال الأيّام التي قضيتُها في الباب الجنوبي، كانت المرّة الوحيدة التي طلب فيها أخي الأكبر أن أسامحه هي عندما قام بضَرْبي على رأسي بالمِنْجَل حتّى سالتْ دمائي على وجهي.

حدث ذلك داخل حظيرة الأغنام في بيت العائلة. في بادئ الأمر، انهال أخي ضَرْباً على رأسي، ولم أُدرِكْ بعدها ماذا حدث، فقط شاهدتُهُ، وقد تبدَّل موقفه فجأة. ثمّ شعرتُ بالدماء تسيل بغزارة على وجهي.

وقف أخي الأكبر عند مدخل الحظيرة، بدا خائفاً مذعوراً، يطلب منّي أن أغسل الدماء التي سالتْ على وجهي. دفعتُهُ بيدي، ثمّ خرجتُ من الحظيرة مُتوجِّهاً نحو أبي عند الطريق الترابية في مدخل القرية.

حينها كان الفلاحون يَسْبَخُون حقولهم، هبّتْ رياح خفيفة، فَشَمَمْتُ رائحة سِبَاخٍ خفيفة. عندما اقتربتُ من الحقل، سمعتُ بعض النسوة يصرخنَ مُندهِشات، ثمّ رأيتُ والدتي تجري نحوي، كانت الرؤية مُشوَّشة، وقفتْ أمّي أمامي، وسألتْني سؤالاً ما، لم أُجبْها، ثمّ واصلتُ سيري متّجهاً نحو والدي.

وشاهدتُهُ مُمسِكاً بعصا التسبيخ الطويلة، كان قد رفعها لتوِّه من وسط السِّبَاخ، ثمّ أوقفَها في الهواء، ينظر إلى مُتّجهاً نحوه.

سمعتُ نفسي أقول له: "أخي الأكبر هو مَنْ ضربني".

رمى والدي عصا التسبيخ من يده، ثمّ قفز عابراً الطريق الترابية مُسرِعاً الخطى نحو البيت.

بالطبع، لم أكن أعرف أنه بعد مغادرتي قد قام أخي الأكبر بجَرْح أخي الأصغر في وجهه بالمِنْجَل عَنْوَة. وعندما هَمَّ الأخ الأصغر بالبكاء، شرع الأخ الأكبر يُفسّر له سبب فعلته، ويطلب منه أن يُسامحَه. قيام أخي الأكبر بطَلَب السماح منّي لم يُجدِ نفعاً، ولكن الأمور لم تكنْ كذلك بالنسبة إلى أخي الأصغر.

فعندما رجعتُ إلى البيت، لم أشاهدْ أخي الأكبر وهو يُعاقَب على فعلته، بل شاهدتُ والدي مُمسِكاً بعصاه، ينتظرني أسفل شجرة الدَّرْدَار.

فبسبب التّهمة الكاذبة التي لفّقَها لي أخي الأصغر، تبدّلتِ الحقيقة، وصرتُ أنا هو مَنْ شرع في ضَرْب الأخ الأصغر بالمِنْجَل، ومن ثمّ، قام أخي الأكبر بضَرْبي عقاباً لي.

قام والدي برَبْطي فوق الشجرة، ثمّ أوسعَني ضَرْباً، كان الضَّرْب قاسياً، حيث إنني لم أنسَهُ طيلة عمري. وبينما كُنتُ أتعرّض للضَّرْب، كان أطفال القرية يقفون حولي يتفرّجون بسعادة، وشقيقاي مُنْتَشِيَيْن، يمنعان الناس من التّدخّل.

بعدها، كتبتُ في آخر صفحة من كرّاسة واجب اللغة كلمَتَي كبير وصغير. بعد ذلك كُنتُ أُدوّن عدد المرّات في كل مرّة أتعرّض للضَّرْب من قِبَل أبي وأخي الأكبر.

ظَلَلْتُ مُحتفِظاً بتلك الكرّاسة لعدّة سنوات، إلا أن رائحة العَفَن التي فاحتْ منها، جعلتْني غير قادر على الشعور، بوضوح، بذلك الإحساس حين قطعتُ على نفسي عهداً بالانتقام في البداية، وحلّ محلّه شعور طفيف بالدَّهْشة. ظهور هذا الشعور قد جَعَلَني أتذكّر شجرة الصَّفْصَاف في قرية الباب الجنوبي. ففي صبيحة أحد الأيّام في بداية الربيع، أُصبتُ

بالدَّهْشة حين اكتشفتُ فجأة أن أحد أفرع الأشجار الجافّة قد امتلأ بالبراعم الخضراء. هذا، بلا شكّ، مشهدٌ بديعٌ، ولكنْ، في كل مرّة كُنتُ أتذكّر هذا المشهد لسنوات عديدة تَلَتْ. ظلّ هذا المشهد مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بما كانت تُوحيه كرّاسة الواجب من إهانة قديمة. ربّما كانت ذكريات، وبعدما تجاوزتُها، جاءت الوحدة.

في الوقت الذي كانت فيه أحوالي داخل البيت تمضي من سيِّئ إلى أسوأ، وقع حادث آخر. هذا الحادث جَعَلَني فاقداً للقدرة على إزالة حاجز العزلة بيني وبين عائلتي إلى الأبد، جعل منّي شخصاً سيِّئ السُّمعة، ليس داخل العائلة فحسب، بل داخل القرية كلها.

تقع أرض عائلة "وانغ" بمحاذة أرض عائلتي. الأخوان "وانغ" هما الأقوى بنية في القرية، حينها كان الابن الأكبر لعائلة "وانغ" قد تزوّج، وكان ابنه الأكبر في عمر أخي الأصغر نفسه. الشِّجار بسبب الأرض يُعدّ أمراً معتاداً في قرية الباب الجنوبي، حتّى إنني لم أعد أتذكّر ما هو السبب تحديداً وراء ذلك الشِّجار، كّل ما أتذكره هو تلك اللحظات قرب الغروب، حيث كُنتُ جالساً قرب البركة، أنظر إلى والدَيّ وإخوتي يقفون هناك، يتشاجرون مع ستّة أفراد من عائلة "وانغ" دون توقّف. بدا واضحاً أن عائلتي أضعف من حيث القُوّة، بل حتّى إن صوتهم لم يكن ليغلب على صوت عائلة "وانغ"، خصوصاً أخي الأصغر، فلم تكن كلمات السّباب التي يتفوّه بها واضحة مقارنة مع قرينه من عائلة "وانغ". كان معظم أبناء القرية يقفون هناك، انبرى منهم عدّة أشخاص لتهدئة الشِّجار، ولكن الطَّرَفَيْن دفعوهما بعيداً. بعدها شاهدتُ والدي يُلوِّح بقبضته فجأة مُهاجِماً خصومه، إلا أن "وانغ ياو جين" الابن الأصغر لعائلة "وانغ" أمسكَهُ من معصم يده، ثمّ قام بِلَكْم والدي، فَأَسقَطَهُ داخل حقل الأرز. نهض والدي مبتلاً وهو يسبّ ويلعن،

ثمّ رَكَلَهُ "وانغ ياو جين" بقَدَمه رَكْلة، أَسْقَطَتْهُ ثانية. حاول والدي أن ينهض مرّات عديدة، إلا أنه كان يُقابَل بالرَّكْل في كل مرّة. شاهدتُ والدتي تصرخ مندفعة نحو "وانغ ياو جين"، دَفَعَهَا بيده، فأسقطها هي الأخرى داخل حقل الأرز. بدا والداي مثل دجاجَتَيْن سَقَطَتَا في الماء، يُصارع في يأس. كان منظرهما معاً منغمسان في الخيبة قد جَعَلَني حزيناً مُطأطأ الرأس.

بعد ذلك، دخل أخي الأكبر حاملاً سكّيناً، تبعه أخي الأصغر حاملاً المِنْجَل، ثمّ هاجم أخي الأكبر "وانغ ياو جين" بالسّكّين من الخلف.

بعد ذلك، تبدّلت الأمور بسرعة، فأبناء عائلة "وانغ" الذين كانوا يستعرضون قُوّتهم قبل قليل، قد فرّوا مذعورين إلى بيوتهم تحت وطأة الهجوم بالسّكّين الذي شنّه أخي الأكبر. تبعهم أخي الأكبر حتّى بيوتهم، ثمّ قام الأخوان "وانغ" بحَمْل حرابهما، وصوّباها نحو أخي الأكبر، لوّح أخي الأكبر بالسّكّين، ثمّ انقضّ عليهم ثانية. عندما شاهداه الأخوان وانغ بتلك الحالة، وكأنه لا يهاب الموت فرّا من أمامه مرّة أخرى.

أمّا أخي الأصغر، فقد استلهم الشجاعة من أخي الأكبر، وظلّ يُلوّح بمِنْجَله وهو يصيح، فبدا وكأنه في غاية الشجاعة. ولكنه كان يجري بخطى مهلهلة، حتّى إنه تعثّر وسقط عدّة مرّات.

ولأنني كُنتُ أجلس هناك عند البركة أشاهد ما يجري طيلة الوقت، فكل مَنْ في القرية سواء كان من المساندين لوالدي أم من المعارضين له، بل حتّى أبناء عائلة "وانغ" أنفسهم، جميعهم كانوا يعتقدون أنه لا يوجد في هذا العالم مَنْ هو أسوأ منّي.

من السهل تخيُّل وضعي داخل البيت حينها، أمّا أخي الأكبر، فقد صار بطلاً يُشار إليه بالبَنَان.

لفترة من الوقت، سواء كُنتُ أجلس بجوار البركة أقوم أقطع الحشائش، كُنتُ أحبّ مراقبة عائلة "سو" سرّاً. فهذان الطفلان القادمان من المدينة قليلاً ما يخرجان من البيت. أبعد مكان ذهبا إليه هو بركة السِّبَاخ عند مدخل القرية، إلا أنهما سرعان ما عادا إلى البيت. في صباح أحد الأيّام، شاهدتُهُما يخرجان من باب المنزل، ثمّ وَقَفَا بين الشَّجَرَتَيْنْ الواقعَتَيْنْ أمام الباب، ويشيران بأيديهما إلى شيء ما. سارا نحو إحدى الشَّجَرَتَيْنْ، جلس الأخ الأكبر في وضع القُرْفُصَاء، ثمّ قفز الأخ الأصغر على ظهره. حمله الأخ الأكبر حتّى وصل إلى الشجرة الثانية، ثمّ قام الأخ الأصغر بحَمْل الأخ الأكبر إلى الشجرة الأولى بالطريقة نفسها، واستمرّا يُكرّران اللعبة نفسها، وفي كل مرّة، كان أحدهما يقفز على ظهر الآخر، كُنتُ أسمع أصوات ضحكات أشعر معها بالسعادة، وكانت ضحكاتهما متشابهة للغاية.

بعد ذلك، جاء ثلاثة بنّائين من المدينة، ومعهم حمولتان من الطُّوْب الأحمر. قاما ببناء سور أمام بيت عائلة "سو"، وقد أحاط السور بهاتَيْنْ الشَّجَرَتَيْنْ أيضاً. لم أشاهد الأخوان "سو" وهما يلعبان هذه اللعبة التي أثّرتْ فيّ، إلا أنني دائماً ما كُنتُ أسمع أصوات ضحكاتهما تتعالى من داخل السور، فأعرف أنهما لا يزالان يلعبان لعبتهما.

والدهما طبيب يعمل في مستشفى المدينة، دائماً ما كُنتُ أراه ببشرته البيضاء النظيفة والصوت العذب الدافئ يسير مُتمهّلاً على الطريق الترابية بعد انتهاء عمله. لمرّة واحدة فقط شاهدتُهُ يمتطي درّاجة خاصّة بالمستشفى، يسير بها على هذه الطريق. حينها كُنتُ أحمل سلّة مملوءة عن آخرها بالحشائش الخضراء عائداً إلى البيت، نبَّهَني صوت جَرَس الدّرّاجة القادم من الخلف، ثمّ سمعتُ هذا الطبيب ينادي على طفلَيْه بصوت عالٍ.

طار الأخوان "سو" فرحاً فور مشاهدتهما هذا المنظر بعد خروجهما من المنزل، هُرعا فرحَيْن نحو الدّرّاجة، وكانت والدتهما تقف أمام السور، تشاهد عائلتها مبتسمة.

حمل الطبيب طفلَيْه معه على الدّرّاجة، ثمّ سارا على الطريق الصغيرة بين الحقول. تعالت أصوات ضحكات هذَيْن الطفلَيْن القادمَيْن من المدينة، بينما لم ينفكّ الأخ الأصغر الجالس في المقدّمة عن طَرْق جَرَس الدّرّاجة. وقد أصاب هذا المشهد أبناء القرية جميعهم بالغَيْرة والغِبطَة.

كانت أولى محاولاتي لفَهْم مغزى كلمة العائلة هي عندما كُنتُ في السادسة عشر أدرس في الصّف الأوّل الثانوي. أصابتْني الحَيْرَة والتّردّد طويلاً بين عائلتي التي تقطن في قرية الباب الجنوبي وعائلة "وانغ لي تشيانغ" التي كانت تقطن في مدينة"سون تانغ"، وفي النهاية، كانت النتيجة التي توصّلتُ إليها هي ذكرياتي حول هذا المشهد.

كانت أوّل مرّة أتواصل فيها مع هذا الطبيب قد وقعت قبل ذلك اليوم.

كان ذلك بعدما عدتُ إلى منطقة الباب الجنوبي بعدّة شهور، لم يكن جدّي قد تُوفيّ، وكان قد ذهب إلى بيت عمّي بعدما مَكَثَ في بيتنا لمدّة شهر كامل. في تلك الفترة، كُنتُ قد أُصبتُ بالحمّى ليومَيْن مُتتاليَيْن، أرقد على فراشي، جافّ الحَلْق، والدُّوار يلتفّ رأسي. في تلك الأثناء، كانت نعجتُنا على وشك الولادة، وجميع مَنْ في البيت مجتمعون في الحظيرة، وأنا أرقد وحيداً في الفراش، أستمع إلى حديثهم المُشوّش، بينما كان صوت أخي الأصغر يلمع وسط أصواتهم على فترات.

بعد ذلك، جاءت والدتي بالقُرب من فراشي، ثمّ قالتْ عبارة ما، وخرجتْ. عادتْ بعدها بصحبة شخص آخر، عرفتُ أنه الطبيب "سو"، الذي وضع راحة يده على جبيني، ثمّ سمعتُه يقول:

"درجة حرارته ٣٩".

بعدما خرجا من غرفتي، سمعتُ أصواتاً صاخبة قادمة من الحظيرة. عندما وضع الطبيب راحة يده على جبيني برفق، كان كل ما شعرتُ به هو لمسة مُؤثِّرة من الحنان. بعدها بقليل سمعتُ صوت الأخوَيْن "سو" يتحدّثان في الخارج، بعدها عرفتُ أنهما قد جَلَبَا لي الدواء.

بعد أن تحسّنتْ حالتي، أخذتْ مشاعر تواكُل الطفل على الكبار المدفونة في داخلي تضطرب. فقبل أن أغادرَ قرية الباب الجنوبي عندما كُنتُ في السادسة، كانت علاقتي بوالدَيّ قريبة جدّاً، وبعدما عشتُ في مدينة"سون تانغ" لخمس سنوات تلَتْ، مَنَحَني فيها "وانغ لي تشيانغ" وزوجته "لي شيو ينغ" الحُبّ والرعاية. إلا أنني صرتُ مُهمَلاً، لا سند لي بعدما عدتُ إلى قريتي .

في البداية، كُنتُ عادة ما أنتظر عند الطريق في أثناء عودة الطبيب إلى منزله بعد انتهاء عمله، وعندما أراه قادماً من بعيد، كُنتُ أتخيّله قادماً نحوي، يُحدِّثني بلغته الدافئة، وأتطلّع أن يتحسّس جبيني براحة يده العريضة مرّة أخرى.

بالطبع، ذلك الطبيب لم يلحظْ وجودي أبداً، والآن أعتقد الآن لم يلحظْ حتّى مَنْ أنا، ولماذا أقف هناك دوماً. فقد كان يمرّ بجانبي في عُجالَة، وأحياناً يَرْمُقُني بنظرة عابرة، إلا أنها كانت نظرة شخص غريب، ينظر إلى شخص غريب آخر.

بعد فترة قصيرة، انخرط ابنا الطبيب "سو يوي"، و"سو هانغ" وسط أبناء القرية. ذات مرّة بينما كان أخي يقصّ الحشائش، شاهدتُهما يمشيان مُتردِّدَيْن، يُحدِّثان بعضهما، وكأنهما يتشاوران في أمر ما. كان أخي الأكبر

يعتقد حينها أنه الأخ الأكبر المسيطر على كل شيء، لوّح لهما بمِنْجَله قائلاً:

"هل ترغبان في قَصّ الحشائش؟"

لم يتحدّث "سو يوي" إليّ سوى مرّة واحدة فقط خلال الفترة القصيرة التي عاشتْها عائلته في منطقة الباب الجنوبي. حتّى الآن لا زلتُ أتذكّر نظراته الخجولة حينها، كانت ابتسامته مُغلّفة بالحَذَر، وهو يسألني:

"هل أنتَ أخو "سون قوانغ بينغ" الأصغر؟"

لم تمكثْ عائلة "سو" في قرية الباب الجنوبي سوى عام واحد، أتذكّر ظهيرة ذلك اليوم حين غادروا المكان، فقد كان الجوّ غائماً. الطبيب يجرّ آخر عربة مُحمَّلة بالأثاث، وأبناؤه يدفعون من الخلف، ووالدتهما تسير خلفهم، تحمل سَلَّتَيْن مملوءَتَيْن بالنثريات الصغيرة.

تُوفيّ "سو يوي" في التاسعة عشر من عمره إثر إصابته بانفجار في الأوعية الدموية الدماغية. عرفتُ بأمر وفاته ظهيرة اليوم التالي. كُنتُ عائداً من المدرسة إلى البيت، وعندما مَرَرْتُ بالبيت القديم الذي كانت تسكن فيه عائلة "سو" لم أتمالك نفسي من البكاء.

أتذكّر أنه بعدما التحق أخي الأكبر بالمرحلة الثانوية، طرأتْ عليه تغيّرات جلية. وأنا الآن أفتقد بشدّة ذلك الأخ الذي كان في الرابعة عشرة. فبالرغم من أنه كان حينها متغطرساً، إلا أن هالة الغرور والفخر المحيطة به كانت لا تُنسى. كان أخي يجلس على الطريق الترابية الصغيرة، يُوجّه الأخوَيْن "سو" لقَصّ الحشائش، وكان هذا المشهد يُعبّر عن شخصيته لفترة طويلة من الوقت، بالنسبة إليّ.

بدأ أخي الأكبر في الاختلاط بأبناء المدينة بعدما التحق بالمرحلة

الثانوية بفترة قصيرة، وترامن، مع ذلك، فتور علاقته بأبناء القرية بمرور الوقت. ومع استمرار زيارات زملائه من أبناء المدينة إلى بيتنا، كان والداي يشعران بالفخر، بل حتّى إنهما قَطَعَا علاقتهما ببعض كبار السّنّ في القرية، معتقدين أن أَنْجَبَ طفلٍ في القرية هو أخي الأكبر.

خلال تلك الفترة، عادة ما كان هناك شابّان يأتيان إلى قريتنا فجراً، ثمّ يصيحان بأعلى صوتَيْهما. كانت صيحاتهما متقطّعة ومُتفاوتة، وخاصّة عندما يُبحّ صوتاهما، كان صوتاهما شاذَّيْن ومُنفِّرَيْن، حتّى إن أبناء القرية ظنّوا في البداية أنها أصوات عفاريت.

هذا الحَدَث قد ترك انطباعاً عميقاً عند أخي الأكبر، حتّى إنه قال مرّة متحسّراً:

مكتبة

"في الوقت الذي نريد فيه أن نصبح من أبناء المدينة، يريدون هم أن يصبحوا مغنّيّيْن".

بدا واضحاً أن أخي الأكبر كان الأوّل من بين أبناء القرية الذي تلقّى مثل هذا التنبيه للقبول بالأمر الواقع، حيث بدأ يشعر أنه لن يكون مثل أبناء المدينة طيلة حياته، كانت هذه هي مشاعره الأوّليّة تجاه شعوره الداخلي بالنَّقْص. ولكي أكون مُنصِفاً، أريد أن أقول إنّ مصادقة أخي لزملائه من أبناء المدينة كانت بمثابة امتداد لزَهْوه بنفسه. وإن قدوم زملائه لقريتنا قد رَفَعَ من منزلته داخلها، بلا شكّ.

كان الحُبّ الأوّل لأخي الأكبر عندما دخل السنة الثانية من المرحلة الثانوية. وَقَعَ في غرام زميلة مملوءة الجسم، ابنة لنجّار في المدينة. رأيتُ أخي يقف برفقتها في إحدى زوايا المدرسة عدّة مرّات، ثمّ يُخرِج من حقيبته كيساً من البذور، ويعطيه لها.

كانت دائماً ما تأتي إلى ساحة الرياضة، تأكل البذور التي تزرعها عائلتي، كان سلوكها العابث وهي تبصق القشر، كما لو أنها أمّ لكومة من البنين والبنات. شاهدتُها ذات مرّة بعد البصق، واللعاب يملأ زوايا فمها.

في تلك الأثناء، كان أخي الأكبر وزملاؤه قد بدؤوا يتحدّثون عن الفتيات. كُنتُ أجلس عند البركة خلف المنزل، أستمع إلى أحاديث، لم أسمع عنها من قبل. كان الحديث عن نهود الفتيات وسيقانهنّ وما إلى ذلك من الحديث المتعلّق بالعري يتصاعد من النافذة الخلفية، وكان قلبي يخفق بشدّة، وأنا أستمع إلى هذه الأحاديث. بعد ذلك، كانوا يتحدّثون عن أنفسهم، أخي الأكبر كان مُتحفّظاً في البداية، إلا أنه بتحريض من زملائه أخذ يتحدّث إليهم عن علاقته بتلك الفتاة.

بعدها بفترة قصيرة، كانت تلك الفتاة تقف في منتصف الساحة الرياضية، وبجوارها عدّة زميلات مستهترات مثلها، وتنادي على أخي الأكبر بصوت عالٍ، تطلب منه أن يأتي إليها.

شاهدتُ أخي الأكبر يسير نحوها قَلِقاً مُرتبِكاً، ربّما أنه قد تنبّأ ما الذي سيحدث. كانت هذه المرّة الأولى التي أراه فيها خائفاً.

سألتْهُ: "أنتَ تقول إنيّ أحبّكَ"؟

اكتسى وجهه بالخجل. حينها كُنتُ قد غادرتُ، ولم أشاهد أخي الأكبر الذي كان دائم الثقة والاعتداد بنفسه، وهو لا يعرف ماذا يفعل من شدّة الحَرَج.

ثمّ ألقت المتبقّي في يدها من البذور في وجهه وسط سخرية وضحكات زميلاتها.

وعندما عاد أخي إلى البيت متأخّراً بعد انتهاء دراسته، لم يتناول طعامه، لكنه استلقى على السرير. كُنتُ أسمع حركات تقلُّبه طيلة الليل. وفي اليوم التالي، استجمع شجاعته، وانطلق ذاهباً للدراسة.

كان يعلم أن زملاءه من أبناء المدينة هم مَنْ وشوا به، ولكنه لم يُبدِ أيَّ نوع من الغضب، بل حتّى إنه لم يُلقِ عليهم باللّوم. ظلّتْ علاقته بهم كما هي، أعرف جيّداً أنه يفعل ذلك، لأنه لا يريد أن يكتشف أبناء القرية أن زملاءه من أبناء المدينة قد انقطعوا عن زيارته فجأة. إلا أن جهود أخي قد باءت بالفشل في النهاية. فقد بدأ الجميع بالالتحاق بالعمل تدريجياً بعد تخرّجهم في المدرسة، ولم يعد لديهم فراغ كاف، ولذلك فقد حان الوقت أن يتخلّوا عنه.

في الوقت الذي لم يعد فيه زملاء أخي من أبناء المدينة، يأتون لزيارة بيتنا، جاء "سو يوي" لزيارتنا فجأة في مساء أحد الأيّام. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يأتي فيها إلى قرية الباب الجنوبي منذ غادر مع أسرته. كان أخي الأكبر يعمل في الأرض حينها. وعندما شاهدتْ أمّي التي كانت تطهو الطعام "سو يوي" قادماً، ظنّتْ أنه قد جاء لمقابلة أخي الأكبر. بعدها بعدّة سنوات، كُنتُ أتنهّد بكل حسرة عندما تذكّرتُ مشهد أمّي وهي تقف عند مدخل القرية، تنادي على أخي الأكبر، بكل حماس.

جاء أخي راكضاً من الحقل حتّى البيت، وكانت أوّل عبارة قالها له سو يوي هي:

"أين سون قوانغ لين"؟

حينها بدا على والدتي بعض الذهول، حيث علمت أنه قد جاء لزيارتي، أمّا أخي الأكبر، فقد بدا بارداً، ثمّ قال له بنوع من اللامبالاة:

"إنه هناك يعمل في الحقل".

لم يفطن "سو يوي" حينها أن عليه أن يتحدّث إليهم، ولو بضع كلمات، فقد غادرهم متّجهاً نحو الحقل دون استئذان.

كان "سو يوي" قد جاء ليُخبرني أنه قد حصل على عمل، فهو الآن يعمل في مصنع الأسمدة. جلسْنا طويلاً في الحقل، ووسط مداعبة نسمات الليل، نظرْنا معاً إلى ذلك المنزل التي كانت تقطن فيه عائلة سو في الماضي. حينها سألَني سو يوي:

"مَنْ يقطن هناك الآن"؟

هززتُ رأسي قائلاً: "هناك فتاة صغيرة غالباً ما تدخل هناك، كما أنني غالباً ما أرى والدَيْها، ولكني لا أعرف مَنْ هم".

غادر "سو يوي" في ظلمة الليل، شاهدتُهُ يختفي وسط الظلام في طريقه عائداً إلى المدينة. ولم يمرّ عام بعدها حتّى تُوفيّ.

عندما تخرّجتُ في المرحلة الثانوية، تمّ تطبيق امتحان القبول بالجامعات مرّة أخرى. وبعدما التحقتُ بالجامعة، لم أتمكّن أن أُخبر "سو يوي" بهذا الخبر، مثلما جاء هو وأخبرني بخبر التحاقه بالعمل. كُنتُ قد شاهدتُ شقيقه "سو هانغ" ذات مرّة في أحد شوارع المدينة، كان يركب درّاجته بصحبة بعض أصدقائه، حيث مرّوا فَرِحين بجواري في عُجالَة.

لم أكن قد أخبرتُ أحداً من أهلي بخَوْضي امتحان القبول بالجامعة، حتّى إنني اقترضتُ مصاريف تسجيل الامتحان من زميل لي. بعدها بشهر، تمكّنتُ من الحصول على هذا المبلغ، وعندما ذهبتُ لأعيدَه إليه، قال لي:

"لقد دفعه أخوك الأكبر بدلاً منكَ".

أصابَني هذا الأمر بالذهول. وبعدما استلمتُ خطاب القبول بالجامعة، قام أخي الأكبر بتوفير احتياجاتي كافّة. في تلك الأثناء، كان والدي قد دخل في علاقة مع جارتنا الأرملة، وكان عادة ما يتسلّل ليلاً، ويذهب لبيت هذه الأرملة، يشاركها الفراش، ثمّ يعود بعدها إلى البيت، يشارك أمّي الفراش. لم يعد مهتمّاً بأمور العائلة. فعندما أخبره أخي الأكبر بشأن التحاقي بالجامعة، صرخ فيه والدي دون اكتراث قائلاً:

"وماذا إذنْ؟ إلى متى سيستمرّ هذا الصبي في الدراسة؟ لقد تساهلْنا معه كثيراً".

ولكنْ، عندما فهم والدي أنني سأغادر هذا البيت إلى الأبد، كاد أن يطير فرحاً.

كانت أمّي أكثر عقلانية من أبي، فقبل أن أغادر إلى المدينة، كانت تنظر بقلق إلى أخي الأكبر، لأنها كانت تتمنّى أن يلتحق هو بالجامعة، وليس أنا. فهي تعلم أن مَنْ يتخرّج في الجامعة، سيتمكّن أن يصبح من سكّان المدينة.

أخي الأكبر هو فقط مَنْ قام بوداعي وقت المغادرة. كان يحمل بطانيّتي، ويسير أمامي، بينما كُنتُ أسير خلفه حاملاً بعض الأمتعة. لم ينبس أحد منّا ببنت شفة طَوَالَ الطريق. كانت أفعال أخي في تلك الفترة قد حرّكتْ مشاعري، فقد كُنتُ أتحيّن الفرصة، لأعبِّر له عن امتناني، إلا أن الصمت المُطبِق المحيط بيننا جَعَلَني غير قادر على الحديث. وبينما كانت السّيّارة على وشك الانطلاق، قُلتُ له فجأة:

"أنا مَدين لكَ بمبلغ يوان واحد".

نظر إلى أخي الأكبر نظرة مفعمة بالحَيْرَة.

ذكّرتُهُ قائلاً: "مصاريف تسجيل الامتحان".

فهم أخي الأكبر ما أقصده، شاهدتُهُ حينها وعيناه مُغلّفتان بنظرة من الحزن.

استطردتُ قائلاً: "سوف أردّها لكَ يوماً ما".

بعدما انطلقت السّيّارة، مَدَدْتُ رأسي من النافذة أتطلّع إليه. كان يقف أسفل شجرة خارج موقف السّيّارات ينظر إلى السّيّارة التي أستقلّها في ذهول.

بعدها بفترة قصيرة، استولت الدولة على أراضي القرية، لإنشاء مصنع للغزل والنسيج، فصار أبناؤها جميعهم من ساكني المدينة بين عشيّة وضُحاها. وبالرغم من أنني كُنتُ بعيداً، أدرس في العاصمة بكين، إلا أنه كان بإمكاني تخيّل مدى الفرحة والبهجة التي كانوا يعيشونها. فبالرغم من أن بعضهم كان يبكي لمغادرة بيته، إلا أنها بالتأكيد كانت دموعاً مختلطة بالفرح. كان العجوز "لوه" أمين المخازن يجول في الأنحاء مُحدِّثاً الآخرين بالحقيقة التي اقتنع بها دوماً، وهو يقول:

"مهما كان المصنع جيّداً، فسوف يُفلِس يوماً ما، أمّا الحقول والمزارع، فلن تُفلِس أبداً".

إلا أنني قابلتُ هذا العجوز "لوه" مرتدياً معطفاً قذراً في أحد أزقّة المدينة بعدما رجعتُ إلى بيتي بعد عدّة سنوات، حيث قال لي بغِبْطَة:

"أنا الآن أتقاضى أجر التقاعد".

بعدما صرتُ بعيداً عن قرية الباب الجنوبي، لم يكن الحنين يحدوني تجاه هذا المكان الذي هو مسقط رأسي. فقد كُنتُ متمسِّكاً بوجهة نَظَري لفترة طويلة. وهي أنّ تذكّر الماضي أو الحنين إلى الموطن ليس سوى تظاهر بالهدوء والقناعة بعد فقدان القدرة على مواجهة الواقع، فحتّى لو طرأ علينا نوع من المشاعر والحنين، فهو ليس سوى مظهر خارجي. ذات مرّة سألتْني إحدى الفتيات بلُغة أنيقة عن أحوال طفولتي ومسقط رأسي، حينها أجبتُها غاضباً:

"لمَ تطلبين منّي أن أرضى بواقع قد هربتُ منه"؟

لو كان هناك مكان يستحقّ الحنين إليه في قرية الباب الجنوبي، فهو بالطبع تلك البركة. فعندما علمتُ أن الدولة قد نزعتْ ملكية الأراضي هناك كانت ردّة فعلي الأوّل هي القلق على مصيرها. اعتقدتُ أن الناس قد دفنوا ذلك المكان الذي منحني الدفء، تماماً كما قاموا بدَفْن "سو يوي" بعد وفاته.

رجعتُ إلى قريتي بعدها بأكثر من عشر سنوات، حيث جئتُ وحيداً في إحدى الليالي. صارت هي الباب الجنوبي للمصنع، فلم أعد أستطيع شَمّ رائحة السِّبَاخ الخفيفة التي كانت تهبّ بمصاحبة نسيم الليل، ولم أعد أسمع صوت حفيف المزروعات وهي تهتزّ. وبالرغم من أن كل شيء قد تغيّر تماماً، إلا أنني أستطيع أن أحدّد بدقّة موقع بيتنا القديم، وكذا موقع البركة. فعندما مررتُ من هناك، خفق قلبي بشدّة، ضوء القمر جَعَلَني أرى البركة التي كانت لا تزال موجودة. وظهورها أمامي جَعَلَني

في مواجهة هجوم نوع آخر من المشاعر. تلك البركة عاشت في ذاكرتي تمنحني الدفء، وظهورها أمامي حقيقة هذه المرّة أيقظ بداخلي الواقع القديم. عندما شاهدتُ تلك القاذورات التي تطفو على سطحها، عرفتُ أن وجودها هنا ليس من أجل مواساتي، بعبارة أدقّ، هي رمز للماضي، لم تظلّ باقية في ذاكرتي فحسب، بل ظلّتْ صامدة هناك على أرض قرية الباب الجنوبي، حتّى تعطيني ذكرى أبدية.

الزواج

خلال تلك السنوات التي كُنتُ أجلس فيها على حافّة البركة، كان تجوُّل الفتاة "فنغ يوي تشينغ" في أنحاء القرية مُفعَمَة بالشباب والحيوية، قد مَنَحَني أُمنيّات وتطلّعات، لم تنقطع. كانت عادة ما كانت تسير حاملة في يدها دلواً خشبياً، وكانت تبدو حَذِرَة للغاية عندما تصل إلى البئر. حَذَرها الشديد قد سبّب لي نوعاً من القلق، كُنتُ قَلِقَاً أن تنزلق، بسبب الطحالب الموجودة على حوافّ البئر. وعندما كان تحني جسدها لتضع الدلو داخل البئر، تسقط أمامها ضفيرتها المتدلّية خلف ظهرها، فتتدلىّ أمام صدرها، يا له من منظر، يسلب العقل!

في صيف أحد الأعوام، آخر عام قضتْه "فنغ يوي تشينغ" في القرية. شاهدتُها قادمة وقت الظهيرة، ثمّ انتابَني شعور مختلف عن ذي قبل. كانت ترتدي بلوزة مُلوّنة، شاهدتُ صدرها يهتزّ أسفل ملابسها، هذا المنظر قد جَعَلَني أشعر بتنمّل في فروة رأسي. بعدها بعدّة أيّام، مررتُ ببيتها بينما كُنتُ في طريقي إلى المدرسة، كانت تقف أمام مدخل البيت، تُمشّط شَعْرها الذي زادتْهُ أشعّة الشمس لمعاناً، تميل برقبتها إلى اليسار قليلاً، أشعّة الشمس تنحدر على رقبتها، وتنعكس على تفاصيل جسدها الجميل، ذراعاها المرفوعان للأعلى جعلاني أرى إبطها بوضوح. جَعَلَني تشابُك هذَيْن المشهدَيْن أشعر أن عينَيّ قد فَقَدَتَا الجرأة على النَّظَر إليها

في كل مرّة، كُنتُ أراها فيها بعد ذلك. فمشاعري تجاهها لم تعدْ بريئة كما كانت، فقد صارت مختلطة بالرغبة الجسدية.

ما أدهشني هو فِعْلَة قام بها أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" في إحدى الليالي بعدها بفترة قصيرة. فمن الواضح أن ذلك الصبيّ ذا الخمسة عشر عاماً كان قد اكتشف من قبلي تلك الإغراءات التي تشعّ من جسد "فنغ يوي تشينغ". ففي تلك الليلة المُقْمِرَة، صادَفَها في طريقه عندما كان عائداً إلى البيت بعدما انتهى من ملء دلوه من البئر. في تلك اللحظة التي مرّا فيها بجوار بعضهما مَدّ "سون قوانغ بينغ" يده فجأة، وتحسّس صدرها، ثمّ سحبها بسرعة. أسرع من خطواته عائداً إلى البيت، بينما وقفتْ فنغ يوي تشينغ مذهولة ممّا حدث، ظلّتْ واقفة هناك، ولم تفقْ من ذهولها إلا عندما رأتني أقف هناك، ثمّ استمرّت في طريقها لملء دلوها من البئر. لاحظتُ أنها لم تتوقّف عن رَمْي ضفيرتها التي كانت تقع أمام صدرها إلى الخلف، بينما كانت تملأ دلوها من البئر.

توقّعتُ أن تأتي إلى بيتنا، لتشكوَ أخي الأكبر في الأيّام التي تَلَتْ تلك هذه الواقعة، أو على الأقلّ، يأتي والداها. في تلك الأيّام، ظلّ"سونغ قوانغ بينغ" قَلِقاً مُضطرِباً دائم الالتفات بعينَيْه هنا وهناك، إلا أن ما كان يخشاه لم يحدث، ومن ثمّ، أخذ يستعيد طبيعته السابقة. ذات مرّة، شاهدتُ "سون قوانغ بينغ" يسير في الشارع بمواجهة "فنغ يوي تشينغ"، أظهر أخي على وجهه ابتسامة تزلّف، بينما سارت هي بجواره مسرعة، ووجهها ممتقع من الغضب.

أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" كان قد لاحظ هو الآخر إغراءات جسد "فنغ يوي تشينغ" ومفاتنها. ذلك الطفل ذو الأعوام العشرة الذي لا يعرف شيئاً عن الرغبة الجنسية كان قد صاح بجوارها مرّة قائلاً:

"يا له من صدر كبير!".

كان المتّسخ يجلس على الأرض يلهو بقِطَع من كسر الطُّوْب. ولعاب فمه يسيل كالأبله، وهو كان يبتسم لها ابتسامة بلهاء.

احمرّ وجه "فنغ يوي تشينغ"، ثمّ خَفَضَتْ رأسها، وسارتْ عائدة إلى بيتها. كان فمها مائلاً، فظهر عليها أنها تحاول كَتْمَ ضحكتها.

حدث ذلك في خريف أحد الأعوام، حيث طرأ على حياة "فنغ يوي تشينغ" تغيّر جَذْري. لا زلتُ أتذكّر ذلك الحَدَث جيّداً. ففي ذلك اليوم، كُنتُ عائداً في طريقي من المدرسة إلى البيت وقت الظهيرة، وعندما كُنتُ أعبر الجسر الخشبيّ، شاهدتُها وكأنها شخص مختلف تماماً عمّا كانت عليه من قبل. كانت تمُسِكُ بخَصْر "وانغ ياو جين" وسط حشد من المُتفرّجين. أصابني هذا المشهد حينها بصدمة كبيرة، تلك الفتاة التي كانت بمثابة تطلّعاتي كلها، تتطلّع إلى المحيطين بها بحَيْرَة وارتباك، وعيناها مُفعَمَتَان بنظرات التّوسّل والقلق. أمّا المحيطون بها، فكانوا ينظرون إليها دون أن يُبدوا معها أيّ تعاطف، فقد كان الفضول يحدوهم حول ما يحدث. أمّا "وانغ ياو جين" الذي كانت تحتضنه، فابتسم للمُتفرِّجين قائلاً:

"هل رأيتُم؟ يا لها من فتاة قذرة!".

لم يكن لضحكات الآخرين أدنى تأثير عليها، بل صارت تعابير وجهها أكثر صرامة وعناداً، ولبُرْهَة أغمضتْ عينَيْها. جاشت في صدري مشاعر كثير مختلطة في تلك اللحظة التي أغمضتْ فيها "فنغ يوي تشينغ" عينَيْها. فذلك الشيء الذي تحتضنه لا ينتمي إليها، ذلك الجسد الذي تحتضنه سوف يتركها عاجلاً أم آجلاً. وعندما أسترجع ذاكرتي الآن، يُخيّل إليّ أنها

لم تكن تحتضن شخصاً، بل كانت تحتضن الهواء. فهي تُضحّي بسمعتها، وتُقاوم حياءها، لتحتضن ذلك الشيء الفارغ.

وحتّى يثنيها "وانغ ياو جين" أن تفكّ يدها من على خصره، كان ينهرها مرّة بالشّدّة، ومرّة باللِّين، مرّة يسبّها، ومرّة يبتسم لها، ولكن ذلك لم يُجد نَفْعَاً. بدتْ على ملامحه أمارات قلّة الحيلة، وهو يقول:

"هل شاهد أحدكم امرأة مثل هذه من قبل"؟

في مواجهة تلك الإهانات المستمرّة، لم تتمكّن "فنغ يوي تشينغ" من الدفاع عن نفسها. وربّما أنها اكتشفت أيضاً أنها لن تستطيع أن تكسب تعاطف المحيطين بها، فأشاحتْ ببصرها تجاه النهر.

"ما الذي تنوين فعله، أيّتها اللعينة"؟

هكذا صاح فيها بأعلى صوته. ثمّ حاول غاضباً أن يفكّ يَدَيْها المتشابكَتَيْن. في تلك الأثناء، شاهدتُها وهي تلتفتُ بوجهها، وتعضّ على أسنانها بغضب.

بعدما فشلت محاولات "وانغ ياو جين"، قال لها بنبرة هادئة:

"حسناً، ماذا تريدين منّي أن أفعل"؟

حينها قالت بهدوء:

"ستذهب معي إلى الطبيب لعَمَل فحوصات".

لم يظهر عليها أيّ نوع من الحَرَج، وهي تقول هذا الكلام، بل بدا صوتها

هادئاً أكثر من المعتاد، وكأنها وجدت ضالّتها، فهدأ روعُها. رَمَقَتْني بعينَيْها في تلك الأثناء، فشعرتُ وكأن نظراتها وجسدي يرتجفان معاً.

حينها قال "وانغ ياو جين":

"فكّي يَدَيْكِ، إذنْ، وإلا فكيف سأذهب برفقتكِ".

تردّدت الفتاة قليلاً، ثمّ فكّتْ يَدَيْها، حينها سلّم "وانغ ياو جين" الذي تحرّر لتوّه ساقَيْه للريح، وفرّ هارباً. التفت بوجهه للخلف، وهو يجري، ثمّ قال:

"فلتذهبي بنفسكِ، إن أردتِ الذهاب".

عقدتْ حاجبَيْها غيظاً، وهي تشاهده يهرب بعيداً، ثمّ تطلّعتْ إلى المحيطين بها، حينها رأتْني للمرّة الثانية. لم تذهبْ في إثر "وانغ ياو جين"، بل ذهبت وحيدة متّجهة نحو مستشفى المدينة. تبعها بعض تلاميذ القرية الذين عادوا من مدارسهم للتّوّ، أمّا أنا، فلم أتحرّك، فقط ظَلَلْتُ واقفاً فوق الجسر الخشبيّ، أراقبها وهي تغادر. بينما كانت "فنغ يوي تشينغ" تهمّ بالمغادرة، قامت بفَرْد ضفيرتها التي كانت متشابكة، شاهدتُها وهي تُمشِّط شَعْرها الطويل الفاحم بأطراف أصابعها، ثمّ شرعت تضفره من جديد.

تلك الفتاة التي ألفتُها خجولة دوماً بَدَتْ مُتّزنة للغاية. أمّا قلقها الداخلي، فلم يظهر سوى من خلال وجهها الشاحب. لم تكن عابئة بأيّ شيء، كانت تتصرّف بهدوء كالفتاة المتزوّجة، وهي تحجز تذكرة في قسم أمراض النساء، في المستشفى. كانت تُجيب عن أسئلة الطبيب بكل هدوء أيضاً، حيث قالت: "أريد أن أُجري فحوص الكشف عن الحمل".

لاحظ الطبيب من خلال استمارة بياناتها أنها غير متزوّجة، سألها قائلاً:

"لم تتزوّجي بعد"؟

هزّت رأسها قائلة: "نعم".

شاهدها ثلاثة صبيان من قريتي، وهي تحمل في يدها زجاجة بُنّيّة اللون، وتدخل إلى دورة المياه. بَدَتْ ملامحها رصينة عندما خرجتْ. كانت تجلس على كرسي داخل الرَّدْهَة مثل المريض وهي تنتظر نتيجة التحليل، وعيناها مُسلّطتان على تلك الفتحة في غرفة المعمل.

هدأت قليلاً بعدما علمتْ أنها ليست حاملاً، خرجتْ من المستشفى، وسارتْ إلى جوار عامود كهرباء إسمنتي، أسندتْ ظهرها عليه، وغطّتْ وجهها بيَدَيْها، ثمّ انخرطت في البكاء.

كان والدها في شبابه يستطيع أن يحتسي زجاجة خمر دفعة واحدة، وهو الآن شخص عجوز، ولكنْ، لا زال بإمكانه شرب نصف زجاجة دفعة واحدة. ومع غروب شمس ذلك اليوم، ذهب والدها، ووقف أمام بيت عائلة "وانغ"، ظلّ يضرب الأرض بقَدَمَيْه، وهو يسبُّ ويلعن. سمع جميع مَنْ في القرية سبابه في تلك الليلة. إلا أنه بالنسبة إلى صبيان القرية، فلم يكن هناك صوت يعلو فوق صوته، وهو يقول متحسّراً:

"اخرجْ، أيّها اللعين الذي مارس الجنس مع ابنتي".

ظلّتْ هذه الجملة معلّقة بأفواه هؤلاء الصبيان، وظلّوا يردُدونها حتّى النصف الأخير من الليل، وعندما كانوا يشاهدونه، كانوا يصيحون من بعيد في صوت واحد:

"اخرجْ، أيّها اللعين الذي مارس الجنس مع ابنتي".

من بين حفلات الزفاف التي شهدتُها في قرية الباب الجنوبي، كان حفل زفاف "وانغ ياو جين" حفلاً لا يُنسى. ذلك الشّابّ الضخم الذي كان يُهرول هَرَبَاً أمام "سون قوانغ يينغ" وهو يلاحقه بالسّكّين، ارتدى في صبيحة ذلك اليوم بدلة صينية جديدة، وجهه متورّد مثل مسؤول قادم من المدينة، وهو يستعدّ للذهاب لبيت عروسه. حينها كان مَنْ في بيته جميعهم يغنّون ويرقصون ابتهاجاً بحفل زواجه، أمّا هو، فقد بدا هادئاً رصيناً حتّى يحافظ على بدلته الجديدة. مررتُ ببيته عندما كُنتُ طريقي إلى المدرسة، حيث شاهدتُهُ يحاول إقناع أحد الشباب غير المتزوّجين من قريتنا أن يذهب برفقته إلى بيت العروس، كما جرت العادة، كان يُحدِّثه قائلاً:

"لا يوجد أحد غيركَ، فأنتَ الوحيد الذي لم يتزوّج بعد".

قال له ذلك الشّاب: "أنا لستُ شاباً بكْراً".

كان يحاول إقناعه بشكل مُبهَم، وكأنه يُنفّذ أمراً روتينياً. والحقيقة أن ذلك الشّابّ الذي كان يحاول إقناعه كان يرغب في الذهاب معه، ولكنه تعمّد أن يقول ذلك.

تمّ ذَبْح كبشَيْن، وطَهْو عشرات الكيلوجرامات من الأسماك، من أجل حفل الزواج. كانت عمليات الذَّبْح والطَّهْو تجري وسط ساحة التجفيف، التي امتلأت بالدماء وقشور الأسماك طيلة الفترة الصباحية. ولكنْ، بعد عودتنا من المدرسة، نُظِّفت الساحة من هذه المخلّفات، وحلّ محلّها عشرون طاولة طعام مستديرة. حينها كان وجه أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" مملوءاً بقشر السمك، حيث سار نحو أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ"، تفوح منه رائحة السمك الزنخة، وهو يقول:

"هلا نظرتَ إلى وجهي، كم عيناً لديّ"؟

حينها وبّخه "سون قوانغ بينغ" وكأنه أبوه قائلاً:

اذهبْ، ونظِّفْ نفسكَ.

شاهدتُ أخي الأكبر مُمسِكاً بياقة قميص أخي الأصغر من الخلف، يسحبه نحو البركة. شعر الأصغر بالإهانة حينها، ثمّ شتمَ الأخ الأكبر بنبرة حادّة قائلاً:

"سون قوانغ بينغ، اللعنة عليكَ".

انطلق الحشد لاستقبال العروس في الصباح. وبالرغم من أن مقصدهم واحد إلا أن الحشد لم يكن منضبِطاً، وكانت إيقاعات طبولهم مُشتّتة، ثمّ عبروا النهر الذي كان سبباً في موت "سون قوانغ مينغ" في وقت لاحق، متّجهين نحو منزل عروس "وانغ ياو جين".

العروس فتاة حسناء من القرية المجاورة، سارت معهم بخجل نحو القرية. كانت تعتقد أنه لا أحد في القرية، يعرف أنها قد جاءت إلى هنا مرّات عديدة من قبل في ظلمة الليل، ولذلك كانت تؤدّي دور الفتاة الخجول بكل ثقة.

خلال هذا العرس، تناول أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" أكثر من مائة وخمسين حبّة من الفول، حتّى إنه ظلّ يُحدِث ريحاً طيلة الليل. وعندما أخبره "سون قوانغ بينغ" بهذا الأمر في صباح اليوم التالي، كان يضحك ببلاهة. كان يعرف أنه تناول خمس قِطَع من حلوى الفاكهة، أمّا بخصوص عدد حبّات الفول، فلم يكن لديه الوقت، لكي يحصيها. قبل أن يموت أخي بيوم، كان يجلس على عتبة الباب، يستفسر من "سون قوانغ بينغ" عمّنْ سيتزوّج قريباً في القرية، حيث أقسم أنه سيأكل عشر قِطَع من حلوى الفاكهة في المرّة القادمة، قالها والمخاط يتدلّى من أنفه حتّى فمه.

دائماً ما كُنتُ أتذكّر مشهد أخي الأصغر الذي مات مبكّراً وهو يزاحم من أجل خطف حبّات الفول وحلوى الفاكهة في مساء ذلك اليوم. كانت زوجة شقيق "وانغ ياو جين" قد خرجت حاملة في يدها سلّة من البُوْص، ولم يكن أخي هو أوّل مَنْ تزاحم للوصول إليها، إلا أنه كان أوّل مَنْ سقط على الأرض. لم تكن السّلّة تحتوي سوى على بضع عشرات من حلوى الفاكهة. زوجة شقيق "وانغ ياو جين" كانت ترمي الحلوى للأطفال المحيطين بها، وكأنها تُطعم دجاجاتها. وبينما كان أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" يهمّ بالقفز لالتقاط الحلوى، أصابته ركبة أحد الأطفال في وجهه دون قَصْد. حينها لم يكن أخي الأكبر حادّ المزاج مهتمّاً سوى بضرب ذلك الطفل الذي أصابه في وجهه، وخرج من المولد بلا حمّص. كان الحال مختلفاً تماماً بالنسبة إلى أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ"، فقد تحمّل الضربات كافّة، بينما كان يزاحم البقية على خطف الحلوى، حتّى إنه ظلّ جالساً على الأرض لفترة طوية وفمه مملوء بالطين، ثمّ أخذ يتحسّس رأسه وأذنَيْه وهو يقول لأخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" إن قَدَمَيْه مملوءتان بالجروح.

نجح الصغير "سون قوانغ مينغ" حينها في اقتناص سبع حبّات من حلوى الفاكهة وحفنة كبيرة من حبّات الفول. ظلّ جالساً على الأرض يُنظِّف حصيلته من الحلوى والفول من الطين والتراب. فيما كان "سون قوانغ بينغ" يقف بجانبه، يترصّد أولئك الصبية الذي يحيطون بهم من كل جهة، يُحملقون في الحلوى التي جمعها أخيه الأصغر. وهو ما أثناهم عن فكرة خطف الحلوى من يَدَيْه.

أعطى "سون قوانغ مينغ" أخاه الأكبر "سون قوانغ بينغ" قطعة من حلوى الفاكهة وحفنة صغيرة من الفول، فيما كان "سون قوانغ بينغ "غاضباً من هذه القسمة، حيث قال:

"هذا فقط"؟

تحسّس "سون قوانغ مينغ" أذنه التي احمرّت من الاحتكاك بالصِّبْيَة من حوله، وهو ينظر في حَيْرَة إلى "سون قوانغ بينغ"، ثمّ أخرج قطعة أخرى من الحلوى وبعضاً من الفول، وأعطاها له بشيء من الحزن. وبينما لم يُبدِ أخي الأكبر رغبه في الانصراف، نظر إليه قائلاً بلهجة ملآنة بالتهديد:

"لو طلبتَ منّي حلوى مرّة أخرى، فسوف أبكي".

وصلت العروس إلى القرية وقت الظهيرة، وبالرغم من أنها كانت ذات وجه مستدير ومؤخّرة مستديرة، كانت تسير خفيضة الرأس، إلا أن ابتسامتها بدت واضحة للعيان. والعريس هو الآخر كان فَرِحَاً للغاية، وبدا واضحاً أنه نسي كيف كانت "فنغ يوي تشينغ" تحتضنه أمام حشد الناس منذ أيّام قليلة مضت، وسار مسرعاً، يُلوِّح لنا بيده اليمنى ببلاهة. شعرتُ حينها بالسَّكِينة والسعادة، والسبب في ذلك هو أن الفتاة "فنغ يوي تشينغ" التي تُعدّ الأجمل في نظري، ستتخلّص من فضيحة شخص مثل "وانغ ياو جين" وتدنيسه. إلا أنني عندما أشحتُ ببصري نحو بيتها، انتابتْني موجة لا تُوصَف من الحزن. فقد شاهدتُ تلك الفتاة التي هي بمثابة تجسيد لتطلّعاتي تُوجِّه بصرها هنا باهتمام منقطع النظير. كانت "فنغ يوي تشينغ" تقف أمام بيتها، تشاهد بحسرة مراسم هذا الزواج الذي لا علاقة لها به. من بين الناس كلهم كانت وحدها تعرف معنى أن يكون الشخص بعيداً مُهمَلاً.

بعد ذلك، جلس الجميع على الطاولات في حوض التجفيف، وشرعوا يأكلون ويشربون. كانت رقبة والدي "سون قوانغ تساي" قد التوتْ في أثناء نومه في الليلة السابقة، فكان يجلس هناك عاري الصدر مثل روبن هود، بينما تقف والدتي خلفه وهي تحتسي رشفة من خمر العرس، ثمّ نفثتْها

على كتفه، وأخذت تُدلِّكه، بينما كان والدي يهتزّ يمنة ويسرة بمصاحبة حركات يَدَيْها. بدا كطفل لطيف، وهو يُصدِر بعض التّأوّهات من الألم، إلا أن ذلك لم يمنعه من شُرب الخمر بشراهة. سال لُعاب أخوَاي عندما أمسك والدي بعصيان الأكل، والتقط قطعة كبيرة من اللحم، ثمّ وضعها في فمه، بينما لم ينفكّ عن الالتفات إليهما، وهو يقول:

"اغرُبا عن وجهي".

ظلّ الناس يأكلون من الظهيرة حتّى المساء، حيث بلغ الاحتفال ذروته. حينها ظهرت "فنغ يوي تشينغ" فجأة حاملة في يدها حبلاً طويلاً. لم يلحظْ "وانغ ياو جين" قدومها، لأنه كان مشغولاً بشرب الخمر، بصحبة أحد شبّان القرية. وعندما رَبَّتَ أحدهم على كتفه، التفت ليجدها واقفة خلفه. شحب وجه هذا الشّابّ المشرق المتألّق فجأة. أتذكّر أن الصمت أطبق على ساحة التجفيف التي كانت تعجّ بالأصوات الصاخبة في تلك اللحظة، وهو ما جعل شخصاً مثلي يقف بعيداً، يسمع بوضوح صوت "فنغ يوي تشينغ" وهي تقول:

"انهضْ من مكانكَ".

بدت على وجه "وانغ ياو جين" علامات الرعب القديمة نفسها حين كان أخي يطارده بالسّكّين. وقف مثل رجل عجوز. وأخذت فنغ يوي تشينغ كرسيّه، وسارت نحو إحدى الأشجار بجوار ساحة التجفيف. وعلى مَرأى ومَسمع من الجميع، صعدتْ فوق الكرسيّ، فبدا جسدها طويلاً منتصباً، ثمّ قامت بربْط الحبل على أحد أفرع الشجرة.

حينها صرخ العجوز "لوه" قائلاً:

"أنقِذُوها، سوف تنتحر".

نظرتْ إليه وهي تقف فوق الكرسيّ نظرة استغراب، ثمّ قامت بعقد الحبل على شكل دائرة أكبر قليلاً من حجم الرأس بكل هدوء. قفزت من فوق الكرسي، كانت طريقتها في القفز قد كشفت عن رشاقتها كشابّة صغيرة. ثمّ غادرت المكان بكل رصانة. عاد الضجيج إلى ساحة التجفيف مع رحيل "فنغ يوي تشينغ" بعد أن خيّم الصمت عليه لفترة. شرع "وانغ ياو جين" الذي كان شاحب الوجه حينها يسبّ ويلعن بصوت عالٍ، وهو يرتجف. كان تعبيره مُفتقِراً إلى الثقة والمنطق الذي كان ينبغي أن يكون عليه. كُنتُ معتقداً أنه سيذهب وينزع الحبل من على تلك الشجرة، إلا أنه جلس على كرسيٍّ، أعطاه له شخص آخر، ولم ينهضْ من عليه.

عروسه التي فهمتْ حينها ما الذي يجري هناك بدت هادئة نوعاً ما، على عكس المتوقّع. كانت تجلس دون أن تُحوِّل من نظرها، وكل ما فعلتْهُ هو أنها أمسكت بكوب من الخمر، وشربتْهُ دفعة واحدة. كان عريسها ينظر خلسة إلى ذلك الحبل المربوط فوق الشجرة، ثمّ ينظر إلى تعبيرات وجهها. بعدها ذهب أخوه الأكبر، وقام بنَزْع الحبل من هناك، بينما ظلّ هو يلتفت بنظره نحو الشجرة على فترات. استمرّت هذه الحالة لفترة طويلة. كان ذلك الحبل بمثابة الفيلم السينمائي الذي جلبه أحدهم إلى القرية، وهو ما جعل هذا العرس ينتهي قبل أوانه.

لم تمرّ مدّة طويلة حتّى ثملت العروس، ظلّت تبكي بحرقة، ثمّ وقفت مترنّحة، وهي تقول:

"أريد أن أشنقَ نفسي".

وبينما كانت تسير بميل نحو ذلك الحبل الذي لم يعد موجوداً، قامت

زوجة شقيق و"انغ ياو جين" بالإمساك بها، ثمّ صاحت في "وجه وانغ ياو جين" قائلة: "خذْها إلى الداخل بسرعة".

قام بذلك فعلاً، ومعه بضعة أشخاص بينما ظلّتْ هي تصرخ وتقول:

"أريد أن أشنق نفسي".

بعدها بفترة، خرج "وانغ ياو جين" ومَنْ معه من الغرفة. إلا أنها تبعتْهم إلى الخارج بعدها مباشرة. كانت مُمسِكَة بسكّين في يدها، وضعتها على رقبتها وهي تصرخ بشكل هِسْتِيرِيّ، لم يعرف الناس ما إذا كانت تضحك أم تبكي، وهي تقول:

"اشهدوا على هذا".

في تلك الأثناء، كانت "فنغ يوي تشينغ" تجلس أمام عتبة بيتها تشاهد كل ما يحدث. لن أنسى ابتسامتها المائلة، وهي تستند بذقنها على يدها اليمنى، وكأنها مستغرقة في التّأمّل. كانت الريح تداعب شَعْرها، فيتمايل أمام عينَيْها يمنة ويسرة. كانت غير مكترثة بما يجري بعيداً عنها، وكأنها تنظر إلى نفسها في المرآة.

فقط في تلك اللحظة، لم تعد مهتمّة بذلك العرس، فقد كان الغموض يملؤها بشأن مستقبلها.

بعدها بعدّة أيّام، حضر إلى القرية بائع متجوّل. قام ذلك الرجل الأربعيني الذي يرتدي ملابس رمادية اللون بوَضْع شيّالته أمام بيت "فنغ يوي تشينغ". وقف أمام البيت متحدِّثاً إليها بلهجة غريبة، يطلب منها كأساً من الماء.

التفّ أطفال القرية حوله قليلاً، ثمّ غادروا، بدا واضحاً أنه قد مرّ في

طريقه بهذه القرية القريبة من المدينة، إلا أنه ظلّ جالساً أمام بيت "فنغ يوي تشينغ" حتّى حلول المساء.

مررتُ من هناك عدّة مرّات، في كل مرّة، كُنتُ أسمع هذا البائع يتحدّث بصوت مبحوح مُتعَب عن المصاعب والمشاقّ التي يمرّ بها في تجواله، كان يتحدّث وهو يبتسم ابتسامة مريرة. أمّا نظرات "فنغ يوي تشينغ" وهي تُنصت إلى حديثه، فقد كانت مُتقلّبة ومُبهَمَة. كانت تجلس على عتبة بابها، وتستند بذقنها على يدها كعادتها. أمّا البائع المتجوّل، فقليلاً ما كانت يلتفت إليها وهو يتحدَّث.

لكنه غادر قرية الباب الجنوبي في تلك الليلة المُقْمِرَة، وبعد مغادرته، اختفت "فنغ يوي تشينغ" من القرية هي الأخرى.

الموت

ذهب أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" الذي تعلّم الاعتداد بنفسه من الأخ الأكبر "سون قوانغ بينغ" في ظهيرة أحد أيّام الصيف متّجهاً نحو النهر للإمساك ببعض الحَلَزُونَات. شاهدتُ ذلك المشهد المُتكرِّر مرّة أخرى، كان "سون قوانغ مينغ" يرتدي سروالاً قصيراً، ثمّ حمل سلّة الحشائش من إحدى زوايا المنزل، وخرج مُغَادِراً. انعكست أشعّة الشمس على ظهره العاري، فبدا ظهره الأسود ناعماً ولامعاً.

دائماً ما كانت تظهر أمامي خيالات مشوّشة، وكأني أرى الوقت يتحرّك. يظهر أمامي على هيئة رمادية شفّافة، تُغلّف كل شيء في داخلها. فنحن لا نعيش على هذه الأرض، نحن، حقيقة، نعيش داخل نهر الزمن. الحقول، الشوارع، الأنهار، البيوت كلها تُشارِكنا الانخراط داخل الزمن. الوقت يدفعنا سواء للأمام أو للخلف، ويُغيِّر من هيئاتنا.

كانت الأمور معتادة عندما غادر أخي الأصغر البيت في ذلك اليوم الذي مات فيه، فقد قام بهذا العمل مئات المرّات من قبل. إلا أن ذاكرتي قد عدلت من انطباعها القديم عن هذا المشهد بسبب تلك النهاية التي وقعت بعد مغادرته البيت. فعندما عبرتُ بأنظاري نهر الذاكرة الطويل، وشاهدتُ أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ"، لم يكن ما شاهدتُهُ هو خروجه من البيت، فأخي قد خرج من دائرة الزمن دون أن يدري. وبمُجرّد حدوث ذلك، استقرّ مكانه، أمّا نحن، فلا نزال نندفع للأمام. سوف يشاهد "سون

قوانغ مينغ" الزمن وهو يأخذ ما حوله من أشخاص ومشاهد في طريقه. لقد شاهدتُ مشهداً حقيقياً، قام فيه الحَيّ بدَفْن الميت، حيث رقد للأبد، أمّا الحَيّ، فاستمرّ يمضي في طريقه. هذا المشهد الحقيقي هو إشارة خَفِيّة من الزمن لهؤلاء الذين لا يزالون يسيرون على خطى الواقعية.

طفل من أبناء القرية في الثامنة من عمره، يقف في الخارج، يحمل في يده سلّة الحشائش منتظراً أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ". لاحظتُ أن هناك تغيرّاً طفيفاً قد طرأ على أخي الأصغر، فلم يعد يرغب أن يسير بصحبة أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" أينما حلّ، كما كان يفعل في الماضي، صار يحبّ أن يلهو مع صِبْيَة صغار في السابعة والثامنة، ومن ثمّ، يمكنه أن يتمتّع بالسُّلْطة التي يتمتّع بها الأخ الأكبر "سون قوانغ بينغ" وسط صبيان القرية الآخرين. عندما كُنتُ أجلس بجوار البركة دائماً ما كُنتُ أشاهده وهو محاط بالصِّبْيَة الصغار، يسير مختالاً هنا وهناك مثل الملك.

في ظهيرة ذلك اليوم، نظرتُ من النافذة الخلفية، فشاهدت أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" يسير متّجهاً نحو النهر، كان يلبس حذاء والدي الضخم، ويسير على الطريق الترابية مُخلِّفاً وراءه موجة من الغبار. كان يسير مشدوداً إلى الأمام، بسبب ثقل الحذاء في قَدَمه، وبمُجرّد وصوله عند البيت الذي كانت تقطن فيه عائلة "سو" قام بوَضْع السّلّة فوق رأسه. ومن ثمّ، تحوّلت خطواته الرشيقة إلى خطوات متيبّسة. كان "سون قوانغ مينغ" يأمل في الحفاظ على مهارته في حمل السّلّة على رأسه حتّى يصل إلى النهر، إلا أن السّلّة لم تكن متعاونة معه، فسقطت منه داخل حقل الأرز، بجوار الطريق. التفت برأسه، لكنه عاود السير للأمام. فذلك الطفل ذو الأعوام الثمانية الذي كان يمشي خلفه كان قد التقطها بدلاً منه. وهكذا، كُنتُ أراقب "سون قوانغ مينغ" وهو يسير مختالاً نحو الموت المجهول.

أمّا ذلك الطفل الذي يسير في الخلف، فسوف يعيش طويلاً، فقد كان يُمسِك بسلَّتَيْن في يَدَيْه كلتَيْهما، ويسير مترنّحاً مُتعَباً مُحاوِلاً اللحاق بذلك الشخص الموشك على الموت أمامه.

كان على الموت أن يتخطّى ذلك الطفل ذي الأعوام الثمانية قبل أن يهبط فوق جسد أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ". فعندما كان "سون قوانغ مينغ" يمسك بالحَلَزُون عند شاطئ النهر، لم يتمالك ذلك الطفل ذو الأعوام الثمانية نفسه من مقاومة إغراء الماء، فبدا يسير نحو المياه العميقة دون أن يدري، ثمّ داس بقَدَمه، ولم يجد أرضاً يقف عليها، فأخذ يصارع الغَرَق، ويصرخ طالباً النجدة من أخي الأصغر.

مات "سون قوانغ مينغ" غَرَقاً وهو يقوم بإنقاذ ذلك الطفل. ولا أبالغ إن قُلتُ إنّ أخي قد ضحّى بنفسه من أجل الآخرين. أخي الأصغر لم يكن يعرف المعنى السامي للتضحية بالذات من أجل إنقاذ الآخرين، فسلوكه هذا كان نابعاً من قيادته وسلطته على هؤلاء الأطفال الذي كانوا يتبعونه. فعندما هاجم الموت طفلاً منهم، انبرى لإنقاذه معتقِداً أنه يستطيع أن يفعل ذلك بسهولة.

ذلك الطفل الذي نجا لم يستطع أن يتذكّر ماذا حدث حينها. كان فقط يقف مشدوهاً ينظر إلى مَنْ يسألونه. وحتّى بعدها بعدّة سنوات، عندما كان أحدهم يذكر هذا الأمر، كان ينظر إليه نظرة المُتشكِّك، وكأن هذه قصّة مُختلَقة. ولولا أنه كان هناك شخص من أهل القرية شاهد ما حدث حينها، لاعتقد الناس أن "سون قوانغ مينغ" قد مات غَرَقاً من تلقاء نفسه.

تصادف عبور هذا الشخص من فوق الجسر الخشبي وقت وقوع الحادث. حيث شاهد "سون قوانغ مينغ" وهو يدفع ذلك الطفل بيده

بعيداً، ثمّ فرّ ذلك الطفل مذعوراً نحو الشاطئ، وشرع يشاهد أخي وهو يصارع الغَرَق. وبينما كان أخي يُطلّ برأسه من وسط المياه، يلتقط أنفاسه الأخيرة، ظلّ يُحدِّق بنظره إلى أشعّة الشمس المتوهّجة لثوانٍ، إلى أن لفظ آخر أنفاسه. بعدما دُفن أخي الأصغر وقت الظهيرة بعدها بعدّة أيّام، جلستُ على حافّة البركة، حيث أشعّة الشمس على أشدّها، حاولتُ أن أنظر إليها، ولكن وهجها جَعَلَني غير قادر على ذلك، فاضطررتُ، لأن أُغمض عينَيّ على الفور. من ثمّ، فقد وجدتُ الفارق بين الموت والحياة، فالشخص الحَيّ لا يستطيع رؤية الشمس بوضوح، أمّا الشخص المشرف على الموت، فيمكن لعينَيْه اختراق هالة الشمس، ورؤيتها بوضوح.

عندما هُرع ذلك الشخص يتملّكه الهَلَع، لم أكن أعرف ماذا حدث. كان صوت صرخاته يتناثر كالزجاج المكسور. حينها كان أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" يجلس في البيت يُقشّر البطاطا بمِنْجَله، شاهدتُهُ يرمي المِنْجَل من يده، ويُهرَع إلى الخارج. كان ينادي على والدي وهو يركض، ترك والدي "سون قوانغ تساي" ما في يده، وخرج من حقله يجري. هُرع كلاهما نحو النهر، بينما جاءت والدتي من طريق أخرى مُمسِكَة بوشاحها الذي كان يرفرف مع حركات يدها وهي تجري. سمعتُ صوت صرخات أمّي الحزينة، حيث جَعَلَني هذا الصوت أشعر وكأنه لو كان أخي حَيّاً، لمات مرّة أخرى.

دائماً ما كُنتُ قلقاً من أن يلمّ بعائلتي خطبٌ ما. فغرابة أطواري وانعزالي عن العائلة قد صارا أمرا اعتيادياً لأهل القرية. أن ينساني الآخرون هو الأفضل بالنسبة إليّ، إلا أنه بمُجرّد وقوع حادث في البيت، سوف أتصدّر مشهد اهتمامهم، حيث يطلبون منّي أن آخذ حَذَري، وأهتمّ بسلامتي. شعرتُ بضغوط هائلة عندما شاهدتُ أهل القرية يُهرعون نحو النهر. كان بإمكاني أن أتبع حدسي، وأركض معهم، إلا أنني كُنتُ قلقاً من أن يظنّ أهلي

وأهل القرية أنني ذاهب للفُرْجَة والشماتة. في مواجهة هذه اللحظة، كان عليّ أن أختار الابتعاد، فلم أرجع إلى البيت يومها إلا بعد منتصف الليل. ذهبتُ إلى شاطئ النهر بعدما حلّ الظلام، كانت المياه تتدفّق أسفل ضوء القمر، وكانت هناك بعض المُخلّفات تطفو فوق سطحه. بدا صوت جريان الماء عذباً طروباً كعادته. ذلك النهر الذي التهم لتوّه أخي الأصغر، لم يطرأ على هدوئه المعتاد أدنى تغيّر. نظرتُ إلى تلك المصابيح المضاءة بعيداً في القرية، أستمع إلى أصوات الناس المختلطة التي جرفتْها الرياح إلى مسامعي، وأصوات نحيب أمّي تنقطع لفترة، وتصدح لفترة، وأصوات بكاء نسوة أخريات، جئنَ لمواساتها في مصيبتها. كان هذا مشهدا بعيداً لتأبين فقيد، رحل عن عالمنا. أمّا النهر الذي التهم هذا الفقيد، فلم يطرأ عليه أيّ تغيير، وكأن شيئاً لم يحدث. لقد عرفتُ حينها أن النهر أيضاً له حياة، فقد ابتلع أخي، لأنه يحتاج إلى حياة جديدة. وهؤلاء النسوة المنتحِبات والرجال المفجوعون يحتاجون أيضاً إلى حياة جديدة. فعندما يقتلعون المزروعات من أراضيهم، ويذبحون مواشيهم، ويبتلعون هذه الأشياء الحَيّة، لا يطرأ عليهم أيّ تغيير تماماً، كما هو الحال بالنسبة إلى هذا النهر الآن.

كان والدي وأخي الأكبر هما مَنْ قفز في المياه لإنقاذ أخي. أمسَكَا به أسفل الجسر الخشبي. وعندما سَحَبَاه نحو الشاطئ، بدا وجهه أزرق اللون. أَمسكَهُ والدي الذي كان مُنهَكاً من التعب من أسفل قَدَمَيْه في وضع مقلوب، ثمّ حمله على ظهره، وهرول مُحاوِلاً إنقاذه. كان جسد "سون قوانغ مينغ" يهتزّ بشدّة فوق ظهر أبي وهو يجري، ورأسه يترنّح، ويرتطم بساقَي والدي. كان أخي الأكبر يجري خلفه، حيث بدا هؤلاء الثلاثة ذوو الأجساد المبتلّة في حالة من الفوضى، وهم يركضون على تلك الطريق الترابية في ظهيرة هذا اليوم الصيفي. كانت والدي التي لا تزال مُمسِكَة بوشاحها تجري خلفهم وهي تصرخ، وخلفها بعض القرويّيْن الذين هُرعوا للمساعدة.

شيئاً فشيئاً بدا والدي غير قادر على الركض، تثاقلت خطواته، وتباطأت أنفاسه، ثمّ توقّف، وأخذ ينادي على أخي الأكبر. الذي سرعان ما قام بالتقاط أخي الأصغر من على ظهر والدي، واستمرّ في الركض. بينما ظلّ الأب واقفاً مكانه، يلتقط أنفاسه بالكاد وهو يقول:

"استمرّ في الركض. لا تتوقّفْ. استمرّ".

شاهد أبي قطرات ماء تتساقط من رأس أخي الأصغر، كانت هذه مياه النهر التي لم تجفّ بعد من شَعْره وملابسه، إلا أن أبي كان يعتقد أن هذا الماء قد خرج من فمه، فلم يكن يدرك حينها أن "سون قوانغ مينغ" قد فارق الحياة إلى الأبد.

ركض أخي الأكبر لمسافة قصيرة، ثمّ أخذ يترنّح، شاهده والدي على تلك الحالة، فصرخ فيه ثانية:

"اركضْ بسرعة. اركضْ".

شاهدتُ أخي الأكبر وقد فَقَدَ القدرة على الحركة، سقط على الأرض، فوقع أخي الأصغر بجواره، حينها قفز والدي، وحمله مرّة أخرى، واستمرّ في الركض. وبالرغم من أن والدي لم يزل يترنّح وهو يركض إلا أنه سرعته حينها أصابتْني بالدَّهْشة.

عندما وصلت والدتي ومَنْ خلفها مِنَ القرويّيْن عند مدخل القرية، كان والدي قد علم أن أخي الأصغر قد مات. ثمّ جثا على ركبَتَيْه يتقيّأ بسبب التعب والإجهاد المفرطَيْن. بينما كان أخي الأصغر مستلقياً أسفل شجرة الدَّرْدَار فاتحاً ذراعَيْه، وأوراق الشجرة تُظلِّله من أشعّة الشمس الحارقة. كان أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" هو آخر مَنْ حضر، وبعدما شاهد والدي وهو يتقيّأ، جثا هو الآخر على ركبَتَيْه قريباً من والدي، وشرع يتقيّأ.

حينها كانت والدتي هي الشخص الوحيد الذي بدا عليه الحزن الطبيعي. بدت وكأن جسمها يرتفع وينخفض بمصاحبة صرخات بكائها. انتهى والدي وأخي الأكبر من التّقيّؤ، ولكنهما لم يزالا يجثوان على ركبَتَيْهما، والتراب يغطّي جَسَدَيْهما، ينظران في ذهول إلى تلك المرأة المكلومة وهي تبكي.

وُضعَتْ جثّة أخي الأصغر على حصيرة قديمة فوق المنضدة، وغُطِّيَتْ بملاءة السرير.

بعدما استعاد والدي وأخي الأكبر عافيَتَيْهما، كان أوّل ما فعلاه هو أن ذهبا إلى البئر، وملآ دلواً من الماء، ثمّ تناوبا الشرب منه. ثمّ حمل كل منهما سلّة في يده، وذهبا إلى المدينة لشراء التُّوفُو. عندما هَمَّا بالمغادرة، طلب والدي من شخص يقف بجواره أن يُخبر عائلة الطفل الذي تمّ إنقاذه أنه سيذهب إليهم بعد عودته من المدينة.

كان لدى أهل القرية هاجس أن خطباً ما سيحدث الليلة. فبعد عودتهما من المدينة، دعا والدي أهل القرية لتناوُل الأرز بالتُّوفُو حِداداً على أخي الأصغر. حضر جميع مَنْ في القرية تقريباً عدا أفراد عائلة الطفل الذي تمّ إنقاذه.

بحلول التاسعة مساء، حضر والد ذلك الطفل وحيداً، حيث لم يحضرْ معه أحد من أشقّائه. بدا واضحاً أن الرجل على استعداد لتحمُّل التبعات كافّة. دخل إلى الغرفة، تعلو وجهه ملامح حادّة، ثمّ جثا على قَدَمَيْه أمام جثمان أخي الأصغر، وأحنى رأسه أمامه، ثمّ نهض واقفاً، وقال:

"الكل مجتمعون هنا اليوم".

ثمّ لمح بعينَيْه كبير القرية، فأكمل قائلاً:

"وكبير القرية أيضاً، أودّ أن أقول إنّ "سون قوانغ مينغ" قد مات وهو يُنقذ ابني، وأنا أشعر بالحزن الشديد حيال ذلك. لا حيلة لي في أن أُعيدَه للحياة مرّة أخرى، كل ما في وسعي هو أن أدفع بعض المال على سبيل التعويض".

ثمّ أخرج من جيبه بعضاً من المال، ومَدّ يده نحو والدي قائلاً:

"هذه مائة يوان، وغداً سوف أبيع كل ما يمكنني بيعه، لأجمع لكَ مبلغاً آخر، نحن أبناء قرية واحدة، وأنتَ تعرف إمكانيّاتي الماديّة جيّداً، سأُعطيكَ مالي كله".

وقف والدي "سون قوانغ تساي"، وأعطاه كرسياً وهو يقول:

"تفضّل بالجلوس أوّلاً".

بدا والدي مثل مسؤولي الحكومة القادمين من القرية، وهو يقول بحماس:

"لقد مات ابني، ولن يعودَ للحياة ثانية، ومهما أعطيتَني من مال، فلن يُعوِّضني ذلك عنه، أنا لا أريد مالكَ، إن ابني بطل، مات وهو يضحّي بنفسه من أجل إنقاذ الآخرين".

بعدها وقف أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" هو الآخر بحماسة، ليُكمل حديث والدي قائلاً:

"أخي الأصغر هو بالفعل بطل كبير، فخر لعائلتنا كلها، ونحن لا نريد منكَ أيّ تعويض، كل ما عليكَ هو أن تُعرِّف الناس بما حدث، يجب على الجميع أن يعرفوا أن أخي بطل مشهود له".

ثمّ تابع والدي قائلاً:

"عليكَ أن تذهب إلى المدينة غداً، وتجعلهم يذيعون هذا الخبر هناك".

جرت مراسم دَفْن أخي الأصغر في اليوم التالي، حيث دُفن في مكان غير بعيد بين شَجَرَتَي سرو خلف البيت. كُنتُ أقف بعيداً، أشاهد مراسم الدَّفْن، فالعزلة والوحدة قد جعلاني، وكأني شخص غير موجود داخل القرية. بدت آخر صرخات أمّي، وكأنها تُحلِّق بمصاحبة أشعّة الشمس الساطعة، أمّا علامات الحزن على وجه والدي وأخي الأكبر، فلم تكن واضحة من بعيد. حُمل أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" ملفوفاً بحصيرة، فيما كان عدد من أهل القرية يقفون على الطريق بين مدخل القرية والمقبرة. قام والدي وأخي الأكبر بوضعه داخل القبر، ثمّ أهالا عليه التراب. ومن هنا انتهت رَسْمِيَّاً سنوات أخي التي قضاها في عالم البشر.

في تلك الليلة، كُنتُ جالساً على حافّة البركة خلف المنزل، أَطَلْتُ النَّظَر إلى قبره الذي يقبع في هدوء أسفل ضوء القمر. وبالرغم من أن جثمانه كان يرقد حينها في مكان بعيد جدّاً، إلا أنني شعرتُ حينها أن أخي يجلس بجواري. فها هو قد فارق والدي وأخي وأبناء القرية مثلي تماماً. كل منّا سار في طريق مختلفة، إلا أن النهاية كانت متشابهة في نهاية المطاف. الفارق هو أن أخي الأصغر قد غادر بسهولة وحَسْم.

كُنتُ بعيداً عن مشاهد الموت والدَّفْن، بسبب بعض العقبات النَّفْسية. وكُنتُ أتوقّع أنني سأُواجِه اتّهامات وتوبيخات أكثر حدّة داخل البيت والقرية. إلا أنه بعد مرور عدّة أيّام، لم يُبدِ أحد أيّ أفعال أو أقوال غير معتادة. وهو ما جَعَلَني أشعر بدَهْشة مكتومة. فقط في تلك اللحظة،

شعرتُ بارتياح شديد، حيث اكتشفتُ أنني أصبحتُ مَنسِيّاً تماماً. لقد صرتُ موجوداً في مكان، يعرفني فيه الجميع، إلا أنهم يجهلون مكاني.

في اليوم الثالث للوفاة، سمعْنا البَثّ الإذاعي في البيت، يبثّ أنباء عن بطولة أخي وتضحيته بالنَّفْس من أجل الآخرين. كانت هذه هي أكثر اللحظات التي شعر فيها والدي بالفخر. لثلاثة أيّام متتالية، ما إن كانت الإذاعة تبدأ في البَثّ حتّى يُحضِر أبي كرسيّه، وجلس بجوار المذياع. وبعدما تحقّقت أُمنيّة والدي في تلك اللحظة، كان يتجوّل بحماسة في القرية مثل البطّة التي تختال فرحاً. ففي تلك الظهيرة الهادئة، أخذ والدي يصيح أمام بيوت أهل القرية، ويقول:

"سمعتُم أم لا"؟

كان أخي الأكبر يقف أسفل شجرة الدَّرْدَار أمام الباب ينظر إلى أبي وعيناه تلمعان.

بدأ والدي وأخي الأكبر مرحلة الشهرة القصيرة. فقد كانا يرغبان ويشعران أن الحكومة سترُسل لهما مُوفَداً في القريب العاجل. بدأ خيالهما يتّسع بداية من المدينة وصولاً إلى العاصمة بكين. فأكثر لحظات الفخر هي عندما يتمّ دعوتهما إلى ميدان تيان آن، من خلال الاحتفالات بالعيد الوطنيّ هذا العام، بوصفهما عائلة البطل. بدا أخي الأكبر أكثر حكمة من والدي حينها، فبخلاف هذا الوَهْم الذي كان يملأ مخيّلته، كانت لديه فكرة واقعية إلى حدّ ما، حيث لَفَتَ انتباه والدي إلى أن موت أخي الأصغر قد يمكّنهما من الحصول على وظيفة ما في المدينة. فبالرغم من أن أخي لا زال طالباً، إلا أن كونه موظّفاً مستقبلياً يُعدّ أمراً لا جدال فيه. تسبّب كلام أخي الأكبر في إضفاء نوع من الواقعية على خيالات والدي وأوهامه.

حينها عقد والدي يَدَيْه أمام صدره، فيما كانت عيناه تلمعان، لا يدري كيف يُعبرِّ عمّا بداخله من فرط الحماسة.

شرع والدي وأخي الأكبر مندفعَيْن بحماسة، لا كبح لجماحها، يغرسان أوهامهما غير المنطقية في عقول أهل القرية على مراحل. ومن ثمّ، انتشرت أخبار انتقال عائلة "سون" إلى المدينة في أرجاء القرية جميعها، وكان من أكثر هذه الأخبار تهويلاً، هو قول بعضهم إن عائلة "سون" قد تنتقل للعيش في بكين. كان تواتر هذه الأخبار إلى مسامع والدي قد جَعَلَني أسمعه، يتحدّث إلى أخي الأكبر في ظهيرة أحد الأيّام، وهو يقول بحماسة منقطعة النظير:

"لا دخان بدون نار، الجميع في القرية يتحدّثون عن هذا الأمر، يبدو أن الحكومة ستُوفِد أحد المسؤولين إلى بيتنا قريباً".

وهكذا، فقد غرس والدي أوهامَه في عقول أهل القرية، ثمّ استخدم الشائعات التي أثارها أهل القرية حول هذه الأوهام، ليؤكّد لنفسه حقيقة أوهامه.

وبينما كان والدي "سون قوانغ تساي" في انتظار أن يُطلَق عليه رَسْمِيَّاً لقب والد البطل، قرّر أن يُجري بعض التغييرات في البيت. فقد كان يعتقد أن بيتاً كهذا مُهمَلٌ وغارقٌ في الفوضى سيُؤثّر على النظرة الصحيحة للمسؤول الحكومي الذي سيأتي لزيارتنا. بدأت التّغيّرات من الملابس، فقد اقترض بعض المال، واشترى لكل فرد في البيت حُلَّة جديدة. ومن ثمّ، دخلتُ دائرة اهتمام عائلتي من جديد. كانت كيفية التّخلّص منّي بمثابة صداع في رأس والدي، سمعتُهُ عدّة مرّات وهو يقول لأخي الأكبر:

"لولا هذا اللعين، لكانت الأمور أفضل بكثير".

بعدما تجاهلتْني عائلتي لوقت طويل، كان إقرارها بوجودي هو من قبيل اكتشافها أنني عبء ثقيل للغاية. وبالرغم من ذلك، ففي صبيحة أحد الأيّام، أحضرت لي والدتي حُلَّة جديدة، وطلبت منّي أن أرتديها. وهكذا ارتدى مَنْ في البيت جميعهم ملابسَ جديدة، باللون نفسه، بشكل مصطنع. بالنسبة إلى شخص مثلي اعتاد على ارتداء الملابس البالية، فقد كُنتُ أشعر بالقلق طَوَالَ اليوم بعدما اضطررتُ لارتداء هذه الحُلَّة الجديدة. فبعدما كُنتُ قد اختفيتُ تدريجياً من أعين زملائي وأهل قريتي، عدتُ لألفتَ انتباههم، بسبب هذه الملابس. عندما رآني "سو يوي" قال لي:

"أنتَ ترتدي ملابس جديدة".

أُصبتُ بالارتباك الشديد حينها. بالرغم من أن حديث "سو يوي" كان هادئاً، بحيث جَعَلَني أشعر أن شيئاً ما لم يحدث.

بعدها بيومَيْن، اكتشف والدي فجأة أن هناك خطأً ما غير صحيح. فقد اهتدى تفكيره إلى أنه عليه أن يُظهِر الفقر والبساطة لمسؤول الحكومة، وليس العكس، ومن ثمّ، عادت أكثر الملابس رَثَاثَة داخل البيت، لترى النور مرّة أخرى. ظلّتْ والدتي تَرْتُقُ فيها على ضوء المصباح الزيتي طيلة الليل. في صباح اليوم التالي، ارتدى مَنْ في البيت جميعهم ملابسَ مهترئة مغطّاة بالثقوب المَرْتُوْقَة مثل الحراشف التي تغطّي جِلْد السمك، كُنّا أشبه بأربع سمكات مثيرات للضحك، ثمّ خرجْنا من البيت. كانت أوّل مرّة أشعر فيها أن أخي الأكبر يشاطرني الشعور نفسه، هي عندما شاهدتُهُ يمشي متردّداً في طريقه إلى المدرسة في ذلك اليوم.

لم يكن إيمان أخي الأكبر بقدوم الحظّ السعيد المتمثّل في وصول مسؤول الحكومة راسخاً مثل أبي. فبعدما تعرّض أخي "سون قوانغ بينغ"

للسخرية من زملائه، بسبب تلك الملابس الرّثّة، لم يكن ليستمرّ في ارتدائها حتّى لو صار إمبراطوراً بعدها. ومن ثمّ، فقد بحث عن سبب قوي، يُقنع به والدي بالعدول عن فكرة الملابس البالية، حيث قال له:

"إن ارتداء ملابس كهذه لا وجود لها سوى في المجتمعات البائدة، إن هذا بمثابة افتراء على المجتمع الجديد للحزب الشيوعي".

كانت هذه الجملة سبباً في شعور والدي بالقلق لعدّة أيّام. خلال تلك الأيّام، ظلّ يجول القرية يشرح للناس، أن السبب وراء ارتدائنا لهذه الملابس هي استعارة مرارة الماضي، للشعور بحلاوة الحاضر، فكان يقول:

"تَذَكُّرُ مرارة المعيشة في المجتمع البائدِ، يجعلنا أكثر شعوراً بحلاوة المعيشة في مجتمعنا الجديد".

ظلّ والدي وأخي يترقّبان قدوم المسؤول الحكومي المنتظر ليل نهار، إلا أنه لم يظهر رغم مرور أكثر من شهر. ومن ثمّ، أخذ أهل القرية يُحوِّلون وجهة الشائعات التي كانوا يطلقوها، فصارت بمثابة سَكْب الملح على جرح والدي وأخي الأكبر. ففي أحد أيّام العطلات، وجد الناس الوقت الكافي للبحث عن أصل هذه الحكاية، فاكتشفوا أن بيتنا كان هو مصدر هذه الشائعات منذ البداية. ومن ثمّ، تحوّل والدي وأخي الأكبر إلى مصدر سخرية لهم، يطلقون عليهما النكات، كيفما شاؤوا. فكان الواحد منهم يَهْمِزُ ويَلْمِزُ، وهو يسأل والدي أو أخي قائلاً:

"هل جاء مسؤول الحكومة"؟

صارت هناك ثغرة داخل سياج الوَهْم الذي كان يكنف عائلتي، والسبب في ذلك هو إقلاع أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" عن الاستمرار

في تصديق هذا الوَهْم. فَتَطَلُّعُ الشباب للنجاح السريع، جعله يتنبّأ قبل والدي أن هذه كلها أوهام غير ممكنة.

في بداية الأيّام التي تَلَتْ موت هذا الوَهْم، كُنتُ أرى أخي، كما لو كان مُثقَلاً بالهموم، عادة ما كان يستلقي على سريرة فاتر الهِمّة. صارت العلاقة بينه وبين والدي أكثر فتوراً بمرور الوقت، بسبب أن والدي كان لا يزال مُتمسِّكاً بذلك الوَهْم حينها. صار والدي معتاداً على الجلوس بجوار المذياع، فكان يجلس هناك مشدوهاً، واللُّعاب يكاد يسيل من فمه نصف المفتوح. لم يكن أخي الأكبر يرغب في رؤية والدي على هذه الحال من البلاهة، فقال له ذات مره بعد أن نفد صبره:

"دعكَ من التفكير في هذا الأمر".

هذه العبارة جعلت والدي يستشيط غضباً، شاهدتُهُ ينهض غاضباً، يسبّ أخي قائلاً:

"اغربْ عن وجهي، أيّها اللعين".

لم يُبدِ أخي أيّ استسلام، وردَّ بحدَّة قائلاً:

"اذهبْ، وقلْ هذا الكلام لعائلة وانغ".

هجم عليه والدي مثل الطفل الصغير، لم يقل له سأقتلكَ ضَرْبَاً، بل قال:

"أنا لم أنتهِ منكَ".

لولا تدخّل والدتي بجسدها النحيل، وصوت بكائها المبحوح، لتفصل بين هذَيْن الرجلَيْن اللذَيْن ينبحان كالكلاب، لتحوّل ذلك البيت القديم المُهمَل إلى أطلال بالية.

بينما كان أخي الأكبر يهمّ بمغادرة البيت ووجهه يمتقع غضباً، نظر إليّ، وقال:

"هذا العجوز يريد أن يدخلَ القبر".

حقيقة الأمر أن والدي كان قد تذوّق طَعْم العزلة لفترة طويلة. كان هو وأخي الأكبر قد فَقَدَا تماماً ذلك التوافق والتفاهم الذي حدث بينهما بعد وفاة شقيقي الأصغر، ولن يتحدّثا معاً مرّة أخرى عن المستقبل المشرق القادم غير البعيد. فقد خرج أخي الأكبر أوّلاً من هذا التحالف، وهو ما جعل والدي يشعر بالعزلة في محيط الوَهْم الذي اختلقَه، إلا أنه كان مستعدّاً أن يواجه وحيداً تبعات تلك الفكرة القاتلة المتمثّلة في عدم ظهور هذا المسؤول الحكومي المنتظَر. ولذلك فعندما كان أخي ينظر إلى أبي نظرة غاضبة، كان والدي يتحيّن الفرصة، لكي يتشاجر معه. وبعد مرور فترة طويلة على ذلك الشِّجار، ظلّ كلاهما يتبادلان نظرات الغضب، أو نظرات الإهمال.

ظلّ أبي يراقب تلك الطريق عند مدخل القرية على غير المعتاد. كان يترقّب قدوم ذلك المسؤول الحكومي ذي البدلة الرَّسْمِيّة. مع طول الوقت، اكتشف أطفال القرية مَكنونَ أبي، ولذلك عادة ما كان يأتي بعضهم أمام بيتنا، وينادي قائلاً:

"سون قوانغ تساي، لقد جاء الرجل ذو البدلة الرَّسْمِيّة".

في البداية، كان والدي مضطرباً لا يدري ماذا يفعل، فعندما يُستثار، ينتابه القلق مثل الهارب من العدالة. كُنتُ أشاهده يجري شاحب الوجه نحو مدخل القرية، ثمّ يعود وهو يجرّ أذيال الخيبة. آخر مرّة يُخدَع فيها أبي كانت قبل حلول الشتاء بفترة قصيرة، حيث جاء أحد الصبيان أمام بيتنا، وأخذ ينادي:

"سون قوانغ تساي، لقد جاء الرجل ذو البدلة الرَّسْمِيّة".

حمل والدي في يده عصا المكنسة، وخرج يقول:

"سوف أقتلكَ، أيّها الصغير اللعين".

هرب الصبي من فوره، ثمّ وقف غير بعيد، واستمرّ ينادي قائلاً:

"لو كُنتُ أخدعكَ، فأنا كلب ابن كلاب".

هذه الكلمات المخادِعَة الصادرة من ذلك الطفل أصابت "سون قوانغ تساي" بالقلق، عَقَدَ يَدَيْه خلف ظهره، وصار يتجوّل في الغرفة مُحدِّثاً نفسه:

"ماذا لو أتى حقّاً؟ لم أقمْ بعمل أيّ استعداد".

وحتّى يتخلّص من هذا القلق، هُرع إلى مدخل القرية، فلم يشاهد سوى الحقول الخالية والأشجار المنعزلة. حينها كُنتُ أجلس غير بعيد عند شاطئ البركة، أشاهد أبي الذي يقف هناك مذهولاً. كان هبوب بعض الرياح الباردة قد جعله يمسك بفتحة ملابسه أمام صدره، ثمّ جلس على الأرض في وضع القُرْفُصَاء، ظلّ يتحسّس ركبَتَيْه، ربّما كان ذلك لأنه كان يشعر بالبرد. "سون قوانغ تساي" يجلس القُرْفُصَاء أمام مدخل القرية، يرتجف برداً وهو يُحدِّق طويلاً نحو تلك الطريق الصغيرة الممتدّة على مَرمَى البصر في ليلة من ليالي بدايات الشتاء.

ظلّ أبي مُتمسِّكاً بذلك الوَهْم، ولم يجد بُدّاً من التّخلّي عنه إلا مع حلول عيد الربيع. حينها كانت البيوت جميعها في القرية تحتفل بقدوم العيد، أمّا بيتنا الذي كان مشتّتاً، فلم يكن فيه أيّ من مظاهر من الاحتفالات. حينها استجمعتْ والدتي شجاعتها، وصرختْ في والدي قائلة:

"كيف سنقضي العيد هذا العام"؟

حينها صمت والدي الذي كان يجلس يائساً بجوار المذياع لفترة طويلة قبل أن يقول:

"يبدو أن المسؤول الحكومي ذا البدلة لن يأتي".

بدأتُ ألاحظ أن والدي كان يختلس النَّظَر إلى أخي الأكبر، فعلى ما يبدو أنه كان يريد التصالح معه. وفي الليلة التي سبقت ليلة العيد، تحدّث معه أخيراً. كان أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" قد تناول الطعام لتوّه، ويستعدّ للخروج من المنزل حين نادى عليه والدي قائلاً:

"أريد أن أتشاور معكَ في أمر ما".

دَلَفَا معاً إلى الغرفة الداخلية، وظلا يتهامسان، ثمّ خرجا وعلامات الصرامة ترتسم على وجهَيْهما. في صباح اليوم التالي، أيْ يوم العيد، خرج أبي وأخي الأكبر متّجهَيْن إلى بيت الطفل الذي أنقذه أخي الأصغر.

أدرك "سون قوانغ تساي" أنه لم يعد هناك أمل في أن يحصل على لقب والد البطل، ومن ثمّ، قرّر الاستسلام لإغراءات المال. ذهب إلى بيت ذلك الطفل، يطلب منهم خمسمائة يوان تعويضاً عن موت ابنه الأصغر. صُعِقَ أهل ذلك الطفل من حجم مبلغ التعويض، وأخبروا والدي أنه من المستحيل أن يتوفّر لديهم مبلغ كهذا. ثمّ أخبروه أن اليوم هو يوم العيد، وطلبوا منه أن يأتي في يوم آخر، للتشاور في هذا الأمر.

أصرّ والدي وأخي على أن يأخذا التعويض على الفور، وإلا حطّما أثاث بيتهم. قال والدي:

"خمسمائة يوان لا ينقصون يواناً واحداً، لقد تساهلتُ معكم، حيث لم أطلب فائدة على مبلغ التعويض هذا الوقت كله".

بالرغم من أنني كُنتُ أقف في مكان بعيد، إلا أنني سمعتُ أصوات شجارهما تُدوّي في الأنحاء حتّى إنني عرفت سبب الشِّجار. بعد ذلك، سمعتُ أبي وأخي الأكبر يحطّمان أثاث بيت عائلة الطفل. بعدها بثلاثة أيّام، حضر إلى قريتنا ثلاثة من أفراد الشرطة، كُنّا نتناول الطعام حينها، ثمّ سمعْنا عدّة أطفال ينادون في الخارج قائلين:

"سون قوانغ تساي، لقد جاء الرجل ذو البدلة الرَّسْمِيّة".

خرج والدي حاملاً عصا المكنسة، فشاهد ثلاثة من أفراد الشرطة قادمين نحوه. فهم حينها ما الذي يجري، فصرخ فيهم قائلاً:

"هل جئتُم لتقبضوا عليّ"؟

كانت تلك هي أكثر لحظات والدي هيبة وثباتاً، حيث صاح فيهم قائلاً:

"أروني على مَنْ ستقبضون"؟ ثمّ خبط بيده على صدره، وأخذ يقول: "أنا والد البطل"، ثمّ أشار بيده إلى "سون قوانغ بينغ"، وقال: "وهذا أخو البطل"، ثمّ أشار إلى أمّي، وقال: "وهذه أمّ البطل"، ثمّ نظر إليّ، ولكنه لم يقلْ شيئاً".

لم يُبدِ الشرطي أيّ اهتمام بما قاله، ثمّ سأله ببرود:

"مَنْ هو سون قوانغ تساي"؟

صاح والدي قائلاً: "أنا هو".

حينها قال له الشرطي: "فلتأتِ معنا، إذنْ".

ظلّ والدي ينتظر قدوم المسؤول الحكومي الذي يرتدي البدلة، ولكنْ، في النهاية جاءه أفراد يرتدون زيّ الشرطة. بعدما أخذت الشرطة والدي، جاء كبير القرية بصحبة أفراد عائلة الطفل الذي تمّ إنقاذه، ثمّ قال لأخي الأكبر وأمّي إن علينا أن تدفع لهم تعويضاً عمّا حدث. حينها كُنتُ أقف بجوار حافّة البركة، أنظر إليهم وهم ينقلون كل ما في بيتنا. تلك المنقولات التي جمعناها بعناء بعد ذلك الحريق الكبير، ها هي الآن قد أصبحت ملكاً للآخرين.

بعدها بأسبوعَيْن، خرج والدي من الحبس، بدا أبيضَ نظيفاً كطفل وُلد لتوّه. ذلك الوالد الذي كان صَلِفاً غليظاً في الماضي، بدا وهو يسير نحونا مثل مسؤول حكومي غَضّ البشرة. صار يجول في القرية، ويقول إنه سيذهب إلى بكين للشكوى، وعندما يسأله أحد متى ستذهب إلى بكين؟ كان يقول بعد ثلاثة أشهر حينما أتدبّر مصاريف السفر. إلا أنه بعد مرور ثلاثة أشهر، لم يذهب، بل ذهب إلى فراش جارتنا الأرملة.

صورة هذه الأرملة الباقية في مخيّلتي هي أنها سيّدة أربعينية ضخمة الجثّة، صوتها رَنّان، تسير بسرعة حافية القَدَمَيْن. وأكثر ما كان يُميّزها هو أنها عادة ما تحشو جلبابها في سروالها، وهو ما يجعل مؤخّرتها المملوءة أكثر إغراء. في تلك الفترة، كانت ملابسها على غير المعتاد. فحتى الشّابّة الصغيرة لم تكن تجرؤ على كشف خَصْرها وأردافها بهذا الشكل. كانت مؤخّرتها تهتزّ بشكل يهتزّ معها جسمها بالكامل. لم يكن لها صَدْر ملحوظ، فقد كان صدرها أملسَ أشبه بطريق إسمنتيّة مُمهَّدة من طُرُقات المدينة. أتذكّر أن العجوز "لوه" قال ذات مرّة إن لحم صدرها قد نما في مؤخّرتها. وكان يقول أيضاً: "الأمور هكذا أسهل بكثير، فعندما تتحسّس مؤخّرتها، وكأنك تتحسّس مؤخّرتها وصدرها معاً".

عندما كُنتُ صغيراً، وبعدما كُنّا ننتهي من العمل في الحقل في المساء، عادة ما كُنتُ أسمع هذه الأرملة تتحدّث إلى شبّان القرية، وتقول للواحد منهم:

"تعال إلى بيتي في المساء".

كان الشّابّ منهم يردّ عليها قائلاً:

"مَنْ هذا الذي يرغب في النوم معكَ؟! لقد صار جسدكِ مترهّلاً".

حينها لم أكن أفهم مغزى مثل هذه الحوارات. بعدما كبرتُ بدأتُ أفهم تدريجياً أن هذه الأرملة تمارس البغاء داخل القرية. في ذلك الوقت غالباً ما كُنتُ أسمع نكتة تقول: عندما يقفز أحدهم من النافذة ليلاً إلى داخل بيت الأرملة، فسوف يُسمَع صوتها وسط موجة من أصوات الأنفاس المتسارعة والتّأوّهات، وهي تقول: "توقّفْ توقّفْ، لقد جاء أحدُهم".

ونكته أخرى تقول: "عندما يتأخّر أحدهم على القدوم في المساء، كانت تقول له، عليكَ أن تأتي مبكّراً المرّة القادمة".

هذه النكات تعكس حقيقة ما، وهي أنه بمُجرّد حلول الليل، يصبح بيت الأرملة مَرْتَعَاً لراغبي الدعارة. حتّى في أشدّ أيّام الصيف حرارة، كانت أصوات التّأوّهات تتطاير من داخل البيت، لتصل إلى مسامع هؤلاء الجالسين في ساحة التجفيف هرباً من حرارة البيوت. وهو ما جعل العجوز "لوه" يقول مُحبَطاً:

"حتّى في هذا اليوم الحارّ لا تتوقّف عن العمل، يا لها من نموذج يُحتذى به في التفاني!".

تلك الأرملة الطويلة الضخمة تحبّ النوم مع الشّبّان الصغار. لا زلتُ أتذكّرها وهي تقف عند حافّة الحقل تتحدّث إلى إحدى نساء القرية بصوتها الجَهْوَرِيّ، وتقول:

"الشباب أقوياء، يهتمّون بالنظافة، أفواههم غير كريهة".

ومع ذلك، فقد كانت تُرحّب بحرارة بكبيرِ القرية الذي تخطّى الخمسين عاماً، ومات بعدها جرّاء مرض رئوي. فقد كانت أحياناً تفعل ذلك خضوعاً لسلطته. ولكنْ، بعدما تقدّمت في السّنّ، وبدأت تفقد رَوْنَقَهَا، كانت تُرحّب بكبار السّنّ.

في تلك الأثناء، دَلَفَ والدي "سون قوانغ تساي" إلى فراش هذه الأرملة الوحيدة، وكأنه يفعل ذلك بدافع العطف عليها. كان ذلك في مساء أحد أيّام بدايات الربيع، حيث دخل إلى بيتها حاملاً على كتفه رطلاً من الأرز، حينها كانت الأرملة تجلس على كرسي مرتفع، تخيط حذاءها، ثمّ رَمَقَتْهُ بطَرَف عينها.

وضع والدي الأرز أمام قَدَمَيْها وهو يبتسم، ثمّ حاول أن يعانقها.

مَدّت الأرملة يدها تمنعه، وهي تقول:

"تمهّلْ قليلاً".

ثمّ تابعت قائلة: "أنا لستُ من ذلك النوع الذي يفعل أيّ شيء لأجل المال".

قالت هذه العبارة، ثمّ مَدّت يدها تتحسّس فخذ والدي.

فردّ مبتسماً: "حسناً، وماذا الآن".

أجابت الأرملة: "أفضل كثيراً".

عاش والدي حياة الالتزام لفترة طويلة. إلا أن تحطُّمَ أوهامه وعَبَثَ الواقع به جعلاه يُقلع عن تلك الحياة. بعدها كان يُحدِّث الشباب بلهجة الناصح المُعتدّ بنفسه ذي الخبرة، ويقول لهم:

"عليكم استغلال سنوات شبابكم في ممارسة الجنس قدر الإمكان، وكل ما هو خلاف ذلك لا يهمّ".

كُنّا على علْم بكل ما يفعله والدي. وقد كانت أفعاله المشينة وعدم اكتراثه بالآخرين قد جعلت أخي الأكبر يشعر بالحرج الشديد. وفي يوم ما بعدما انتهى أبي من طعامه، واستعدّ لمغادرة البيت متّجهاً نحو بيت الأرملة، باغَتَهُ أخي الأكبر قائلاً:

"أعتقد أنه قد حان الوقت، لتُقلعَ عن أفعالكَ هذه".

أجابه والدي بلا مبالاة قائلاً:

"ومَنْ قال إن هناك وقتاً للإقلاع هذه الأفعال"؟

في تلك الأيّام التي كان فيها والدي "سون قوانغ تساي" يدخل إلى بيت الأرملة مُفعَماً بالنشاط والحيوية، ثمّ يخرج منها مُنهَكاً مُتعَباً، كُنتُ أسترق النَّظَر إلى والدتي والوساوس تكتنفني. فوالدتي المشغولة دوماً ولا تتحدّث كثيراً كانت تكتم غيظها، وتتظاهر وكأن شيئاً لم يحدث خلال تلك الأيّام. لا أعرف كيف كانت تفكّر والدتي في كل مرّة كان والدي يغادر بيت الأرملة، ثمّ يعود في ظلمة الليل، لينام بجوارها. وقف تفكيري طويلاً عند هذه النقطة، كُنتُ مَوْتُوْراً، ولكن التعاطف كان يحدوني، وأنا أُخمّن كيف تفكّر والدتي.

بعد ذلك حدث ما جَعَلَني أشعر أن تظاهر والدتي باللامبالاة يحمل في طيّاته غيظ شديد. فذلك الكره الشديد الذي كانت والدتي تحمله في داخلها تجاه هذه الأرملة جَعَلَني أرى مدى ضيق الأفق عند النساء. لمرّات عديدة، وددتُ لو حذَّرتُ أمّي أن عليها أن تكره أبي، وليس تلك الأرملة، وأن عليها أن تمنعَه عندما يعود لينامَ بجوارها. إلا أنني أعرف أنها لن تمنعه مهما حدث، وأنها ستظلّ تفتح له ذراعَيْها دوماً متى عاد إليها. ها قد انفجر غيظها أخيراً، في أحد الأيّام، كانت تَسْبَخُ الأرضُ، حيث مرّت الأرملة بجوارها من الطريق الترابية، تمشي مختالة بنفسها، كان هذا الاختيال والزَّهْو قد جعلا والدتي تستشيط غيظاً. لوّحت الأمّ التي كَتَمَتْ غيظاً طويلاً بعصا التسبيخ التي تمسكها في يدها جهة الأرملة، فتطايرت القاذورات على جسد الأرملة، حينها دوّى صوتها كما لو أنها تتحدّث في بُوق نُحاسي، وهي تقول:

t.me/ktabpdf

"هل أنتِ عمياء"؟

صاحت فيها الأمّ وهي ترتجف غيظاً:

"اذهبي إلى الساحة الرياضية في المدينة، واستلقي هناك بينما يصطفّ الرجال، ليمارسوا الجنس معكِ".

لم تُبدِ الأرملة أيّ تهاون، وأخذت تصرخ فيها قائلة:

"بأيّ صفة تتحدّثين معي هكذا؟ عودي إلى بيتكِ، واغتسلي جيّداً، فزوجكِ يقول إن رائحتكِ كريهة، لا يقدر على تحمُّلها".

أخذتا تتبادلان السباب والنعت بأقذر الألفاظ، كانت أصواتهما رنّانة أشبه ببَطّتَيْن تتعاركان، وهو ما جعل القرية التي كانت هادئة وقت الظهيرة

تعمّ بالصخب. بعد ذلك قامت والدتي النحيلة بالهجوم على هذه الأرملة بكل جرأة، فأوقعتْها أرضاً.

تصادف حينها عودة والدي من المدينة، كان يمسك بيده زجاجة نبيذ خلف ظهره، ويمشي مختالاً، ثمّ شاهد امرأتان تتشاجران هناك بعيداً وسط الحقول، تحمّس لمشاهدة ماذا يجري هناك، ولكنه ما إن اقترب لخطوات، وشاهد بوضوح مَنْ هما حتّى تراجع مذعوراً، يستعدّ للهرب. حينها أوقفه أحد المارّة، وقال له:

"اذهبْ، وانصحْهما بالكَفّ عن العراك".

هزّ والدي رأسه قائلاً:

"النصح لن يُجدي، إحداهما زوجتي، والأخرى عشيقتي، لن أستطيع أن أُسيء لأيٍّ منهما".

في تلك الأثناء، كانت الأرملة قد أوقعتْ أمّي ذات الجسد النحيل على الأرض، وجلست فوقها بمؤخّرتها الكبيرة. عندما شاهدتُ هذا المشهد من بعيد، كان الحزن يعتصر قلبي، فها هي والدتي قد فاض بها الكيل بعد أن تحمّلت هذا الذّلّ والهوان لوقت طويل، إلا أن ما حصدتْهُ في الأخير كان أيضاً ذلاً وهواناً.

لم تحتمل بعض نساء القرية هذا المشهد، فذهبنَ، وأزحنَ الأرملة بعيداً عنها، بالرغم من أن الأرملة غادرت المكان إلا أنها كانت المنتصرة في هذا العراك، فسارت رافعة رأسها تقول: "هذه العَقْرَبُ تريد أن تتحرّش بالأفعى".

جلست أمّي تبكي وسط الحقل، وهي تصرخ وتقول:

"لو كان ابني سون قوانغ مينغ حَيّاً، لاقتصّ منكِ".

في تلك الأثناء، كان أخي الأكبر الذي سبق وأن كان يُلوّح بيده بالسّكّين خلال واقعة الأرض قد اختفى. فقد كان يجلس معتكِفاً في غرفته، على علْم بكل ما يجري في الخارج، ولكنه لا يرغب أن ينخرط في هذا الشّجار المُملّ من وجهة نظره. فبكاء أمّي سوف يزيد من شعوره بالعار، ممّا يحدث داخل هذه العائلة، ولن يُوقِظ داخله الشعور بالغضب من أجل والدتي.

ليس بوسع الأمّ المهزومة الآن إلا أن تُحوِّل آمالها نحو ابنها الميّت. فهو بمثابة القشّة الوحيدة التي يمكنها التّمسّك بها عندما يتمكّن منها اليأس.

كُنتُ قد فهمتُ عدم مبالاة أخي الأكبر في بداية الأمر، على أنه لا يرغب أن يظهر وسط هذا المشهد المسيء لعائلتي. فهو لم يعد "سون قوانغ بينغ" الذي عرفه الجميع خلال واقعة الأرض. أستطيع أن أستشعر تلك الخيبة التي تملأ قلبه، وسخطه المستمرّ على هذه العائلة. فبالرغم من أن التناقض بيني وبينه كان لا يزال موجوداً، إلا أنه قد يحدث بيننا تفاهم غريب ناجم عن عدم رضانا المشترك عن هذه الأسرة.

بعدها بفترة قصيرة، وفي منتصف إحدى الليالي قبيل مغادرتي للباب الجنوبي، شاهدتُ شخصاً يتسلّل من النافذة الخلفية لبيت الأرملة، ثمّ يَدْلِفُ إلى بيتنا. عرفتُهُ على الفور، كان هو أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ". ومن ثمّ، عرفتُ أن هناك سبباً آخر لعزوفه عن الانخراط في شجار أمّي مع تلك الأرملة.

كان أخي يحمل بطانيّتي على ظهره لتوصيلي إلى موقف السّيّارات، بينما أوصلتْنا أمّي إلى مدخل القرية. وسط نسيم الفجر، وقفت أمّي تُودِّعنا بقلق. وعندما نظرتُ إليها للمرّة الأخيرة، اكتشفتُ أن شَعْرها قد ابيضّ. قُلتُ لها:

"إلى اللقاء".

لم يطرأ على والدتي أيّ ردّة فعل، فقد كانت تنظر إليّ نظرات مشوّشة، وكأنها تنظر إلى شيء آخر. حينها غمرني فيض من المشاعر، جَعَلَني بنوبة من الحزن. فمصيرها الذي تحوّل إلى نسمات ريح تتطاير في السماء المكشوفة أمامي شرع يختفي بلا أثر. شعرتُ حينها أنني لن أعود. إلا أنه مقارنة مع أبي وأخي الأكبر، فقد كان هجري لوالدتي بلا قسوة، تماماً كما كان هجر أخي الأصغر لها. كان والدي وأخي الأكبر هما مصدر القسوة، فهجرهما لها كان للذهاب إلى فراش الأرملة التي كانت هي أكثر شخص تكرهه أمّي. تلك الأمّ التي فقدت وعيها لا تزال تبذل كل ما في وسعها من أجل الحفاظ على هذه الأسرة.

بعدما غادرتُ البيت، بدا أبي وكأنه شخص يبذل كل ما في وسعه، ليتحوّل إلى وغد مارق، بل إنه تحوّل إلى شَيَّال في الوقت نفسه، حيث كان ينقل كل شيء ذي قيمه داخل بيتنا إلى بيت الأرملة، وهو ما أطال من أمد العلاقة بينهما. كان يحصل منها على مبتغاه نظير إخلاصه. ففي تلك الأيّام، أخذت تلك الأرملة تكبح جماح شهواتها. فقد بدا أن تلك المرأة التي قاربت الخمسين من عمرها قد أصبحت غير قادرة على إطلاق العنان لنزواتها التي كانت تكتسح كل ما في طريقها في الماضي.

فَقَدَ أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" حينها جرأتَهُ التي كان عليها عندما كان في الرابعة عشرة. تعلّم أن يكتم بداخله كما كانت تفعل أمّي، فكان يشاهد أفعال أبي المشينة كلها في صمت. كانت أمّي تُحدِّثه أحياناً بنبرة قَلَق، وتقول له إن أباه قد أخذ شيئاً آخر إلى بيت الأرملة، فكان يواسيها قائلاً:

"سنشتري بدلاً منه فيما بعد".

في الحقيقة، أن أخي لم يكره تلك الأرملة أبداً، بل حتّى إنه كان يحمل

لها في داخله بعض الامتنان. فتلك الليالي التي كان يدخل ويخرج فيها من النافذة الخلفية لبيتها، كانت قد جعلتْه يعيش قلقاً مضطرباً لفترة طويلة من الوقت، وكان هذا سبباً رئيساً، لعدم تدخّله في تصرّفات والده المشينة. أمّا الأرملة، فلم تُخبر أيّ أحد بأمره، ربّما لأنها لم تكن تعرف مَنْ هذا الشّابّ الذي يأتي خلسة إلى بيتها في تلك الأيّام. فهي لم تكن معتادة على الاستفسار عن هوية أولئك الرجال الذين يقصدونها للمتعة في جنح الليل، هذا بخلاف والدي "سون قوانغ تساي" الذي كان يأتي إلى بيتها في وضح النهار، ومن السهل أن تعرف مَنْ هو.

تبدّدت ثقة أخي واعتداده بنفسه بعد تخرّجه في المرحلة الثانوية وعودته للقرية لفلاحة الأرض. في البداية غالباً ما كُنتُ أشاهده مستلقياً على فراشه مفتوح العينَيْن، تلك النظرات الشاردة جعلتْني أفهم ما يفكّر فيه. كُنتُ أعرف أن أكبر أُمنيّات أخي الأكبر هي مغادرة قرية الباب الجنوبي، وأن يعيش حياة أخرى جديدة. شاهدتُهُ مرّات عديدة يقف عند نهاية الحقل، يُحملق في أولئك العجائز المتعَبين الذين امتلأت وجوههم بالتجاعيد وأجسادهم بالطين. كُنتُ أشاهده حينها وعيناه مملوءتان بالحزن والخيبة. فقد كانت هذه المشاهد المأساوية تُذكّره بالجزء الأخير من المصير الذي سيواجهه.

تدريجياً أخذ "سون قوانغ بينغ" يستسلم لذلك المصير الذي فرضه عليه واقعه، وبدأ يشعر برغبته العارمة المشوّشة تجاه النساء. فحاجته للنساء لم تعد كحاجته للأرملة في السابق، بل كان يحتاج إلى امرأة تحافظ على نفسها، وتحميها، وتكون لها القدرة على انتشاله من الليالي المضطربة، وتعيد إليه الهدوء الذي لا يبتغي سواه. ولذلك فقد خطب لنفسه عروساً.

فتاة عادية الشكل، تعيش في مبنى مُكوَّن من طابقَيْن بإحدى القُرى المجاورة. ويمرّ من أسفل نافذة بيتها الخلفية ذلك النهر الذي كان قد ابتلع أخي الأصغر. ولأنها أوّل أسرة تبني بيتاً من طابقَيْن في القُرى المجاورة، فقد ذاع صيت ثراء عائلتها. لم يكن أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" قد خطبها لهذا السبب، فهو يعرف جيّداً أن عائلتها كانت لا تزال مدينة بمبلغ من المال حتّى بعد انتهائها من بناء هذا المبنى بعام كامل، ولن تستطيع أن تُقدّم لابنتها جهاز عروس، يستحقّ التباهي. كانت هذه الفتاة هي هدية الخاطبة ملفوفة القَدَمَيْن التي تُشبهُ خطواتها قفزات البرغوث. جاءت الخاطبة إلى بيتنا في مساء أحد الأيّام والبسمة تعلو وجهها، وأخي الأكبر كان يعلم لماذا جاءت، ويعلم أيضاً أنه سيوافق.

لم يكن والداي على دراية بِنِيّة أخي في الزواج. لم تكن أمّي هي مَنْ أخبرت أبي بهذا الأمر، بل كانت الأرملة هي مَنْ أخبرتْهُ. بعدما علم والدي بهذا الخبر، شعر أن من واجبه أن يذهب ويتقصّى عن هذا الأمر:

سأل الأرملة قائلاً: "كيف تبدو هذه الفتاة التي ستنام بجوار ابني؟".

في يوم لاحق، عقد أبي يَدَيْه خلف ظهره، وسار مَحنيّ الجسد والابتسامة تعلو وجهه قاصداً بيت تلك الفتاة. غير بعيد، شاهد البيت الذي تسكن فيه عائلة الفتاة، ولذلك كانت أوّل جملة قالها لوالد الفتاة هي:

"ابني الأكبر سون قوانغ بينغ محظوظ حقّاً".

كان والدي يجلس في بيت عروس أخي بحُرّيّة كاملة، كما لو كان جالساً على فراش الأرملة. والعبارات القبيحة تتطاير من فمه بلا قيود. كان أخو الفتاة الأكبر يحمل في يده زجاجة الخمر، ثمّ يعود بها فارغة، ووالدة الفتاة داخل المطبخ، حيث كانت الأصوات والرائحة بالداخل قد جعلت لُعابه

يسيل. حينها كان والدي قد نسي أنه قد جاء لرؤية عروس أخي، أهل العروس هم مَنْ ذكّروه بذلك.

بدأ والد الفتاة بالمبادرة، ونادى على العروس التي لم يلبث "سون قوانغ تساي" أن سمع اسمها حتّى نسيه. ردّت الفتاة من الطابق الأعلى، وبدا كما لو أن الحياء يتملّكها، ولا ترغب في النزول. صعد أخوها الأكبر، ليتحدّث معها، ثمّ نزل بعد قليل، وأخبر "سون قوانغ تساي" مبتسماً:

"أختي تشعر بالخجل، ولا تريد أن تنزل".

أبدى أبي تفهُّمه، وكرّر قائلاً:

"لا يهمّ، لا يهمّ، إن لم تكن ترغب في النزول، سأصعد أنا".

نظر سون قوانغ تساي بطَرَف عينه إلى المطبخ، ثمّ صعد إلى الطابق الأعلى، ليرى الفتاة. بعدما صعد والدي إلى الطابق الأعلى بقليل، سمع والدا الفتاة في الأسفل صوت صراخ شديد، أُصيب والد الفتاة الذي كان جالساً بالأسفل بالذهول، فيما هُرعت الأمّ من المطبخ مذعورة. وبينما كانا يحاولان أن يفهما ما سبب هذا الصراخ، إذ بهم يشاهدون "سون قوانغ تساي" ينزل من الأعلى، ويقول مبتسماً:

"رائع، رائع".

دوّى صوت صرخات مكتومة قادم من الطابق الأعلى، وكأن شخصاً يحاول الصراخ، ولكن فمه مكتوم بقُماش، لا يستطيع نزعه.

جلس والدي بجوار طاولة الطعام، وكأن شيئاً لم يحدث، وعندما صعد أخو الفتاة ليكتشف ماذا يجري، قال أبي لوالد الفتاة:

"ابنتُكَ قوية البنية حقّاً".

بدا والدا الفتاة في حَيْرَة من أمرهما بعدما استمعا إلى كلامه، وشرعا ينظران إليه نظرة شكّ وريبة، فيما استمرّ هو يقول:

"ابني الأكبر سون قوانغ بينغ محظوظ حقّاً".

حينها نزل أخو الفتاة من الطابق الأعلى، وهجم على أبي مباشرة، ثمّ لكمه لكمة أطاحت به.

وفي المساء، عاد إلى القرية وعيناه متورِّمتان، والدماء تسيل من أنفه، وما إن شاهد أخي حتّى بادره قائلاً:

"لقد رفضتُ تلك الزيجة".

ثمّ شرع يصرخ غاضباً وهو يقول:

"أين العقل والإنصاف؟! أنوب عن ابني في رؤية زوجته المستقبلية، فيضربني أهلها بهذه الطريقة".

أمّا أهل القرية، فكانوا يتناقلون مقولة أخرى، وهي أن والدي ذهب لبيت خطيبة أخي الأكبر، وكانت أوّل هدية يقدّمها لها هي أنه تحسّس صدرها بيده.

وهكذا انتهى موضوع زواج أخي قبل أن يبدأ. كانت أمّي تجلس بجوار الموقد، تُجفّف دموعها خلسة بمَرْيَلَتِهَا. أمّا أخي الأكبر، فلم يتشاجر مع والدي بخصوص هذا الأمر، كما كان أهل القرية يتوقّعون، بل كانت أقصى ردّة فعل له، هي أنه امتنع عن الحديث مع الناس لعدّة أيّام متتالية.

خلال عامَيْن تَلَتْ تلك الواقعة، لم يشاهد أخي خاطبة القرية تسير

نحوه مبتسمة، كما كان الحال قبلها. فخلال تلك الأيّام، ما إن يستلقي على سريره ليلاً حتّى يشرع يعضّ على أسنانه وهو يتذكّر والدي. ومع حلول النهار، كان أحياناً ما يتذكّر أخاه الأصغر الذي يدرس في بكين. حينها كُنتُ غالباً ما أستقبل رسائل بريدية، يرسلها لي أخي الأكبر، إلا أنه لم يكن يقول في رسائله شيئاً. تلك الرسائل الخالية من المضمون، جعلتْني أدرك أنها تُعبِّر عن حقيقة مكنون قلب أخي الأكبر الفارغ.

تزوّج أخي في الرابعة والعشرين من عمرة بفتاة من القرية نفسها. اسمها "ينغ هوا"، والدها مصاب بالشَّلَل راقد في سريره. تعرّف إليها في البداية عند البركة. ففي ليلة غائمة، نظر أخي من النافذة الخلفية، فشاهد "ينغ هوا" تغسل الملابس هناك. كانت تلبس ملابس رثّة تبكي، وتمسح دموعها التي تنهمر من عينَيْها بلا توقّف، بسبب قسوة الحياة، بدت من الخلف وكأنها ترتجف بسبب لفحات الهواء البارد، هذا المشهد أيقظ الحزن الدفين داخل قلب أخي، بعد ذلك نشأت بينهما علاقة دون الحاجة، لتدخل خاطبة القرية التي لم تهتمّ بمساعدتهما.

أُقيم زواج أخي الأكبر في العام التالي لواقعة رؤيته للفتاة عند البركة. كان حفل زواجهما فقيراً ومتواضعاً، وهو ما جعل كبار السّنّ في القرية يسترجعون بسهولة ذكريات حفلات الزواج في المجتمع الإقطاعي قديماً. كانت مشية العروس "ينغ هوا" ببطنها الكبير قد أضفت طابَعاً من الفكاهة على هذا العرس. وقبل شروق الشمس في صباح اليوم التالي، استعار العريس عربة يدوية مسطّحة، وحمل عليها زوجته ينغ هوا، ثمّ توجّه بها نحو مستشفى المدينة. بالنسبة إلى زوجَيْن جديدَيْن، يُعدّ صباح اليوم التالي للزواج من أسعد الأوقات، وأكثرها حميمية، حيث يقضي الزوجان وقتاً ممتعاً وسط دفء الفراش. إلا أنه بالنسبة إليهما لم تكن الأمور كذلك،

فقد كان عليهما أن يتحمّلا برودة الجوّ وقت الفجر، وأن يصلا أمام النافذة الزجاجية لقسم الولادة بمستشفى المدينة قبل طلوع الشمس. وبحلول الثانية من ظهر اليوم نفسه، جاء إلى عالم البشر، وسط أصوات صراخ وبكاء غاضب، طفلٌ، سُمّي لاحقاً "سون شياو مينغ".

كان زواج أخي بمثابة دخوله إلى الشَّرْنَقَة بنفسه، فبعد زواجه، توجّب عليه رعاية حماه الذي يرقد في سريرة مصاباً بالشَّلَل. في تلك الأثناء، لم يكن والدي قد كفّ عن عادة نقل ممتلكات بيتنا إلى بيت الأرملة، ما يبعث على المواساة هو أنه صار مكتفياً بنقل الأشياء الصغيرة، ولم يعد ينقل الأشياء الكبيرة كما كان يفعل في الماضي. أظهر أبي براعة في عمل شيء آخر، ألا وهو السرقة. واستمرّت حياة أخي المعقّدة لعدّة سنوات، إلى أن توفيّ حماه. ربّما كان حماه قد شعر بالأسف نتيجة للمتاعب التي سبّبها لزوج ابنته، حيث أغمض عينَيْه في إحدى الليالي، ولم يفتحهما ثانية. بالنسبة إلى أخي الأكبر، لم يكن موت حماه المشلول أو ممارسة والده لأعمال السرقة هي أكثر ما يُنغِّص عليه، بل كانت هي تلك الأيّام التي وُلد فيها ابنه "سون شياو مينغ". في تلك الأيّام، كان أخي مثل الآلة التي لا تتوقّف، من الحقل إلى بيت زوجته، ومن بيت زوجته إلى بيته، نادراً ما كان أحد من أبناء القرية يشاهده يمشي في الطريق، فقد كان يتنقل بين هذه الأماكن بسرعة مثل الأرنب.

كان موت الحما قد أزاح بعض الحمل عن كاهله، إلا أن الحياة الهادئة المستقرّة لم تزل بعيدة عنه. فبعدها بفترة قصيرة، عاد والدي لممارسة عادته القديمة، وتحرّش بزوجة أخي، وهو ما جعل "ينغ هوا" تبكي بحرقة لثلاثة أيّام متواصلة.

حدث ذلك في أحد أيّام الصيف، عندما كان ابن أخي "سون شياو

مينغ" في الثالثة. كان والدي يجلس على عتبة الباب، يتطلّع إلى "ينغ هوا" التي كانت تملأ الماء من البئر. بينما كانت تنحني بجسدها، تملأ الماء، شاهد أبي تلك الزهور المطرّزة على مؤخّرة سروالها القصير، وكأنها تتفتح وتنكمش بمصاحبة حركات أردافها الممتلئة، فيما بدا فخذها لامعاً أسفل أشعّة الشمس. كان والدي قد صار هامداً خاملاً، بسبب كبر سنّه وتردّده المستمرّ على الأرملة في الماضي. إلا أن رؤيته لتفاصيل جسد "ينغ هوا" قد جعلتْهُ يستذكر قُوّته وطاقته في الماضي بشكل يستدعي الذهول. لم يكن "أبي يستذكر الماضي بعقله، بل بذلك الجزء الأسفل الذابل من جسده، هذه الحالة جعلتْهُ يستعيد رغبته الجنسية الجامحة من جديد. فبينما كانت "ينغ هوا" تحمل دلو الماء، وتمرّ بجواره، احمرّ وجهه، وسعل بصوت عالٍ، ثمّ مدّ هذا العجوز المريض بالسّلّ يده، وتحسّس ذلك التطريز على سروالها، ثمّ قرصها من مؤخّرتها. حينها سمع ابن أخي"سون شياو مينغ" ذو الثالثة صراخ والدته، شرع يبكي بحدّة من شدّة الخوف.

في ذلك اليوم، كان أخي قد ذهب إلى المدينة، لقضاء بعض الحاجات، بعد عودته شاهد والدته تجلس على عتبة الباب، تبكي بحرقة، وتقول مُحدّثة نفسها:

"يا للعار والإثم!".

ثمّ شاهد "ينغ هوا" تجلس على حافّة سريرها منكوشة الشَّعْر.

حينها دخل أخي الذي فهم لتوّه ما جرى إلى المطبخ، وأمسك بفأس لامعة، وذهب إلى "ينغ هوا" التي كانت تبكي هناك، وقال لها:

"اعتني جيّداً بوالدتي وابننا".

فهمت "ينغ هوا" ما الذي ينوي زوجها فعله، فشرعت تَجْذِبُهُ من ملابسه، وتصرخ قائلة:

"لا، أرجوكَ، لا تفعلْ".

في تلك الأثناء، كانت والدتي تجثو على ركبَتَيْها فاتحة ذراعَيْها أمام المدخل، لتمنع أخي الأكبر من المرور. كان صوتها قد بُحّ من كثرة البكاء في ذلك اليوم، وبالرغم من أن عينَيْها كانتا مغرورقَتَيْن بالدموع، إلا أنها استجمعت قواها، وقالت له برباطة جأش:

"لو قتلتَهُ، فستكون أنتَ الخاسر".

كانت هذه الحالة التي بدت عليها والدتي قد جعلت أخي الأكبر يبكي هو الآخر، ويصيح فيها قائلاً:

"انهضي من مكانكِ، إن لم أقتلْه، فلن أتمكّن من العيش في هذه القرية بعد اليوم".

ظلّت والدتي جاثية هناك دون حراك، ثمّ قالت له بصوتها المبحوح:

"انظرْ إلى ابنكَ ذي الأعوام الثلاثة، قَتْلُكَ لوالدكَ لن يُجدي نفعاً".

تمالك أخي نفسه، وقال بأسى:

"ليس هناك حيلة أخرى".

هذا الذّلّ الذي لحق بزوجته "ينغ هوا" قد جعله عازماً على تصفية ذلك الحساب مع والده. فقد تحمّل العار الذي جلبه الأب خلال السنوات الماضية، ولكن هذا التّصرّف غير المعقول أوصل علاقة الابن والأب إلى

طريق مسدودة. في خضمّ هذه الموجة من الغضب العارم، أدرك أخي جيّداً أنه إن لم يأخذ موقفاً ممّا حدث، فلن يكون له موطئ قَدَم في القرية بعد ذلك.

في تلك الظهيرة، كان مَنْ في القرية جميعهم يقفون أمام بيوتهم، حيث وقف أخي الأكبر هناك وسط أشعّة الشمس الساطعة محاطاً بنظراتهم اللاذعة، يُلوّح بفأسه، مستعيداً بذلك هيئته التي كان عليها في الرابعة عشر من عمره عندما وقف يُلوِّح بسكّينه لأبناء عائلة "وانغ". سار أخي الأكبر حاملاً فأسه قاصداً والدي.

حينها كان والدي واقفاً أسفل شجرة أمام بيت الأرملة، أخذ يتطلّع إلى أخي الأكبر بنظرات مملوءة بالشكوك والريبة، ثمّ سمعه أخي الأكبر يقول للأرملة:

"هل يُعقَل أن هذا اللعين قادم لقَتْلي"؟

ثمّ صرخ فيه قائلاً:

"يا ولدي، أنا أبوكَ".

لم ينبس الابن ببنت شفة، ومضى نحوه والشَّرَر يتطاير من عينَيْه، ومع اقتراب أخي، صرخ والدي مذعوراً، وهو يقول:

"لديكَ أبٌ واحد فقط، لو قتلتَني، ستُصبح بلا أب".

بعدما انتهي والدي من صرخته، كان أخي الأكبر قد اقترب حتّى صار أمامه تماماً، ارتجف صوت والدي وهو يقول:

- "هل ستقتلني حقّاً"؟

- قالها، ثمّ فرّ هارباً، وهو يقول:

- "النجدة، أغيثوني".

عمّ السكون الأجواء في تلك الظهيرة. فبعدما تجاوز والدي السّتّين من عمرة، شرع في رحلة هروبه من الموت. كان يركض على تلك الطريق الصغيرة المؤدّية إلى المدينة دون أن يبدو عليه أيّ تعب أو إرهاق. أمّا أخي الأكبر، فكان يلاحقه مُمسِكاً فأسه. كان صوت أبي وهو يصرخ طالباً النجدة حينها قد فَقَدَ نبرته المعتادة، حتّى إن العجوز "لوه" الذي كان واقفاً أمام مدخل القرية قد سأل أحد الواقفين بجواره قائلاً:

"هل هذا صوت سون قوانغ تساي"؟

والدي الطاعن في السّنّ يهرب بهذه الطريقة، يا له من عار! ما إن وصل إلى الجسر الخشبي حتّى تعثّر وسقط على الأرض، وشرع في البكاء، وبصوت عالٍ كالأطفال.

بعدما لحقه أخي إلى الجسر الخشبي، وشاهده على تلك الهيئة المزرية. دموع والدي المنهمرة جعلت وجهه مُبهرَجاً كالفراشة، ومخاطة المتدلّي يهتزّ بلا توقّف. كان منظره حينها قد جعل أخي يشعر فجأة أن قَطْعَهُ لرأس والده أمر لا يمكن تصوُّره. الابن الذي كان مُصرّاً على قَتْل والده منذ قليل ها هو قد يقف متردّداً في مواجهة هذا الموقف. إلا أنه عندما شاهد جموع أهل القرية يرقبونه، عرف أنه لا سبيل آخر أمامه. لا أعرف ما الذي شدّ انتباه أخي الأكبر تجاه أذن والدي اليسرى. ففي ذلك الوقت الذي كانت فيه أشعّة الشمس على أشدّها، أمسك أخي بأذن والدي، ثمّ قَطَعَهَا بفأسه، وكأنه يقصّ قطعة قُماش. سالت دماء والدي الحمراء الداكنة بغزارة، فبدا وكأن هناك وشاحاً أحمر يحيط بعنقه. حينها

أحاط "سون قوانغ تساي" نفسه بصرخاته المُدوّية، فلم يكن لديه شعور بما يحدث. بدا مندهشاً عندما شعر أن الدموع تنهمر من عينَيْه بغزارة، مدّ يده يتحسّس، فشاهد دماءه المنهمرة، صرخ عدّة صرخات، ثمّ دخل في غيبوبة.

سار أخي الأكبر نحو البيت وجسده يرتجف، ففي ذلك اليوم الصيفي الحارّ، كان يمشي مُمسِكاً بكتفَيْه، وكأنه يشعر البرد. سار مخترِقاً ذلك الحشد من أهل القرية، حتّى إنهم سمعوا بوضوح صوت أسنانه وهي تصطكّ ببعضها كَمَنْ يرتجف برداً. جلستْ والدتي بصحبة زوجته، تنظران إليه بوجه شاحب وهو قادم نحوهما. شعرت هاتان المرأتان حينها وكأن هناك نقاط سوداء لا حصر لها أمام أعينهما، وكأن أسراباً من الجراد تغطّي السماء. نظر إليهما أخي بابتسامة باردة، ثمّ دَلَفَ إلى غرفته، وأخذ يبحث داخل خزانة ملابسه عن معطفه الشتوي. بعدما دخلت والدتي وخلفها "ينغ هوا" إلى الغرفة، كان أخي الأكبر جالساً فوق سريره مرتدياً معطفه، وجسده لا يزال يرتجف.

بعدها بأسبوعَيْن، ذهب أبي الذي كان يلفّ رأسه بضمادة قُماشية إلى أحد أصحاب المكتبات في المدينة، وطلب منه أن يكتب رسالة إلى الحكومة في بكين. كانت الرسالة مملوءة بالكلمات المعسولة، وحديث والدي عن فضله عليّ، ثمّ اختتمها بطلبه منّي الذهاب إلى مقرّ الحكومة، لأشتكي أخي الأكبر نيابة عنه. كانت هذه الأوهام التي يعيش فيها والدي قد تركتْ لديّ انطباعاً عميقاً.

حقيقة الأمر أن أخي الأكبر كان قد اعتُقل قبل أن يكتب لي والدي خطابه. فعندما اقتادتْهُ الشرطة من البيت، كانت والدتي ومعها "ينغ هوا" تقفان في الطريق، لتمنعا الشرطة من اعتقاله. كانت والدتي العجوز تبكي بصوت مكتوم، ولكنها صاحت في الشرطي قائلة:

"اقبضْ علينا نحن الاثنتَيْن بدلاً منه، اثنتَان مقابل واحد، ألا يكفيكَ هذا"؟

مكث أخي الأكبر في السجن لمدّة عامَيْن، وبعد خروجه، كان المرض قد لازم والدتي. في اليوم الذي أُفرج فيه عنه، كانت أمّي قد اصطحبت ابن أخي "سون شياو مينغ" ذا الخمسة أعوام تنتظر قدوم أخي الأكبر عند مدخل القرية. إلا أنها تقيّأت دماً، وسقطت على الأرض عندما شاهدتْهُ قادماً من بعيد بصحبة زوجته "ينغ هوا".

بعدها ساءت حالت والدتي بمرور الوقت، ولم تعد قادرة على المشي. قرّر أخي اصطحابها للمستشفى، إلا أنها كانت ترفض قائلة:

"سأموت على أيّ حال، لا داع لإنفاق المال على علاجي".

إلا أنه حملها على ظهره عنوة، وسار بها نحو المدينة، بينما كانت والدتي تضرب على ظهره وهي تبكي قائلة:

"سأظلّ أكرهكَ حتّى الموت".

هدأتْ والدتي بعدما عبر أخي الأكبر بها ذلك الجسر الخشبي، ثمّ أرختْ رأسها على كتفه، وارتسمت على وجهها علامات خجل، كما لو كانت شابّة صغيرة.

ماتت والدتي قبل حلول عيد الربيع في ذلك العام، فقد كانت تتقيّأ دماً بلا توقّف في تلك الليلة الباردة. في البداية، شعرتُ أنها تقيّأت بعض الدماء، ولكنها حبستْها في فمها، ولم تبصقها على الأرض. كانت تخشى أن تتّسخ الأرض، فيأتي ابنها الأكبر "سون قوانغ بينغ"، ويمسحها بنفسه. والدتي التي كانت تستلقي على الفراش بلا حراك، استطاعت

حينها أن تنهض من فراشها في عتمة الليل، وأن تجلب وعاء فارغاً إلى جوارها حتّى تتقيّأ فيه.

عندما ذهب أخي الأكبر إلى غرفتها في صبيحة اليوم التالي، شاهدها مستلقية على السرير رأسها مائل عند الحافّة، وهناك طبقة من الدم الأحمر الداكن داخل الوعاء، فيما كانت ملاءة السرير نظيفة كما هي. جاءني خطاب من أخي الأكبر، أخبرني فيه أن والدتي قد لفظت آخر أنفاسها، وقضت آخر أيّامها في ذلك الجوّ البارد الذي كانت تتساقط فيه الثلوج خارج غرفتها. كانت زوجة أخي جالسة بجوارها، بينما كانت والدتي ترقد هادئة الملامح. وبحلول المساء، تعالت أصوات صرخات والدتي بشكل يصيب بالذهول. سمع والدي "سون قوانغ تساي" صرخاتها، فبالرغم من أنها كانت تحافظ على صمتها دوماً عندما كان والدي ينقل ممتلكات البيت إلى بيت الأرملة. إلا أن صوت صراخها الأخير كان برهاناً على أنها كانت تكتم غيظها. قبل أن تموت والدتي أخذت تُردِّد بصوت عالٍ قائلة:

"لا تأخذ وعاء التّقيّؤ من هنا، أريد أن أستعمله ثانية".

وكانت تقول أيضاً: "أعطني وعاء غسل القَدَمَيْن".

ظلّت والدتي تصرخ بأسماء الأشياء التي نقلها في السابق إلى بيت الأرملة.

كانت جنازة والدتي أكبر حجماً من جنازة أخي الأصغر، فقد دُفنت داخل تابوت. أمّا والدي، فقد احتلّ موقعي السابق، فهو الآن معزول عن العائلة. وكما كان الآخرون ينتقدوني، بسبب عدم مشاركتي في جنازة أخي الأصغر، ها هم الآن ينتقدونه لعدم مشاركته في جنازة والدتي، بالرغم من

علْمهم بعلاقته بالأرملة. عندما نظر والدي إلى والدتي المستلقية داخل التابوت، نظر مشدوهاً إلى أحد القرويّيْن بجانبه، وسأله:

"هل ماتت هذه العجوز"؟

بعدها شاهد أهل القرية أبي يجلس في بيت الأرملة يحتسي الخمر طيلة الظهيرة. وفي منتصف ليلة ذلك اليوم، سمعوا صوت صراخ حادّاً قادماً من خارج القرية. علم أخي الأكبر أنه صوت والدي يبكي عند قبر أمّي. كان أبي قد تسلّل خلسة من بيت الأرملة، وذهب إلى قبر أمّي، أخذ يبكي بحرقة حتّى إنه لم يكن يدري أنه يصرخ بهذه الحدّة. بعدها بقليل، سمع أخي الأكبر صوت الأرملة وهي تنهره وتأمره قائلة:

"عُدْ إلى البيت".

سار والدي نحو بيت الأرملة يكتم بكاءه، ووَقْعُ خطواته أشبه بطفل تائه متردّد في مشيته.

بعدما تبدّدت الرغبة الجنسية لتلك الأرملة مع تقدُّمها في السّنّ، تقبّلت إقامة "سون قوانغ تساي" معها رَسْمِيّاً.

فقد صار مُولَعاً بالخمر في أواخر أيّامه. كان يذهب إلى المدينة لشرائها يوميّاً، بغَضِّ النَّظَر عن طبيعة الجوّ، وقبل عودته إلى البيت، يكون قد انتهى من شرب ما في يَدَيْه. يمكنني أن أتخيّل الحالة التي كان عليها والدي. فتأثير الخمر قد جعله مَحنيّ الظهر يسير على هذه الطريق المملوءة إمّا بالغبار المتطاير أو الطين المُوحِل، وكأنه مراهق يشاهد حبيبته، والنسيم يداعب شَعْرها.

كانت الخمر التي أُولِعَ بها أبي هي مَنْ اقتادتْهُ إلى قبره. ففي أحد

الأيّام، أقلع عن تلك العادة في الطريق، والتي لازمتْهُ طويلاً، حيث قضى لحظات ثُمَالَتِه داخل إحدى الحانات في المدينة هذه المرّة. وبينما كان يسير ثملاً عائداً إلى بيته، سقط داخل حُفرة الصَّرْف. لم يصدرْ عنه أيُّ صوت هَلَع أو صراخ حينها، فقط غَمْغَمَ قائلاً:

"لا تدفعْني".

وعندما اكتشف الناس هذه الواقعة في صباح اليوم التالي، كان جسده طافياً على سطح حفرة الصَّرْف مملوءاً بالديدان البيضاء. لقد مات في أكثر الأماكن قذارة، إلا أنه لم يكن يعرف ذلك وقت موته، ولديه الحقّ في أن يعدّ نفسَهُ قد مات ميتة مطمئنّة.

في مساء اليوم الذي سقط فيه أبي في حفرة الصَّرْف، كان هناك سِكِّير آخر، هو العجوز "لوه" قد سار مخموراً بجوار هذا المكان. وعندما نظر بعينَيْه المُشَوَّشَتَيْن إلى "سون قوانغ بينغ" لم يكن يدرك أن هذا الشيء هو جسد شخص ميّت، يطفو فوق سطح الحفرة. جلس بجوار الحفرة، وظلّ يتفحّص هذا الشيء، ثمّ قال مُحدِّثاً نفسه في حَيْرَة:

"نعجةُ مَنْ هذه"؟

نهض واقفاً، وأخذ يصرخ قائلاً:

"نعجةُ مَنْ هذه التي سَقَطَتْ ....."؟.

لم يُكمِل جملته، ثمّ وضع يده على فمه، وحدَّث نفسَه هامساً:

"لا داعي لأن أُخبِر أحداً، سوف أستخرجها بنفسي من الحفرة، لآكلها دون أن يعرف أحد".

ذلك العجوز "لوه" الذي كان تحت تأثير الخمر بشكل كامل، سار مترنّحاً نحو بيته، ثمّ أخذ عصا خيزران سميكة، وحبلاً من الكتّان، وعاد مترنّحاً إلى حفرة الصَّرْف. مدّ عصا الخيزران، ليَجْذِبَ جثّة أبي نحو حافّة الحفرة، ثمّ جثا على ركبَتَيْه، وأمسك بالحبل، وربطه في عنق الجثّة وهو يُحدِّث نفسه:

"نعجةُ مَنْ هذه الهزيلة إلى هذا الحدّ؟! رقبتها أشبه برقبة الشخص العادي".

ثمّ نهض واقفاً، ووَضَعَ الحبل على كتفه، ليجرّ الجثّة إلى الخارج. كانت الجثّة ثقيلة حتّى أنه حدّث نفسه ضاحكاً: "منظرُها يبدو هزيلاً، إلا أنها سمينة ثقيلة الوزن".

بعدما قام "لوه" بسَحْب الجثّة إلى خارج الحفرة، انحنى بجسده، ليفكّ الحبل، فاكتشف أنه "سون قوانغ تساي". وكاد العجوز أن يموت فَزِعَاً، ثمّ ضرب الجثّة على وجهه غاضباً، وهو يسبّه قائلاً:

"سون قوانغ تساي، أيّها اللعين، ها أنتَ قد متَّ، وتتظاهر بأنكَ حيوان ميّت، لتخدعني".

ثمّ رَكَلَه برجله رَكْلة، أعادتْهُ إلى حفرة الصَّرْف. ما إن وقعت الجثّة داخل الحفرة حتّى تطايرت منها بعض القاذورات على وجه العجوز "لوه" الذي مَسَحَها، وهو يقول:

"أيّها اللعين، لا زلتَ تسخرُ منّي".

الميلاد

في خريف عام ١٩٥٨، كان الشّابّ "سون قوانغ تساي" قد تعرّف إلى "تشنغ يوي دا" الذي شغل لاحقاً منصب رئيس المكتب التجاري في طريق ذهابهما إلى قرية الباب الجنوبي. عندما كان "تشنغ يوي دا" في أواخر أيّامه أخذ يحكي لابنه "تشنغ ليانغ" عن أصل تلك الحكاية. كان "تشنغ يوي دا" يعاني حينها من سرطان الرئة، فكانت تفاصيل الحكاية التي يرويها مختلطة بصوت الأزيز الصادر من رئَتَيْه. وبالرغم من ذلك إلا أن البسمة كانت تعلو وجه "تشنغ يوي دا" وهو يتذكّر تفاصيل الحكاية. كان "تشنغ يوي دا" قد ذهب لقرية الباب الجنوبي لتفحّص العمل هناك، بوصفه عضواً في لجنة الأعمال الزراعية. حينها كان الشّابّ "تشنغ يوي دا" يرتدي بزّة صينية رمادية، ويلبس حذاء رياضياً من ماركة "نصب التحرير المزدوج"، فيما كان شَعْره المفروق من منتصفه يتطاير إلى الخلف قليلاً. أمّا والدي "سون قوانغ تساي"، فكان يرتدي صِدِيْرِيّاً مفتوحاً من الأمام، ويلبس حذاء قُماشياً، حاكتْهُ له والدتي على ضوء المصباح الزيتي.

قام كان والدي "سون قوانغ تساي" بنَقْل حمولة مركب من الخضروات إلى المدينة المجاورة لبَيْعها. وبعد أن انتهى، خطرت في باله فجأة فكرة غريبة، حيث قرّر أن يستمتع بطَعْم ركوب السّيّارة للمرّة الأولى، فعاد حينها وحيداً، بينما جدّف بالمركب قرويان آخران، عادا به إلى القرية من دونه.

وبينما كان أبي يقترب من الوصول للباب الجنوبي، شاهد "تشنغ يوي

دا" ذا البدلة الصينية. ومن ثمّ، شرع ذلك المسؤول القادم من المدينة بالحديث إلى ذلك القروي "سون قوانغ تساي".

في تلك الأثناء، كانت الحقول آخذة في الازدهار، كما ظهرت هناك المواقد المَبنيّة من الطُّوْب وسط الحقول الفسيحة المزروعة بشَتَلات الأرز.

شرع "تشنغ يوي دا" يسأل أبي قائلاً:

"ما رأيكَ في (الكومونات الشعبية)"؟

أجابه والدي:

"ممتازة، فالأكل الآن مجّاني".

عقد "تشنغ يوي دا" حاجبَيْه، وسأله قائلاً:

"كيف هذا، إذنْ"؟

حينها سأله أبي:

"هل لديكَ زوجة"؟

أجابه "تشنغ يوي دا":

"نعم".

سأله ثانية:

"هل نمتَ معها ليلة البارحة"؟

حينها نظر له "تشنغ يوي دا" الذي لم يكن معتاداً على هذا النوع من الأسئلة بوجه مُتجهّم، وقال له:

"لا تتحدّث معي هكذا".

لم يُبدِ أبي أيّ اهتمام بموقف"تشنغ يوي دا" الغاضب، حيث أخبره قائلاً:

"أنا لم أنمْ مع زوجتي منذ أسبوعَيْن"، ثمّ أشار إلى سرواله، وقال: "هذا المكان يكاد ينفجر غضباً".

حينها أشاح "تشنغ يوي دا" بوجهه بعيداً عن "سون قوانغ تساي"، ولم يلتفتْ إليه.

افترق والدي مع "تشنغ يوي دا" عند مدخل القرية. سار بعدها "تشنغ يوي دا" مُتَّجهاً صوب القرية، ثمّ ركض والدي تجاه حقل الخضروات عند طَرَفها. كانت والدتي تقتلع الحشائش الضّارّة من الحقل بصحبة بعض النسوة. في شبابها، كان وجه والدتي نضراً ومُفعَماً بالحيوية تماماً كالتّفّاحة، وكان وشاحها ذو المربّعات الزرقاء نظيفاً ناصعاً. ترامى صوت ضحكاتها النقي الطروب إلى مسامع والدي الذي جاء مُنفعِلاً. نظر إلى حركات جسدها وهي تنتقي الحشائش الضّارّة، فنادى عليها قائلاً:

"يا زوجتي".

التفتتْ والدتي بجسدها، فشاهدتْهُ يقف عند الطريق الترابيّة الصغيرة، ردّت عليه قائلة: "نعم، ماذا حدث؟".

قال مُنادِياً: "تعالي إلى هنا".

أمسكت والدتي بوشاحها، وسارت نحوه بوجه مُتورِّد من الحمرة، وهي تنفض التراب من ملابسها. كانت مشيتها البطيئة قد جعلتْه يصيح مغتاظاً:

"أنا لا أطيق الانتظار، وأنتِ تسيرين بهذا البُطء".

ووسط ضحكات النسوة في الحقل، ركضتْ والدتي مُتّجهة نحوه.

لم يطقْ والدي صبراً حتّى يصل إلى البيت، فبمُجرّد أن وصل أمام بيت العجوز "لوه"، وشاهد الباب مفتوحاً، أخذ ينادي قائلاً:

"هل يوجد أحد في الداخل".

دَلَفَ إلى الداخل بعدما اطمأنّ أنه لا يوجد أحد بالبيت. ظلّتْ والدتي في الخارج، فنادى عليها مُتعجِّلاً:

"هيّا تعالي".

تردّدت والدتي، ثمّ قالت:

"هذا ليس بيتنا ".

كرّر والدي مُستعجِلاً:

"ادخلي بسرعة".

بعدما دخلتْ، أغلق والدي الباب بسرعة، ثمّ جَذَبَ أريكة، كانت في جانب زاوية البيت، ووَضَعَهَا في منتصف الغرفة، قال لوالدتي:

"هيّا، اخلعي ملابسكِ بسرعة".

خفضت والدتي رأسها، ثمّ أخذت تفكّ أزرار ملابسها، وبعد ثوانٍ، قالت بلهجة ملآنة بالاعتذار:

"هناك عقدة في السروال، لا أستطيع فكّها".

ضرب والدي الأرض بقَدَمه، وصاح غاضباً:

"أنتِ تتعمّدين هذا، أليس كذلك"؟

خفضت والدتي رأسها ثانية، واستمرّت في فَكّ سروالها، وكأنه مُقِرَّة بخطئها، حينها قال والدي:

"حسناً، حسناً، سأفكّها أنا".

جلس والدي القُرْفُصَاء، ثمّ حاول جاهداً فَكّ عُقْدَة سروالها، وما إن انفكّت العُقْدَة حتّى التوت رقبته. ظلّ والدي الذي كان في قمّة رغبته الجنسية يتحسّس رقبته، ويتأوّه متألّماً، حينها هُرعت والدتي، تُدلِّكها له، فصاح فيها غاضباً، هيّا، اضَّجعي على الأريكة.

ففعلت. ثمّ رفعت إحدى قَدَمَيْها في الهواء، فيما كانت تنظر إلى رقبته بقلق. أمسك والدي رقبته بيده، ثمّ نام بجسده فوقها، وقضى شهوته معها فوق الأريكة. كانت هناك عدّة دجاجات في بيت العجوز "لوه" تصيح بحماسة، وكأنها تريد الانضمام إليهما، وبدا وكأنها لم تكن راضية أن ينفرد أبي بهذه المتعة، فصارت تنقره بمناقيرها في قَدَمه. في تلك اللحظة التي كان على والدي أن يندمج فيها بحواسّه كلها، أخذ يحاول جاهداً أن يُلوِّح بقَدَمه، لطَرْد هذه الدجاجات عديمة المشاعر. لكنها لم تلبث أن افترقت حتّى عادت ونقرتْهُ في قَدَمه من جديد. وظلّ يُلوِّح بقَدَمه، لطَرْد الدجاجات حتّى جاءت اللحظة الأخيرة، صرخ بملل قائلاً:

"لا يهمّ".

ثمّ صدرت منه أصوات التّأوّهات الناجمة عن اللّذّة، لكنها لم تكتملْ، وتوقّفت، بسبب تألّمه من نقرات الدجاج في قَدَمه، فصدر عنه صوت تأفُّف بشكل مضحك.

بعدما انتهيا من علاقتهما، غادر والدي بيت العجوز "لوه"، وذهب للبحث عن "تشنغ يوي دا". بينما عادت والدتي إلى البيت، لتُبدِّل سروالها الذي انقطعت عُقْدَتَهُ.

كان "تشنغ يوي دا" يستمع إلى تقرير عن سَيْر العمل داخل مقرّ لجنة العمل في القرية حينما جاءه والدي. أشار له والدي بيده بشكل غامض، فخرج ليستكشف ما يريد، حينها سأله والدي قائلاً:

"ما رأيكَ، أنا سريع، أليس كذلك"؟

سأله تشنغ يوي دا مُستغرِباً:

"سريع في ماذا"؟

أجابه والدي:

"لقد انتهيتُ من العلاقة الحميمة مع زوجتي للتّوّ".

بدا مسؤول الحزب الشيوعي "تشنغ يوي دا" غاضباً، وهو يدفعه بيده، ويقول بصوت منخفض:

"اغربْ عنّي".

لم يكتشف "تشنغ يوي دا" أن هناك متعة خَفِيّة في هذا الكلام، إلا عندما تذكّره في أواخر أيّامه. ولذلك فقد أبدى تفهُّمه وتسامحه مع والدي جرّاء ما فعله حينها، حيث حدّث ابنه "تشنغ ليانغ" قائلاً:

"هؤلاء الفلاحون، كلهم هكذا".

كانت علاقة والدي الحميمة مع والدتي فوق تلك الأريكة هي بداية لرحلتي الطويلة في الحياة لاحقاً.

وُلدتُ في أثناء فترة حصاد الأرز. في تلك اللحظة التي وُلدتُ فيها، كان والدي في أوج غضبه، يقف وسط حقل الأرز، بسبب نفاد صبره على الجوع. كان قد نسي ذلك الجوع صعب التّحمّل، إلا أنه لا يزال يتذكّر مشهد غضبه. أوّل مرّة أسمع فيها عن ظروف ولادتي كانت من فم والدي المملوء برائحة الخمر. ففي مساء أحد أيّام الصيف عندما كُنتُ في السادسة، حدّثني بلا مبالاة عن يوم ولادتي، أشار إلى إحدى الدجاجات التي تسير بعيداً، وقال لي:

"لقد ولدتْكَ أمّكَ تماماً كما تضعُ هذه الدجاجة بيضَتَها".

ولأن والدتي حملتْني في بطنها لأكثر من تسعة شهور، فلم تذهب للمشاركة في حصاد الأرز في تلك الأيّام التي يستيقظ فيها الفلاحون مبكّراً، ولا يعودون إلا مع حلول الظلام.

حدّثتْني هي عن تلك الأوقات قائلة:

"لم أذهبْ، ليس لأني غير قادرة على العمل، بل لأني لم أكن أستطيع أن أحني ظهري".

كانت أمّي مسؤولة عن توصيل طعام الغداء لوالدي. ولذلك فقد كانت تذهب إلى الحقل وقت الظهيرة، تمشي ببطء، بسبب حملها، تحمل في يدها سلّة، وتربط على رأسها وشاحها ذا المربّعات الزرقاء. صوّر لي خيالي لاحقاً مشيَتَهَا بهذه الحالة، تسير نحو والدي، على نحو مُؤثّر للغاية.

في ظهيرة اليوم الذي وُلدتُ فيه، كان أبي قد اعتدل من انحناءته، يستطلع تلك الطريق الترابيّة الصغيرة لعشرات المرّات، إلا أن والدتي ذات الصدر المرفوع والبطن الكبيرة لم تظهر أبداً. شاهد أبي القرويّيْن حوله،

وقد انتهوا من غدائهم، وعادوا لحصاد أرزهم، بينما لم يعد هو قادراً على تحمّل الجوع، فوقف وسط الحقل، وظلّ يسبّ ويلعن بصوت عالٍ.

لم تظهر والدتي على هذه الطريق إلا بعد الثانية ظهراً، كانت لا تزال تربط على رأسها ذلك الوشاح ذا المربّعات الزرقاء. كان وجهها شاحباً، بشكل مخيف، تمشي مائلة، بسبب ثقل السّلّة التي تحملها في يدها.

شاهد والدي الذي أُصيب بالدوار من الجوع والدتي قادمة هناك تسير مُترنّحة، شعر أن تغييراً ما قد طرأ عليها، ولكنه لم يكن مهتمّاً بذلك، فسار نحوها، وصرخ فيها قائلاً:

"أتريدين أن تقتليني جوعاً"؟

"لا"، ثمّ أردفتْ بهدوء "لقد وضعتُ طفلي".

حينها لاحظ والدي أن معدتها المستديرة قد اختفت.

كانت أمّي حينها تستطيع أن تحني ظهرها، وبالرغم من أن استمرارها بهذه الحال سيجعلها تواجه بضعف آلامها الشديدة. إلا أنها أخرجت الطعام من سلّتها، وناولتْه والدي مبتسمة، وهي تقول بهدوء:

"المقصّ كان بعيداً عنّي، ولم أستطع التقاطه، وكان على أن أغسل طفلي بعد ولادته، كُنتُ قد خرجت في وقت مبكّر، لأُوصِلَ لك الطعام، إلا أنني شعرتُ بالألم قبل خروجي من البيت، فعلمتُ أَنني على وشك الوضع، حاولتُ أن ألتقط المقصّ، ولكني لم أتمكّن من المشي، بسبب الألم ....".

حينها قاطَعَهَا والدي منزعِجاً: "ولدٌ أم بنتٌ؟".

أجابتْه قائلة: "ولد".

الفصل الثاني

الصداقة

كان نادراً ما ألتقي الأخوَيْن "سو يوي" و"سو هانغ" بعدما غادرتْ عائلة "سو" قرية الباب الجنوبي. التقيتُ بهما بعد ذلك بعدما التحقتُ بالمرحلة الإعدادية. دُهشتُ جدّاً عندما اكتشفتُ أن العلاقة بين هذَيْن الشقيقَيْن في المدرسة لم تكن كتلك التي كانت عليها عندما كانا في قرية الباب الجنوبي، بل صارت باردة وفاترة تماماً كعلاقتي بأخي الأكبر "سون قوانغ بينغ".

في تلك الأثناء، كان "سو" يوي نحيلاً، إلا أنه بدا مثل شابّ بالغ. كان يرتدي قميصاً أزرق، وبسبب نمُوّ جسده، بدا القميص قصيراً وضيّقاً. ذات مرّة، لم يكن "سو يوي" يرتدي جورباً، وكُنتُ أرى ساقَيْه بوضوح، بسبب قِصَر أرجل سرواله. بعدما التحق "سو يوي" بالمرحلة الثانوية، لم يعد يحمل على كتفه حقيبة الكُتُب، بل كان يحمل كُتُبه المدرسية أسفل إبطه، تماماً كما كان يفعل أقرانه. كان الفارق الوحيد بينه وبينهم هم أنه لم يكن يسير مختالاً في منتصف الطريق، بل كان يمشي هادئاً خفيض الرأس على جانبَي الطريق.

في البداية، لم يلفت "سو يوي" انتباهي، كما فعل أخوه"سو هانغ" الذي كان يمشّط شعره، فيبدو ناعماً لامعاً، ثمّ يضع يَدَيْه في جَيبَي سرواله، ويطلق صافرات الغزل تجاه زميلاته، كُنتُ مغرماً للغاية بحركاته وأسلوبه.

ذلك الزميل الذي يدرس معي في الصّفّ نفسه، كان يحمل معه كتاباً، قد اصفرّت أوراقه، ثمّ سار نحونا، بينما كُنّا نستذكر دروسنا، وحدّثنا قائلاً:

"هل تريد كتاب الفتاة العذراء، زهيد الثمن"؟

لقد منحَنا بعضاً من إيحاءات مرحلة الشباب، بينما لم نكن على دراية تامّة بالأمور الجنسية.

حينها كُنتُ أخاف بشدّة من الوحدة، ولم أكن أرغب أن أقف وحيداً في الزاوية خلال أوقات الراحة بين الحصص الدراسية. وعندما كُنتُ أشاهد "سو هانغ" يقف مُحاطاً بزملائه، يضحكون بصوت عائل وسط الساحة الرياضية، كُنتُ أخاف أنا ذلك الطفل القروي أن أسير نحو الساحة الرياضية. كم كُنتُ أودّ حينها لو نظر إليّ "سو هانغ" حينها، ونادى عليّ بصوت عالٍ قائلاً:

"هذا أنتَ؟ نحن نعرف بعضنا منذ زمن".

سرتُ حتّى وقفتُ بجواره، لم يتذكّر شيئاً عن أيّام الباب الجنوبي، ولكنه لم يطلب منّي المغادرة، ومن ثمّ، فقد فرحتُ للغاية عادّاً ذلك ترحيباً منه.

بالفعل رحّب بي، وجَعَلَني أنضمّ إلى رفقتهم، نقف معاً وسط الساحة الرياضية، ننادي ونضحك بصوت عالٍ. أمّا في المساء، فكان يعطيني بعض السجائر، ونحن نسير في الشوارع المظلمة. كُنّا نمشي برفقته، نسير في الشوارع بلا توقّف، وعندما كانت تمرّ بجوارنا إحدى الفتيات، كُنّا ننادي معاً بصوت أشبه بالتّوسّل، ولكنه مختلط بالفرح، ونقول:

"أيّتها الجميلة، لماذا لا تتحدّثين إليّ؟".

كُنتُ أنادي معه بقلق، فقد كُنتُ أشعر أن خطباً ما سيحدث، ولكني كُنتُ أستشعر فرحة وإثارة، لا سابق لي بهما.

جعلَنا "سو هانغ" نعرف أن الخروج للتّجوّل بعد تناول العشاء أفضل بكثير من المكوث في الغرفة، حتّى لو كان من تبعات ذلك التّعرّض للعقاب الشديد. عرفْنا معه أيضاً أيضاً أيّ نوع من الفتيات أجدر بالحُبّ والمطاردة، حيث أخبرَنا أنه ليس علينا أن نغرم بالفتاة، بسبب حصولها على درجات عالية في الدراسة، بل إنه ينبغي أن يكون معيار اختيار الفتاة هو الصدر الممتلئ، والمؤخّرة المستديرة.

كما علّمنا الكثير من معايير اختيار الفتيات، أمّا هو، فأُغرم بفتاة نحيلة هزيلة. كانت فتاة ذات وجه مستدير، ولها ضفيرتان مرفوعتان للأعلى قليلاً. وبخلاف عينَيْها السوداوَيْن اللامعَتَيْن، لم يكن فيها أيّ شيء يلفت الانتباه من وجهة نظرنا. كان وقوعه في غرامها قد أصابَنا بدَهْشة شديدة، وعندما سألَه أحدُنا:

"صدرُها، أين صدرُها؟ ومؤخّرتها، كم هي صغيرة".

أجابه "سو هانغ" إجابه شخص ناضج، حيث قال له:

"عليكَ أن تنظر من زاوية مستقبلية، فلن يمرّ عام على هذه الفتاة حتّى ينمو صدرُها، وتكبر مؤخّرتها، حينها سيكون جمالها مكتمِلاً".

كان يغازلها مباشرة، وكتب لها خطاباً غرامياً مملوءاً بالكلمات المعسولة، ودسّه لها داخل كتاب اللغة الإنجليزية الخاصّ بها. ولذلك ففي صباح ذلك اليوم بينما كُنّا في حصّة اللغة الإنجليزية، صرخت هذه الفتاة صرخة، جعلتْني أرتعد خوفاً، ثمّ انخرطت في البكاء. نظرتُ إلى

"سو هانغ" الذي كان بالنسبة إليّ بطلاً شجاعاً، لا يُقهَر، فوجدتُهُ شاحب الوجه كشخص ميّت.

إلا أنه سرعان ما استعاد هيأته المعتادة فور خروجه من الصّفّ. بعد انتهاء الدراسة في ذلك اليوم، مشى يُطلِق صافراته، ثمّ سار نحوها، ومشى بجوارها، كان يلتفت إلينا على فترات، ويرسم على وجهه تعابير مضحكة. أفعاله تلك جعلت الفتاة على وشك البكاء خوفاً منه. كانت هناك فتاة ذات صدر ممتلئ، تسير بجوارها، لم يعجبْها ما يجري، فالتفتت بجسدها، ووقفت بينهما، ثمّ نهرتْهُ بغضب:

"يا لكَ من بلطجيّ مستهتِر".

ثمّ شاهدْنا "سو هانغ" يلتفت إليها، وينظر إليها بغيظ وانفعال، وكأن الفرصة قد لاحت له، ليُظهِر شجاعته أمام الفتاة النحيلة، فسمعناه يقول بلهجة استعراض وتهويش:

"كَرِّري هذه الجملة ثانية".

لم تُبدِ تلك الفتاة أيّ خوف أو تراجع، حيث قالت:

"أنتَ بلطجيّ، ومُستهتِر".

لم يكن أحد منّا يتوقّع أن يُلوِّح "سو هانغ" بقبضته، ثمّ يلكمها في صدرها الممتلئ. صرخت الفتاة صرخة مكتومة، ثمّ غطّتْ وجهها بيَدَيْها، ووَلَّتْ هاربة.

وعندما سِرْنا نحوه، شاهدناه يفركَ أصبعَي يده اليمنى الوسطى والسّبّابة، ثمّ قال إنه عندما لَكَمَ تلك الفتاة في صدرها شَعَرَ بليونة ونعومة

في هذَيْن الإصبَعَيْن، أمّا الثلاثة أصابع الأخرى، فلم تحظَ بهذا الشعور، ثمّ قال متنهّداً:

"يا لها من غنيمة غير متوقّعة! حقّاً غير متوقّعة!".

كانت أوّل معرفتي بتفاصيل جسد المرأة قد حصلتُ عليها من خلال "سو هانغ". أتذكّر أنني كُنتُ أسير مع صحبة من الزملاء برفقته في مساء أحد أيّام بداية الربيع. حيث أخبرَنا أن والدَيْه لديهما طبعة فاخرة من كتاب، يحتوي على صور مُلوّنة لأعضاء المرأة التناسلية. وقال أيضاً:

"هل تعرفون؟ المرأة لديها ثلاث فتحات".

كانت لهجة "سو هانغ" الغامضة وهو يتحدّث وأصوات خطواته وهو يمشي في الشارع في تلك الليلة قد أصابتْني بتوتّر وضِيق في التّنفّس. نوع من الفضول الغريب حول التّعرّف على شيء غريب، أصابني بالخوف والرغبة في الوقت نفسه.

بعدها بعدّة أيّام، جلب معه هذا الكتاب إلى المدرسة، حينها كُنتُ في مواجهة خيار صعب. بالطبع كُنتُ حينها محمرّ الوجه من فرط الإثارة كغيري من الزملاء، إلا أنني شعرتُ بالخوف الشديد عندما هَمّ "سو هانغ" بفَتْح الكتاب بعد انتهاء اليوم الدراسي. فلم تكن لديّ الشجاعة لمشاهدة شيء مثير كهذا في وضح النهار. ولذلك فعندما قال إنه ينبغي على أحدنا أن يقف عند الباب للمراقبة، أبديتُ استعدادي على الفور لِلَعب دور الحارس. شعرتُ برغبة جامحة تهاجمني، بينما كُنتُ أقف عند الباب، أراقب الأجواء، وخاصّة عندما كُنتُ أستمع إلى أصواتهم التي تتعالى من فرط الدَّهْشة.

لقد فقدتُ هذه الفرصة، ومن الصعب أن أتحصّل على فرصة ثانية.

بالرغم من أنه كان غالباً ما يجلب معه هذا الكتاب إلى المدرسة، إلا أنه لم يتذكّر أن عليه أن يُطلعَني على الصورة كما فعل مع البقية. كُنتُ أعرف أنني لا أمثّل شيئاً، بالنسبة إليه، فلستُ سوى واحد من الزملاء المحيطين به، بل أقلّهم لَفْتاً لانتباهه. كما أنني لم أستطع التّغلّب على ذلك الخجل الذي كان يتملّكني، وهو ما منعني أن أطلب منه أن يُطلعَني على تلك الصورة. لم أشاهد تلك الصورة سوى بعدها بستّة شهور، وكان أخوه سو يوي هو مَنْ أطلعَني عليها.

أحياناً ما كان "سو هانغ" يُبدي جرأة مثيرة للدَّهْشة، فقيامه بإظهار تلك الصورة المُلوّنة لزملائه من الذُّكُور فقط جعله يُصاب بالملل تدريجياً. وفي أحد الأيّام، حمل معه هذا الكتاب، وسار مُتوجّهاً نحو إحدى الزميلات، ليُطلِعَها على تلك الصورة. على الفور، شاهدْنا تلك الفتاة تهرب مسرعة نحو الساحة الرياضية خائفة منه، بينما عاد هو إلينا يضحك بصوت عالٍ. وعندما حذّرْناه من العواقب الوخيمة لهذه الفعلة، لو اشتكتْه هذا الفتاة عند المسؤولين في المدرسة، لم يُبدِ أيّ نوع من الخوف أو القلق، بل إنه طمأننا قائلاً:

"اطمئنّوا، فهي لن تشتكيني. ماذا ستقول في شكواها؟ هل ستقول لقد أطلعَني على صورة لأعضاء المرأة التناسلية؟ لن تفعل، اطمئنّوا".

بعد ذلك، برهن الصمت الذي تلى هذه الواقعة على صحّة كلامه. وكان نجاحه في هذه المغامرة دافعاً له للقيام بأفعال أكثر جرأة في الإجازة الصيفية التالية. ففي ظهيرة أحد أيّام موسم العمل في الحقول، كان يتسكّع برفقة زميل له، اسمه "لين ون" في أحد الشوارع الصغيرة. أستطيع أن أتخيّل أنهما كانا يتحدّثان عن وَلَعِهما بإحدى الزميلات مستخدمين أقبح التعبيرات الماجنة. وكان السبب في أن يصبح "لين ون" صديقاً لـ "سو هانغ" حينها

هو أن "لين ون" كان قد استخدم مرآة صغيرة، ليتلصّص على الفتيات داخل الحمّامات. إلا أن هذا التّصرّف الجريء لم يُجدِ نفعاً، ولكنه جعله يدرك أن هذه الحيلة فاشلة. فعندما قرّر "سو هانغ" أن يجرّب استخدام المرآة هو الآخر، نصحه لـ "ين ون" بلهجة الخبير المجرّب قائلاً:

"تستطيع الفتيات مشاهدة الفتيان بوضوح بواسطة المرايا داخل الحمّامات، أمّا الفتيان فلن يتمكّنوا من مشاهدة الفتيات".

سارا معاً في ذلك الشارع حتّى وصلا إلى إحدى القُرى، حينما دخلا القرية، لم يسمعا أيّ صوت سوى صوت حشرة الزيز، فقد كان القادرون على العمل جميعهم في الحقول، يشتغلون في حصاد الأرز في تلك الأثناء. سارا أسفل إحدى الأشجار، وكان حديثهما قد رفع حرارة أجسامهم، لتتخطّى حرارة أجواء ذلك الصيف. كانت أشعّة الشمس الذهبية اللامعة تفترش الأرض في الأنحاء جميعها، وكأنه مشهد يوحي لمرحلة ما بعد فيضان الرغبة. سار هذان المراهقان المتّقدان بالحركة والرغبة حتّى وصلا أمام بيت، يتصاعد منه الدخان، قبل وقوفه أمام مدخل البيت، شرع "سو هانغ" يتطلّع حوله يمنة ويسرة، ثمّ أشار بيده يستدعي "لين ون" بحركة غامضة، والذي انطلق نحوه فرحاً، إلا أن فرحه لم يدمْ طويلاً، حيث جعله المشهد الذي شاهده من النافذة مُحبَطاً للغاية. فقد كانت هناك عجوز سبعينية تجلس أمام الموقد. اكتشفت من فوره أن "سو هانغ" قد بدا مضطرباً، وكأنه يتنفّس بصعوبة، ثمّ سمع "سو هانغ" يسأله بلهجة متوتّرة:

"هل تريد رؤية امرأة عارية في الحقيقة"؟

فهم "لين ون" حينها ما الذي ينوي "سو هانغ" فعله، فأشار بيده إلى تلك العجوز التي تجلس أمام الموقد، وسأله بذهول:

"هل تريد رؤيتها عارية"؟!

ضحك "سو هانغ" ابتسامة مشوبة بالحرج، ثمّ قال له بحماسة:

"هيّا بنا".

"لين ون" ذلك الفتى الشّرّير الذي فكّر في التّلصّص على الفتيات في الحمّامات من خلال المرآة، بدا حينها متردّداً، وهو يقول:

"هذه العجوز"؟

احمرّ وجه "سو هانغ"، وهو يصيح فيه:

"ولكنها شخص حقيقي".

لم يستطع "لين ون" إقناع "سو هانغ" بالعدول عمّا ينوي فعله، ولكنه شاهد ذلك الاضطراب الذي بدا عليه من فرط الحماسة، وهو ما جعله يرتجف خوفاً، وهو يقول:

"اذهبْ أنتَ، وسأبقى أنا هنا أراقب الطريق".

قبل شروعه في القفز من النافذة، نظر إليه "سو هانغ" نظرة المرتبك، فعلم حينها أنه في موقف أفضل.

لم يقفْ "لين ون" أمام النافذة، وبالتالي، لم يشاهد منظر "سو هانغ"، وهو يعتدي على جسد تلك العجوز، يمكنه تخيُّل هذا المنظر بكل سهولة، على أيّ حال. وبصفته يقف حارساً، كان عليه أن يؤدّي واجبه بتفانٍ. وقف على بُعْد خطوات من النافذة حتّى يتمكّن من مشاهدة القادمين بوضوح. ثمّ سمع صوت ارتطام جسد أحدهم بالأرض، وكأنه تدحرج قليلاً بعدها،

تلى ذلك بعض أصوات مختلطة بالرعب. وبالرغم من أن هذه العجوز السبعينية لم تكن تدري ماذا حدث، إلا أنه بعدما فطنت إلى ما يجري حولها، سمعها "لين ون" تقول بصوت غاضب أجش:

"أيّها الحيوان القذر، أنا في سنّ جدّتكَ".

هذه الجملة جعلتْهُ يضحك دون قَصْد، حيث علم حينها أن "سو هانغ" قد أنجز نصف مغامرته. ولكنه ما لبث أن سمع العجوز تصرخ بصوت يشوبه الندم، وهي تقول:

"يا للإثم والعار!".

لم تتمكّن العجوز من مقاومة هجوم "سو هانغ" الشرس، وبسبب وَهْنها لم يكن بمقدورها سوى أن تُحوِّل من لهجة غضبها إلى لهجة تضرُّع وتوسُّل. في تلك الأثناء، شاهد "لين ون" رجلاً قادماً نحوه من بعيد، كان عاري الجسد العلوي، ويحمل في يده مِنْجَلاً. فأُصيب بالذعر، فهُرع يجري نحو النافذة، حيث شاهد "سو هانغ" يجثو على ركبَتَيْه، يحاول جاهداً التّحرّش بالعجوز، وخَلْع ملابسها، فيما كانت تلك العجوز تتحسّس بيدها كتفها الذي خُلع بسبب مقاومتها هجوم "سو هانغ" وتُغمغم بكلام غير واضح. بعدما سمع تحذير "لين ون"، قفز "سو هانغ" من النافذة على الفور مثل الكلب المسعور.

بعدها كانا يركضان نحو النهر بأقصى سرعتهما، بينما لم يتوقّف "سو هانغ" عن الالتفات برأسه، والتّطلّع في الاتّجاهات كلها، وكأنه لا زال يرى هذا الرجل الذي يحمل المِنْجَل يلاحقهما، بينما كان "لين ون" يجري بجواره، ويقول:

"لقد قُضي علينا، لن نفلتَ هذه المرّة".

في تلك الظهيرة، غطّت موجة من الغبار تلك الطريق المؤدّية إلى المدينة، بسبب سرعة ركضهما عليه، فيما كادت رئَتاهما تتقطّعان ألماً. وكان فاهاهما كريهَي الرائحة، وجَسَدَاهما مُغطَّيَيْن بالتراب بعد وصولهما إلى المدينة.

من بين المدرّسين جميعهم في المرحلة الإعدادية، كان مدرّس الموسيقى الأنيق هو أكثر المدرّسين إثارة للإعجاب، بالنسبة إليّ. كان هو الوحيد من بين المدرّسين الذي يُلقّننا الدروس باللغة الفصحى، كُنتُ معجباً للغاية بصوته وأسلوبه وهو يعزف على آلته الموسيقية، ويُعلّمنا كيف نُغنّي. كان محطّ أنظاري لفترة طويلة من الوقت، حتّى أصبح هو مَثَلي الأعلى بأسلوبه الأنيق المميّز. كما أنه كان أكثر الأساتذة تواضعاً، فقد كان يعاملنا جميعاً بابتسامة لطيفة. حتّى الآن لا أزال أتذكّر مشهد قدومه إلى صفّنا للمرّة الأولى، دخل إلى الصّفّ، يرتدي قميصاً أبيض، وسروالاً أزرق غامقاً، ويحمل في يده (نوتة) موسيقية، ثمّ قال لنا بصوت أشبه بصوت مذيع الراديو:

"الموسيقى تبدأ من حيث تختفي اللغة".

حينها انخرط الطلاب جميعهم الذين اعتادوا على سماع بقية المدرّسين يتحدّثون باللهجة المحلّيّة في الضحك.

في ربيع السنة الثالثة، تحديداً في تلك الأيّام التي أطلَعَنا فيها "سو هانغ" على تلك الصورة المُلوّنة، هذا الولد الذي كان بمثابة صداع في رأس المدرّسين جميعهم حين أقدم على عمل غير لائق خلال درس الموسيقى، حيث سخر من المدرّس بطريقة فجّة. فقد خلع حذاءه، ووضعه على

حافّة النافذة، ثمّ وضع قَدَمَيْه أعلى المنضدة أمامه، حيث ملأت الرائحة الكريهة التي انبعثت من جَوْرَبِهِ أرجاء غرفة الدراسة جميعها. وفي مواجهة هذا التّحدّي المبتذَل، ظلّ مدرّس الموسيقى مُستمرّاً في غنائه، حيث تزامن غناؤه الطروب مع رائحة جَوْرَب "سو هانغ"، وهو ما جعل الطلاب يستشعرون ذلك الصدام بين الجمال والقُبح. استمرّ مدرّس الموسيقى في غنائه حتّى انتهت المقطوعة، ثمّ ترك آلته الموسيقية، وسار نحو "سو هانغ" قائلاً:

"أرجوكَ، البسْ حذاءَكَ".

بشكل غير متوقّع، أخذ "سو هانغ" يضحك بصوت عالٍ، ثمّ وقف على مقعده، واستدار بجسده قائلاً:

"إنه يقول أرجوكَ".

استمرّ مدرّس الموسيقى في حديثه اللبق، وقال:

"أرجوكَ، لا تكنْ بهذا الاستهتار".

حينها ضحك بشكل جنوني، حتّى إنه سعل من كثرة الضحك، أخذ يُربِّت على صدره، ويقول:

"ها هو يقولها ثانية، سوف أموت من كثرة الضحك".

امتقع وجه مدرّس الموسيقي من شدّة الغضب، فسار نحو "سو هانغ"، ثمّ أمسك بحذائه الموضوع على حافّة النافذة، وقذفه منها. لم يكد المدرّس يلتفت بجسده حتّى هُرع "سو هانغ" حافي القَدَمَيْن، ثمّ أمسك (بنوتة) الموسيقى الخاصّة بالمدرّس، وألقاها من النافذة.

بدا واضحاً أن مدرّس الموسيقى لم يتوقّع ردّة الفعل تلك. نظر مدرّس الموسيقى بذهول إلى "سو هانغ" وهو يقفز من النافذة، ليلتقط حذاءه، ويعود سريعاً، ثمّ يضعه على حافّة النافذة مرّة ثانية، بعدها جلس على مقعده، ووضع قَدَمَيْه على المنضدة، ونظر إلى مدرّس الموسيقى نظرة التّأهّب والاستعداد.

ذلك الأسلوب الأنيق الذي جَعَلَني مُغرَماً بمدرّس الموسيقى، لم يتحمّل الثبات أمام ذلك الأسلوب الهَمَجي الذي تصرّف به "سو هانغ"، حيث وقف المدرّس أمام منضدته رافعاً رأسه للأعلى دون أن يتحدّث لفترة من الوقت. بدا بائساً كَمَنْ تلقّى لتوّه نبأ وفاة أحدهم. لم يتحدّث إلا بعد فترة من الوقت، حيث قال:

"مَنْ منكم يذهب، ليُحضر (النوتة) الموسيقية من الخارج"؟

بعد انتهاء الدَّرْس، اجتمع العديد من الزملاء حول "سو هانغ" فرحين محتفلين بهذا النصر. أمّا أنا، فلم أنضمّ إليهم، كما كُنتُ أفعل في الماضي، فقد كُنتُ أشعر بنوع من الحزن، من الصعب أن يُوصَف، فذلك الشخص الذي كُنتُ أعدّه بمثابة مَثَلي الأعلى في المستقبل قد أُهين بتلك السهولة.

لم تمرّ فترة طويلة حتّى افترقتُ أنا و"سو هانغ" كلّ في طريق. حقيقة الأمر أن فراقنا كان تجربة فردية، فوجودي من عدمه سواء، بالنسبة إليه. فلم يكن هو مَنْ لاحظ انقطاعي عن الذهاب إلى الساحة الرياضية، وعدم التفافي حوله كبقية الزملاء، على العكس، مَنْ شعر بذلك الانقطاع هو أنا. "سو هانغ" لم يكتشف حتّى إن هؤلاء الزملاء الذين يحيطون به طيلة اليوم قد نقصوا واحداً. ظلّ سعيداً كما هو، أمّا أنا، فقد استغرقتُ في عزلتي،

ولكني دُهشتُ حين اكتشفتُ أن تلك المشاعر التي كانت تكتنفني عندما كُنتُ أقف بجواره في الماضي تُشبهُ تماماً مشاعر الوحدة نفسها التي أعيشها حالياً. من ثمّ، فقد عرفتُ أنني لم أقترب منه إلا للتظاهر بالهدوء وادّعاء القُوّة. بعد ذلك، عندما كُنتُ ألوم، في نفسي، أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" على مصادقته لأبناء المدينة، كُنتُ أشعر بالحرج، لأنني مررتُ بهذه التجربة نفسها.

عندما أتذكّر الآن ما حدث في ظهيرة ذلك اليوم، أشعر بالامتنان نحو "سو هانغ" لقيامه بضَرْبي بفرع شجرة الصَّفْصَاف. حينها كُنتُ مذهولاً للغاية، فلم أكن أتوقّع أن يمسكَ بعصا الصَّفْصَاف فجأة، ثمّ ينهال عليّ ضَرْباً. في تلك الأثناء، كان هناك مجموعات الطالبات يقفنَ غير بعيد، من بينهنّ ثلاثة طالبات، كان "سو هانغ" مُغرماً بهنّ. أستطيع أن أتفهّم مكنونه حينها، إلا أن طريقته في استعراض نفسه جعلتْني غير قادر على تقبّلها. في البداية، كُنتُ أظنّ أنه يمزح، فقد هوى على جسدي بالعصا، كما يسوق الراعي أغنامه. حاولتُ أن أتفادى الضربة مُتظاهِراً بالابتسامة، إلا أنه لاحقَني بضرباته، كان الألم الذي سبّبتْهُ الضربات على وجهي قد أصابني بالذهول. زاد شعوري بالإهانة عندما شاهدتُ هؤلاء الطالبات ينظرنَ الينا مُندهِشات. بينما كان "سو هانغ" يلتفت إليهنّ، ويُطلق صافراته مَزهوّاً بنفسه، ثمّ يصيح فيّ طالباً منّي أن أنبطح على الأرض. كُنتُ أعرف حينها لماذا يفعل ذلك، ومن ثمّ، فلم أنبطح على الأرض، وأيضاً لم أهرب من ضرباته، بل أدرتُ ظهري نحوه، وسرتُ عائداً إلى غرفة الدَّرْس. كان زملائي يقفون هناك يضحكون، و"سو هانغ" يلاحقني بضرباته، إلا أنني لم أردّ عليه الضربات، فقط كُنتُ أسير في طريقي بلا توقّف، والدموع تنهمر من عينَي، بسبب الشعور بالذّل والإهانة.

في الحقيقة، كانت هذه المهانة هي السبب في أن تنشأ بيني وبين "سو يوي" علاقة صداقة حميمة. فلم أعد أتظاهر أن لديّ الكثير من الأصدقاء، بل عدتُ إلى وحدتي، وبدأتُ أعيش حياة العزلة بهويّتي الحقيقية. أحياناً أكون غير قادر على تحمّل العذاب والفراغ الناجم عن الوحدة، إلا أنني كُنتُ أفضّل أن أحافظ على كبريائي بهذه الطريقة، على أن أحظى بهؤلاء الأصدقاء غير الحقيقيّيْن عن طريق الذّلّ والمهانة. في تلك الأثناء، بدأ "سو يوي" يلفت انتباهي. فقد كانت مشيته وحيداً على جانب الطريق قد جعلتْني أشعر بالألفة تجاهه. وبالرغم من حداثة عمره، إلا أنه كان يُظهِر وقار البالغين وهيبتهم. في تلك الأثناء، لم يكن قد تخلّص من الآثار السلبية لواقعة والدي مع الأرملة في أثناء إقامة عائلته في قرية الباب الجنوبي. عندما كُنتُ أراقبه خُفْيَةً، كان هو الآخر يراقبني. وعلمتُ بعدها أن عزلتي وعدم رغبتي في مصادقة الآخرين في السابق كانت قد أثّرت فيه بشدّة.

لاحظتُ أن "سو يوي" كان يراقبني منذ وقت طويل، فقد كان يرفع رأسه يراقبني وأنا أسير على جانب الطريق مثله تماماً، بينما كان بقية الزملاء يسيرون في تجمّعات، يتحدّثون ويضحكون بصوت عالٍ، لا يوجد سواي أنا وهو نسير منفردَيْن. إلا أن الحياة السعيدة التي كان يعيشها وهو في قرية الباب الجنوبي كانت قد تركت في ذاكرتي أثراً لا يُمحى، وهو ما منعني من التفكير في إقامة أيّ علاقة بيني وبينه. من جانب آخر، كان حقيقة كوني بدون أصدقاء قد جعلتْني غير قادر على أن أتخيّل أن زميلاً يكبرني بعامَيْن قد يعاملني بودّ.

ظلّ الحال هكذا، إلى أن أوشك الفصل الدراسي على الانتهاء، حيث تحدّث إليّ "سو يوي". في تلك الأثناء، كان كل منّا يسير على أحد جانبَي

الطريق، وبينما كُنتُ أنظر إليه، فوجئتُ به يتوقّف، ثمّ يبتسم لي. لا أستطيع نسيان مشهد احمرار وجه سو يوي حينها، هذا الصديق سريع الخجل نادى عليّ قائلاً:

"سون قوانغ لين".

تسمّرتُ مكاني. لم يعد بمقدوري الآن استرجاع هذا المشهد في ذهني، أعرف فقط أنني كُنتُ مستغرقاً في النَّظَر إليه. كان هناك الكثير من الطَّلَبَة يسيرون في وسط المسافة بيننا بلا انقطاع، وما إن لاحت مسافة فارغة بيننا حتّى سار نحوي قائلاً:

"هل تتذكّرني"؟

عندما سرتُ نحو "سو هانغ" في الماضي، كان كل ما أتمنّاه هو أن يقول لي جملة كهذه. إلا أن هذه الجملة صدرت الآن من أخيه. حينها هززتُ رأسي، وقُلتُ له متأثّراً:

"نعم، أنا أعرفكَ، أنتَ سو يوي".

بعدها كُنّا نمشي معاً حال التقينا في طريق عودتنا بعد الانتهاء من الدراسة. وعادة ما كُنتُ أرى "سو هانغ" ينظر إلينا من بعيد نظرة مشوبة بالريبة. بعد فترة من استمرارية هذه الصداقة، لم نعد نفترق عند مدخل المدرسة، بل صار "سو يوي" يسير معي وصولاً إلى الجسر الخشبي المؤدّي إلى قرية الباب الجنوبي. كان "سو يوي" يقف هناك يُلوِّح بيده مودِّعاً، ثمّ يلتفت بجسده، ويسير مُغَادِراً ببطء.

عندما رجعتُ إلى مسقط رأسي في القريَة منذ عدّة سنوات، كان هذا الجسر الخشبي القديم قد استُبدل به جسر إسمنتيّ. وقفتُ على

هذا الجسر في أحد ليالي الشتاء، أتذكّر تلك الأحداث التي وقعت في الصيف. ولذلك فقد طمستْ ذاكرتي المفعمةُ بالحنين إلى الماضي تدريجياً مشاهدَ مصنع الباب الجنوبي، وشاطئ النهر المحاط بالحجارة، وذلك الجسر الإسمنتي الذي أقف عليه. وعادت بي إلى مشاهد الحقول البرّيّة، وشاطئ النهر الطيني المملوء بالأعشاب، والجسر الخشبي القديم بألواحه الخشبية التي كُنتُ أشاهد مياه النهر الجارية من بين فراغاتها.

مع هبوب رياح الشتاء قارسة البرودة، تذكّرتُ المشهد التالي. كُنتُ قد وقفتُ مع "سو يوي" على الجسر الخشبي لفترة طويلة ذات مرّة، وكان ذلك قرب الغروب في أحد أيّام بداية الصيف، "سو يوي" يقف هناك، يتطلّع إلى مشهد الشَّفَق الأحمر، ثمّ تحدّث بلهجة مُفعَمَة بالهدوء مثل هدوء تلك الليلة مُستذكِراً ذكرى هادئة. ففي إحدى ليالي الصيف، عندما كان يسكن في قرية الباب الجنوبي، كان الجوّ حارّاً، لدرجة أنه لم يكن يرغب في النوم داخل الناموسية، حيث جلستْ والدته تطرد الناموس بعيداً عنه، باستخدام المِرْوَحَة اليدوية، ثمّ نصبتْ له والدته الناموسية بعد أن استغرق في النوم.

شعرتُ بالحزن عندما أخبرني "سو يوي" هذه الحكاية عن والدته في البداية. فحينها كان من الصعب أن أتلقّى أيّ حنان داخل أسرتي.

بعد ذلك، أخبرني "سو يوي" أنّ هناك كابوساً راوده في تلك الليلة. قال لي:

"بدا الأمر وكأني قتلتُ شخصاً ما، والشرطة تبحث عنّي في كل مكان، ركضتُ نحو البيت، كُنتُ أنوي أن أختبئ هناك. إلا أن والديّ اكتشفا وجودي بعد عودتهما من العمل، فربطاني بحبل على الشجرة، وسلّماني

للشرطة. كُنتُ أبكي بحرقة، أتوسّل إليهما ألا يفعلا، ولكنهما كانا يسبّاني بأقذع الألفاظ".

بكى "سو يوي" في الحُلم حتّى إن بكاءه أيقظ والدته، وعندما أيقظتْهُ، كان جسده يتصبّب عَرَقاً، وقلبه يخفق بشدّة، حينها وبّختْهُ والدته قائلة:

"ما الذي يبكيكَ؟! هل جُنّ جنونكَ؟!"!

كانت الأمّ تُحدِّثه بحنق، وهو ما جعله يشعر باليأس الشديد.

عندما كان سو يوي المراهق يتحدّث إليّ وأنا أيضاً في مرحلة المراهقة، ويحكي لي عن هذه الأحداث، لم يكن كلانا يفهم مغزاها. لم أتمكّن من رؤية "سو يوي" رقيق المشاعر، وهو يتورّط بين حقيقة السعادة واليأس منذ طفولته بشكل تدريجي، إلا عندما وقفتُ وحيداً على الجسر المؤدّي نحو قرية الباب الجنوبي، أسترجع هذه الأحداث بعد موت سو يوي، بأكثر من عشر سنوات.

الرعشة

عندما كُنتُ في الرابعة عشرة شعرتُ بحركة غامضة ليلاً، وانتابني بعدها شعور رائع. كُنتُ قد استخدمتُ الخوف كوسيلة للتعبير عن الفرح في تلك اللحظة التي استشعرتُ فيها هذه المتعة التي لا تُضاهى. بعدما تعرّفتُ على مصطلح الرعشة، كان فَهْمي له مختلفاً عن باقي أقراني، وبدأتُ أعي مقصد الكاتب الألماني جوته حين قال:

"الخوف والرعشة هما قمّة الشعور الإنساني".

بعدما عبرتُ قمّة جبل الإثارة في تلك الليلة المظلمة، ودخلتُ وسط فراغ منقطع النظير، ثمّ اكتشفتُ أن هناك بقعة لزجة داخل سروالي، لم أتمالك نفسي من شدّة الخوف. لم يتسبّب ذلك الشعور بالخوف في أن ألومَ نفسي على ذلك الفعل، بل كان ذلك خوفاً فسيولوجيّاً بحتاً. فقد تخيّلتُ أن تلك البقعة اللزجة هي تسرُّب بولي، وكان ذلك الجهل هو مصدر خجلي، فقد كُنتُ أشعر بالقلق لكوني في هذه السّنّ، ولا أزال أتبوّل في فراشي، وفي الوقت نفسه، خفتُ أن يكون ذلك بادرة إصابتي بالمرض. بالرغم من ذلك، فبسبب اشتياقي لتلك الإثارة، قمتُ بتكرار هذه الرعشة الممتعة لمرّات، بشكل لا إرادي.

جعلَتْ أشعّة الشمس اللامعة وجهي يبدو شاحباً حينما خرجتُ من البيت متوجّهاً نحو المدرسة في ظهيرة أحد أيّام الصيف. في تلك اللحظة،

أقدمتُ على تصرّف مُخجِل، لأني أرغب أن أحلّ لُغز هذا السائل الذي خرج منّي ليلاً. لم تكن سنّي حينها هي السّنّ التي أتصرّف فيها وفقاً لكون الأمور صحيحة من وجهة نظري، فالرغبة الداخلية أخذت تتحكّم خلسة في جزء من تصرّفاتي. مضت عدّة أيّام وأنا أرغب في معرفة ماهيّة هذا الشيء. فأنا لا أستطيع فعل هذه الممارسة في المنزل، الخيارات المتاحة أمامي كلها هي مراحيض المدرسة وقت الظهيرة، فحينها تكون المراحيض فارغة تماماً. لوقت طويل، كُنتُ مُجبَراً على أن ألوم نفسي على ممارسة هذا الفعل الكريه في هذا المكان الكريه. أمّا الآن، فقد أقلعتُ عن هذا اللوم، كان اختياري للمراحيض في البداية هو ما جَعَلَني أستكشف أسرار مراهقتي التي لا مجال لإخفائها. هذا الاختيار الذي فرضه عليّ الواقع، ولم يكن بمحض إرادتي.

لا أرغب في وصف ذلك المكان الذي لا يُطاق، إلا أن تذكُّر صوت طنين الذباب الذي يطير في كل مكان، وأصوات حشرة الزيز المختلطة في الخارج، كانا كفيلَيْن بإصابتي بالقلق والاضطراب. عندها غادرتُ المرحاض، ثمّ سرتُ خائر القوى وسط الساحة الرياضية أسفل أشعّة الشمس الساطعة. كان هذا هو ما جلبه لي هذا الاكتشاف الحديث، الحَيْرَة بعد الشرود. دخلتُ مبنى الدراسة المقابل آملاً أن أجد غرفة فارغة، أضطجع فيها وحيداً. إلا أنني شاهدتُ زميلة تجلس داخل حجرة دَرْس، تكتب واجباتها، كان منظرها وهي تجلس في سكون قد جَعَلَني أشعر بالذنب العميق. لم أجرؤ على دخول الغرفة، وقفتُ في الرَّدْهَة بجوار النافذة، ينتابني شعور بالإحباط الشديد، لم أكن أعرف ما الذي عليّ أن أفعله لاحقاً، وكأن القيامة ستقوم. بعدها شاهدتُ عاملة النظافة تحمل دلو الماء متّجهة نحو المرحاض الذي خرجتُ لتوّي منه، كان هذا المشهد قد جعل جسدي يرتجف.

ومع التّعوّد التدريجي على رعشة الجسم لاحقاً، لم أعد أخاف من الشعور بالذنب مع حلول الليل. فكلّما أصبحتُ أكثر إدراكاً لأفعالي، صرتُ عاجزاً في مواجهة تأنيب نفسي على الإغراءات الجسدية، فغالباً ما كان سكون الليل يمنحني السكون والطمأنينة. في اللحظة التي كُنتُ فيها على وشك الانخراط في النوم من شدّة التعب، كان المشهد الذي يظهر أمام عينَي هو قميص مُلوَّن يُرفرف في جوّ رماديّ قاتم. وذلك الصوت الصارم الذي كان يُوبّخني أخذ يبتعد عنّي شيئاً فشيئاً.

إلا أنه بمُجرّد سيري في الطريق إلى المدرسة صباحاً، تعود الأغلال، لتُثقل كاهلي من جديد. كان الحياء يُخالجني عندما أدخل من باب المدرسة، وأشاهد هؤلاء الطالبات الذين يرتدينَ ملابس نظيفة وأنيقة. حياتهم الصّحّيّة التي تظهر من خلال أحاديثهم وضحكاتهم وأشعّة الشمس تغمرهم قد منحتْني شعوراً جميلاً، لم أحظَ به من قبل، أمّا قذارتي، فقد كانت تُثير استيائي من نفسي. أكثر ما كان يؤلمني هو أن تلك الابتسامة التي تملأ وجوههم. وبخلاف كوني أرتعد خوفاً، فلم يكن لديّ الحقّ في الاستمتاع بلحظات السعادة والإثارة حين تُسلّط إحدى الفتيات عينَيْها نحوي. في تلك الأوقات، كُنتُ أعقد العزم على أن أُغيّر من نفسي، ولكنْ، بمُجرّد حلول الظلام، تعود ريما لعادتها القديمة. في تلك الأيّام، كان كرهي لنفسي يتجلّى في وقوفي وحيداً في مكان مهجور خلال أوقات الراحة بين الدروس. أخذتُ أتجنّب صديقي "سو يوي" الذي كُنتُ قد اعتدتُ على مرافقته، لأني اعتقدتُ أنه لا يحقّ لي أن أُصادِقَ صديقاً رائعاً مثله. وعندما كُنتُ أراه قادماً نحوي، كُنتُ أسير حزيناً نحو الجانب الآخر من الطريق.

كانت حياتي مقسّمة بين الليل والنهار. في النهار، كُنتُ أقسو على نفسي بلا رحمة حتّى أبدو شجاعاً رصيناً، ولكنْ، مع حلول الليل تتحطّم

على عتباته عزيمتي. كانت سرعة انخراطي في أحضان الرغبة تُفاجِئني بشكل يثير دهشتي. في تلك الأيّام، عانيتُ من الاضطراب النَّفْسي، وشعرتُ بوضوح أنني مقسَّم إلى نصفَيْن، هذان النِّصفأن كالعدُوَّيْن المتنافرَيْن، يَرْمُقُ كل منهما الآخر بغضب.

لم أكن قادراً على قَهْر رغبتي في الليل، وفي تلك اللحظات، كُنتُ في حاجة إلى هيئة أنثى تساعدني على الخيال مع مرور الوقت. قطعاً لم أكن أرغب في تشويه أحد، ولكني كُنتُ مضطراً. استدعيتُ في خيالي زميلة، اسمها "تساو لي"، تلك الفتاة الجميلة التي كانت ترتدي تنّورة قصيرة في فصل الصيف، وهو ما كان يسلب لُبّ الطَّلَبَة الذُّكُور الذين كانوا في مرحلة البلوغ الجسدي. كانوا يمتدحون ساقَيْها الطويلتَيْن العاريتَيْن، وعادة ما كُنتُ أسمعهم يتهامسون بالحديث عنها، أمّا أنا الذي كُنتُ مُفتقِداً إلى الحساسية تجاه جسم المرأة، فقد كُنتُ مذهولاً. لم أكن أفهم لماذا لا يمتدحون وجهها، فوجهها من وجهة نظري يتمتّع برونق وجمال مُنقَطِعَي النظير، فقط ابتسامتها هي ما يجعلُني أشعر بالراحة المتناهية. صارت "تساو لي" هي رفيقتي التي لا غنى عنها في ظلمة الليل. وبالرغم من أنني لم أُولِ اهتماماً كبيراً بجسدها، كما فعل بقية الصبيان، إلا أنني كُنتُ مثلهم قد لحظت ساقَيْها المثيرتَيْن، فساقاها كانت تشعّان بريقاً ولمعاناً، يجعلني أشعر بالرعشة. بالرغم من هذا كله إلا أنني كُنتُ أُحبّ وجهها أكثر من أيّ شيء. وكان صوت حديثها يُشعرني بالإثارة عندما يترامى إلى مسامعي من أيٍّ مكان.

وهكذا، فمع قدوم الليل، كانت تأتي "تساو لي" لترافقَني في خيالي. لم تكن لديّ تجاهها أيّ نوايا جنسية شرّيرة، فقط كُنّا نتمشّى معاً على شاطئ نهر خال من المارّة. قمتُ بتزييف كلامها، ونظراتها تجاهي، بل حتّى

إنني تجرّأتُ وزيّفتُ عبقها المتناثر، ذلك العبق الأشبه بعبق الأرض العشبية وقت الفجر. المرّة الوحيدة التي تجاوزتُ فيها عن الخيال المسموح هي عندما مسحتُ بيدي على شَعْرها المتطاير. بعد ذلك، كُنتُ أنهر نفسي عن التفكير في لَمْس وجهها مُحذِّراً نفسي قائلاً:

"لا يجوز أن أتصرّف هكذا".

بالرغم من أنني نجحتُ في مَنْع نفسي من لَمْس وجه "تساو لي" الجميل، إلا أنه مع حلول النهار، انتابني شعور أنني قد تسبّبتُ لها في الأذى، وهو ما جَعَلَني أعيش في قلق دائم، بمُجرّد دخولي إلى المدرسة. لم تكن لديّ الجرأة على النَّظَر إليها، إلا أن حاسّة السَّمْع لم تفقد القدرة على سماعها، فصوتها كان يترامى إلى مسامعي فجأة، وهو ما كان يُشعرني بالسعادة والحزن، في الوقت نفسه. ذات مرّة، كانت تلهو مع زميله لها، وترميها بكُرة ورقية، تَصَادَفَ مروري حينها، فأصابتْني الكُرة دون قَصْد. وقفت "تساو لي" هناك مرتبكة، ومع تصاعد ضحكات زملائها وزميلاتها، جلستْ على الأرض والخجل يعلو وجهها، ثمّ دفنتْ رأسها وسط حقيبتها. كان ارتباكها وقلقها قد صدماني بشدّة، إذا كانت كُرة ورقية لا تساوي شيئاً سبباً في جَعْلها تشعر بالخجل إلى هذا الحدّ، فتفكيري فيها كل ليلة هو بالتأكيد شيء قَذِر. إلا أنه بعد فترة قصيرة، تغيّرت هذه الفتاة تماماً.

أقسمتُ مرّات عديدة أن أقلعَ عن إيذاء "تساو لي" في الخفاء، فقد حاولتُ أن أستبدلها في خيالي فتاة أخرى، إلا أنه لم تكد تمرّ فترة من الوقت حتّى تعود وتظهر بسرعة في خيالي مرّة أخرى. ضاعت جهودي كلها سُدى دون أن أتمكّن من الإقلاع عنها، كانت المواساة التي أستطيع أن أمنحها لنفسي في تلك الأيّام هي أنه بالرغم من أنني قد آذيتُها مراراً وتكراراً في خيالي، إلا أنها لا تزال هناك جميلة، كما لو أنها تلعب وتجري بحيوية.

في الوقت الذي كُنتُ فيه متساهلاً مع نفسي، كانت معاناتي تزداد عُمقاً. "سو يوي" الذي يكبرني بعامَيْن كان قد لاحظ ذلك الشحوب الذي يغطّي وجهي وسلوكي الغريب وأنا أحاول تجنّبه. في تلك الفترة، لم تكن رؤية "تساو لي" تمُثِّل لي معاناة هائلة فحسب، بل كانت رؤية "سو يوي" أيضاً تُشعِرني بالحرج الشديد. كانت هيئته وهو يسير هادئاً وسط الساحة الرياضية التي تكتنفها أشعّة الشمس، قد جعلتْهُ يبدو صافياً مرتاح البال. أمّا قذارتي، فجعلتْني أشعر بأنه ليس لي الحقّ في أن أُصادِقَ شخصاً مثله. لم أعدْ أذهب إلى صفّه الدراسي بعد انتهاء الدراسة لرؤيته، كما كُنتُ أفعل في السابق، بل كُنتُ أسير وحدي عند البركة الواقعة بجوار المدرسة، مُتحمّلاً في صمت تبعات تصرّفاتي.

أتى "سو يوي" عند البركة عدّة مرّات، في المرّة الأولى، سألني باهتمام شديد ما الذي حدث، كانت نبرته، وهو يسألني، قد جعلتْني على وشك البكاء. لم أجبْه، وظَلَلْتُ مُحدِّقاً للتّموّجات التي تطفو على سطح الماء. بعدها كان يأتي إلى البركة دون أن يتحدّث، كُنّا نقف هناك صامتَيْن، ننتظر سماع صوت جَرَس المدرسة، ثمّ نغادر.

لم يكن بقدوره أن يعرف حجم المعاناة التي أمرّ بها. كانت أحوالي قد سبّبت له نوعاً من الشّكّ، في أنني أصبحتُ أشعر بالملل تجاهه. بعدها صار حَذِراً في تصرّفاته، فلم يعد يأتي عند البركة لرؤيتي. وهكذا انتهت فترة الصداقة الحميمة بيننا، بل تحوّلت بسرعة إلى جفاء. أحياناً كُنّا نلتقي صدفة في الطريق إلى المدرسة، فتبدو علينا علامات القلق والعصبية. في تلك الأثناء، بدأتُ ألحظ وجود زميل اسمه "تشنغ ليانغ"، هذا الزميل الأضخم حجماً من بين الزملاء كلهم، أخذ يظهر بصحبة "سو يوي". كان "تشنغ ليانغ" بأصوات ضحكاته العالية و"سو يوي" بأسلوبه

الرصين المتّزن يتحدّثان بودّ في أحد جوانب الساحة الرياضية. وكُنتُ أقف بعيداً، أنظر بحزن إلى "تشنغ ليانغ" وهو يقف في المكان الذي يُفترَض أنه يخصّني.

لقد تذوّقتُ طَعْم فقدان الصداقة، وشعرتُ بالاستياء الشديد. وعندما كُنتُ أتقابل مصادفة مع "سو يوي" كانت نظراته المملوءة بالشّكّ والحزن تجعلني متأثّراً بشدّة، وتُشعِل في داخلي رغبة شديدة في أن أستعيدَ صداقتي السابقة معه. إلا أن تزايد شعوري العميق بالذنب ليلاً، كان يجعل قيامي بهذا الفعل غاية في الصعوبة. في تلك الأيّام، كان النهار يجعلني أشعر بالخوف الشديد، وكانت أشعّة الشمس الساطعة تجعلني أكره نفسي بشدّة. هذا الكره صار أكثر حدّة، بسبب فراقي عن"سو يوي". ولذلك فقد قرّرتُ في صباح أحد الأيّام أن أُخبره بأفعالي القذرة. كان الدافع وراء هذا القرار هو أنني أريد أن أعاقبَ نفسي عقاباً حقيقياً، كما أنني أريد أن أُعبِّر عن له عن صِدْقي. يمكنني أن أتخيّل ملامح الدَّهْشة على وجه "سو يوي" بعدما يستمع إلى حديثي، من المؤكّد أنه ليس لديه أدنى فكرة عن مدى كوني قذراً إلى هذا الحدّ.

إلا أنه في صباح ذلك اليوم عندما استدعيتُ "سو يوي" بشجاعة إلى جانب البركة، وحافظتُ على شجاعتي حتّى أخبرتُهُ بكل شيء، لم يطرأ عليه أدنى شعور بالدَّهْشة، بل أخبرني بجدّيّة قائلاً:

"هذه هي العادة السّرّيّة".

كانت الحالة التي بدا عليها قد أصابتْني بالدَّهْشة. شاهدتُهُ يبتسم بخجل، ويقول بهدوء:

"أنا أيضاً مثلكَ".

شعرتُ حينها بالدموع تكاد تنهمر من عينَيّ، ثمّ سمعتُ نفسي أقول له بتذمّر:

"لماذا لم تُخبرْني من قبل"؟

لن أنسى أبداً ذلك اليوم حين وقفتُ بصحبته بجوار البركة، وبسبب كلامه، عاد النهار جميلاً كما كان، وعادت الأشجار والأعشاب خضراء نضرة، كما كانت. كان هناك بعض الزملاء يقفون هناك يضحكون، أشار "سو يوي" بيده نحوهم، وقال لي:

"هم أيضاً يفعلون كذلك في المساء".

في إحدى الليالي بعدها بفترة قصيرة، كان الشتاء قد انقضى لتوّه، كُنتُ أنا و"سو يوي" و"تشنغ ليانغ" نسير معاً في طريق هادئة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أسير فيها معه ليلاً، أتذكّر أنني حينها كُنتُ أدسّ يدي في جيبي، وكأني لم أستوعب أن الشتاء قد ولّى، بعد قليل شعرتُ بيدي تتعرّق، حينها سألتُ "سو يوي":

"هل جاء الربيع"؟

كُنتُ حينها في الخامسة عشرة، أسير بصحبة صديقَيْن أطول منّي بكثير، وكانت هذه بالنسبة إليّ لحظات، لا تُنسى. كان "سو يوي" يسير على يميني، ويضع يده على كتفي. بينما كان "تشنغ ليانغ" يسير على يمين "سو يوي"، وكانت هذه هي المرّة الأولى التي أتحدّث فيها إليه. وعندما شرع "سو يوي" يُعرِّفني اليه، كان "تشنغ ليانغ" يستمع مسروراً، ولم يُهملْني نظراً لكوني أقصر منه قامة، بل سأل "سو يوي" قائلاً:

"ألن تُعرِّفني به"؟

ترك "تشنغ ليانغ" لديّ انطباعاً عميقاً في تلك الليلة، فَظِلُّ قامته الطويلة أسفل ضوء القمر مَنَحَني شعوراً بثقته الكبيرة في نفسه، كما أنه عادة ما كان يهزّ ذراعَيْه وهو يسير. في تلك اللحظات، سرْنا معاً نتحدّث عن العادة السّرّيّة. كان "سو يوي" هو أوّل مَنْ بدأ الحديث، كان معتاداً على الهدوء، بدأ يتحدّث بصوت مُتّزن، بشكل مفاجئ، وهو ما جَعَلَني أُصاب بالدَّهْشة. فهمتُ مقصد "سو يوي" الحقيقي عندما تذكّرتُ هذا المشهد بعدها بسنوات. فحينها لم أكن قد تخلّصتُ تماماً من الضغط النَّفْسي لهذه العادة، وكان "سو يوي" يفعل هذا بدافع مساعدتي. وحقيقة الأمر أنني لم أشعر بالراحة كُلّيّاً إلا بعد تلك الليلة. في البداية، كُنّا نتحدّث بغموض، وهو مَا جَعَلَني أشعر بالأُلفة حتّى الآن.

كان "تشنغ ليانغ" لطيف الأسلوب وهو يُحدِّثنا، هكذا قال لنا:

"عندما أُعاني من الأرق ليلاً، تكون هذه هي الأداة المناسبة للاستغراق في النوم".

كان أسلوبه قد جَعَلَني أتذكّر ذلك التأنيب واللوم الذي كُنتُ أعيش فيه منذ أيّام، ومن ثمّ، فقد جَعَلَني أنظر إليه بغِبْطَة.

بالرغم من أن تلك الليلة قد منحتْني الراحة والتّحرّر، إلا أن جملة قالها لاحقاً" تشنغ ليانغ" قد سبّبت لي هَمّاً جديداً. عندما قال هذه الجملة، لم يكن يعرف مدى جهله حينها، حيث قال:

"ذلك الشيء، أشبه بالماء داخل القارورة، لا يوجد سوى كمّيّة محدودة، لو استهلكتَ منه كثيراً، فسينضب بسرعة بعدما تتخطّى الثلاثين، ولو حافظتَ عليه سيستمرّ معكَ حتّى لو بلغتَ الثمانين".

هذه الكلمات جعلتْني أنخرط في توتّر هائل من شدّة الخوف. فقد

شعرتُ أن ذلك السائل قد نفد منّي في تلك الليلة، بسبب الإفراط في استنزافه قبلها. هذا الخوف جَعَلَني أشعر بالقلق الشديد حيال مستقبلي. وخاصّة تطلّعاتي نحو الحُبّ والغرام، وبسبب هذه الحاجر النَّفْسي، لم أكن غير قادر على استعادة خيال الماضي الجميل فحسب، بل صرتُ أكثر يقيناً من الوقوع في العزلة مستقبلاً. وفي إحدى الليالي، شعرتُ بالحزن الشديد عندما تخيّلتُ نفسي عجوزاً مُثقَل الخطى، أسير وحدي وسط أرض مغطّاة بالثلوج في فصل الشتاء.

لِلَيَالٍ كثيرة تَلَتْ، لم أكن أفعل ذلك طَلَبَاً للمتعة الجسدية، بل تحوّل ذلك الفعل تدريجياً إلى برهان على استمرار قدرتي الجسدية. وبعد نجاحي في كل مرّة، كان وقت المواساة الذي أنعم به قصيراً للغاية، ثمّ يتبعه الخوف القديم. كُنتُ أعرف جيّداً أن هناك خطورة مع كل برهان أقوم به، وغالباً ما كُنتُ أشعر أن آخر سائل في جسدي قد خرج لتوّه. في كل مرّة، كُنتُ أنتهي فيها من البرهان، كُنتُ أشعر بالندم والحسرة. إلا أنه لم تكدْ تمرّ ثلاثة أيّام حتّى أشعر بالخوف، فأُعاود تقديم البرهان لنفسي مرّة أخرى. كان جسدي ينمو بالتزامن مع شحوب وجهي، فكُنتُ عادة أقف بجوار البركة عند الباب الجنوبي، أنظر إلى نفسي في الماء. كُنتُ أرى وجهي النحيل وعينَي المتعبَتَيْن تسبحان بوَهْن فوق سطح الماء، أمّا التّموّجات التي تهتزّ على سطح الماء، فكانت تبدو وكأنها تجاعيد تغطّي وجهي. خاصّة عندما يتلبّد الجوّ بالغيوم، حينها أرى بوضوح وجهاً مُكفهرّاً يعاني من الشيخوخة المبكّرة.

لم أتوصّل إلى الإجابة الصحيحة إلا بعد بلوغي العشرين. كُنتُ قد التحقتُ بالجامعة في بكين حينها، حيث تعرّفتُ إلى أحد الشعراء المشاهير. كان هو أوّل شخص مشهور أتعرّف إليه، ارتجاليّته وعصبيّته

جعلتاني مُنْجَذِباً إليه، بحيث أسافر لمدّة ساعَتَيْن من شرق المدينة إلى غربها، لكي أتحدّث إليه حتّى ولو لدقائق، وأحياناً أكون سعيد الحظّ، وأتحدّث إليه لساعة كاملة. بالرغم من أنني كُنتُ قد تحدّثتُ إليه لثلاث مرّات إلا أنه لم يكن قد تذكّر اسمي، إلا أنني لم أشعر بالحزن حيال ذلك، بسبب أسلوبه الودّيّ وسخريّته اللاذعة من أقرانه. وبالرغم من انشغاله، فقد كان يستمع بانتباه وحرص إلى حديثي المُطوَّل، ثمّ يُصحِّح لي أموراً، يعتقد من وجهة نظره أنها خاطئة.

عادة ما كُنتُ أقابل بعض النساء غريبات الأطوار عند هذا الشاعر الأربعيني الأعزب، وهو ما كان يعكس تنوّع اهتماماته. ومع تعمّق العلاقة بيننا، حدّثتُهُ ذات مرّة بحرص منبّهاً إيّاه أن عليه أن يتزوّج. لم يغضبْ من انتهاكي لخصوصيّاته، بل قال لي بلا تكلّف:

"ولماذا أتزوّج"؟

شعرتُ ببعض الحرج حينها، ثمّ أكملتُ حديثي بدافع الحرص على هذا الشخص الذي أحترمه وأُقدّره قائلاً:

"لا تقلْ لي إنكَ استنفدتَ مخزونكَ في وقت مبكّر"!

كانت هذه العبارة قد أصابتْه بالدَّهْشة، فسألني قائلاً:

"من أين لكَ بمثل هذه الفكرة"؟

من ثمّ، أخبرتُهُ بحديث "تشنغ ليانغ" الذي قاله لي منذ عدّة سنوات. انفجر ضاحكاً بصوت عالٍ فور سماعه هذا الكلام، لن أنسى منظره وهو جالس على الأريكة يقهقه من شدّة الضحك. بعدها طلب منّي أن أتناول معه طعام العشاء، وكان عبارة عن كيسَيْن من المعكرونة سريعة التحضير، اشتراها من بِقَالَة أسفل المبنى الذي يسكن فيه.

تزوّج هذا الشاعر أخيراً في الخامسة والأربعين من عمره. زوجته فتاة ثلاثينية جميلة، كانت شراستها تلفت الأنظار تماماً كجمالها. الشاعر الذي عاش حياته في السابق، كما يحلو له، ها هو يتجرّع من كأس سخرية القدر. كان مثل الطفل الذي يعاني من معاملة زوجة أبيه، لا تعطيه سوى مصاريف مواصلاته فقط عندما يخرج من البيت. كان تحكّمها في المال، ليس سوى واحدة من وسائل تسلّطها. كان أحياناً يأتي إلى سَكَني، ووجهه مُتورِّم، والسبب في ذلك هو أن إحدى السّيّدات اتّصلت به. ولا يعود إلى بيته إلا برفقتي، ثمّ يكون مُجبَراً على الاعتذار. قُلتُ له ذات مرّة:

"لا ينبغي عليكَ أن تكتئبَ وتتصرَّف هكذا، بل عليكَ أن تكون واثقاً من نفسكَ، فأنتَ لم ترتكبْ أيّ خطأ".

حينها أجابَني مبتسماً:

مكتبة

"من الأفضل أن أعتذر وأعترف بالخطأ".

أتذكّر ذات مرّة أنها كانت جالسة على الأريكة، وما إن شاهدتْهُ يدخل من الباب حتّى قالت له:

"اذهبْ، ونظِّف القمامة".

بدا شاعرنا منتشياً بالفرح، وهو يحمل السّلّة المملوءة بالقمامة، فقد اعتقد خطأً أن قيامه بهذا العمل سيعفيه من العقاب، إلا أن هذه المرأة قالت له بعد عودته دون اكتراث:

"عُدْ من حيث أتيتَ".

ثمّ أغلقت الباب. سمعتُ صوتاً أشبه بصوت شخص كبير يُوبِّخ طفلاً

صغيراً. هذه الزوجة تعرف جيّداً أن هذا الشخص الذي تعامله بهذا السوء هو شاعر مشهور. ولذلك فقد ضمنت توبيخها عباراتٍ شِعْريّةً قديمةً من عصر أسرة سونغ، وبعضاً من المصطلحات السياسية والمقاطع الغنائية الحديثة. تخلَّل توبيخَها عباراتُ أسف واعتذار من الزوج، وهو يقول:

"نعم، هذا صحيح".

أو يقول:

"كلامكِ مَنَحَني بعض الإلهام".

كان صوتها يزداد شراسة شيئاً فشيئاً، وحقيقة الأمر أنها لم تكن تُوبِّخ زوجها حينها، بل كانت تُوبِّخ نفسها. فقد أعطاني صوتها شعوراً بأنها غارقة في شلال، لا يهدأ من الثرثرة.

الحياة برفقة هذا النوع من النساء كارثية بحقّ، حتّى لو لم تكن تضرب زوجها، فثرثرتها وحدتها كفيلة بجَلْب المعاناة.

كان أكثر مظاهر تسلّط هذه المرأة هي أنها جعلت زوجها يقوم بكتابة خطاب ضمان طاعته لها، وخطاب إقرار بالذنب، وخطاب مراجعة نفس، وغير ذلك من الخطابات، ثمّ علّقتْها على الجدران، وكأنها حلى تُزيّن المنزل، ثمّ تُطلع أصدقاء زوجها عليها حين قدومهم لزيارتهم. في البداية، كان صديقي مُمتعِضاً من هذه الأفعال كلها، إلا أنه بعد فترة من الوقت تعوّد على هذه الأمور، وكأن شيئاً لم يكن، كان يقول لي:

"الخروف المذبوح لا يخاف من السَّلْخ".

كان قد قال لي أيضاً:

"هي لا تُعذِّبني جسدياً فقط، بل تُعذِّبني نَفْسياً أيضاً".

سألتُهُ: "ولماذا تزوَّجتَها، إذنْ"؟

قال: "وكيف لي أن أعرف قبل الزواج أنها امرأة سليطة"؟

نصحتُهُ أنا وأصدقاء آخرون أن يُطلِّقها، إلا أنه كان يُخبرُها بذلك. كانت خيانته لها سبباً في أن تُهاتِفَنا هذه المرأة السليطة، وتكيلَ لنا السبابَ والتهديدات. حتّى إنها دعتْ عليّ أن أموت في انفجار في الشارع يوم عيد ميلادي الخامس والعشرين.

في ربيع عامي الخامس عشر، عندما كُنتُ أُبدّل ملابسي بعد الاستحمام وقت الظهيرة، اكتشفتُ تغييراً غريباً قد طرأ على جسدي. شاهدتُ شُعَيرات أخذت تنمو أسفل بطني، وهو ما زادني خوف على ذلك الخوف والاضطراب النَّفْسي الذي كُنتُ أعاني منه ليلاً. تلك الشُّعَيرات الرفيعة بدت وكأنها ضيف ثقيل حلّ على بشرتي الناعمة. كُنتُ أنظر إليهم باستغراب في البداية، ولفترة طويلة، لم أكن أعرف ما الذي ينبغي عليّ فعله تجاههم، فقط كُنتُ خائفاً، أشعر أن جسدي قد فَقَدَ ماضيه الذي كُنتُ أنعم فيه بالراحة.

عندما كُنتُ أسير في طريقي إلى المدرسة أسفل أشعّة الشمس الساطعة، كانت الأشياء كلها من حولي كما هي، جسدي فقط هو الذي تغيّر. شيء قبيح يختبئ داخل سروالي، يجعلني أشعر بثقل خطواتي عندما أسير. وبالرغم من كرهي لهذا الشيء إلا أنه كان عليّ أن أكتم سرّه، فهو جزء من جسدي شئتُ أم أبيتُ.

بعدها بفترة قصيرة، نما الشَّعْر على ساقَيّ بسرعة. كُنتُ قد اكتشفتُ

ذلك وأنا أخلع سروالي في أحد أيّام الصيف. وعندما كُنتُ أرتدي سروالاً قصيراً أذهب به للمدرسة، لم يجد هذا الشَّعْر مكاناً يختبئ فيه، وهو ما كان يُشعِرني بالحرج الشديد. كان القلق والاضطراب يكتنفني عندما أشعر أن هناك زميلة تنظر إلى ساقَيّ. وبالرغم من أنني اقتلعتُ معظم هذه الشُّعَيرات في اليوم التالي إلا أنني كُنتُ خائفاً أن تراها "تساو لي".

في تلك الأثناء، كان هناك زميل هو الأطول قامة، وكان شَعْر ساقَيْه كثيفاً أسود اللون، إلا أنه كان يُظهِره دون حرج، وكأنه غير مهتمّ بالمرّة. لفترة من الوقت، كُنتُ أشعر بالحرج بدلاً منه، خاصّة عندما كانت إحدى الزميلات تنظر إلى شَعْر ساقَيْه.

كُنتُ قد حضرتُ مبكّراً إلى المدرسة في ظهيرة أحد الأيّام مع قرب حلول الإجازة الصيفية. حينها كانت هناك عدّة زميلات يضحكنَ بصوت عالٍ داخل قاعة الدرس، وهو ما أفقدَني الجرأة على الدخول. وحتّى الآن، لو صادفتُ غرفة مملوءة بالفتيات أو أشخاص غرباء يكون من الصعب عليّ أن أدخل إليها وحيداً. فالأنظار الكثيرة المسلّطة عليّ تُفقدِني القدرة على التّصرّف. حينها كُنتُ عازماً على المغادرة من فوري، إلا أنني سمعتُ صوت "تساو لي"، كان صوتها يُمسِك بي بشدّة. ثمّ سمعتُ هؤلاء الطالبات يسألنَها مَنْ هو حبيبها، كانت جرأتهم في السؤال أصابتْني بالذهول. ما جَعَلَني أذهل بشكل أكبر هو أن "تساو لي" لم تُبدِ أيّ حَرَج من السؤال، بل كان صوتها مختلَطاً بنوع من الفرح، وهي تطلب منهم أن يُخمِّنوا.

كُنتُ مضطرباً حتّى إن أنفاسي كانت تتقطّع. خمّنتْ زميلاتها عدداً كبيراً من الأسماء، من بينهم "سو هانغ" و"لين ون" وغيرهم من الأسماء التي لا تمتّ لي بصلة، أصابني نسيانهم وإهمالهم لي بالحزن الشديد. إلا أن نَفْيَ "تساو لي" لهذه الأسماء جميعها قد منحني بعضاً من الأمل

المؤقّت. ولكنْ، ما إن نطقتْ إحداهنّ باسم ذلك الزميل طويل القامة ذي الساق المملوءة بالشَّعْر الداكن حتّى اعترفتْ "تساو لي" أنها تُحبّه. حينها انفجرنَ ضاحكات، وتخلّل صوت الضحكات صوتٌ يقول:

"أعرف ما الذي تحبّينه فيه".

"ماذا"؟

"شَعْر ساقه".

كان ردّ "تساو لي" قد جَعَلَني أعيش في حَيْرَة غير قادر على فَهْم هذا العالم لفترة طويلة من الوقت. فقد قالت إنه الأكثر نضجاً من بين باقي الطلاب الذُّكُور.

غادرتُ مكاني في صمت، سرتُ وحيداً، فيما كان صوت ضحكات "تساو لي"يُلاحقني. المشهد الذي عشتُهُ لتوّي جَعَلَني مذهولاً أكثر من كوني حزيناً. ففي تلك اللحظة، أظهرت لي الحياة للمرّة الأولى ملامح مختلفة تماماً عمّا كُنتُ أتخيّله. ذلك الزميل طويل القامة، الذي لا يكترث لشَعْر ساقه، واجبه المدرسي دوماً مملوء بالأخطاء، المدرّسون جميعاً بلا استثناء يسخرون من بلادته، شخص بهذه الحالة يحظى بحُبّ "تساو لي". يا لها من مفارقة عجيبة! ذلك الشخص الذي أعتقد أنه قبيح، مملوء بالجمال في نَظَر "تساو لي". سرتُ حتّى وصلتُ إلى حافّة البركة، وقفتُ هناك وحيداً لفترة طويلة، أتطلّع إلى أشعّة الشمس وأوراق الشجر الطافية على سطح الماء. حيث تحوّلتْ خيبة أملي فيها إلى شفقة بنفسي. كانت هذه هي أولى مرّات فشلي في التّطلّع نحو حياة جميلة.

المرّة الثانية التي فشلت فيها كان "سو يوي" هو السبب، وكانت

بخصوص سرّ متعلّق بجسد المرأة. حينها كانت تطلّعاتي إلى المرأة كما هي، إلا أنني كُنتُ جاهلاً تماماً بجسدها. كُنتُ أستخدم أنقى جزء من جسدي، لأرسم به صورة المرأة في بقعة من الفراغ، هذه الصورة تظهر لي ليلاً على شكل وجه "تساو لي"، أمّا فيما يخصّ حقيقة الجنس، فقد كانت بعيدة عن خيالي. في تلك الليالي، كُنتُ غالباً ما أرى جمال الجسد الأنثوي الذي لا يُضاهى، يسبح في سماء الليل المظلم.

كانت البداية هي ذلك الكتاب ذو التجليد الفاخر المرصوص على رفّ مكتبة والد "سو يوي". هذا الكتاب كان مألوفاً جدّاً بالنسبة إليه، إلا أن اكتشافه الحقيقي لهذا الكتاب كان من خلال "سو هانغ". فبعد مغادرتهما لقرية الباب الجنوبي كان يسكنان مع عائلتهما في سَكَن خاصٍّ بالمستشفى. "سو يوي" و"سو هانغ" يسكنان في الطابق الأسفل، ووالداهما يسكنان في الطابق الأعلى. كان الوالدان قد أوكلا للأخوَيْن مهمّة يوميّة، ألا وهي تنظيف الأرض بالمِمْسَحَة. في السنوات الأولى، كان "سو هانغ" مسؤولاً عن تنظيف الطابق السفلي، فلم يكن يرغب في الصعود إلى الطابق العلوي حاملاً المِمْسَحَة. بعد ذلك، أخبر "سو هانغ" أخاه "سو يوي" فجأة، أنه سيكون مسؤولاً عن تنظيف الطابق العلوي. لم يذكر "سو هانغ" أيّ أسباب لهذا التغيير المفاجِئ، فقد كان معتاداً على أن يُوجِّه الأوامر لأخيه الأكبر. تقبّل "سو يوي" قرار أخيه "سو هانغ" بصمت، فهذا التغيير البسيط لم يَجْذِبْ انتباهه. بعدما صار "سو هانغ" مسؤولاً عن تنظيف الطابق العلوي، كان هناك زميلان أو ثلاثة يأتيان يومياً لمساعدة "سو هانغ" في التنظيف. وكان سو يوي يسمعهم يتهامسون بالأعلى، وهو يُنظّف الطابق السفلي. ذات مرّة، دخل عليهم سو يوي فجأة، فاكتشف حينها سرّ ذلك الكتاب ذي التجليد الفاخر.

بعد ذلك، بدا "سو يوي" مهموماً في كل مرّة أشاهده فيها، كان مثلي

تماماً، تطلّعاته نحو النساء خيالية فوق الحدّ، وما إن اصطدم بالواقع حتّى أصابه الذهول. أتذكّر تلك الليلة حين كُنّا نمشي في الشارع بهدوء، ثمّ وقفْنا عند ذلك الجسر الإسمنتي الذي كان قيد البناء، حينها أخذ "سو يوي" يتطلّع إلى ضوء القمر المختلط مع أضواء المصابيح فوق سطح الماء، ثمّ أخبرني بصوت مشوب بالقلق:

"هناك أمر أريد أن أُطلعَكَ عليه".

في تلك الليلة، كان جسدي يرتجف أسفل ضوء القمر، فقد كُنتُ أعرف ما الذي سيُطلعني عليه. إهمال "سو هانغ" لي في السابق، قد جعل اطّلاعي على تلك الصورة يتأخّر إلى اليوم. ولفترة طويلة من الوقت، كُنتُ أشعر بالندم لاختياري أن أقف حارساً في تلك المرّة التي كان "سو هانغ" يُطلع بقية الزملاء عليها.

في صباح اليوم التالي، كُنتُ أجلس على الكرسي في الطابق العلوي لبيت عائلة "سو"، كان كرسياً قديماً من الخيزران، ثمّ شاهدتُ "سو يوي" يلتقط ذلك الكتاب من على الرّفّ، وأطلعَني على تلك الصورة المُلوّنة.

كان الشعور بالغضب هو إحساسي الأوّلي. فصورة المرأة الجميلة التي رسمتُها عبر الخيال المتراكم قد تحطّمتْ بسرعة على عتبة تلك الصورة المُلوّنة. فذلك الجمال الذي كُنتُ أتوقّع رؤيته، حلّ محلّه صورة قبيحة بشعة. كان "سو يوي" يقف هناك شاحب الوجه، وكان وجهي شاحباً مثله، أغلق "سو يوي" الكتاب، ثمّ قال:

"لم يكن ينبغي أن أُطلعَكَ عليها".

تلك الصورة المُلوّنة أخذتْني من الخيال الجميل، وقذفت بي داخل

الواقع العاري القبيح، "سو يوي" كان لديه الشعور نفسه هو الآخر. وبالرغم من أنني قد حافظتُ على تلك التّطلّعات الجمالية لفترة من الوقت بعدها، إلا أنني كُنتُ أشعر أن هذه التّطلّعات قد صارت عاجزة.

بعدها فقدتُ البراءة والنقاء عندما كُنتُ أفكّر في النساء، فتلك الصورة المُلوّنة قد أخذتني إلى الواقع الجسدي. بدأتُ أتصوّر التّخيّلات كافّة عن المرأة، بالرغم من أنني كُنتُ مرتاعا أشعر أن السقوط قادم بسرعة، إلا أنني لم أكن قادراً على مقاومة الرغبة الجسدية. وبمرور الوقت، حدثت تغيّرات متسارعة في نظرتي للنساء، فبدأتُ أراقب صدورهنّ ومؤخّراتهنّ. لم يعد الحال كما كان في السابق، حيث كُنتُ أكتفي بالتّطلّع إلى جمال ملامحهنّ.

في خريف عامي السادس عشر، جاءت فرقة عرض الأفلام السينمائية إلى قرية الباب الجنوبي بعد انقطاع دام لستّة شهور. حينها كان عرض الأفلام في القرية مساء عبارة عن مهرجان كبير، وكان الناس من القُرى المجاورة يأتون إلى قريتنا قبل حلول الظلام حاملين كراسيهم معهم. ولمدّة طويلة كان كرسي كبير القرية يُوضَع في منتصف ساحة التجفيف دون تغيير. وكان هو يمسك بعصا خيزران من النوع المستخدَم في تجفيف الملابس، ويمشي هناك مُستعرِضاً سلطته مع حلول الظلام. يضع العصا على كتفه بشكل مائل، وهو جالس على كرسيه. وإذا حدث وجلس أحدهم أمامه ممّا يعيق مشاهدته للفيلم كان يهوي على رأسه بالعصا. فقد كان يستخدم هذه العصا، ليفسح لنفسه مجال الرؤية.

غالباً ما كان الأطفال يجلسون في الجهة المعاكسة من الشاشة الفضّيّة، يشاهدون شخصيات الفيلم بشكل معكوس، وكأنهم يُمسكون الأسلحة أو الأقلام بأيديهم اليسرى. كُنتُ من جمهور الجهة المعاكسة وأنا صغير، ولكنْ، بعدما بلغتُ السادسة عشرة، لم أعدْ أجلس هناك. في تلك

المرّة، كانت هناك فتاة من القرية المجاورة تقف أمامي، وحتّى الآن لا أعرف مَنْ هي؟ كان الزحام حينها قد دفعَني حتّى وقفتُ خلفها. فصرتُ أنظر إلى الشاشة من خلال شَعْرها. في البداية، كُنتُ هادئاً، إلا أن عَبَقاً كان ينبعث من شَعْرها جَعَلَني أضطرب تدريجياً. ذلك العَبَقُ الدافئ المشوب برائحة الجسد أخذ يهاجمني. ثمّ تزامن مع حركة مفاجئة وسط الزحام أن لمستْ يدي مؤخّرتها. جَعَلَني هذا التلامس القصير مفتوناً. فمن الصعب التّخلّص من الإغراء بعد سيطرته على الجسد. وبالرغم من أنني كُنتُ خائفاً للغاية، إلا أنني مددتُ يدي، ولامستُها ثانية برفق. لم تُبدِ الفتاة أيّ ردّة فعل، وهو ما زاد من جرأتي. قلبتُ راحة يدي، وكدتُ تقريباً أن أُمسكَ بمؤخّرتها. كُنتُ مستعدّاً لأن أهرب في حال أن التفتت الفتاة بجسدها.كان تقف أمامي متصلّبة دون حراك، شعرتْ يدي بحرارة جسدها، ثمّ صار الجزء الذي ألمسه بيدي أكثر سخونة. حرّكتُ يدي قليلاً، إلا أن الفتاة ظلّتْ واقفة دون أيّ ردّة فعل. التفتُّ برأسي للخلف، فشاهدتُ رجلاً طويل القامة يقف خلفي. بعدها تجرّأتُ، ثمّ أمسكت بمؤخّرتها بدافع الفضول، حينها ضحكت الفتاة بصوت مسموع. تصادف صوت ضحكاتها مع أكثر مشاهد الفيلم مَلَلاً، وهو ما بدا غريباً للغاية، بالنسبة إلى الناس. كان صوت ضحكتها بمناسبة خطّ النهاية لجرأتي التي كانت آخذة في الازدياد. تراجعتُ للخلف قليلاً مُتظاهِراً باللامبالاة. إلا أنني لم أتمالك نفسي بعدما مشيتُ لبضع خطوات، فصرتُ أركض بكل قُوّتي نحو البيت، كُنتُ مضطرباً حتّى إن ضربات قلبي كانت في ازدياد بعدما استلقيتُ على سريري. في تلك اللحظات، كانت فرائصي ترتعد خوفاً حين يترامى إلى مسامعي صوت وَقْع أقدام، كُنتُ أشعر وكأنها جاءت بصحبة أحدهم للإمساك بي. زاد صوت وَقْع أقدام الناس وهم يتفرّقون بعد انتهاء الفيلم من فزعي.

وبعدما عاد والدي وأخي، ورقدوا في فراشهم، كُنتُ لا أزال قلقاً أن تأتي هذه الفتاة بصحبة عائلتها. ولم أستطع التّحرّر من هذا الخوف إلا بعدما استغرقتُ في النوم.

وعندما كُنتُ عاجزاً أمام رغباتي، كان "سو يوي" أيضاً متورّطاً في المأزق نفسه. لكن الفارق بيني وبينه هو أنه تحرّر بذلك من الضغط النَّفْسي الذي تسبّبت له به حياته السابقة في قرية الباب الجنوبي. عندما أسترجع ذكريات الماضي، أعرف أن السعادة التي كانت تغمر طفولته عندما كُنتُ أجلس على حافّة البركة، أنظر إليه، هي، في الحقيقة، سعادة زائلة، مثل الهواء السريع الذي يمرّ من فوق سطح الماء، ويمضي في طريقه. حينها كُنتُ قد عرفتُ القليل عن الخلاف بين والد "سو يوي" والأرملة، ولكني لم أكن أعرف مدى الصدمة التي سبّبها له هذا الموضوع. حقيقة الأمر أنه في الوقت الذي كان فيه الجفاء بيني وبين عائلتي في ازدياد مستمرّ، كان هو قد أخذ يشعر بالخوف تجاه عائلته، بسبب أفعال والده.

عندما انتقلت عائلة "سو" إلى قرية الباب الجنوبي، لم تكن الأرملة قد هرمت بعد، تلك المرأة الأربعينية لم تخفِ رغبتها الجامحة نحو الطبيب "سو". فقبل أن تنقضي فترة عنفوان شهوتها، ارتكبت خطأ التّقلّب العاطفي الشائع عند الرجال. قبل ذلك كان مَنْ يقصدونها لممارسة الجنس هم من الفلاحين ذوي الأقدام الملطّخة بالطين، ومع ظهور الطبيب "سو"، كان الأمر مثيراً للفضول بالنسبة إليها. ذلك الرجل المُهذَّب الذي يرتدي نظّارة طبّيّة، وتفوح منة رائحة الكحول المستخدَم في التعقيم، جعل هذه الأرملة تفطن إلى أنه بالرغم من أنها مارست الجنس مع الكثيرين من الرجال، إلا أنهم جميعاً من صنف واحد، وبقدوم هذا الطيب، لم تقدر الأرملة السيطرة على رغباتها نحوه، كانت دائماً ما تقول:

"هؤلاء المثقّفون يَجْذِبُون الآخرين إليهم".

ولكي أكون مُنصِفاً، عليّ أن أقول إن تلك الأرملة امتنعت عن ممارسة الجنس مع الرجال لمدّة أسبوعَيْن خلال تلك الفترة التي كانت مُغرَمَة فيها بالطبيب "سو"، فهي تعلم أن الأطبّاء يهتمّون بالنظافة. بدأت مراحل إغوائها له، من خلال تظاهرها بالمرض. وهو لم يكن يدري بهذا الفخّ الذي نصبتْهُ له، وهو يسير في طريقه ذاهباً إلى بيتها بعد علْمه بمرضها. بل حتّى إنه لم يفطن إلى حيلتها عندما كانت تنظر إليه نظرات غرام وإغواء، وهو يستعدّ لفحصها. سألها الطبيب بلهجته المعتادة عمّا يؤلمها، فأجابته أن هناك ألماً في معدتها. طلب منها الطبيب أن تكشف جانب غطائها، ليفحصها، فما كان من الأرملة إلا أن كشفت الغطاء بالكامل جانباً بيدها وقَدَمها، وأظهرتْ له جسدها العاري تماماً. أصابه هذا التّصرّف المفاجئ بالذهول، ولم يكن يدري ماذا يفعل. لقد شاهد جسد امرأة أخرى مختلف تماماً عن جسد زوجته. قال لها متلعثماً:

"لا داعٍ لكَشْف الغطاء بالكامل".

نادت عليه بلهجة آمرة:

"تعال بجواري".

لم يُهرَع الطبيب هرباً منها، بل استدار بجسده، وسار نحو الخارج مُثقَل الخطى. ذلك الجسد الذي رآه جعله يريد أن يتوقّف، ولكنه لا يستطيع. من ثمّ، قفزت الأرملة من فراشها، ثمّ احتضنَتْهُ، وجَذَبَتْهُ إلى الخلف نحو الفراش. بعد ذلك كان يُتَمْتِمُ قائلاً:

"فلتسامحني زوجتي وطفلاي".

شعور الطبيب بالندم لم يمنعه من القيام بذلك الفعل، فقد سارت الأمور كالمعتاد. بعدها كانت الأرملة تقول للآخرين:

"أنتم لا تعرفون كم هو خجول، هو حقّاً شخص جيّد".

بعد ذلك، لم تحدث بينهما أيّ علاقة مرّة أخرى. ولفترة طويلة بعدها، كان القرويون يشاهدون هذا الأرملة تخرج متزيّنة، وكأنها من فتيات شينجيانغ المشهورات بجمالهنّ، وتسير من أمام بيت الطبيب ذهاباً وجيئة، تتغنّج وتتباهى. كانت زوجة الطبيب تخرج من بيتها، تُرْمُقُها بنظراتها، ثمّ تدخل ثانية دون أن يحدث أيّ شيء. شاهدها أهل القرية تقف في طريق الطبيب عدّة مرّات، تمنعه من السير، وهي تبتسم له ابتسامة إغراء، بينما كان هو يحاول الفرار.

في إحدى الليالي، عندما كُنتُ في الصف الثاني الإعدادي، حدّثني سو يوي بهدوء عن أمر وقع في ليلة أخرى. لم يتسبّب الخلاف القصير الذي وقع بين والد "سو يوي" والأرملة في مشاكل كبيرة في البيت، إلا أنه تسبّب في وقوع أمر آخر. في إحدى الليالي، كان والداه قد عادا إلى البيت في وقت متأخّر، لم ترجع والدته إلى البيت إلا بعد حلول الظلام، وعندما ذهب بصحبه أخيه ليفتحا لها الباب، لم تعرهما أيّ انتباه، ثمّ أخرجت بعض الملابس من خزانتها، ووضعتها في حقيبتها، وخرجت من البيت. عاد والدهما بعدها بفترة قصيرة، سألهما هل عادت أمّكما أم لا، أجاباه بالإيجاب، فخرج هو الآخر من فوره. وظلا مستيقظَيْن، وهما جائعان ينتظران عودة والدَيْهما حتّى انتصف الليل، ولكنّ أيّاً منهما لم يعد، فصعدا إلى فراشهما، واستسلما للنوم. عندما استيقظا في صباح اليوم التالي كان والداهما يجهّزان طعام الإفطار في المطبخ كالعادة، وكأن شيئاً لم يكن.

كان هناك قلق واضح يتخلّل نبرات صوت "سو يوي" في تلك الليلة. كان شديد الحساسية، يشعر بالارتباك المفاجِئ، لو حدث أن شاهد رجلاً وامرأة في وضع حميم، في تلك الأيّام التي شهدت واقعة والده مع الأرملة. وبالرغم من أن والدَيْه كانا يتستّران على تلك الواقعة، إلا أنه فهم كل شيء تدريجياً. كان يَغْبِطُ زملاءه عندما يشاهدهم هادئين مطمئنّي البال، كانت غِبْطَتُهُ لهم نابعة من امتنانه لآبائهم. فلم يكن يشكّ أن آباء زملائه قد يأتون بمثل هذه الأفعال المشينة، وكان يعتقد أن عائلته فقط هي الوحيدة التي قد يحدث فيها مثل هذه الأمور. عبّر لي عن غِبْطَتِهِ لي من قبل، بالرغم من أنه يعرف أنني منبوذ داخل البيت. في اللحظة التي كان يَغْبِطُني فيها، لم يكن يعلم أن والدي كان يسير حينها مهلّل الأسارير حاملاً وعاء، كان يستخدمه أجدادي متّجهاً نحو بيت الأرملة. في مواجهة تلك الغِبْطَة المحمودة من "سو يوي"، لم يكن بوسعي سوى أن أشعر بالخجل.

في العام الأخير من المرحلة الثانوية، وبعدما دخل جسده في مرحلة النضوج، صار من الصعب مقاومة ذلك الهجوم العنيف من الرغبات الجنسية، حدّة هذا العنف كانت مشابهة تماماً لتلك التي كانت تهاجمني بعد التحاقي بالمرحلة الثانوية. جعلتْهُ رغباته الجنسية نحو النساء يُقدِم على ارتكاب ما كُنّا نراه عاراً مشيناً. في ظهيرة أحد أيّام الصيف، كان يسير في إحدى الأزقّة الهادئة، انتابت جسده رغبة عارمة عندما شاهد شابّة ملآنة الجسم، تسير نحوه. في تلك اللحظة، فَقَدَ التّحكم في نفسه، وسار مسلوب اللّبّ نحوها، ثمّ احتضنها بقُوّة، ولم يدرك ما الذي أقدمَ عليه لتوّه إلا عندما صرخت الشّابّة من الرعب، وتخلّصتْ منه، وفرّت هاربة.

دفع "سو يوي" ثمناً باهظاً إزاء تلك الفعلة، فقد أُرسل لمصلحة إعادة التأهيل والإصلاح لعام كامل. في اليوم الذي اقتيد فيه إلى السجن، أتت

به الشرطة أوّلاً إلى المدرسة، ثمّ أوقفوه على منصّة وسط الساحة الرياضية، وقد عُلِّقَتْ على صدره لوحة مكتوب عليها:

"المجرم الصعلوك".

شاهدتُ بعض الزميلات يمسكنَ بأوراق مكتوب فيها توبيخ لاذع بحقّ سو يوي، ويقرأنَها على الجمهور.

علمتُ بهذا الأمر لاحقاً. في ذلك اليوم، ذهبتُ إلى صيف "سو يوي" وقت الراحة بين الدروس، فشاهدتُ بعض الزملاء الأكبر منّي يقفون هناك، ثمّ نادوا عليّ قائلين:

"متى ستذهب لزيارة المسجون"؟

حينها لم أفهم ماذا يقصدون، سرتُ إلى الداخل، فوجدتُ صديقه تشنغ ليانغ" يجلس هناك مهموماً، لوّح لي بيده وهو حزين، ثمّ قال لي:

"لقد ألقت الشرطةُ القبضَ على سو يوي".

بعدها علمتُ بحقيقة ما حدث، ثمّ سألني "تشنغ ليانغ":

"هل تكره سو يوي"؟

حينها كانت الدموع تترقرق في عينَيّ، فقد شعرتُ بالحزن الشديد جرّاء ما تعرّض له سو يوي"، ثمّ أجبتُهُ قائلاً:

"من المستحيل أن أكرهَهُ ما حييتُ".

شعرتُ بيد "تشنغ ليانغ" تُوضَع على كتفي، ثمّ سرْنا معاً. ما إن غادرْنا المكان حتّى صاح أولئك الزملاء الواقفون هناك قائلين:

"متى ستذهبان لزيارة السجين"؟

ثمّ سمعتُ "تشنغ ليانغ" يقول لي بصوت منخفض:

"دَعْكَ منهم".

بعدها شاهدتُ "سو هانغ" يقف بصحبة "لين ون" عند الطَّرَف الغربي من الساحة الرياضية، كان يُحدِّث زملاءه، يغرس فيهم مفهوم النجاح السريع، ويشرح لهم كيفية الحصول الفوري على مُبتغاهم. لم يبدُ عليه أيّ تأثّر أو قلق لما حدث لأخيه الأكبر "سو يوي"، فكان يصيح بصوت عالٍ قائلاً:

"لقد عشْنا حياتنا عَبَثاً، لقد تحسّس أخي الأكبر جسد المرأة بالكامل دون أن يتفوّه بكلمة، غداً سأذهب أنا أيضاً لأتحسّس جسد امرأة".

بينما قال "لين ون":

"سو يوي كان شريفاً مستقيماً، نحن جميعاً لم نكن مثله".

بعدها بأسبوعَيْن، اقتيد "سو يوي" حليق الرأس إلى المنصّة، كان يرتدي لباساً رمادياً ضيّقاً وقصيراً، وهو ما جعله يبدو ضعيفاً للغاية وسط تلك الأجواء الغائمة. ثمّ وجد نفسه فجأة في هذا الموقف، فحتّى لو كان يعلم مُسبَّقاً بهذا الأمر، فسوف يتملّكه الذهول ممّا يحدث. كان منظرة وهو مَحنيّ الرأس قد جعل مشاعري تعجّ بحالة من الفوضى. صرتُ أتلفّتُ بعينَيّ، أبحث بين الحشود عن عينَي "تشنغ ليانغ"، وعندما وجدتُهُ، كان هو الآخر كَمَنْ يبحث عنّي. ففي تلك اللحظة، لم يكن هناك مَنْ يشاطرني مشاعري سواه، كُنّا ننظر إلى بعضنا، وكأننا نطلب دَعْم أحدنا للآخر. بعدما انتهت تلك الوقفة التوبيخية، أشار لي "تشنغ ليانغ" بيده، هُرعت نحوه، ثمّ قال:

"هيّا بنا".

اقتيد "سو يوي"، وساوروا به في الشارع، ليكون عبرة لزملائه، كان هناك عدد كبير من الطَّلَبَة يسيرون خلفه متحمّسين ومبتهجين. حينها رأيتُ أخاه الأصغر الذي لم يكن مُبالياً بما حدث لأخيه الأكبر منذ أيّام، يسير حزيناً وحيداً في الجانب الآخر من الطريق، بدا واضحاً أن حقيقة هذا الموقف قد سبّبت له صدمة قوية. كُنتُ قد وقفتُ بجوار "تشنغ ليانغ" عندما اقتربتْ منّا مسيرة توبيخ "سو يوي"، حينها سمعتُ "تشنغ ليانغ" ينادي قائلاً:

"سو يوي".

بدا "سو يوي" وكأنه لم يسمع، ثمّ استمرّ في طريقه مَحنيّ الرأس، نظرتُ إلى "تشنغ ليانغ"، فوجدتُهُ مضطرباً أحمر الوجه، فناديتُ أنا الآخر على "سو يوي" قائلاً:

"سو يوي".

شعرتُ بالدم يتدفّق في رأسي بعدما ناديتُ عليه، وخاصّة عندما سلّط الكثيرون ممّنْ حولي أنظارهم نحوي. هذه المرّة، التفتُّ إليه، ثمّ ابتسم لي بهدوء.

أصابتْنا ابتسامته بالذهول. لم أدرك السبب وراءها إلا في وقت لاحق. كان الظاهر حينها أنه في محنة صعبة، ولكن الحقيقة أنه قد تحرّر بذلك من ضغوطه النَّفْسية. كان قد أخبرني لاحقاً:

"لقد عرفتُ الآن لماذا أقدَمَ والدي على تلك الفِعْلَة حينها".

كانت تصرّفاتي أنا و"تشنغ ليانغ" بعد حادث "سو يوي"، وخاصّة نداؤنا

عليه ونحن نودّعه قد أثارت حفيظة المدرّسين وغضبهم. فقرّروا معاقبتنا بأن يكتب كل منّا خطاب اعتذار ونقد ذاتي. فمن وجهة نظرهم، أننا لم نُظهِر غضباً من التّصرّف البذيء فحسب، بل إننا أظهرْنا تعاطفاً معه، وهو ما يُبرهن على أننا مارقين مثله. ذات مرّة، سمعتُ بعض الزميلات يسرنَ خلفي في طريق عودتي من المدرسة، يقلنَ:

"هذا الشخص أسوأ من سو يوي".

كُنّا مُصرّين على ألا نكتب خطاب الاعتذار مهما تلقَّيْنا من تهديدات المدرّسين، كُنّا نردّ عليهم بعناد قائلين:

"الموت أفضل من أن نكتب هذا الخطاب".

بعدها أُصبتُ بالذهول حين قابلتُ "تشنغ ليانغ" كسيراً مهموماً، ووجهه مُتورِّم، قال لي:

"والدي أوسعَني ضَرْبَاً".

ثمّ تابع قائلاً:

"لقد كتبتُ خطاب الاعتذار".

شعرتُ بالضيق والغضب بعدما سمعتُ هذه العبارة، ثمّ قُلتُ له:

"لقد أخطأتَ في حقّ سو يوي".

أجاب قائلاً:

"لا حيلة لي، لقد أُجبرتُ على ذلك".

استدرتُ بجسدي مُغَادِراً، وأنا أقول:

"لن أكتب هذا الخطاب أبداً".

كان منبع جرأتي حينها هو أنني لا أُواجه ضغوطاً عائلية، فوالدي كان مشغولاً حينها في فراش الأرملة، ووالدتي كانت تكتم كُرهها للأرملة في صمت. فقط أخي الأكبر هو الوحيد الذي يعرف ما أواجهه، حينها كان قليل الكلام، ففي اليوم الذي وقع فيه حادث سو يوي، كان أخي حزيناً، بسبب واقعة إلقاء ابنة النجّار قِشْر البذور في وجهة. وعندما كان زملائي الأكبر منّي يسخرون، كان أخي الأكبر يقف بعيداً ينظر إليّ مهموماً.

لا أعرف لماذا كانت تلك الأيّام مغلّفة بالكراهية، لأن فراق "سو يوي" جَعَلَني أشعر أن كل شيء حولي قد صار كريهاً بغيضاً. أحياناً عندما أجلس في غرفة الدرس أتطلّع إلى زجاج النافذة، كُنتُ أعضّ على أسناني بحنق أملاً في أن يتحطّم هذا الزجاج أمامي. ذات مرّة، نادى عليّ أحد الزملاء الأكبر منّي بلهجة مُستفِزّة، وقال لي:

"لماذا لا تذهب لزيارة السجين"؟

كانت ابتسامته وهو ينادي قد جعلتْني أُكشِّر عن أنيابي، لوّحتُ بقبضتي وجسدي يرتعش، ثمّ لكمتُهُ في وجهه الباسم.

شاهدتُهُ يترنّح لبُرْهَة، ثمّ باغتَني بلكمة شديدة في وجهي، أجلستْني على الأرض. عندما حاولتُ أن أنهض، رَكَلَني بقَدَمه في صدري، فشعرتُ بألم شديد، جَعَلَني أتقيّأ. حينها شاهدتُ شخصاً آخر، ينقضّ عليه، وأخذ يتقلّب به على الأرض. كان هذا الشخص هو "سو هانغ". فاجأني ظهوره في هذا الوقت. لم يكد ينهض من على الأرض حتّى انقضّ على ذلك الزميل ثانية، كان حينها قد أمسك بخصره، وأخذ يتقلّب به على الأرض. انضمام "سو هانغ" زاد من جرأتي بلا شكّ، فانضممتُ إليه، وأمسكت

بقَدَم ذلك الزميل حتّى أمنعَهُ من الحركة، بينما كان "سو هانغ" حينها مُمسِكاً بذراعَيْه. عَضَضْتُهُ من قَدَمه، في حين عضَّهُ "سو هانغ" هو الآخر من ذراعه، فصار يتألّم ويتأوّه بصوت عالٍ. تبادلتُ النظرات مع "سو هانغ"، ثمّ توقّفْنا، وانخرطْنا في البكاء.

بدأت هناك صداقة قصيرة تربطني مع "سو هانغ"، بسبب الدفاع عن "سو يوي". كان يمسك بمُدْيَة صغيرة، ويسير بصحبتي في المدرسة والشَّرَر يتطاير من عينَيْه، أقسم لي حينها أنه سيقتل مَنْ يجرؤ على الحديث بسوء عن "سو يوي".

ربّما كان الوقت هو السبب في أن أحداً لم ليكن ليتذكّر "سو يوي" طويلاً، فلم أعد أتعرّض للاستفزاز، وبالتالي لم تعد هناك فرصة لتوطيد علاقتي مع "سو هانغ". ففي الوقت الذي كُنّا نستعدّ لنتعامل بقسوة مع العالم، صار العالم مسالماً فجأة. القسوة هي مَنْ قرَّبت من علاقتي مع "سو هانغ"، وما إن بردت نار القسوة حتّى زاد الجفاء بيننا تدريجياً.

بعدها بفترة قصيرة، تفجّرت فضيحة مدرّس الموسيقى مع "تساو لي". كان ولع "تساو لي" بالرجال الناضجين قد جعلَها ترتمي بسهولة في أحضان مدرّس الموسيقى. أصابني الذهول فور علْمي بهذه الأنباء. لم أستطع إنكار ذلك القلق العميق المدفون داخلي، وبالرغم من أن الشعور بالنَّقْص قد جَعَلَني أتقبّل حقيقة رَفْض "تساو لي" لي في وقت مبكّر، إلا أنها كانت دوماً هي تلك الفتاة التي أحببتُها، ولا زلتُ مغرماً بها.

بسبب هذه الواقعة، كتبت "تساو لي" تقريراً مفصّلاً، سلّمتْهُ لمدرِّسيها، ابتسم مدرّس الرياضيات ابتسامة غريبة بعد قراءته، ثمّ أعطاه لمدرّس اللغة الذي قابله على السّلّم. كان مدرّس اللغة الذي يمسك

بسيجارته حينها متحفِّزاً لقراءة التقرير، فأخذ يطالعه وهو واقف على السّلّم، كان تركيزه منصبّاً بشدّة على القراءة، لدرجة أن السيجارة قد احترقت عن آخرها دون أن يدري، هزّ يده بسبب لسعة السيجارة، فسقطت على الأرض. إلا أنه اكتشف وجود "سو هانغ" وهو يمرّ من خلفه، فنهرَهُ، وطلب منه أن يمضي بعيداً.

كان "سو هانغ" قد طالع جملة واحدة من ذلك التقرير وهو في يد مدرّس اللغة، تلك الجملة جعلتْه يسخر منها طيلة اليوم، فأخبر كل شخص قابله بتلك الجملة، ومن ضمنهم أنا، حيث قال لي:

"لا أستطيع الجلوس".

ثمّ شرع يشرح لي متحمّساً معنى هذه الجملة، قال لي:

"هذه الجملة كتبتْها تساو لي، هل تعرف ما معناها؟ معناها أنها لم تعد بكْراً بعد".

ظلّتْ هذه الجملة تتردّد على ألسنة الطَّلَبَة الذُّكُور لمدّة يومَيْن كاملَيْن. أمّا الطالبات، فكنّ يستقبلنَ هذه الجملة بأصوات ضحكاتهنّ. تزامن مع ذلك أن عبّرتْ مدرسة الكيمياء عن غضبها الشديد فور قراءتها هذا التقرير المفصّل داخل غرفة المدرّسين، أخذت تُقلّب في التقرير، وهي تقول غاضبة:

"أليست بذلك تَنشر الفتنة"؟

أمّا بقية المدرّسين الذُّكُور الذين علموا تفاصيل كل ما دار بين "تساو لي" ومدرّس الموسيقي في الفراش، فقد جلسوا واحداً تلو الآخر متظاهرين بالوقار، ينظرون بصرامة وصمت إلى مدرّسة الكيمياء. بعد انتهاء الدراسة

في ذلك اليوم، كانت "تساو لي" تسير هادئة في طريقها نحو باب المدرسة بعدما تمّ استجوابها. كانت تلفّ وشاحاً أسود حول رقبتها، يتطاير برفقة شَعْرها، وكان وجهها المرفوع للأعلى قليلاً محمرّاً لامعاً، بسبب الرياح الباردة. حينها كانت هناك مجموعة من الطلاب ينتظرونها عند باب المدرسة، يترأّسهم "سو هانغ". وما إن اقتربتْ منهم حتّى صاحوا جميعاً بصوت واحد:

"لا أستطيع الجلوس".

كُنتُ أقف في مكان غير بعيد، أشاهد ما يحدث، بينما استمرّت هي في طريقها، ثمّ وقفتْ أمامهم، والتفتتْ نحوهم قائلة بحدّة:

"جماعة من الأوغاد".

حينها خيّم الصمت على هؤلاء الطلاب، وبدا واضحاً أن أحداً منهم لم يكن ليتوقّع ردّة الفعل هذه. ولكنْ، ما إن سارت بعيداً حتّى كان "سو هانغ" هو أوّل مَنْ ردّ عليها، حيث أخذ يسبّها قائلاً:

"أنتِ كبيرة الأوغاد، لعينة ومُتسلّطة".

ثمّ شاهدت "سو هانغ" يلتفتُ إلى زملائه، ويقول بذهول:

"هذه اللعينة تقول إننا أوغاد".

قبع مدرّس الموسيقى في السجن لخمس سنوات، بعد خروجه، تمّ إرساله إلى مدرسة إعدادية في إحدى القُرى. أمّا "تساو لي"، فقد تزوّجت، وأنجبتْ، مثلها في ذلك مثل بقية الطالبات. لازال مدرّس الموسيقى أعزب حتّى اليوم، يعيش في غرفة قديمة مُهمَلَة، يسير على طريق مُوحِلة غير مُمهَّدة، ليذهب إلى مدرسته، يعلّم الأطفال الريفيّيْن الرقص والغناء.

رأيتُهُ فجأة عندما عدتُ إلى بلدتي بعد عدّة سنوات، حيث كانت السّيّارة قد توقّفت عند محطّة صغيرة، بجوار إحدى القُرى. ذلك المدرّس الشّابّ الأنيق قد تقدّم في العمر، وعلا الشيبُ رأسَهُ، يرتدي معطفاً طويلاً أسود اللون، تبدو عليه آثار بقع الطين، رأيتُهُ واقفاً بصحبة بعض القرويّيْن، فقط ذلك الوشاح الذي يلفّه حول رقبته هو ما جعله مختلفاً عنهم. كان يقف حينها بشكل مُهذَّب في طابور أمام محلّ لبيع الفطائر الساخنة. حقيقة الأمر أنه كان يقف وحيداً في الطابور، فالواقفون كلهم أمامه كانوا يتزاحمون للأمام، أمّا هو، فكان يقف خلفهم، ينادي عليهم بصوته العذب، ويقول:

"لو سمحتُم، اصطفُّوا داخل الطابور".

قَلّتْ فرص لقائي مع "سو يوي" بعد خروجه من مصلحة إعادة التأهيل والإصلاح، حينها كان "تشنغ ليانغ" قد تخرّج في المدرسة الثانوية، وصار "سو يوي" دائم الاختلاط به. لم أكن أرى "سو يوي" إلا عند ذهابي إلى المدينة في المساء، وعندما كُنتُ أسير بصحبته كان كلامنا قليل جدًّاً، كما كان الحال في الماضي، وبدأتُ أشعر بفتور علاقته بي. كان يتحدّث معي ببعض الخجل، كسابق عهده، إلا أنه لم يعد ينتقي موضوع الحديث، كما كان يفعل في الماضي. حدّثني عن شعوره عندما احتضن تلك الفتاة الشّابّة، ارتسمت على وجهه ملامح خيبة الأمل وهو يُحدّثني عن هذا الأمر، فقد اكتشف أن هناك اختلافاً كبيراً بين جسد المرأة في الحقيقة عن ذلك الذي تصوَّره في خياله، قال لي:

"مثل وضعي يدي على كتف "تشنغ ليانغ" تماماً".

كان يُحدِّق فيّ حينها، ولكني أشحتُ بوجهي بعيداً. لا أستطيع أن

أُنكِرَ أن كلام "سو يوي" قد جرحَني، فقد كانت عبارته تلك قد جعلتْني أَغْبِطُ "تشنغ ليانغ".

فهمتُ بعدها أنني كُنتُ أنا المخطئ. فلم أكن أتحدّث معه عن حياته في مصلحة إعادة التأهيل والإصلاح بعد عودته من هناك، خوفاً من أن يسبّب ذلك حَرَجاً له. إلا أن صمتي هذا كان قد جعله يشكّ في صِدْق علاقتي به. فقد كان يتعمّد أن يوجه دفّة حواره معي نحو هذا الموضوع، ولكني كُنتُ أتهرّب من الخوض فيه. وفي إحدى الليالي، بعدما سرْنا على حافّة النهر لفترة طويلة، توقّف "سو يوي"، وسألني فجأة:

"لماذا لم تسألني مطلقاً عن حياتي في مصلحة إعادة التأهيل والإصلاح"؟

بدت ملامح وجهه صارمة أسفل ضوء القمر، وتسبّبت نظراته لي في شعوري بالحَيْرَة، ثمّ ضحك ضحكة بائسة، وقال لي:

"سألني "تشنغ ليانغ" عن حياتي هناك فور عودتي، أمّا أنتَ، فلم تفعل إلى الآن".

قُلتُ بنبرة متوتّرة:

"لم يخطرْ في بالي أن أسألَكَ".

أجابني بحدّة:

"أنتَ لا تعيرني أيّ اهتمام في داخلكَ".

بالرغم من أنني دافعتُ عن نفسي، إلا أن "سو يوي" التفتَ بجسده، وقال:

"أنا ذاهب".

انتابَني حزن شديد، حيث شعرتُ أنه يريد أن يُنهي صداقتنا. عندما شاهدتُهُ يغادر مَحنيّ الظَّهْر أسفل ضوء القمر. لن أتمكّن من قبول هذه الحقيقة، لحقتُ به، وحاولت التّحدّث إليه، ثمّ أخبرتُهُ بقصّتي مع الفتاة عندما كُنتُ أشاهد الفيلم وسط الزحام، بعدما انتهيتُ من القصّة، قُلتُ له:

"لطالما رغبتُ أن أحكيَ لكَ عن هذه القصّة، ولكني لم أجرؤ".

وضع "سو يوي" يده على كتفي، ثمّ سمعتُهُ يقول بصوت هادئ، انساب إلى داخل أذني:

"عندما كُنتُ في مصلحة إعادة التأهيل والإصلاح، كُنتُ قلقاً من أنكَ ستقطع علاقتكَ بي".

بعد ذلك، جلسْنا معاً على السّلّم الحجري لشاطئ النهر، ومياه النهر تتدفّق أسفل أقدامنا. جلسْنا صامتَيْن لفترة، ثمّ قال "سو يوي":

"أريد أن أخبركَ بأمر ما".

نظرتُ إليه وضوء القمر يضيء وجهه. لم يتحدّث، ولكنه رفع رأسه للأعلى، رفعتُ أنا أيضاً رأسي للأعلى، تطلّعْنا إلى سماء الليل اللامعة، والقمر يسبح نحو سحابه قادمة، نظرْنا بصمت إلى هذا القمر المعلّق في الفضاء، وعندما اقترب القمر من السحابة، أُضيئَت السحابة المظلمة، وغاص القمر وسطها، واختفى ضوؤه، أكمل سو يوي حديثه قائلاً:

"بخصوص ذلك الأمر، حين أخبرتُكَ بشعوري عندما احتضنتُ تلك الفتاة".

بدا وجهه قاتماً غير واضح المعالم وسط العتمة، إلا أن صوته كان لامعاً للغاية. وما إن ظهر القمر من خلف السحابة حتّى أضاء نور القمر وجهه، فبدا واضحاً من جديد، توقّف ثانية عن الكلام، ثمّ رفع رأسه، يتطلّع إلى السماء مرّة أخرى.

سبح القمر نحو سحابه أخرى، ثمّ اختفي خلفها، حينها قال:

"في الحقيقة، كُنتُ أودّ أن أقول إنّ شعور احتضان تلك الفتاة يُشبهُ الشعور عندما أضع يدي على كتفكَ، وليس على كتف "تشنغ ليانغ"، كان هذا هو شعوري حينها".

شاهدتُ وجهه وقد بدا واضحاً لامعاً من جديد، وعودة ضوء القمر قد جعلتْني أرى ابتسامته الخفيفة. كان ظهور ابتسامته الخفيفة واختفاؤها، وصوته الخجول بالتزامن مع ظهور ضوء القمر واختفائه في تلك الليلة، قد مَنَحَاني شعوراً طويلاً بالدفء.

موت "سو يوي"

"سو يوي" الذي كان معتاداً على الاستيقاظ مبكّراً، في ذلك الصباح، دخل في غيبوبة، بسبب انفجار في الأوعية الدموية بالمُخّ. امتلك بعض الوعي حتّى إنه كان يفتح عينَيْه يتضرّع بهما إلى هذا العالم، ويطلب منه النجاة للمرّة الأخيرة.

استخدم صديقي آخر ما تبقّى لديه من نور الحياة، ليتطلّع إلى غرفته التي عاش فيها طويلاً. فآخر ما يُظهِرُه العالم له هو هذا المكان الضّيّق. انتابه شعور ضبابيّ بأخيه "سو هانغ" الذي يغطّ في نوم عميق على فراشه، وكأنه صخرة ضخمة، تسدّ طريقه. بد كأنه يغرق في هاوية، لا قرار لها، إلا

أنه كانت هناك بعض الأضواء المشوّشة تَجْذِبُهُ، فتُبطئ من غَرَقه. حينها كانت أشعّة الشمس ساطعة في الخارج، إلا أن زجاج النافذة الأزرق الداكن قد امتصّها، وهو ما جعل الزجاج يتوهّج.

بعدما استيقظت والدة "سو يوي" نزلتْ إلى الطابق السفلي، كان وَقْع خطواتها مَنَحَ حياة "سو يوي" نبضاتٍ قصيرةً من السَّعْي خلف التعافي. اكتشفت الأمّ أن "سو يوي" لم يذهبْ لملء الماء كعادته كل يوم، فما إن رفعت تِرْمُوْسَ الماء الفارغَ بيدها حتّى صاحت غاضبة:

"هذا شيء لا يُحتمَل".

لم تكن قد نظرتْ حينها إلى صديقي الذي يحتضر.

استيقظ والد "سو يوي" بعدها بقليل، وقبل أن يغسل وجهه وأسنانه، تلقّى أمر زوجته بأن يذهب لملء الماء. حينها استشاط غاضباً، وشرع ينادي:

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

"سو يوي، سو يوي".

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

سمع "سو يوي" صوتاً قوياً قادماً من مكان بعيد، أخذ جسده الذي يغرق يطفو بسرعة، وكأن هناك ريحاً خفيفة، تحمله للأعلى. إلا أنه لم يكن قادراً على إجابة هذا الصوت المُنقِذ للحياة. ذهب الأب عند سرير ابنه، رأى عينَيْه مفتوحتَيْن، فنهره بغضب قائلاً:

"انهضْ من فراشكَ، واذهبْ لتملأ الماء".

لم تكن لدى "سو يوي" القدرة ليُجيب والده، بل نظر إليه في صمت. دائماً ما كان ذلك الأب يكره صمت ابنه، وكانت هيئة الابن حينها قد

أثارت غضبه، فذهب إلى المطبخ، وأمسك بالتِّرْمُوْس في يده، وهو يُغَمْغِمُ قائلاً:

"لا أعرف مَنْ يُشبهُ هذا الطفل".

ردّت عليه زوجته قائلة: "بالطبع، يُشبهُكَ".

اختفى كل شيء، وأخذ جسد "سو يوي" يغرق من جديد، وكأنه قطعة حجارة تهوي من السماء. ثمّ ظهرت فجأة هالة ساطعة من النور، وأمسكت به، إلا أنها اختفت بعدها، فشعر "سو يوي" وكأن جسده قد قُذف به من بعيد. بعدما خرج والده حاملاً التِّرْمُوْس، بدت الغرفة وكأنها مغلّفة بالضباب. كان صوت الأمّ الصادر من المطبخ، وكأنه صوت مَركب شراعي قادم من بعيد، وشعر "سو يوي" أن جسده يطفو فوق شيء أشبه بالماء.

بالطبع، لم يقدِر "سو يوي" أن يُميّز حينها ماهيّة هذا الصوت، وعندما عاد والده، كان جسده قد طفا قليلاً للأعلى، بسبب السطوع المؤقّت لأشعّة الشمس المسلّطة على نافذته. صوت والدَيْه مختلطاً بصوت أواني المطبخ جعله أشبه بمَنْ يقف وسط بقعة مظلمة. ها هو صديقي في صمته الأخير قبل أن يرقد للأبد.

بعدما تناول والداه طعام الإفطار، سارا من أمام غرفته، لم يلتفت أحد منهما لرؤيته عندما غادرا البيت ذاهبَيْن إلى العمل. وعندما فتحا الباب، شعر صديقي بجسده يطفو مرّة أخرى، إلا أنهما أغلقا الباب من فورهما.

اضطجع سو يوي في تلك البقعة المظلمة للأبد، وأخذ يشعر بجسده يغرق ببطء، كانت حياته المتعَبة تقترب من نقطة النهاية. أخوه "سو هانغ"

لم يستيقظ إلا بحلول العاشرة، سار حتّى وقف بجوار سرير أخيه، ثمّ سأله مستغرباً:

"أنتَ اليوم مستغرقٌ في النوم حتّى وقت متأخّر أيضاً"؟

كانت نظرات "سو يوي" قد بدأت تنطفئ، هيئته قد جعلت "سو هانغ" يشعر بخطب ما، فسأله حينها:

"ماذا بكَ"؟

انتهى "سو هانغ" من سؤاله، ثمّ التفت بجسده، ودخل إلى المطبخ، غسل أوّلاً وجهه وأسنانه، ثمّ تناول إفطاره. وكما فعل والداه تماماً، خرج من الباب دون أن يُلقي نظرة على أخيه الأكبر.

كانت تلك هي آخر ومضات النور، وآخر ومضة من ومضات حياة "سو يوي"، فقد كان ردّ أخيه الأصغر على ندائه الأخير هو إغلاق الباب.

أخيراً انغمس جسد "سو يوي" في الغَرَق الذي لن يطفو بعده، زادت سرعة الغَرَق أكثر فأكثر حتّى تشكّلت دوّامة. وبعدما مرّ بحالة الاختناق الطويل، انتابتْهُ حالة من السكون أشبه بالاختفاء، وكأن هناك ريحاً خفيفة ذرّت جسده بعيداً، شعر بجسده وقد تحوّل إلى قطرات لا نهائية من الماء، ثمّ اختفت بعذوبة وسط الهواء.

جئتُ إلى هنا بعد غيابه، شاهدتُ بيت عائلة "سو" مُوصَد الأبواب والنوافذ، فوقفتُ عند الباب، أنادي:

"سو يوي، سو يوي".

لم تكن هناك أيّ حركة في الداخل، تخيّلتُ أنه ربّما قد خرج، ومن ثمّ، غادرتُ حزيناً.

الصديق الصغير

في العام الأخير الذي قضيتُهُ في بلدتي، عندما كُنتُ عائداً في طريقي من المدرسة إلى قرية الباب الجنوبي في عصر أحد الأيّام، شاهدتُ ثلاثة أطفال يتشاجرون أمام محلٍّ لبيع الفطائر. كان هناك طفل يسيل الدم من أنفه، ويقبض بإحكام بيَدَيْه كلتَيْهما على خصر طفل آخر، بينما يحاول هذا الطفل أن يتخلّص منه جاهداً، فيما وقف الثالث بجانبه، يُهدِّده قائلاً:

"هل ستفكّ يَدَيْكَ أم لا"؟

الطفل الذي يسيل الدم من أنفه اسمه "لولو". رَمَقَني بعينَيْه السوداوَيْن، ولم يكن هناك في نظرته ما يدلّ على أنه يطلب المساعدة، فقط بدا من نظرته أنه غير متّهم بالتهديدات التي أطلقها الطفلان الآخران.

قال الطفل الذي كان يحاول التّخلّص من قبضة "لولو" لرفيقه:

"هيّا، ادفعْهُ بعيداً عنّي".

قال رفيقه:

"لا أستطيع، حاولْ أن تستديرَ بجسدكَ".

حاول أن يلتفّ بجسده، ليُسقط "لولو" أرضاً، قام برَفْع جسد "لولو" من على الأرض، إلا أن يَدَي لولو كانت تقبض عليه بإحكام. أغمض "لولو"

عينَيْه حتّى لا يشعر بالدوار، بينما كان ذلك الطفل يدور به حتّى يُسقطه أرضاً، أُصيب ذلك الطفل بالتعب والإرهاق، ولم يتمكّن من إسقاط "لولو"، فصرخ في رفيقه قائلاً:

"هيّا، ادفعْهُ بشدّة".

صرخ رفيقه صرخة العاجز، وهو يقول:

"كيف أدفعُهُ"؟

في تلك الأثناء، خرجتْ امرأة من محلّ الفطائر، وصرختْ فيهم غاضبة:

"ألا زلتُم تتعاركون"؟

شاهدتْني أقف هناك، فقالت لي:

"هل تُصدِّق أنهما يتشاجران هكذا منذ ساعَتَيْن، أيّ أطفال هؤلاء"!

دافع الطفل الذي يحاول التّخلّص من قبضة "لولو" عن نفسه قائلاً:

"هو الذي يمسك بي، ولا يريد أن يتركَني".

حينها قالت له بلهجة اتّهام:

"أنتما الاثنان تستأسدان على هذا الصغير".

قال الطفل الثالث:

"هو الذي بدأ بالضَّرْب أوّلاً".

قالت المرأة:

"لا تحاولْ خداعي، لقد شاهدتُ كل شيء منذ البداية، أنتما مَنْ بدأ بالعراك".

قال الطفل مُكرِّراً:

"لا، هو الذي بدأ".

حينها نظر إليّ"لولو" مرّة ثانية بعينَيْه السوداوَيْن. لم يدرْ بِخَلَدِهِ أن يدافع عن نفسه هو الآخر، وكأنه لا يهتمّ بما يقولانه، فقط كان ينظر إليّ.

دفعتْهم المرأة بيَدَيْها قائلة:

"لا تتشاجروا أمام باب المحلّ، اذهبوا، وتشاجروا بعيداً".

حاول الطفل الذي يحاول التّخلّص من قبضة "لولو" جاهداً أن يسير للأمام مُحاوِلاً سَحْب "لولو"، إلا أنه كان متعلّقاً بجسده، فكانت قَدَمَاه تزحفان على الأرض. أمّا الطفل الآخر، فكان يسير خلفهما مُمسِكاً بحقيبَتَيْن مدرسيَّتَيْن. حينها لم يعد "لولو" ينظر إليّ، بل كان يلتفت برأسه للخلف، يتطلّع إلى حقيبته المدرسية. قد كانت حقيبته مُلقاة على الأرض أمام محلّ بيع الفطائر. توقّف الطفل الذي يسحب "لولو" خلفه بعدما سارا هكذا لأكثر من عشرة أمتار، حاول أن يمدّ يده يمسح عَرَقه، ثمّ صرخ في رفيقه قائلاً:

"حاول أن تدفعَهُ بعيداً".

ردّ عليه قائلاً:

"لا أستطيع أن أدفعَهُ، حاولْ أنتَ أن تعضَّ يده".

حاول ذلك الطفل أن يحني رأسه، ليعضّ يد "لولو" الذي أغمض عينَيْه السوداوَيْن، ممّا يدلّ على صعوبة تحمّل ألم تلك العضّة.

بعدها رفع ذلك الطفل رأسه مُحاوِلاً تهديده ثانية، وهو يقول:

"هل ستفكّ يَدَيْكَ أم لا"؟

فتح "لولو" عينَيْه ثانية، والتفت برأسه للخلف، يتطلّع إلى حقيبته.

سبّه ذلك الطفل قائلاً: "يا ابن اللعينة، أيّ نوع من البشر أنتَ؟". بعدها قام ذلك الطفل الذي يسير خلفهما برَكْل "لولو" في مؤخّرته.

قال الطفل الذي يحاول التّخلّص من قبضة "لولو" لرفيقه:

"اركلْه في خصيَتَيْه".

تلفّتَ رفيقه يمنة ويسرة، ثمّ قال بصوت منخفض:

"هناك مَنْ يراقبنا".

كان "لولو" ملتفتاً برأسه للخلف، فشاهد رجلاً يخرج من محلّ الفطائر، فصرخ منبّهاً:

"لا تَدُسْ بقَدَمِكَ على حقيبتي".

كانت هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها صوت "لولو"، كان نقياً لامعاً أشبه بصوت المِزْمَار. حينها قال الطفل الذي يحاول التّخلّصْ من قبضته لرفيقه:

"اذهبْ، واقذفْ بحقيبته في النهر".

سار رفيقه نحو محلّ بيع الفطائر، ثمّ التقط حقيبة "لولو"، وعبر بها نحو الجانب الآخر من الشارع متّجهاً نحو النهر. نظر إليه "لولو" بعصبية، حينها أمسك ذلك الطفل بالحقيبة في يده، وقال:

"إن لم تفكّ يدكَ عنه، سأرمي بها في النهر".

فَكّ "لولو" يده، ووقف هناك ينظر إلى حقيبته، لا يدري ماذا يفعل. أمسك ذلك الطفل الذي تحرّر لتوّه بحقيبتَيْهما، ثمّ قال لرفيقه:

"أعِدْهَا إليه".

قام الطفل المُمسِك بحقيبة "لولو" برَمْيها على الأرض بحدّة، ثمّ رَكَلَها بقَدَمه، وسار نحو رفيقه.

وقف "لولو" هناك، وصرخ فيهما قائلاً:

"سأُخبر أخي الأكبر بما حدث، سوف يُلقّنكما درساً، لن تنسياه".

انتهى من تلك العبارة، ثمّ سار صوب حقيبته. شاهد طفلاً وسيم الملامح، والدماء تنزف من أنفه على قميصه الأبيض. جثا على ركبَتَيْه بجوار حقيبته، وأخذ يُرتّب الكُتُب والأقلام في داخلها. كان منظره مثيراً للشفقة وهو يجلس بتلك الهيئة والشمس قد مالت للغروب. بعدما انتهى من ترتيب حقيبته، أخذ ينفضها من التراب، ثمّ حملها على ظهره، وسار في طريقه وهو يُحدِّث نفسه:

"أخي الأكبر سيُلقّنكما درساً، لن تنسياه".

شاهدتُهُ يمدُّ ذراعه يسمح دموعه، واستمرّ في طريقه يبكي.

صرتُ وحيداً مرّة أخرى بعد موت "سو يوي". كُنتُ أحياناً ما أقابل "تشنغ ليانغ" مصادفة، فنقف معاً، ونتحدّث قليلاً. إلا أنني كُنتُ أعرف أن الرابط الوحيد بيني وبينه، وهو "سو يوي"، قد اختفى، ومن ثمّ، فصداقتنا صارت غير ضرورية. كُنتُ أتأكّد من ذلك عندما أراه يقف بصحبة زملائه في المصنع يتحدّثون ويضحكون بصوت عالٍ.

دائماً ما أتذكّر مشهد انخراط "سو يوي" في التفكير، وهو ينتظرني عند شاطئ النهر. وبموته، لم تعد الصداقة لقاء جميلاً منتظراً، بل صارت جزءاً من الماضي. كُنتُ أمشي مَحنيّ الظَّهْر حينها، أسير وحيداً على شاطئ النهر، كما كان يفعل في حياته. بدأتُ أُحبّ المشي، تلك الهواية التي تركها لي. والتفكير المستمرّ خلال المشي دائماً ما يُسهّل من عودتي للماضي، أقابل "سو يوي"، وأضحك معه من جديد.

كان هذا آخر عام لي في مسقط رأسي، وهو العام الذي عرفتُ فيه "لولو".

عرفتُ اسم ذلك الطفل بعد المشاجرة بثلاثة أيّام. حينها كُنتُ أسير في أحد شوارع المدينة، فشاهدتُهُ يحمل حقيبته، ويسير في عُجالَة، وخلفة خمسة أو ستّة زملاء، يحاولون اللحاق به، وينادون بصوت واحد:

"لولو، لولو".

"أيّها العنيد".

التفت إليهم، وصاح فيهم قائلاً:

"أنا أحتقرُكُم".

بعدها لم يأبْه لندائهم، واستمرّ في طريقه غاضباً. كان غاضباً بشدّة، وكأن حجم غضبه أكبر من حجم جسده الذي لم يتحمّل هذا الغضب كله، فبدا كما لو كان مترنّحاً في مشيته. أسرع في مشيته، ثمّ اختفى وسط مجموعة من المارّة الشباب.

حقيقة الأمر أنني لم أتخيّل أن تنشأ بيني وبين "لولو" علاقة صداقة حميمة، بالرغم من أن هذا الطفل قد ترك لديّ انطباعاً عميقاً منذ البداية. شاهدتُهُ مرّة أخرى يتشاجر مع بعض الأطفال. في تلك المرّة، كان يتشاجر مع سبعة أو ثمانية من أقرانه، كان هؤلاء الأطفال يكيلون له الضربات المتتالية حتّى أوسعُوه ضَرْبَاً، ومُني بهزيمة ثقيلة. إلا أنه نهض بعدها، وقال بلهجة المنتصر:

"أخي الأكبر سيُلقّنكم درساً، لن تنسياه".

هذا الطفل العنيد الذي يعترض ويتشاجر مع كل مَنْ حوله، ويسير وحيداً بلا معين ذكّرني بنفسي. ومن ثمّ، نشأ اهتمامي به. كُنتُ أشعر بتيّار دافئ يسري في جسدي عندما كُنتُ أراه، وكأنني أرى طفولتي تسير على الأرض.

ذات يوم شاهدتُهُ خارج من باب المدرسة، يسير في طريقه عائداً إلى بيته، وجدتُ نفسي، أُنادي عليه قائلاً:

"لولو".

توقّف الطفل مكانه، واستدار بجسده مُحدِّقاً في وجهي، ثمّ سألني:

"هل أنتَ مَنْ يناديني"؟

أومأتُ له برأسي، وأنا أبتسم.

سألني الطفل:

"مَنْ أنتَ"؟

هذا السؤال المفاجِئ جَعَلَني لا أعرف كيف أُجيب. بدا فارق السّنّ، وكأنه اختفى في مواجهة هذا الطفل الصغير، استدار الطفل بجسده مُغَادِراً، ثمّ سمعتُهُ يُغَمْغِمُ:

"لا تعرفني، وتناديني باسمي"؟!

نالت هذه التجربة الفاشلة من جُرأتي. فلم أعد أجرؤ أن أراقبه بعد خروجه من المدرسة. إلا أنني كُنتُ سعيداً لشعوري بأني جَذَبْتُ انتباهه، فأحياناً كان يلتفت بوجهه نحوي، وأنا واقف خلفه من بعيد.

هذه المواجهة التي سبقت صداقتي مع "لولو" جعلتْني أشعر بتكرار تجربة صداقتي نفسها مع "سو يوي" في طريق عودتنا من المدرسة منذ عامَيْن. كُنّا نسترق النَّظَر إلى بعضنا البعض دون أن يتحدّث أحدنا للآخر. وفي عصر أحد الأيّام، سار "لولو" نحوي مباشرة، ونظر إلى بعينَيْه السوداوَيْن اللامعَتَيْن، وناداني قائلاً:

"أيّها العمّ".

كان نداؤه المفاجِئ قد أصابني بالذهول، وإذ به يستمرّ قائلاً:

"هل أجد معكَ بعض الحلويات".

قبل قليل، كان التواصل بيننا صعباً للغاية، إلا أن صوته قد جعل سهولة

التواصل بيننا أمراً واقعاً. يمكنني أن أقول إنّ الجوع هو مَنْ تسبّب في بدأ علاقة الصداقة بيننا. كُنتُ خجلاً بالرغم من أنني اقتربتُ من عمر الثامنة عشرة، وكُنتُ فقيراً مُعدَماً بالنسبة إلى شخص، ينظر إليه "لولو" على أنه مثل عمّه. لم يسعني إلا أن أتحسّس شَعْره بيدي، وأسأله:

"ألم تتناول طعامكَ"؟

فهم الطفل حينها أنه ليس بإمكاني مساعدته، فخفض رأسه، وقال بصوت منخفض:

"لا"؟

سألتُهُ: "ولماذا لم تأكل"؟

قال: "أمّي لم تعطني طعاماً".

كان يقول هذه العبارة بنبرة، لا تنمّ عن أنه يُلقي باللوم على والدته، بل كان يشرح لي السبب في أنه لم يأكل.

من دون أن ندري، سرْنا معاً إلى الأمام، ثمّ وضعتُ يدي على كتفه. تذكّرت "سو يوي"، فقد كان دائماً ما يضع يده على كتفي عندما كُنّا نسير معاً. وأنا الآن أعامل "لولو" كما كان يعاملني "سو يوي". سرْنا معاً وسط جموع المارّة الذين لم يكن أحد منهم ليهتمّ لأمرنا.

بينما كُنّا نسير معاً، رفع "لولو" رأسه، وسألني:

"إلى أين أنتَ ذاهب"؟

لم أجبْهُ، بل سألتُهُ: "قل لي أنتَ، إلى أين أنتَ ذاهب؟".

قال: "سأعود إلى البيت".

قُلتُ له: "حسناً، سأوصلكَ إلى بيتكَ".

لم يُبدِ رفضه، حينها بدت عيناي مشوّشَتَيْن، تخيّلتُ "سو يوي" يقف هناك عند الجسر الخشبي المؤدّي إلى الباب الجنوبي، ويشير إليّ بيده مُودّعاً. كل ما استشعرتُهُ حينها هو مشهد "سو يوي"، وهو يُودّعني.

سرْنا داخل زقاق ضيّق حتّى وصلنا أمام مبنى قديم، حينها غادر كتف "لولو" ذراعي، صعد السّلّم متوجّهاً نحو الطابق الأعلى، ثمّ وقف في المنتصف، والتفت إليّ مُلوّحاً بيده مثل شخص كبير، وقال:

"عدْ أنتَ إلى بيتكَ".

لوَّحتُ له بيدي، ووقفتُ أراقبه يصعد السّلّم. لم يكدْ يختفي من أمام ناظرَي حتّى سمعتُ صوت امرأة تسبّ وتلعن بصوت عالٍ، ثمّ تلى ذلك صوت ارتطام شيء ما بالأرض. بعدها ظهر أعلى السّلّم، وهو يجري نحو الأسفل. شاهدتُ امرأة غاضبة، خرجت لتلاحقه، تمسك بيدها حذاء، ثمّ قذفتْهُ به. لم يصب الحذاء "لولو"، بل سقط أمام قَدَمي. ما إن رأتْني هذه المرأة واقفاً حتّى أخذت تُعدِّل شَعْرها المنكوش من شدّة الغضب، ثمّ استدارت بجسدها، ودخلت إلى البيت.

ذُهلتُ عندما رأيتُ تلك المرأة، والسبب هو أنني عرفتُ مَنْ هي، بالرغم من أن الأيّام والسنين قد غيّرت من ملامحها كثيراً. كانت تلك المرأة هي "فنغ يوي تشينغ". تلك الفتاة الخجولة فيما مضى، صارتْ اليوم أمّاً يافعة.

عاد "لولو"، والتقط حذاء والدته، ثمّ صعد إلى الأعلى مرّة ثانية. كان

يريد أن يعيد حذاء والدته. احتضن الحذاء، كما لو كان يحتضن حقيبته المدرسية، وسار يهزّ جسده النحيل مستعدّاً لمواجهة العقاب. حينها دوّى صوت أمّه مرّة أخرى، وهي تصيح قائلة:

"اغربْ عن وجهي".

شاهدتُ الطفل يخرج من البيت حزيناً مطأطأ الرأس. ذهبتُ نحوه، أتحسّس شَعْره، فهرب بعيداً عنّي متّجهاً نحو أرض قريبة مزروعة بالخيزران، والدموع تسيل على وجهه.

توطّدت علاقة صداقتي معه سريعاً، فمنذ عامَيْن شعرتُ بدفء الصداقة مع "سو يوي" الذي يكبرني سنّاً، والآن عندما كُنتُ أسير بصحبة "لولو"، كُنتُ أتخيّل نفسي مثل "سو يوي"، وأنظر إلى "لولو"، فأتخيّل نفسي منذ عامَيْن.

كُنتُ أحبّ الحديث معه، بالرغم من أن هناك الكثير من الأمور قد لا يفهمها، ولكنه كان يعيرني انتباهه وحواسّه كلَيْهما، وخاصّة عينَيْه السوداوَيْن اللامعَتَيْن، كان ينظر إليّ نظرة بهجة وإعجاب، كُنتُ أشعر بأنني في موقف أحظى فيه بالثقة المطلقة غير المشروطة من شخص آخر. وعندما كُنتُ أنتهي من كلامي، وأنظر إليه ضاحكاً، كان يبادلني على الفور بضحكة مماثلة، بالرغم من أنه لم يكن يفهم كلامي.

بعد ذلك، علمتُ أن "لولو" ليس له أخ أكبر، ولكني التزمتُ الصمت حيال هذا الأمر حتّى لا يشعر أنني اكتشفتُ أنه يختلق أموراً غير حقيقية. فعندما يكون وحيداً عاجزاً، يكون محتاجاً إلى دَعْم أخيه الأكبر الذي يعيش في مخيّلته. وأنا أعرف أهمّيّة الخيال وضرورته، بالنسبة إليه، وبالنسبة إليّ أيضاً.

كان "لولو" مثلي عندما كُنتُ أكره "تشنغ ليانغ"، بسبب "سو يوي" في البداية، فهو أيضاً يكره "تشنغ ليانغ" بسببي، والحقيقة أنه عندما صادفني "تشنغ ليانغ" في الشارع، لم يُبدِ أيّ نوع من المودّة الزائدة التي قد تُقلِق "لولو". فبوصفه صديقاً قديماً عادياً، سار "تشنغ ليانغ" نحوي، وتحدّث معي بعبارات الترحيب المعتادة. لم يخفِ "تشنغ ليانغ" المحاط بالكثير من الأصدقاء الجدد دهشتَهُ من صداقتي لطفل صغير مثلِ "لولو". وبينما كُنّا نتحدّث معاً، شعر "لولو" الذي كان يقف بجواري بالإهمال، فقال بصوت عالٍ:

"سوف أغادر".

سار وحيداً، تبدو عليه علامات الغضب، حينها أنهيتُ حديثي مع "تشنغ ليانغ"، وسرتُ خلفه. كان يسير أمامي غاضباً على بُعْد أكثر من عشرين متراً متجاهلاً كلامي، وأنا أُحدِّثه، ثمّ التفتَ إليّ، وقال مُحذِّراً:

"لا أُحبّ أن أشاهدكَ تتكلّم معه".

كان "لولو" متسلّطاً في صداقته، وهو ما جَعَلَني أشعر بالقلق في كل مرّة نصادف فيها "تشنغ ليانغ"، فعادة ما كُنتُ أتظاهر بأنني لم أرَهُ، ثمّ أمضي بسرعة. لم أكن أشعر بأيّ تغيير في علاقتي مع" تشنغ ليانغ"، فأنا أعلم جيّداً أنه لا يخصّني، فهو يلبس على (الموضة)، دائماً ما يمشي والسيجارة تتدلّى من فمه، يحبّ أن يتحدّث بصوت عالٍ مع أصدقائه العاملين في المصنع، أمّا أنا، فليس لي صديق سوى "لولو".

تقريباً كُنتُ أنتظر يومياً أمام مدرسته وقت انتهاء الدراسة. كان "لولو" قد تعلّم كيف يتحكّم في مشاعره، فلم يكن يُبدي أيّ نوع من فرط الفرح والحماسة حين يراني، بل كان يسير نحوي في هدوء ورصانة. ظلّ الحال

كذلك، إلى أن وقفتُ ذات مرّة في مكان غير مكاني المعتاد، حينها أظهر مشاعره الحقيقة تجاهي. أتذكّر أنه حينها كان واقفاً أمام بوّابة المدرسة يتلفّت يمنة ويسرة، لا يدري ماذا يفعل حين لم يجدني. ظلّ واقفاً مكانه، وكأنه أُصيب بصدمة، بينما كانت ترتسم على وجهه علامات اليأس والقلق. أخذ يتجوّل حوله يبحث عنّي في أماكن أخرى، ولكنه لم يبحث في الجهة التي أقف فيها. بعدها سار حزيناً مهموماً نحو الجهة التي أقف فيها، وهو يتلفّت حوله، ظلّ يتلفّتُ حتّى رآني واقفاً هناك مبتسماً. شاهدتُهُ حينها يجري نحوي فرحاً، ثمّ أمسك بيدي، وقبض عليها بشدّة، وكانت يده تتصبّب عَرَقَاً.

لم تستمرّ صداقتي مع "لولو" طويلاً. كُنتُ قد شاهدتُ ذلك الطفل المختلف عن باقي أقرانه يتشاجر مع أطفال آخرين للمرّة الثالثة. حدث ذلك أمام باب المدرسة، وعندما سار نحوي، سمعتُ هؤلاء الأطفال يسخرون منه قائلين:

"لولو، أين أخوك الأكبر؟ ليس لديكَ أخ أكبر! كل ما لديك هو رائحة الضراط الكريهة".

ثمّ وضعوا أيديهم على أنوفهم، وعقدوا حواجبهم، يسخرون منه، وكأنهم قد شمّوا رائحة ضراط كريهة بالفعل. شاهدتُ "لولو" يسير نحوي غاضباً، فبدا وكأن أكتافه ترتجف من شدّة الغضب. ما إن وصل أمامي حتّى التفتَ بجسده، واندفع نحوهم فجأة وهو يصرخ قائلاً:

"سوف أُوسعكم ضَرْبَاً".

اندفع وسطهم، وهو يكيل لهم الضربات بيَدَيْه وقَدَمَيْه، في البداية، كان بإمكاني أن أراه يتقاتل مع طفلَيْن منهم، إلا أنه بعد ذلك تدافع الجميع

وسط القتال، ولم يعد بمقدوري أن أرى مع مَنْ يتقاتل. لم أستطع أن أرى "لولو" إلا بعدما توقّفوا عن القتال. كان يحاول أن ينهض واقفاً، ووجهه مملوء بالتراب، ثمّ استدار نحوهم ثانية، وأخذ يكيل لهم اللكمات، فتدافع الجميع نحوه مرّة أخرى. كان وجهه المغطّى بالتراب والدماء قد جعل جسدي يرتجف، حينها لم أتمالك نفسي، فاندفعتُ نحوهم مُحاوِلاً إبعادهم عنه. صرتُ أركل هذا بقَدَمي، وأدفع هذا بيدي، وما إن اكتشف بقية الأطفال وجودي بجانبه حتّى فرّوا مذعورين. وقفوا بعيداً، وصرخوا غاضبين يقولون:

"أنتَ رجل كبير، تضربنا نحن الأطفال".

لم أعرْهم أيّ انتباه، وسرتُ نحو "لولو" الذي كان قد نهض من على الأرض. لم أكن لأهتمّ بما يقوله الآخرون عنّي في تلك اللحظة، وقفتُ بجانبه، وقُلتُ له:

"أخبِرْهم أنني أنا أخوكَ الأكبر".

إلا أن نظرات الخوف والقلق التي بدت على وجهه كانت قد أفقدتْني حماستي على الفور. شاهدتُ وجهه قد احمرّ، ثمّ أحنى رأسه، وسار وحيداً مُغَادِراً المكان. جَعَلَني هذا الموقف أقف مشدوهاً، وقفتُ هناك أشاهد جسده الصغير يختفي بعيداً، ولم يلتفتْ نحوي، ولو لمرّة واحدة. وقفتُ طويلاً في عصر اليوم التالي أمام مدرسته، إلا أنه لم يظهر، عرفتُ أنه كان قد خرج من الباب الجانبي، وعاد إلى بيته. وعندما كُنتُ أقابله بعدها مصادفة كان يتجنّبني، ويسير بعيداً.

يمكنني أن أقول إنني قد عرفتُ مكانة ذلك الأخ الأكبر الخيالي في قلب "لولو". تذكّرت قصّة كُنتُ قد قصصتُها عليه، واختلقتُها من خيالي

الفقير. تحكي عن صراع الأرنب الكبير مع الذئب، من أجل حماية ابنه الأرنب الصغير، وفي نهاية القصّة قتل الذئبُ الأرنبَ. كان "لولو" يستمع إلى القصّة باهتمام شديد، وفي كل مرّة، كان يطلب منّي أن أحكي له قصّة كُنتُ دائماً ما أكرّرها، فقط كُنتُ أُغيّر الأرنب الكبير، ليصير الأرنبة الكبيرة. في إحدى المرّات بدلّتُ القصّة، فصار البطل هو الأخ الأكبر، وليس الأرنب أو الأرنبة. لم أكن قد انتهيتُ من القصّة حينها حتّى عرف "لولو" أن الأخ الأكبر سيكون مصيره الموت في النهاية، فوقف حينها حزيناً مهموماً، وقال:

"لا أريد أن أستمع إلى هذه القصّة".

بعدما رأيتُ "فنغ يوي تشينغ" كان عادة ما يخطر في بالي صورتها وهي تحتضن وانغ ياو جين" من الخلف عند الجسر الخشبي، ثمّ أتذكّر مشهد "لولو" وهو يمسك ذلك الطفل من الخلف أوّل مرّة رأيتُهُ فيها. يا له من تشابه!

هناك قصّة مجهولة بالنسبة إليّ، تبدأ منذ اختفاء "فنغ يوي تشنيغ" من قرية الباب الجنوبي في تلك الليلة المُقْمِرَة وصولاً إلى ظهورها أمامي مرّة أخرى بشَعْرها المنكوش وهي تطارد طفلها. حاولتُ ذات مرّة أن أستفسر من "لولو" عن والدته بحَذَر، إلا أنه لم يكن يعير هذا الموضوع أيّ اهتمام، كان دائماً ما يشيح ببصره، ينظر إلى طائر يقف على الشجرة أو حشرة تزحف على الأرض، وغير ذلك من الأشياء المُملَّة. ليس بمقدوري أن أعرف هل هو جاهل بأمر والدته؟ أم أنه يتعمّد التجاهل؟ وبخصوص والد "لولو"، فكل ما في وسعي هو أن أعود بالذاكرة إلى تلك الليلة التي جاء فيها رجل أربعيني غريب إلى قريتنا، ثمّ جلس أمام بيت "فنغ يوي تشنيغ".

بعد ذلك، عرفتُ منها أنها كانت قد عادت إلى هنا في مركب أحد القرويّيْن، ففي مساء أحد الأيّام، وصلت إلى هذا الشاطئ تحمل في يدها

اليمنى صُرَّة ملابسها، وتمسك بيدها اليسرى طفلها ذا الخمس سنوات. يمكنني أن أتصوّر منظرها في ذلك الوقت، وسخرية القَدَر منها، وحيرتها وهي تقف عند الشاطئ تتلفّت يمنة ويسرة.

لم ترجع "فنغ يوي تشنيغ" إلى قريتها عند الباب الجنوبي، بل استقرّت في المدينة. أجَّر لها رجل خمسينيّ ترمّل حديثاً غرفتَيْن، وفي الليلة الأولى، تسلّل إلى غرفتها خلسة، ليتحرّش بها، إلا أنها لم تمنعه، ومع حلول نهاية الشهر، ذهب ذلك الرجل يطلب منها الإيجار، فرفضت قائلة:

"لقد أعطيتُهُ لكَ في أوّل ليلة".

ربّما كانت هذه هي بداية قصّة "فنغ يوي تشنيغ" في بَيْع جسدها. وتزامن مع ذلك أنها كانت تقوم بغسيل المفارش البلاستيكية لجَنْي المال.

كانت قد نسيتْني تماماً. ربّما أنها لم تكن قد لاحظتْني من قبل. جئتُ إلى هنا وحدي في عصر أحد الأيّام قبل عودة "لولو" من المدرسة. حينها كانت "فنغ يوي" تشينغ واقفة في أرض فضاء أمام بيتها، تربط حبل غسيل بين شَجَرَتَيْنْ هناك. تلفّ على وسطها مَرْيَلَةً بلاستيكية، ثمّ حملتْ لِفَافَة كبيرة من المفارش البلاستيكية القذرة، وذهبتْ بها نحو البئر. بدا واضحاً أنها قد فَقَدَتْ هيئتها السابقة، وهي تنحني لملء الماء من البئر. صار شَعْرها قصيراً، ولم تعد هناك ضفيرة تتدلّى، لتسقط أمام صدرها وهي تنحني. شرعتْ تغسل المفارش البلاستيكية، كانت مُنهمِكَة في عملها، بحيث لم تلحظْني وأنا أقف هناك غير بعيد منها. شعرتُ حينها بأنني أشاهد الفتاة الصغيرة "فنغ يوي تشنيغ" والمرأة الشّابّة في الوقت نفسه.

بعد ذلك نهضتْ واقفة، ثمّ أخذتْ مفرشاً بلاستيكياً، بحجم ملاءة السرير، وسارت على مقربة منّي، ما إن وصلتْ نحو حبل التجفيف حتّى

أخذت تنفض المفرش البلاستيكي، فتناثرت منه قطرات من الماء على ملابسي. يبدو أنها لاحظت ما جرى للتوّ، فالتفتتْ نحوي، ورَمَقَتْني بنظرة خاطفة، ثمّ استمرّت في عملها، وقامتْ بتعليق المفرش على الحبل.

في تلك اللحظة، لاحظتُ ما فعلتْهُ بها الأيّام والسنون، كانت التجاعيد قد عَلَتْ وجهها بوضوح، فعندما نظرتْ إليّ بعينَيْها اللتَيْن فَقَدَتَا شَغَفَ الشباب، شعرتُ وكأن كومة من التراب قد نُثرت على وجهي. استدارتْ بجسدها، وسارتْ نحو البئر، فلاحتْ لي مؤخّرتها المترهّلة ووسطها الغليظ. حينها التفتُّ مُغَادِراً، يغمرني شعور بالحزن، لم يكن حزني بسبب أن" فنغ يوي تشنغ" لم تتذكّرني، بل لأن هذه كانت أوّل مرّة أرى بعينَي الجمال قد ذبل، وأفَلَ بريقُهُ. وبدتْ صورتها تقف أمام بيتها وأشعّة الشمس مُسلّطة على وجهها وهي تُمشّط شَعْرها اللامع بذراعَيْها المرفوعَتَيْن، وكأنها قد طُمرت أسفل كومة سميكة من التراب.

كانت تعمل في مهنتَيْن مختلفَتَيْن، إحداهما نهاراً، والأخرى ليلاً. كانت مهنة الليل سبباً في تعرّضها لمضايقات الشرطة، وهو ما أجبرها على اختيار حياة أخرى.

كان القَدَر قد ابتسم لي حينها، وغادرتُ مسقط رأسي. بدأتُ حياة جديدة في بكين، في البداية، كُنتُ مُغرَمَاً بالشوارع الفسيحة، أحياناً أقف ليلاً وسط تقاطُع الطُّرُق والمباني الشاهقة من حولي تجعلُني أشعر وكأني أقف وسط ميدان فسيح. كُنتُ أشعر كأني خروف صغير، وقع في غرام العشب اليانع على جانب النهر، غير قادر على أن أغادر هذا المكان.

ففي ليلة كهذه، ألقت الشرطة القبض على "فنغ يوي تشينغ" وهي عارية في أحضان زبون عار داخل شقّتها القديمة في المدينة المجاورة

لمسقط رأسي. حينها استيقظ الصغير "لولو" الذي كان غارقاً في نومه فزعاً، بسبب الجلبة والأضواء التي صاحبتْ اقتحام الشرطة لبيت والدته، فتح الصغير عينَيْه السوداوَيْن الناعسَتَيْن مُحاوِلاً فَهْم ما يجري.

حينها قالت له "فنغ يوي تشينغ" التي كانت قد ارتدت ملابسها:

"أغْمِضْ عينَيْكَ، وعُدْ إلى النوم".

ومن ثمّ، عاد "لولو" لفوره إلى السرير، ثمّ استلقى، وأغمض عينَيْه. بالرغم من أنه أغمض عينَيْه إلا أنه لم ينمْ. سمع كل ما دار من حديث، وسمع صوت وَقْع أقدامهم وهم ينزلون على السلالم، حينها شعر "لولو" بالخوف الشديد من ألا تعود والدته.

بعد وصولها إلى قسم الشرطة، لم تتحدّث "فنغ يوي تشينغ" كثيراً، والتزمت السكوت أمام المحقّقين، إلا أنها تحدّثت في النهاية قائلة:

"الدولة هي مَنْ أعطتكم ملابسَكُم وأموالَكُم، ولذلك فعليكم أن تهتمّوا بأمور الدولة. أمّا أنا، فلباسي ليس من الدولة، هذا الجِلْد الذي أرتديه قد نما على جسدي، ولي الحقّ في أن أنام مع مَنْ أرغب، هذه ملكيّتي، ولي حقّ التّصرّف فيها، وليس مطلوباً منكم أن تهتمّوا بي".

عندما قام الحارس العجوز في قسم الشرطة بفَتْح الباب في صبيحة اليوم التالي، وجد أمام الباب طفلاً وسيماً، يقف هناك، شَعْره مُبلّل بالندى، يتطلّع فيه بحزن ويقول:

"لقد جئتُ لآخذ أمّي، كي تعودَ معي إلى البيت".

قال للحارس إن عمره تسعة أعوام، أمّا في الحقيقة، فعمره لا يتعدّى

سبعة أعوام. كانت "فنغ يوي تشينغ" تأمل أن يتحمّل ابنها المسؤولية عن البيت مبكّراً، فعندما بلغ السادسة، قدّمت هوية مزيّفة، تقول إن عمره ثمانية أعوام، وأدخلتْهُ المدرسة. وها هو اليوم جاء مُتوهِّماً أن بإمكانه أن يعيدَ والدته إلى البيت.

لم تمرّ فترة قصير حتّى عرف أنه لن يُحقِّق مبتغاه. حينها كان هناك خمسة من أفراد الشرطة يحاولون أن يستجوبوه، أخذوا يُغرونه بالكلام حتّى يعرفوا منه حقيقة ممارسة والدته للدعارة. إلا أن "لولو" الذكي اكتشف مخطّطهم، فقال لهم:

"أعرف أنكم تحاولون خداعي، أنا لن أخبرَكم بأيّ شيء".

انهمرت الدموع من عينَي "لولو" عندما علم أنه لا حيله له في إرجاع أمّه إلى البيت، أبدى ذلك الطفل المسكين حينها هدوءاً ورباطة جأش مثيرَيْن للذهول، حيث صرخ فيهم قائلاً:

"لا يمكنكم أن تأخذوا أمّي بعيداً".

كانت عيناه مغرورَقَتَيْن بالدموع، وهو ينظر إليهم منتظراً منهم أن يسألوه لماذا، إلا أن أحداً منهم لم يسأل، فاضطرّ إلى أن يستمرّ في حديثه قائلاً:

"لو أخذتُم والدتي، فمَنْ سيعتني بي"؟

استخدم هذا العذر، لكي يُهدِّدهم، فقد كان قد فكّر في هذه الوسيلة وهو يقف في الخارج. وكان يعتقد أنه لو تحدّث معهم بلهجة الواثق من نفسه، فلن يجدوا مناصاً من إطلاق سراح أمّه، لتعود معه. إلا أنهم لم يضعوا تهديد طفل مثل هذا نصب أعينهم، وبالتالي، فلم يتمكّن "لولو" من إنقاذ والدته، بل حتّى إنه تسبّب في أنهم أدخلوه إلى دار الرعاية.

لم يكن الطفل يعرف أن أمّه قد اقتيدت إلى السجن، فكان يذهب يومياً إلى قسم الشرطة، يطلب منهم أن يُطلقوا سراح والدته، وهو ما جعلهم يملّون منه. أخبروه أن أمّه قد ذهبتْ إلى السجن، وإذا أراد رؤيتها، فعليه أن يذهب إلى سجن "تشي تشياو". تذكّر "لولو" جيّداً هذا الاسم، ثمّ وقف هناك يبكي بصوت عالٍ، وعندما همّوا بإخراجه من القسم، صرخ فيهم قائلاً:

"لا تدفعوني، سوف أخرج بنفسي".

استدار بظهره، ثمّ غادر قسم الشرطة، رفع رأسه، وأخذ يمسح دموعه بيَدَيْه كلتَيْهما، وسار بجوار الجدار وهو يبكي. اكتشف أن هناك عبارة أخرى لم يقلْها لهم، ومن ثمّ، عاد إلى قسم الشرطة ثانية، وقال لهم بغيظ:

"بعدما أكبر، سوف أرسلكم جميعاً إلى سجن تشي تشياو".

مكث "لولو" في دار الرعاية أسبوعاً واحداً، كان يسكن مع شابّ ضرير في العشرين من عمرة، ومُدمن خمر في السّتّين من عمره، وسيّدة خمسينية. عاش هؤلاء الأربعة في دار رعاية قديمة غرب المدينة، كان العجوز مدمن الكحول دائم الحديث عن فتاة اسمها "فن فن" كانت تنام معه في فراش واحد في شبابه، فكان يحكي للشّابّ الضرير طيلة اليوم عن علاقتهما فيما مضى. كانت حكايته مملوءة بالإثارة والإغراء، ممّا يدلّ على أن هذه الفتاة التي تُدعى "فن فن" كانت جميلة وجذّابة. ما إن كان العجوز مدمن الخمر يصل بحديثه إلى قيامه بتحسّس فخذ "فن فن" الناعم بيده حتّى يندمج في الأحداث، ويفتح فمه متأوّهاً، وهو ما جعل الشّابّ الضرير وكأنه يجلس على الجمر، حينها سأله العجوز مدمن الخمر:

"هل تحسّستَ الدقيقَ بيدكَ قبل ذلك"؟

بعدما ردّ عليه الشّابّ الضرير بالإيجاب، استمرّ العجوز مدمن الخمر في حديثه متفاخراً:

"فخذ "فن فن" أكثر نعومة من الدقيق".

كانت المرأة الخمسينية شاحبة الوجه، تستمع يومياً إلى هذا النوع من الحديث، وكان مكوثها في هذا المكان لفترة طويلة قد أصابها بالاكتئاب والوَهْم. وظنّت أن العجوز المدمن والشّابّ الضرير يخطّطان لقَتْلها. في اليوم الذي انضمّ فيه "لولو" إليهم، نادت عليه المرأة الخمسينية، وقالت له بوجه مشوب بالقلق والاضطراب:

"هذان الرجلان يريدان أن يغتصباني".

كانت تغادر دار الرعاية كل صباح متوجّهة إلى المستشفى، آملة أن تكون مصابة بمرض عضوي، بحيث يمكنها أن تمكثَ فيها للعلاج، وبالتالي تتخلّص من مؤامرة العجوز المدمن والشّابّ الضرير لاغتصابها. إلا أنها دائماً ما كانت تعود محبطَة إلى دار الرعاية.

قضى "لولو" في هذه البيئة أسبوعاً كاملاً، فكان يحمل حقيبته، ويذهب إلى المدرسة كل صباح، ويعود ووجهه متورّم وجسده ممتلئ بالتراب، بسبب الشِّجار. لم يكن حينها يتشاجر من أجل أخيه الأكبر الذي يعيش في مخيّلته، بل كان حينها يتشاجر من أجل أمّه الحقيقية. بعدما عرف هذا الطفل الذكي مكان احتجاز أمّه عندما كان في قسم الشرطة اختمرت في عقلة فكرة، لم يخبر أحداً بها. استطاع أن يعرف مكان سجن "تشي تشياو" في أثناء حديثه مع العجوز المدمن والمرأة الخمسينية. ومن ثمّ، فقد حمل أمتعته وحقيبته وكيس الملابس الخاصّ بوالدته، وغادر متّجهاً نحو موقف السّيّارات في صباح التالي. كان مفعَماً بالثقة حيال

ما يفعله، فكان يعرف كم ثمن التذكرة، ويعرف أيضاً أن الحافلة لا تتوقّف أمام السجن. كانت أمّه قد أعطتْه خمس يوانات، اشترى تذكرة الحافلة بيوانَيْن، ثمّ ذهب إلى دكّان صغير لشراء سيجارة، لكي يرشي بها السائق حتّى يتوقّف أمام السجن. اكتشف أن ثمن السيجارة الواحدة قرشَيْن، وأن السيجارَتَيْن بثلاثة قروش. وقف صديقي الصغير أمام الدّكّان محتاراً، فكّر قليلاً، ثمّ قرّر أن يشتري سيجارَتَيْن بثلاثة قروش.

في صباح ذلك اليوم قبل حلول الصيف بفترة وجيزة، استقلّ "لولو" الحافلة التي ستمرّ من أمام سجن "تشي تشياو". ثمّ أمسك في يده اليسرى بمنديل، لفّ فيه اليوانات الثلاثة المتبقّية بعدما اشترى التذكرة، وفي يده اليمنى بالسيجارَتَيْن. كانت هذه هي المرّة الأولى التي يركب فيها "لولو" الحافلة، إلا أنه لم يكن يشعر بفرح أو نشوة، بل كان ينظر من النافذة بملامح صارمة. ويسأل باستمرار السّيّدة التي تجلس بجواره كم يتبقّى من المسافة حتّى يصل الحافلة إلى "تشي تشياو". وعندما علم أن الحافلة أوشكت على الوصول إلى هناك، غادر كرسيه على الفور، وحمل معه أمتعته، وسار نحو الباب. ثمّ مدّ يده للسائق بالسيجارة التي كانت قد تعرّقتْ في يده، يرجوه أن يتوقّف قائلاً:

"أيّها العمّ، أرجوكَ، توقّفْ هنا".

أخذ منه السائق السيجارة المبتلّة، ثمّ رَمَقَهُ بنظرة سريعة، وقام برَمْي السيجارة من النافذة. نظر إليه صديقي الصغير نظرة مملوءة باليأس، وخفض رأسه حزيناً. كان قد فكّر أنه في حال فشلت خطّته، فسينزل في المحطّة التالية لسجن "تشي تشياو"، ثمّ يعود سائراً على قَدَمَيْه. إلا أنه فُوجئ بالسائق يتوقّف هناك لإنزاله. كان الوقت قرب الظهيرة، حيث شاهد أمامه سوراً طويلاً، وكانت الأسلاك الشائكة فوق السور قد جعلتْهُ

يتأكّد أن هذا هو السجن. حمل ذلك الطفل الصغير ذو الأعوام السبعة أمتعته وحقيبته وكيس الملابس الخاصّ بوالدته، وسار نحو السجن أسفل أشعّة الشمس الساطعة.

عندما وصل إلى بوّابة السجن، شاهد شرطياً، يقف هناك حاملاً سلاحه، وقف أمامه، ثمّ نظر إلى تلك السيجارة المتبقّية في يده، وتذكّر ردّة فعل السائق عندما أعطاه السيجارة منذ قليل، فلم يجرؤ على إعطائها له. ابتسم له في خجل، وقال:

"أريد أن أسكن مع والدتي".

ثمّ أشار إلى حقيبته وكيس الملابس، واستطرد:

"لقد أحضرتُ أمتعتي كافّة معي".

بحلول العصر قابل والدته. وسلّمه شرطي الحراسة لشرطي آخر، سار به مسافة قصيرة كان قد سلّمه لشرطي ذي لحية، اصطحبه إلى غرفة صغيرة.

وهكذا قابلت "فنغ يوي تشينغ" التي كانت ترتدي ملابس السجن السوداء ابنها ذا الوجه المتورّم. بكت أمّه بحرارة عندما شاهدت طفلها الصغير وقد جاء وحده إلى هذا المكان.

أمّا "لولو" الذي قابل أمّه أخيراً بعد هذا العناء كله، فقال لها متحمّساً:

"لن أذهب إلى المدرسة بعد اليوم، سأُعلّم نفسي بنفسي".

تأثّرت والدته بشدّة، ثمّ غطّتْ وجهها بيَدَيْها، وانخرطتْ في البكاء، ومن ثمّ، بكى "لولو" هو الآخر. كان لقائهما قصيراً للغاية، فلم يكد يمرّ بعض الوقت حتّى جاء شرطي آخر، واصطحب "فنغ يوي تشنيغ" بعيداً.

حينها وقف "لولو" في عُجالَة، وحمل معه أمتعته مستعدّاً لِلّحاق بأمّه، إلا أن الشرطي أوقفَهُ، حينها صرخ لولو بحدّة:

"لماذا"؟

أخبره ذلك الشرطي أن عليه أن يغادر المكان. هزّ رأسه مُعتَرِضَاً وهو يقول:

"لن أغادر، أريد أن أعيش مع والدتي". ثمّ صرخ منادياً على والدته قائلاً:

"أخبريهم أنني لن أغادر".

إلا أنها التفتت بوجهها، تطلب منه المغادرة، بكي حينها بصوت عالٍ، وهو يقول:

"لقد أحضرتُ أمتعتي كلها، سأنام أسفل سريركِ، ولن أحتلّ حيّزاً من المكان".

في الأيّام اللاحقة كان "لولو" يعيش حياة العراء. فرش أمتعته أسفل شجرة خارج أسوار السجن، وكان يتوسّد صُرَّة الملابس ويضطجع هناك يقرأ في كُتُبه المدرسية. عندما كان يشعر بالجوع كان يذهب ليشتري بعض المأكولات الخفيفة من دكّان قريب بما تبقّى معه من مال. ما إن كان "لولو" يسمع وقع أقدام اصطفاف طابور المساجين في الداخل حتّى يرمي كُتُبه ويقف هناك يتطلّع إلى الطابور بعينَيْه السوداوَيْن بحثاً عن والدته. كان يشعر بالسعادة عندما ينظر إلى أمّه، فيجدها تتطلّع إليه هي الأخرى وسط طابور السجينات ذوات الملابس السوداء.

الفصل الثالث

البُعْد

كان جدّي "سون يو يوان" شخصاً سريع الغضب، هذا من وجهة نظر والدي. أمّا والدي "سون قوانغ تساي" فهو شخص ماهر في التّملّص من المسؤولية، كان حريصاً على أن يُعلّمني بأسلوب جافّ غليظ، يُوسِعُني ضَرْباً، ثمّ يجلس هناك يتنفّس بصعوبة، ثمّ يتقمّص دور جدّي، ويقول:

"لو كان والدي حَيّاً الآن، لَقَتَلَكَ ضَرْباً".

تُوفيّ جدّي من وقت طويل. والدي كان مثل غيره من الأبناء المعتادين على وصف آباءهم الأموات بأنهم طُغاة مُتجبّرون، أمّا هم، فمتحضّرون ومتسامحون. كان كلام والدي له تأثير يجعلني أشعر بالامتنان نحوه بعدما يزول الألم من جسدي في كل مرّة يضربني فيها. فكلامه يدلّ على أن لحياتي أهمّيّة بالنسبة إليه.

عندما ترسّخت في مخيّلتي صورة حقيقية عن جدّي بعدما صرتُ يافعاً، كان من الصعب عليّ أن أُصدِّق أنه شخص سريع الغضب. ربّما كان والدي يتعمّد أن يتحدّث بذلك عن طفولته، كي يواسيني، وكأنه يريد أن يقول:

"الضَّرْبُ الذي تتعرّض له منّي الآن لا يُعدّ شيئاً مقارنة بالضَّرب الذي كُنتُ أتلقّاه وأنا صغير".

لو فهمتُ حينها المقصود من كلامه، لشعرتُ أن كرامتي لم يُنتَقَصْ

منها شيء بينما يتعرّض جسدي للضَّرب المُبرِّح. إلا أن الألم الذي كان الضَّرب يُحدثه بجسدي كان يُفقدني القدرة على الفَهْم والتفكير، فلم يكن بإمكاني أن أُعبِّر عن أيّ شيء سوى أن أصرخ مثل الحيوانات.

كان الاحترام الذي تُعامَل به المرأة في عصر جدّي أمراً مثيراً للذهول. والحقيقة أن جدّي كان بذلك يُعبِّر عن امتنانه للقَدَر دون أن يدري. كانت جدّتي في طفولتها فتاة مُدلّلة، وما إن بلغت السادسة عشر حتّى ألبسوها ثياب الزواج، وأركبوها مِحَفَّة العرس، لتصبح زوجة له. وبعد عامَيْن، أُجبرت على أن تغادر ذلك المنزل الكبيرة ذي الساحة الفسيحة، لتسكن في بيت فقير مُعدَم، حيث أحضرها جدّي الفقير معه إلى قرية الباب الجنوبي المقفرة. كان النشأة الغنية التي تستدعي التفاخر لجدّتي قد جعلت من حياة جدّي "سون يو يوان" قاتمة باهتة.

تلك المرأة التي تُوفّيت وأنا في الثالثة من عمري، حافظت دائماً على عادات مختلفة عن تلك التي كانت تسود بيتنا حينها، حتّى تُبرهن لنا على أن حياة الترف التي كانت تعيشها في الماضي لم تنتهِ. فكانت تُشعل فحم التدفئة داخل بيتنا الفقير خلال الشتاء القارس، وتجلس بجوار المدفأة، تغمض عينها طيلة اليوم، لا هَمّ لها، ولا شاغل. دائماً ما كانت تنقع قَدَمَيْها الصغيرتَيْن في الماء الساخن قبل أن تنام، ولذلك كانت قَدَمَاها تبدوان دائماً حمراوَيْن ورديَّتَي اللون. لا زلتُ أتذكّر منظر قَدَمَيْها حتّى الآن، هاتان القَدَمَان اللتان لم تنغرسا ولو لمرّة في طين الحقل، بالرغم من أنها كانت زوجة فلاح، لأكثر من ثلاثين عاماً. هذا النوع من كسل النُّبلاء استمرّ في عائلتنا الفقيرة دون أن يعترض أحد لعشرات السنوات. فجدّي شخص سريع الغضب في نظر أبي، وفي نظري ليس سوى شخص مُكبَّل اليَدَيْن، يقف أمام حوض الغسيل الذي تغسل فيه جدّتي قَدَمَيْها.

في صباح أحد أيّام الشتاء، لم تستيقظ جدّتي كالعادة. لم تبدُ عليها قبلها أيّ من أمارات الموت، وهو ما جعل جدّي يفقد صوابه من شدّة الحزن، فعندما كان يقابل أحداً من أهل القرية، كان يبتسم لهم ابتسامة خجولة، وكأنه قد حلّ ببيتنا خطب ما، وليس موت زوجته.

أتذكّر أنني شاهدتُ منظراً كهذا، جدّي يقف في العراء والثلوج تتساقط، يرتدي معطفاً أسود اللون بلا أزرار، حيث بدا معطفه لامعاً من شدّة اتّساخه. لم يكن يرتدي ملابس أخرى، وكان يحزم نفسه بحَبْل من القشّ، وصدره مفتوح مُعرَّض للفحات الهواء البارد. ذلك الرجل العجوز مَحنيّ الظهر كان يضع يَدَيْه في جيبه وذرّات الثلج تتساقط على صدره، فلا تلبث أن تذوب. كانت عيناه تحمرّان وهو يبتسم، ثمّ تتساقط منها الدموع. كان يحاول أن يجعل طفلاً صغيراً غير مُدرِك بما يجري حوله، يعرف بحجم الألم الذي يعتصره، لا زلتُ أتذكّره وهو يقول لي بحسرة:

"لقد ذهبتْ جدّتكَ".

بالتأكيد، كان والد جدّتي من الطبقة الميسورة في ذلك العصر. لأن جدّي كان دائم الاحترام لحماه انطلاقاً من تواضع شخص فقير تجاه شخص ميسور الحال. وفي أواخر أيّامه، كان جدّي دائم التّأوّه والحسرة، وهو يحكي لنا عن أيّام الثراء التي عاشتْها جدّتي، إلا أن آذاننا كانت تتوه وسط تأوّهات جدّي عديمة المعنى.

في طفولتي، لم أكن أفهم لماذا يمشي حما جدّي دائماً، وهو يمسك بعصا غليظة، وليس مُمسِكاً بكتاب سميك، كما كُنتُ أتخيّل. والدي كان كذلك هو الآخر، الفارق بينهما هو أن والدي كان يُمسِكُ بمكنسة. على أيّ حال، فهي أدوات مختلفة، تؤدّي الغرض نفسه. ففي ذلك العصر القاسي،

كان حما جدّي يُسخِّر إمكانيّاته المُيسّرة، ليُربيّ وَلَدَيْه ذَوَي الإمكانيات المُيسّرة مثله، وكان يأمل أن يصبح وَلَدَاه مَدعاة لفخر لعائلته. وكذلك كان الحال تجاه ابنته - جدّتي. كان قد حوّل كل جزء صغير من حياتها إلى طَقْس خاصّ، أمّا جدّتي المسكينة، فلم تكن تعتقد أن في هذا تقييداً لحُرّيّتها، وكانت تلتزم بصرامة بإملاءات والدها، متى تستيقظ ومتى تقوم بالتطريز، واختيار المشية، وغيرها من القواعد الصارمة. بعد ذلك، نقلت جدّتي هذه العادات الصارمة إلى جدّي، فكانت ترى تميّزها وتسلّطها من خلال عينَي جدّي "سون يو يوان" المستكينة لهيبتها.

عاش حياته مُحاطاً بتلك الفترة قصيرة الأجل من الثراء التي عاشتْها جدّتي. التّصرّف المتواضع الوحيد الذي كانت تقوم به جدّتي، هي أنها دائماً ما كانت تجلس أمام جدّي خفيضة الرأس. كانت تعاليم والدها لها بهذا القَدْر من الصرامة حتّى إنها لم تزل ملتزمَة بتعاليمه حتّى بعد وفاته.

ذلك الرجل الفخور بصرامته، اختار بنظراته الثاقبة صهراً يُشبهُهُ. كان مصير ابنته قد تحدّد عندما جاءه زوج جدّتي الأوّل يسير نحوه، وكأنه مُتيبّس الجسد. ذلك الشخص الذي كان يفكّر مَليّاً حتّى يتفوّه بكلمات اعتيادية من الصعب أن أقول اليوم أنّه ليس مختلاً عقلياً من وجهة نظري، ومن الصعب عقد مقارنة بينه وبين جدّي الفقير المفعَم بالحياة. وبالرغم من ذلك، فقد كانت جدّتي معجَبة به. كان هذا الإعجاب قد أثّر على جدّتي بشكل مباشر، فقد كانت تبدو على وجهها علامات الزّهْو والتباهي في كل مرّة كانت تذكره. وكان جدّي هو الضحية الثانية، فحالة الاحترام والاهتمام البالغ التي كان عليها، قد جعلت من ذلك الشخص ذي القميص الطويل هو مرآة الشعور بالنَّقْص، بالنسبة إلى جدّي طَوَالَ حياته.

دخل ذلك الرجل الأبله ذو الملابس الحريرية من باب بيت جدّتي ذي

اللون الأحمر بكل وقار، شَعْره اللامع مُمشَّط بدقّة، يده اليمنى تبرز قليلاً من كمِّه الطويل، عبر باحة البيت حتّى وصل إلى قاعة الضيوف، ثمّ استدار من خلف الطاولة المربّعة، ووقف أمام والد جدّتي. وهكذا صار زوجاً لها بكل بساطة. كان جدّي يحكي لي هذه الحكاية، وأنا في السادسة، أي قبل أن يرسلَني والدي إلى بيت عائلة أخرى، كي تتبنّاني. لم تكن حكايات جدّي لتثير اهتمامي، فقط كُنتُ أشعر ببعض الدَّهْشة. كل ما عليكَ هو أن تدخل من الباب الكبير، ثمّ تلفّ خلف الطاولة، وهكذا تتزوّج بامرأة. كُنتُ أفكّر في نفسي، وأقول: أنا أيضاً يمكنني فعل هذا.

بالغتْ جدّتي من الفخامة التي كان عليها حفل زواجها، وذلك بسبب حياه الفقر التي عاشتْها لثلاثين عاماً لاحقة. كُنتُ قد سمعتُ هذا الكلام بعدها من جدّي. ولذلك كان حفل زفافها في مخيّلتي ملآناً بأصوات قَرْع الطبول والصُّنُوج، كان هناك أيضاً صوت مِزْمَار يصدح بصوت عالٍ، والطابور الذي يحمل جهاز العروس كان ممتدّاً على مد البصر. كان جدّي كثير الكلام عن مِحَفَّة العرس التي يحملها ثمانية رجال، وكيف لي أن أعرف حجم مِحَفَّة كهذه، فقد كُنتُ حينها في السادسة. طريقتُهُ في الحَكْيِ كانت مملوءة بالإثارة، وهي ما جعل حفل الزفاف مشوّشاً في مخيّلتي، وخاصّة أصوات المزامير. وكانت طريقته في تقليد أصوات المزامير حينها أشبه بأصوات نُباح الكلاب في منتصف الليل، وهو ما جَعَلَني أشعر بالخوف الشديد.

عندما كانت جدّتي في السادسة عشر من عمرها، كان وجهها أشبه بتفّاحة سقطتْ لتوّها من أعلى الشجرة، وكأنه مَطليّ بلون أحمر قِرْمِزيّ. بدا وجهها الأحمر لامعاً مثل إناء فخّاري مَطْلِي أسفل أشعّة الشمس عندما كان جدّي يُنزلها من على المِحَفَّة.

هذا العريس الذي بدا متحجِّر الملامح أصاب جدّتي بالدَّهْشة. فطَوَالَ مراسم الزفاف كانت ترتسم على وجهه ابتسامة، بدت كأنها مرسومة على وجهه لا تتحرّك. لم يستمرّ هذا العريس الذي بدا وكأنه يتظاهر بالابتسام في تظاهره حتّى يصل إلى فراش الزوجية. فما إن وصلا إلى غرفتهما حتّى أخذ يتحرّك برشاقة، وبعد لحظات من الذهول، اكتشفت جدّتي أنها عارية تماماً. هذا الشخص الذي بدا شرساً على حين غِرَّة فعل كل ما ينبغي عليه فعله دون أن يتفوّه بجملة واحدة. وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي، اكتشف أن عروسه قد اختفت، كما يحدث في الحكايات. ظلّ يبحث عنها في كل مكان، إلى أن بحث داخل خزانة الملابس، فوجدها تجلس بداخله عارية، وهي ترتجف.

هو ليس بشخص سيِّئ، كان هذا هو تقييم جدّتي الأخير له. لا أستطيع أن أتخيّل أنه بعدما أصاب عروسه بالرعب ليلة زفافهما قد جعلها تطمئنّ بعد ذلك بطريقة مريحة. وفي العامَيْن التاليَيْن كانت جدّتي تشعر بالاطمئنان وراحة البال كل ليلة. كانت جدّتي تقول عن جدّي يقول إنه رجل عطوف، يعرف كيف يكسب قلب المرأة، ينتابني شكّ أن هذه صورة أعادت جدّتي تشكيلها داخل ذاكرتها. فحنين جدّتي غير المنقطع إلى الماضي قد جعل من تواضع جدّي ورِفْقِهِ بلا أدنى أهمّيّة.

كانت والدة جدّتي ترتدي ثوباً من الحرير الأسود، وتجلس في قاعة الضيافة، وبجوارها خادمة مُمسِكَة بالمِرْوَحَة. بدت ملامحها صارمة، وهي تتحدّث عن كثرة الأمراض التي تعاني منها، وأنها لا تتحمّل أن تسمع صوت أنين في البيت، بما في ذلك صوت أنينها، فهذا بالنسبة إليها أمر غير أخلاقي، مثله مثل المبالغة في الضحك. ولذلك فقد تحوّل أنينها إلى تعبيرات باردة، وكأنها تتحدّث عن شخص آخر يعاني من آلام المرض.

كانت جدّتي تستغرق وقتاً طويلاً في وصف آلام المرض، بالطبع يمكن تخيُّل تلك الأجواء الكئيبة المحيطة بها، وهي تتحدّث. إلا أنها لم تكن لتتأثّر كثيراً بذلك، فالحقيقة أن تعاليم والدها لها قد جعلتْها مؤهّلة لذلك. لم تكن تعرف أن لديها وجهاً جميلاً، إلا بعدما كان جدّي يمتدحها، ويثني عليها بصِدْق. أمّا والدها وزوجها وحماتها، فكانوا يلتزمون الصمت دوماً حيال ذلك.

لم يكن بمقدوري معرفة المزيد عن أحوال جدّتي داخل تلك العائلة. فحياتهم السابقة قد دُفنَتْ معهم في وقت مبكّر. في السنوات التي تَلَتْ فقدانه لزوجته، كان الشعور بالوحدة والحزن قد جعل جدّي يشعر بالحنين إلى ماضي حياته مع جدّتي، فعندما كانت عيناه الخافتتان تلمعان، كانت جدّتي تعود للحياة داخل حديثه.

وقع ذلك التغيير في مصير جدّتي في صباح يوم مشمس، كانت جدّتي شابّة وجميلة، ليست كتلك العجوز ذات الوجه المملوء بالتجاعيد التي رأيتُها فيما بعد. وبالرغم من أنها استعدّتْ للانسجام مع تلك الأسرة، إلا أنها كانت لا تزال في الثامنة عشرة، ومن السهل على الفتيات الشّابّات الوقوع في الإغراءات. كانت جدّتي ترتدي سترة حمراء وحذاء مُطرّزاً، تقف على السّلّم الحجري، وشمس الصباح تسطع على وجهها الأحمر اللامع، ويداها الناعمتان الرقيقتان تتدلّيان بشكل يُحرِّك المشاعر. وكان هناك عصفوران يُغرّدان أعلى شجرة وسط الفناء، ويقومان بحركات راقصة، أُغرمت بها جدّتي. جدّتي الصغيرة في السّنّ حينها لم تكن تعرف أنهما بذلك يتبادلان الغرام، إلا أنها قد تأثّرت بمشاعر الألفة والودّ بينهما. كانت متأثّرة حتّى إنها لم تسمع وقع خطوات حماتها الثقيلة، وهي تسير نحوها، فقد كانت مستغرقة في الأجواء الرائعة التي غلّفت هذا الصباح. مرّ بعض

الوقت، ولا يزال العصفوران في وضعهما الحميم، بينما كادت الحماة ذات الطابع الحادّ أن تفقد صبرها في مواجهة سلوك جدّتي المتجاوز، ومن ثمّ، سمعت جدّتي صوتاً مُفزِعاً بالقرب من أذنَيْها، كان صوت تلك المرأة المريضة، وهي تقول ببرود:

"حان وقت عودتكِ إلى غرفتكِ".

تعرّضت جدّتي حينها لحالة من الفَزَع، لن تنساها طيلة حياتها. فبعدما التفتت برأسها للخلف، كان ما شاهدتْهُ ليس هو وجه حماتها الصارم المعتاد، بل شاهدت من خلال التعبيرات الحادّة المعقّدة على وجه حماتها مستقبلها غير المستقرّ. كانت امرأة ذكية، فهمت من فورها أن هذا المشهد البديع لهذَيْن العصفورَيْن ليس سوى خدعة قذرة. فبعدما عادت إلى غرفتها، أدركت حجم الكارثة التي أقحمت نفسها فيها، في تلك اللحظة التي كان من الصعب التّنبّؤ فيها بما سيحدث، وكان قلبها يخفق بشدّة بين ضلوعها. سمعتْ صوت خطى حماتها المتثاقلة تسير نحو غرفة أخرى، وبعدها بقليل، كان هناك وَقْع أقدام خفيفة يقترب منها، كان هذا صوت وَقْع أقدام الخادمة التي دخلت إلى عرفة الكُتُب، ثمّ نادت على الزوج الذي كانت تُخيّم عليه الرغبة في النوم بالداخل.

بعد ذلك خيّم السكون، وكأن شيئاً لم يحدث. إلا أن القلق الذي اعترى جدّتي، كان في تزايُد مستمرّ، فذلك النوع من الخوف أصبح مَشوباً بالتّرقّب، إذ كانت ترقّب أن يأتي عقاب حماتها سريعاً، فهذا الوضع المعلّق يجعلها في قلق مستمرّ.

شعرت جدّتي أن الكارثة على وشك الوقوع وقت تناول طعام العشاء، فحينها كانت حماتها تُظهِر لها الودّ بشكل مستغرب، وفي بعض الأوقات،

كانت هناك حمرة خفيفة تشوب عينَيْها، بينما كان زوجها يشعر بالضِّيق. أُجبِرَتْ جدّتي على البقاء بعد العشاء، وشرعت تستمع إلى حديث حماتها الطويل، حيث أخذت الحماة تحكي لها تاريخ عائلتهم الذي لا يشوبه شائبة، فسواء من ناحية التعليم أم من ناحية المِهَن التي امتهَنَهَا أبناء العائلة، كلها أمور تجعل الأجيال القادمة تشعر بالفخر. وأنه كان من ضمن أسلافها امرأة يُضرَب بها المَثَل في العفّة، قد مُنحت لقباً إمبراطورياً في عهد أسرة تشينغ. ما إن وصلتْ بالحديث إلى هنا حتّى أخذتْ تعيد كلامها مراراً وتكراراً. بعدها طلبتْ من جدّتي أن تذهبَ لترتيب متعلّقاتها. كان كلامها واضحاً للغاية، ثمّ جاءتْها وثيقة طلاقها.

كان من الصعب على جدّتي أن تنسى هذه الليلة الأخيرة، فقد بدأ زوجها يُعبِّر عن مشاعرة الدافئة مثله مثل الرجال. وبالرغم من أنه ظلّ صامتاً، إلا أنه (كانت جدّتي قد أخبرتْني بذلك لاحقاً) كان قد تحسّس بيده على جسدها طويلاً. أمّا بخصوص الدموع، فلا أعرف لماذا لم تتحدّث عنها جدّتي. ربّما كانت تلك الليلة هي مَنْ جعلت جدّتي غير قادرة على نسيانه طيلة حياتها. بعد ذلك، عندما كانت تتحدّث عنه، كان هذا الشخص الفاسد يتحوّل في حديثها إلى رجل، يعرف كيف يعامل النساء برفق.

حماة جدّتي لا زالت تتمسّك بأذيال العصور البائدة، إلا أنها ليست مستبدّة كالأسلاف. لم تكن تقول لابنها ينبغي عليكَ فعل كذا أو كذا، بل منحتْهُ فرصة الاختيار، بالرغم من أنها كان تتوقّع اختياره منذ البداية.

استيقظت جدّتي مبكّراً في صباح اليوم التالي، وكانت حماتها قد استيقظت قبلها. ما إن جاء زوجها إلى غرفة الضيافة حتّى استعاد سلوكه القديم، فلم يكن بإمكان جدّتي أن تجد آثاراً لذلك الحزن الذي ارتسم

على وجهه الليلة الماضية. تناولا معاً طعام الإفطار، كيف كان مزاج جدّتي حينها؟ بدت هذه المرأة الشّابّة غارقة في القلق والحَيْرَة. المصيبة ستحلّ، هذا لا شكّ فيه، ولكن جدّتي كانت مشوّشة الذهن قبل حلولها، الأشياء كلها أمام ناظرَيْها بدت مشوّشة غير واضحة.

بعد ذلك، خرج ثلاثتهم من باب البيت، حماة جدّتي التي كانت ترتدي لباساً أسود، اصطحبتْهم نحو طريق كبيرة. أمرت جدّتي أن تسير جهة الغرب، أمّا هي، فسارت جهة الشرق. حينها كان وَقْع أقدام خيول الجنود اليابانيّيْن يقترب، والفارّون من بطشهم بدؤوا يظهرون تباعاً على هذه الطريق. الحماة تسير نحو الشرق، أمّا جدّتي، فلم يكن بوسعها سوى أن تشعر بأشعّة الشمس المسلّطة على ظهرها. وزوجها يقف خلفها، يشاهد ظلّها وهي تغادر، وبداخله حزن لا يُوصَف. إلا أنه اختار بأن يسير خلف والدته جهة الشرق دون تفكير.

وهكذا حملت جدّتي صُرَّة ثيابها الثقيلة المحمّلة بملابسها وحليها وبعض المال، وغادرت. كان وجهها شاحباً بشكل مخيف، ولثلاثين سنة تَلَتْ، لم يعد وجهها أحمرَ لامعاً، كما كان. هبّتْ رياح الصباح، فانتكش شَعْرها، إلا أنها لم تشعر بذلك، استمرّت في طريق نزوحها وسط أمواج البشر الفارّين. ربّما كان ذلك قد منحها بعضاً من المواساة، فهي بذلك لن تبدو كامرأة مطلّقة، فالناس من حولها لهم أيضاً ملامح الحزن نفسها التي تكسو وجهها. كانت جدّتي أشبه بورقة في مهبّ الريح، اختلط حزنها مع هروب الناس حولها. بالطبع كانت خجلة أن تعود إلى والدها الصارم. وكان انخراطها وسط جموع الناس، قد أجّل تفكيرها المُلحّ في مستقبلها.

جدّتي التي عاشت فيما مضى حياة مُدلَّلة، أخذت تقضي أيّامها في العراء وسط نيران الحرب، وبالرغم من ذلك، فلم تكن هناك علاقة بين

معاناتها والحرب. كانت أسوأ لحظاتها حينما قابلت ذلك الجزّار الذي لم تعد تتذكّر ملامحه. قالت جدّتي ذلك بسبب رائحة اللحم والدِّهْن الكريهة التي كانت تفوح من جسده، ولثلاثين عاماً بعدها، كانت جدّتي دائماً ما تشعر بالرجفة والخوف في كل مرّة تشمّ فيها رائحة اللحم النِّيْء. فذلك الجزّار ذو المنظر المخيف كان قد اغتصبَها، وكأنه يقوم بتقطيع اللحم.

بحلول المساء الذي تستعر فيه رَحَى الحرب، غادرت جدّتي دون مبالاة حشود الفارّين، وأخذت تغسل وجهها الذي صار خشناً تدريجياً عند أحد الأنهار. ظلّتْ جالسة عند شاطئ النهر متأثّرة بما آل إليه حالها في الوقت الذي خَلَتْ فيه الطُرُقات من أيّ وجود للبشر. من ثمّ، كان عليها أن تواجهَ الجزّار وحدها، مع حلول الليل، جَثَتْ على ركبَتَيْها أمامه، تتضرّع إليه بصوت وجسد مرتعشَيْن. فكّتْ صُرَّة ملابسها، وأخرجت كل ما فيها تعطيه إيّاهم حتّى لا يهتك عرضها. حينها أطلق الجزّار ذلك النوع من الضحكات الكريهة المجنونة التي كانت تكرهها حماتها بشدّة، ثمّ قال لها:

"حتّى بعدما أنال منكِ، فلن تفلتي بهذه الأشياء".

في الوقت الذي ركبت فيه جدّتي المِحَفَّة لتصبح عروساً، كان جدّي "سون يو يوان" ابن الثالثة والعشرين حينها قد ذهب برفقة والده الحجّار الشهير"سون" ومعهم مجموعة من العمّال إلى مكان، اسمه جسر "بي تانغ" لبناء جسر كبير مُقوَّس ذي ثلاث قناطر. كان ذلك في صبيحة أحد أيّام بداية الربيع، حيث استأجر والد جدّي مركباً خشبياً، استقلّه هو ومَنْ معه من العمّال وسط النهر وصولاً إلى موقع عملهم. جلس والد جدّي في مؤخّرة المركب يدخّن الغليون منتشياً، وهو ينظر إلى ابنه "سون يو يوان" الذي كان يقف في مقدّمة المركب عاري الصدر، ورياح مطلع الربيع الباردة تلفح صدره الذي بدا أحمر اللون. كانت مقدّمة المركب ترتفع للأعلى قليلاً، تشقّ عباب الماء مثل سكّين حادّة، يتحرّك من الأمام إلى الخلف.

في شتاء ذلك العام، كان أحد بيروقراطيّي حزب "الكومينتانغ" يستعدّ للعودة لمسقط رأسه لزيارة والدَيْه. كان هذا البيروقراطي قد قام فيما مضى بحَرْق بيت أحد الأثرياء، وفي رحلة هروبه، كان قد سبح إلى الضّفّة الأخرى من النهر، ثمّ بدأ رحلة الثروة والسلطة. وبعد سنوات طويلة، أراد العودة إلى مسقط رأسه، وقد صار مسؤولاً يُشار له بالبَنَان. بالطبع، لم يكن المسؤولون في بلدته يتركونه يسبح في النهر مرّة أخرى، لذلك دفعوا المال لوالد جدّي حتّى يبني لهم جسراً. كان هذا الأمر ذا مغزى هامّ بالنسبة إلى والد جدّي، حيث أوصي عمّاله قائلاً:

"هذه المرّة نحن نبني جسراً للحكومة، علينا أن نُنجز العمل على أكمل وجه".

جاؤوا إلى ذلك المكان الذي لم يكن فيه جسر، ولكنه يُسمّى جسر "بي تانغ". بالرغم من أن والد جدّي كان قد تجاوز الخمسين حينها، إلا أن ذلك العجوز النحيل كان ذا صوت قوي. بدأ عمله بالسير على حافّة النهر ذهاباً وإياباً كالمتسكّع، وكان جدّي يسير خلفه كظلّه. عندما كان والد جدّي يستكشف تضاريس المكان، كان دائم الالتفات برأسه إلى الخلف ينادي على عمّاله تماماً، كما كانت زوجته تنادي على الدجاج من حولها. يمسك بيده حفنة من التراب، يفركها بيده، ثمّ يلعقها بلسانه. وهكذا قاموا بعملية مَسْح لتضاريس المكان، وبعدما انتهى جدّي من رَسْم خريطة البناء، أمرهم بنَصْب خيمة، وتجهيز الحجارة، ثمّ حمل هو وجدّي طعامهم وعدّتهم، وصعدا إلى الجبل.

صعدا إلى الجبل لاقتلاع حجارة بناء القنطرة. كان جدّي ووالده أشبه بالقطط البرّيّة، يجوبان الجبل هنا وهناك، عملهم هناك جعل هذا الجبل الصغير لا ينعم بالسلام لثلاثة أشهر. حينها كانت براعة الحجّارين لا تظهر

إلا من خلال حجارة بناء القناطر، فهي الحجارة الضخمة التي تُوضَع في منتصف الجسر، كما أنها لا تُوضَع إلا في آخر مراحل البناء، ولا يُسمَح بوجود أيّ خطأ في بنائها.

كان والد جدّي هو أذكى فقراء عصره، وبالمقارنة مع والد جدّتي، فهو بارع مملوء بالحماسة. هذا العجوز الذي عاش جوّالاً رحّالاً كان يجمع بين رومانسية الفنّان وطباع الفلاح. جدّي الذي عاش في كنفه، وتربىّ معه، كان مثله أيضاً يفوق أقرانه. كانا قد نحتا تنّينَيْن، يمسكان بلؤلؤة على واجهة حجر القنطرة المربّع الكبير، بحيث بدا التّنّينان وكأنهما ينقضّان على اللؤلؤة من الفضاء. لم يكونا مُجرّد حجّارَيْن، يبنيان حجارة فوق مجرى مائي، بل كانا يبنيان قِطَعَاً فنِّيَّة، لتكون كنوزاً للأجيال القادمة.

بعدها بثلاثة شهور، كان العمّال قد انتهوا من تجهيز حجارة البناء، ثمّ صعدوا إلى الجبل، يساعدان جدّي ووالده. وفي ظهيرة أحد أيّام الصيف الحارّة، جرّ ثمانية من العمّال حجر القنطرة الكبير، ونزلوا به من على الجبل. كان والد جدّي يجلس فوق الحجر نصف عار، يُدخّن غليونه، ونظراته تدلّ على رضاه عن سير العمل، إلا أنه لم يكن يُظهِر ذلك، فقد اعتاد على إنجاز مثل هذا العمل. أمّا جدّي "سون يو يوان"، فكان يسير بجوارهم مُحمرّ الوجه، وكلّما سار عشر خطوات، يصيح بصوت عالٍ:

"ها قد وصل حجر القنطرة".

لم تكن هذه هي أفضل لحظاتهم، كانت أفضلها في منتصف خريف هذا العام، حيث حلّ اليوم الذي سينتهي فيه العمل. نُصبَت البوّابات المُلوّنة عند نهايَتَي الجسر، وعُلّقت الزينة المُلوّنة التي كانت تُصدِر حفيفاً كأوراق الأشجار وقت هبوب الريح. الأدخنة تتصاعد وصوت الطبول يصمّ

الآذان، وصخب أصوات القرويّينْ الذي جاؤوا للاحتفال من كل حَدَبٍ وصَوْبٍ، يتعالى في الأرجاء. حتّى العصافير وقفت على الأشجار بعيداً، ولم تجرؤ على الاقتراب من هذا المكان من شدّة الصخب. كُنتُ دائم الاستغراب أن شخصاً مثل جدّي "سون يو يوان" الذي مرّ بتجربة كهذه كان في أواخر أيّامه لا يزال مُنبهِراً من حفل زفاف جدّتي الذي يُعدّ كقطرة ماء في كأس، بالنسبة إلى هذا المشهد.

لم يكن والد جدّي يتخيّل أنه سيُعاني من سقطة كبيرة في لحظة كتلك. فذلك الرجل الذي كان يعتمد دوماً على ذكائه ومهارته، وانتصر على العقبات كلها التي واجهها في حياته ها هو يذوق مرارة الفشل عند جسر "بي تانغ". حقيقة الأمر أنه كان قد انتبه إلى أن التربة أخذت تنهار، والجسر بدأ يغوص. إلا أنه كانت مستغرِقاً في صورة نجاحاته القديمة، فوفقاً لخبراته في هذا العمل، كان يعرف أن الجسور عادة ما تغوص قليلاً. ومع قرب حلول موعد الانتهاء من العمل، كان الجسر يغوص أكثر فأكثر. إلا أن جدّي أهمل ذلك الأمر، وهو ما جعله يعيش أيّامه الأخيرة في بؤس.

بالرغم من الفشل الذريع في النهاية، إلا أن المشهد كان مثيراً بحقّ حينما جاء العمّال يجرّون حجر القنطرة. ساروا مَزهوّين بأنفسهم نحو قمّة الجسر، وأصواتهم تتعالى بالغناء، وعندما هَمُّوا بوَضْع حجر القنطرة في الفجوة المخصّصة له، تعالت أصوات الطبول والصُّنُوج. في تلك الأثناء، سمع والد جدّي صوت قَرْقَعَة، وليس صوت احتكاك، كما كان يتوقّع، حينها كان وحده من بين الحشد قد عرف أن هناك كارثة على وشك الحدوث. كان يشاهد ما يجري من أمام البوّابة المُلوّنة، حيث جعلت هذه الحقيقة الصادمة ابتسامته تتحجّر على وجهه. حينما سمع والدي جدّي هذا الصوت، وقف على كرسيه فجأة. أخبرنا جدّي بعدها أن والده كان

أشبه بالسمكة الميّتة، عيناه بيضاوان، تنظران للأعلى حينها. كان الرجل الذي عانى الكثير، وتغلّب على صِعَاب لا تُحصى في حياته، قد انتهز فرصة أن أحداً لم يفطن إلى ما يجري، ونزل من مكانه، وحمل متعلّقاته، وهَمَّ بالمغادرة. سار نحو الجبل تاركاً الخزي والعار لابنه وعمّاله.

حينها كان حجر القنطرة قد استقرّ بإحكام دخلَ التجويف، حاول العمّال الثمانية أقوياء البنية أن يرفعوه مرّة ثانية، إلا أنه لم يتزحزح. امتقعتْ وجوههم حمرة، فقد بدا الحجر مائلاً، لا يستطيعون إنزاله أو إخراجه.

لا أعرف كيف قضى جدّي "سون يو يوان" هذا اليوم العصيب، فقد كان هروب والده أشبه بهروب اللصوص. اضطرّ جدّي بعدها أن يتحمّل العار مضاعَفاً، فبخلاف أنه كان حزيناً مَحنيّ الرأس كباقي العمّال، كان عليه أن يتحمّل الشعور الخجل، لكونه ابن الحجّار "سون". بدا المشهد حينها غارقاً في الفوضى، وكأن بيتاً على وشك السقوط، كانت أحواله أكثر سوءاً من الآخرين، فقد كان أيضاً واحداً من العمّال الثمانية. فجدّي "سون يو يوان" كان يرفع الحاجز بيده، ولا يستطيع أن يتحرّك من مكانه قيد أنملة.

عاد والد جدّي بعد حلول الظلام، بالرغم من أنه لم يكن يجرؤ على مواجهة الناس في بلدته، إلا أنه كان يشعر أنه المُعلِّم الأكبر بالنسبة إلى ابنه وعمّاله. هذا العجوز المذعور نادى على عمّاله بصوت مبحوح، وقال مُوبِّخاً:

"ليس عليكم أن تحزنوا هكذا، فأنا لم أمتْ، وكل شيء سيُبنى من جديد، كما لو كُنّا لا نزال في البداية".

تحدّث معهم بلهجة مملوءة بالحماسة، ذكّرهم بمآثرهم في الماضي، وحدّثهم عن مستقبلهم المشرق، ثمّ توقّف فجأة، وقال:

"فليغادر كل منكم إلى بيته".

ثمّ غادر المكان تاركاً عمّاله غارقين في ذهولهم. والد جدّي الذي كانت أفعاله دائماً على غير المتوقّع وصل عند باب الخيمة، ثمّ استدار بجسده، وعاد ثانية، وقال لهم بثقة ناصحاً:

"تذكّروا كلامي، مَنْ لديه المال لا يخشى قلّة النساء".

هؤلاء العجائز في ذلك الوقت كانوا سريعي التّأثّر. فعدما قرّر والد جدّي أن يذهب في ليلته إلى البلدة، ليعتذر لذلك المسؤول، ويُقرّ بخطئه، شعر بأنه أشبه بالأبطال الأسطوريّيْن، وقال لجدّي إن على الفاعل أن يتحمّل مسؤولية فِعْلَته، كان صوته يهتزّ حينها من شدّة تأثّره بما يقوله. وفي مواجهة والده الذي كان على وشك أن يُحوِّل فشله إلى مجد، شعر جدّي "سو يو يوان" هو الآخر بالتّأثّر الشديد.

إلا أن والد جدّي الذي كان مُفعَماً بروح البطولة حينها اختفى بعدما خرج وسار لبضع عشرة خطوة. كان خطؤه أنه قد التفت برأسه، ونظر إلى ذلك الجسر مرّة ثانية. كان هذا ردّ فعل لا إرادياً منه. فحجر القنطرة البارز هناك كان يلمع أسفل ضوء القمر، وكأنه ذئب يُكشّر له عن أنيابه المخيفة. بدا ظلّه مُرتعِشاً وهو يغادر في عينَي جدّي، ففي تلك الليلة المُقْمِرَة، سار والد جدّي في تلك الطريق الطويلة، حاملاً بداخله الأسى الذي خلّفه له الفشل. لم يكن كما حكى لنا جدّي "سون يو يوان" بعد ذلك من أنه دخل سجن المدينة مرفوع الرأس، بل كانت حالته أسوأ من مريض، أشرف على الهلاك محمولاً على النّقّالة إلى المستشفى.

لفترة من الزمن، شعر جدّي بالحماسة، بسبب روح البطولة الزائفة التي افتعلَها والده. لم يفعل كما أوصاه والده قبل موته بأن يُغيِّر من

مهنته، فبعدما حمل الكثير من العمّال أمتعتهم، وغادروا المكان، بقي جدّي ومعه العمّال السبعة الذي كانوا يجرُّونَ حجر القنطرة هناك. وأقسم أن يُصلِح هذا الجسر. فقد استطاع أن يُفجِّر ذكاءه وطاقته بعدما غادر والده. اصطحب معه العمّال السبعة، وقاموا بحَفْر ستّ عشرة حفرة أسفل الجسر، ثمّ دقّوا فيها ستّة عشر خازوقاً خشبياً. بعدما نجحوا في غرس الخوازيق داخل الحفر، انهال هؤلاء الثمانية فوق الخوازيق بمطارقهم، بكل قُوّة. بدوا كالمجانين في نظر المارّة، لكنهم استمرّوا في دَقّ الخوازيق لساعَتَيْن كاملَتَيْن. وأمام قُوّتهم المحدودة، أخذ هذا الجسر الكبير يرتفع شيئاً فشيئاً. بعدها سمع جدّي صوت قَرْقَعَة، جعله يشعر بالحماسة، ثمّ تلاه صوت ارتطام شديد، وبهذا تحقّقت رغبة جدّي المنشودة. فقد استقرّ حجر القنطرة بسلاسة داخل الفجوة.

أخذ جدّي الغارق في الحماسة يجري على تلك الطريق التي هرب منها والده، ثمّ شرع ينادي على والده بأعلى صوته، وعيناه مغرورقَتَان بالدموع. ظلّ يجري لأكثر من عشرين كيلو متر، حتّى وصل إلى البلدة. عندما خرج والده من محبسه مُشوَّش الذهن، نظر إلى ابنه بجسده الذي يتقطّر عَرَقَاً، وكأنه قد ابتلّ من المطر. حينها نادى جدّي الذي أوشك على أن يستنفد الماء الموجود كله في جسمه عَرَقاً على والده قائلاً:

"أبي".

ثمّ تلا ذلك صوت سقوطه على الأرض.

كان والدي جدّي يتحلّى بالضعف الذي كان سائداً في ذلك العصر، فبالرغم من أن ابنه قد أنقذ فشله في بناء جسر "بي تانغ"، إلا أنه ظلّ بعدها فاقداً للهِمّة. وبخطى الفلاح العجوز المتثاقلة، سار والد جدّي نحو زوجته

التي كانت جميلة جذّابة في شبابها. هذان الزوجان المُسِنّان سيبدآن في نهاية حياتَيْهما مرحلة جديدة، لا يفترقان فيها ليل نهار.

قرّر جدّي "سون يو يوان" المَزهُوّ بنفسه حينها السير على خطى والده في شبابه، اصطحب معه مجموعة من الحجّارين، واستمرّ في مهنة أجداده. لم يلبث نجم جدّي أن لَمَعَ حتّى أَفَلَ بسرعة، وبوصفهم آخر جيل من الحجّارين القدامى، تحمّل هو وأتباعه التجاهل الذي لاقوه في تلك الفترة. صارت هناك أعداد لا تُحصى من الجسور الحجرية فوق المجاري المائية حولهم، ولأن صناعة الأجداد كانت مُتقَنَة، فلم يكن من المتوقّع أن تنهار هذه الجسور بين عشية وضحاها. ظلّ هذا الفريق الذي يعاني من الجوع، بسبب قلّة العمل، يجوب ويتسكّع هناك وهناك أملاً في العثور على عمل. كانت الفرصة الوحيدة التي لاحت لهم، هي بناء جسر حجري صغير، وكان جسراً مائلاً. كانت تلك هي المرّة التي حظي فيها "سون يو يوان" بمقابلة حماه المعروف بعلمه وحكمته.

جمع جماعة من القرويّيْن المال اللازم لبناء الجسر، ثمّ استدعوا جدّي ورفقاءه. حينها كان قد أصبح عاطلاً عن العمل، ويتضوّر جوعاً. فعائلة "سون" الحجّار التي كانت لا تبني سوى الجسور الكبيرة ذات القناطر، ها هي الآن، في عهد جدّي، بدأت تبني الجسور الحجرية الصغيرة. اختاروا مفترق طُرُق، لوضع أساس الجسر، إلا أنه كانت هناك شجرة كافور كبيرة، أعاقت عملهم. حينها طلب جدّي من رفقائه أن يقطعوا هذه الشجرة، لم يكن يعرف حينها أنها شجرة حماه المستقبلي.

هذا الشخص الذي سيكون حما جدّي في المستقبل هو الثريّ المعروف "ليو شين تشي"، بالطبع، لم يكن ليعرف أن زوج ابنته المستقبلي هو شخص فقير مُعدَم مثل جدّي. ذلك الرجل المتعلّم المثقّف الذي يهتمّ

للآخرين، يحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم، ما إن سمع أن أحدهم يريد أن يقطع شجرته حتّى استشاط غضباً، وكأن أحدهم يريد أن ينبشَ قبر أجداده. نسي تماماً حكمته ورصانته، وشرع يسبّ ويلعن أولئك الذين جاؤوا يتشاورون معه في أمر الشجرة بأقذع الألفاظ التي يستخدمها الفلاحون.

لم يجدْ "سون يو يوان" بُدّاً، فاضطرّ أن يُحوِّل مكان إرساء أساس الجسر بعيداً عن الشجرة، انتهى من عمله بعدها بثلاثة شهور. حينها طلب القرويون من السّيّد "ليو شين تشي" أن يُطلِق اسماً على هذا الجسر.

كان ذلك في ظهيرة أحد الأيّام، حيث قابل جدّي حماه. عندما سار السّيّد ذو القميص الحريري مُتمهِّلاً نحو الجسر، نظر إليه جدّي بذهول، فذلك الشخص الذي يسير مُستعرِضاً هيبته، بدا أكثر هيبة من مسؤول حزب الكومينتانغ في نَظَر جدّي. كان قد تذكّر هذا المشهد بعدها بعدّة سنوات، بينما كان ينام بجوار زوجته، فذلك الشخص الفاسد المَدعوّ "ليو شين تشي" قد جعل جدّي الغاضب "سون يو يوان" يُبدي إعجابه الشديد به.

سار والد جدّتي بهيئة المتعلّم المثقّف نحو الجسر، ثمّ تظاهر بالتّرفّع وعدم الاهتمام، وكأن الأمر لا يستحقّ منه معاناة المجيء، وهو يقول:

" دعوتمُوني كي أُطلق اسماً على جسر صغير بهذا الحجم!"!

قالها، ثمّ مضى ينفض رداءه غاضباً.

ظلّ جدّي يرتحل من مكان إلى مكان بحثاً عن عمل هو ورفقته. قاموا برحلة طويلة شاقّة، عانوا فيها من الجوع ونيران الحرب بين الكومينتانغ والشيوعيّيْن، ففي مثل هذه الأوقات العصيبة، لم يكن أحد ليدفع لهم

مالاً، كي يُبرِزوا مهارتهم في بناء الجسور. بدوا مثل جماعة من المتسوّلين يبحثون عن عمل. ظلّ جدّي مُحمَّلاً بطموحه في بناء الجسور، إلا أنه اصطدم بواقع ذلك العصر الذي يَهدِم، ولا يبني. لم تفقد هذه الجماعة حماستها، فكانوا يقومون بأيّ عمل، حتّى إنهم كانوا يغسلون الموتى، ويحفرون القبور، وإلا لماتوا من الجوع، وصاروا جثثاً مُلقاة في البرّيّة. في هذه الأيّام العصيبة، كان جدّي يصطحبهم معه، يسيرون على غير هدى، بلا أيّ أمل، لا أعرف بأيّ كلمات معسولة كان يُقنعهم بالبقاء بجواره. ظلّ الحال هكذا، إلى أن افترقوا للأبد حين تعرّضوا للقصف خطأ من قُوّات الكومينتانغ ظنّاً منهم أنهم تابعون لجنود الشيوعيّيْن.

حينها كان جدّي ورفاقه المشرّدون ينامون بجوار شاطئ النهر، لم يُصبْ جدّي بسوء مع أوّل قذيفة، بل حتّى كان بإمكانه النهوض من مكانه، حيث تساءل بصوت عالٍ مَن الذي يلهو بالألعاب النارية. ثمّ شاهد رفيقه الذي ينام بجانبه، وقد تحوّل جسده إلى أشلاء، وكأنه بيضة وقعت من ارتفاع، فانفجرت، لم يتمالك جدّي الذي كان في غمرة النعاس نفسه، وفرّ هاربا، ظلّ يجري بمحاذاة النهر وهو يصرخ، ولم يصمتْ إلا بعدما مرّت قذيفة من بين قَدَمَيْه. اعتقد جدّي أن القذيفة قد أصابت خصيَتَيْه. بالرغم من ذلك، فقد كان يجري بكل ما أُوتي من قُوّة، ظلّ يجري لبضعة عشر كيلو مترات دون أن يتوقّف، شعر بأن سرواله قد تبلّل، لم يكن يفكّر أنه ربمّا كان قد تبلّل بسبب العَرَق، بل كان يعتقد أن هناك دماء تسيل منه، حينها توقّف من فوره، ومَدّ يده يتحسّس سرواله، فإذ به يجد خصيَتَيْه سليمتَيْن. كان مذعوراً في البداية، ولم يطمئنّ إلا بعدما اكتشف أنه لم يُصبْ بسوء. بعدها جلس أسفل شجرة هناك، وظلّ يتحسّس خصيَتَيْه المُتعرِّقَتَيْن لبعض الوقت، وهو يضحك. بعدما اطمأنّ على نفسه تذكّر رفقاءه الذين تركهم عند شاطئ النهر، وخاصّة رفيقه الذي تحوّل جسده إلى أشلاء، ثمّ انخرط في البكاء.

بدا واضحاً أن جدّي لم يعد بإمكانه الاستمرار في مهنة أجداده، لم يزلْ في الخامسة والعشرين من عمره، إلا أنه عانى من الشعور بالإحباط نفسه الذي عانى منه والده العجوز عندما تقاعد، وعاد إلى بلدته. فقبل حلول عيد الربيع من ذلك العام، عاد جدّي الشّابّ إلى بلدته بوجه عابس مُكفَهرّ، كرجل عجوز طاعن في السّنّ.

أقعد المرضُ والدَ جدّي بعد عودته إلى بيته منذ أكثر من عام، وأنفقت زوجته مدّخراتها كلها، ولم تتمكّن من علاجه، ولذلك قامت برَهْن كل ما له قيمة في البيت. استمرّ الحال هكذا، إلى أن وقعت، هي الأخرى، فريسة للمرض. عندما عاد جدّي إلى بيته مُفلِساً، يرتدي ثياباً رثّة ليلة رأس السنة الجديدة، كان والده قد فارق الحياة، وكانت والدته ترقد على جنبها بجوار جثّته، تلتقط أنفاسها الأخيرة. والدة جدّي التي كانت تحتضر، ولم يكن بمقدورها أن تُعبّر عن فرحها بعودة ابنها إلا من خلال صوت الشهيق المتسارع. وهكذا فقد جلب جدّي معه الفقرَ عائداً إلى بيته الفقير.

كانت هذه أكثر اللحظات بؤساً في حياة جدّي الشّابّ، فلم يعد هناك في البيت ما يمكن رَهْنه، كما أنه لا يوجد مكان يذهب إليه للعمل، من أجل الحصول على بعض لوازم المعيشة بعد انقضاء العيد. ومن ثمّ، قام جدّي العاجز قليل الحيلة بحَمْل جثّة والده فجر هذا اليوم، وسار بها نحو المدينة وسط أزيز رياح الشتاء القارس. استسلم جدّي الشّابّ لأوهامه، وقرّر أن يرهنَ جثّة والده. لم يتوقّف عن الحديث إلى جثّة والده التي يحملها على كتفه مُعتذِراً ومُتأسِّفاً، وفي الوقت نفسه، كان يقدح زناد فكرة يبحث عن عذر، يسامح به نفسه على ما يفعله. كادت جثّة والد جدّي أن تتجمّد بعد تعرّضها للهواء البارد ليومَيْن مُتتاليَيْن في ذلك البيت الذي لا سقف له ولا نوافذ. بعد ذلك حُملت هذه الجثّة على كتف جدّي الذي سار

بها لمسافة خمسة عشر كيلو متراً وسط الرياح الباردة. وعندما وصل بها إلى مكتب الرَّهْن في المدينة كانت الجثّة قد تجمّدت تماماً حتّى صارت كقطعة من الجليد.

جثا جدّي على ركبَتَيْه أمام صاحب مكتب الرَّهْن والدموع تتساقط من عينَيْه، وهو يشرح له أنه ليس ابناً عاقّاً، وأنه لا حيلة أمامه فيما يفعل، حيث قال:

"لا مال لديّ لأدفنَ والدي، ووالدتي ترقد في البيت على شفا الموت، ولا مال لديّ أعالجها. هلا قمتَ بفعل الخير، وأعطيتَني بعض المال؟ سأعود إليكَ به بعد أيّام، لأستعيد جثّة والدي".

كان صاحب مكتب الرَّهْن عجوزاً ستّينيّاً، لم يكن قد سمع طيلة حياته عن شخص يرهن جثّة ميّت مقابل المال، حيث أشاح بوجهه بعيداً، وأشار بيده لجدّي رافضاً وهو يقول:

"لن أقبل بهذه الجثّة هنا، لن أقبل".

ظلّ جدّي يتوسّل إليه حتّى جاء ثلاثة رجال، ودفعوه بعيداً عن صاحب مكتب الرَّهْن. حينها سقطت جثّة والد جدّي على الأرض مثل اللوح الحجري. حينها هُرع جدّي يتفحّص جثّة والده، هل أصابها مكروه أم لا، وهو يشعر بالذنب الشديد. تلا ذلك قيامهم بسَكْب دلو من الماء البارد فوق رأس جدّي، حيث شرع العمّال هناك بتنظيف الطاولة التي اتّسخت من جثّة والد جدّي. حينها استشاط جدّي غاضباً، قام بِلَكْم أحد العمّال في أنفه لكمة شديدة، أسقطتْهُ على الأرض. ثمّ قام بقلب الطاولة أمام صاحب مكتب الرَّهْن، حينها أمسك بقية العمّال بهراواتهم، وانهالوا عليه ضَرْبَاً. لم يجد جدّي بُدّاً من أن يتفادى الضربات بجثّة والدة. في ذلك

الصباح البارد، تسبّب جدّي في تحويل مكتب الرَّهْن بأكمله إلى فوضى عارمة. كان حاملاً جثّة والده على كتفه، ولم يجرؤ أحد من العمّال على الاقتراب منه، وهو ما جعله في موقف القُوّة. وعندما هَمّ بمهاجمة صاحب المكتب، ارتطمت رأس الجثّة بالكرسي، فانتابتْه حالة من الذعر الشديد، صوت الارتطام جعل جدّي يُدرِك حينها حجم الذنب الذي يفعله بجثّة والده. شعر بالذهول للحظات، ثمّ فرّ هارباً، يجري وسط الهواء البارد حاملاً جثّة والده. ظلّ يبكي بحرقة، وهو يجري، ثمّ جلس أسفل إحدى الأشجار، يحتضن جثّة والده.

دَفَنَ جدّي والدَهُ، ولكنه لم يدفن فَقْرَهُ. فخلال الأيّام التالية، كان يطهو الأعشاب والحشائش الخضراء، ليُطعِمَ والدته. كان ينتقي الحشائش الخضراء التي تنمو بجوار الجدار، لم يكن يميّز المفيد منها من الضارّ، ومن ثمّ، فقد أصابه الذهول الشديد عندما شاهد والدته التي كانت على مشارف الموت، تقوم من فراشها، وتسير على قَدَمَيْها. فجأة لمعتْ في ذهنه فكرة، فقد اعتقد أنه عرف السبب في ذلك، وهو أن هؤلاء الذين يُطلق عليهم الأطبّاء المَهَرَة ليس لديهم أيّ علم أو مهارة، هم فقط يُطعِمون الأعشاب للمرضى، كما يُطعمون الحيوانات. ومن ثمّ، فقد تخلّى عن فكرة الذهاب للعمل في المدينة، وترك مهنته كحجّار، وقرّر أن يمارس الطّبّ، ويعالج المرضى.

كان يعرف أن عليه أن يذهب إلى المرضى بنفسه في بداية الأمر، وبعدما يذيع صيته، يمكنه أن يجلس في بيته، حيث يأتيه المرضي طالبين العلاج. حمل جوالاً من الأعشاب، وصار يجوب الشوارع، ينادي بصوت أشبه بصوت جامعي القمامة، وهو يقول:

"أعالج المرض بالأعشاب".

كان أسلوبه مثيراً للانتباه، إلا أن هيئته الرثّة لم تكن لتجعلَ الناس يثقون به. في نهاية الأمر، طلب منه أحدهم أن يُطبّب ابنه المريض، كان هذا هو أوّل مريض يفحصه جدّي في بداية ممارسته للطّبّ، والأخير أيضاً. المريض هو طفل صغير يعاني من الإسهال الشديد، نظر إليه "سون يو يوان" نظرة عابرة، لم يتحسّس نبضه أو معدته، فقط أخرج حزمة أعشاب من جواله، وأعطاها لوالدَي الطفل، وطلب منهم أن يطبخوها، ثمّ يُطعموه إيّاها. وبينما كان الوالدان ينظران بريبة إلى هذه الأعشاب، حمل "سون يو يوان" جواله مُغَادِراً البيت، ثمّ استمرّ ينادي:

"أعالج المرض بالأعشاب".

هُرع والدا الطفل خلفه، يسألاه عن سبب مغادرته، فردّ عليهم بثقة قائلاً:

"عندما يأكل الطفل أعشابي، آخذ المرض من جسده، وأغادر".

بعدما تناول هذا الطفل المسكين الأعشاب المطبوخة، توقّف عن الإسهال فوراً، ولكنْ، لم يمرّ يومان حتّى مات. وفي صباح أحد الأيّام، أُصيبت والدة جدّي بالهَلَع حين شاهدتْ بضعة عشر رجلاً قادمين نحو بيتها، والشَّرَر يتطاير من أعينهم.

لم يكن جدّي خائفاً البتّة، طلب من والدته التي بدا وجهها شاحباً من شدّة الخوف أن تدخل إلى غرفتها، ثمّ أغلق الباب، ورحّب بهم، وهو يتسم. كان أهل الطفل الميّت قد جاؤوا ليقتصّوا منه، إلا أنه كان يعتقد أن بإمكانه خداعهم وإقناعهم بالعودة. إلا أنهم لم يستمعوا إلى حديثه الفارغ من الأساس، بل هجموا عليه، وأحاطوا به، وهم يُلوِّحون بمناجلهم اللامعة نحو رأسه. لم يُبدِ جدّي الذي قد عاش تجربة القصف بقذائف جيش الكومينتانغ أيَّ خوف، ثمّ تحدّث إليهم مَزهُوّاً بنفسه قائلاً:

"أنتم بضعة عشر رجلاً، حتّى لو تضاعف عددكم مرّات ومرّات، فبمقدوري أن أُوسعَكُم ضَرْباً".

أصابهم حديث جدّي الذي كان يواجه الموت أسفل ضربات مناجلهم بتلك الطريقة المجنونة بالدَّهْشة والحَيْرَة. ثمّ قام بفَكّ أزرار قميصه، وقال:

"اتركوني أخلع ملابسي أوّلاً، ثمّ نبدأ معركتنا".

انتهى من كلامه، ثمّ التقط مِنْجَله، وسار نحو باب الغرفة، رَكَلَ البابَ بقَدَمه، ودَلَفَ إلى الداخل، وكأنه لا يبالي. ما إن دخل إلى الغرفة حتّى اختفى، وكأنه حجر غاص في قاع البحر بلا أثر. ظلّ أهل الطفل الميّت ينتظرون في الخارج مستعدّين للقتال، إلا أنه لم يظهر، لم يكونوا يعرفون أنه قد قفز من النافذة، وفرّ هارباً. طال بهم الانتظار دون أن يظهر له أثر، حينها شعروا أن هناك خطباً ما. رَكَلُوا الباب بأقدامهم، فإذا بهم يجدون الغرفة خالية تماماً. بعدها شاهدوا جدّي يحمل والدته على ظهره، وقد فرّ بعيداً. كان هروب جدّي بهذه الطريقة دليلاً على أنه شجاع حكيم، وليس قروياً أحمق.

لم يتوقّف جدّي عن الرَّكْض بعدما حمل والدته على ظهره، وفرّ هارباً. كان أشبه بجدّتي التي شقّت طريقها وسط حشود الفارّين، وكانت تسمع بوضوح أصوات قَصْف مدافع اليابانيّيْن من خلفها. يُعدّ جدّي ابناً باراً، فلم يكن يتحمّل أن يُشاهِد والدته تسير على تلك الطريق بقَدَمها الملتوية، ولذلك فقد حَمَلَهَا على ظهره طَوَالَ الطريق، كان العَرَق يتصبّب منه فوق تلك الطريق الترابية، وهو يركض في طريقه وسط حشود البشر على غير هدى. في الليلة التالية، قرّر "سون يو سوان" أن يترك والدته أسفل شجرة جافّة، وذهب بعيداً يبحث عن الماء، فلم يعد هناك ضرورة لأن يحمل والدته على ظهره. ما إن اضطجعت بجسدها أسفل الشجرة حتّى انخرطت

جدّتي الضعيفة المتعَبة في النوم. في تلك الليلة المُقْمِرَة، هاجم كلب برّيّ والدة جدّي، وأكلها. عندما كُنتُ طفلاً، لم يكن بقدوري التّخلّص من هذا الكابوس، شخص نائم يُؤكَل بواسطة كلب مفترس! يا له من مشهد مرعب! بعدما عاد جدّي إلى هناك حيث ترك والدته، شاهد الكلب الذي كان ينهش في جسدها، ينظر إليه، ويلعق أنفه بلسانه الطويل. أخذ "سون يو يوان" يصرخ كالمجنون من هَوْل ما شاهده، نسي جدّي حينها أنه بشر، لم يتمالك نفسه وهو يفتح فمه كالحيوانات المفترسة، ثمّ انقض على ذلك الكلب، انتابت الكلب موجة من الذعر، بسبب صرخات جدّي، ومن ثمّ، فرّ هارباً. ظلّ "سون يو يوان" الذي فَقَدَ عقله حينها يطارد الكلب وهو يصرخ، أثّر صراخه على سرعته، فلم يتمكّن من اللحاق بالكلب الذي اختفى بلا أثر، ولم يكن بمقدوره سوى العودة إلى جثّة والدته، وهو يبكي. جثا على ركبَتَيْه أمام الجثّة، وأخذ يلطم على وجهه، بينما كان صوت صراخه جعل تلك الليلة تبدو قاتمة مخيفة.

بعدما دفنها، اختفت هالة الثقة التي ظلّت تعلو وجهة لفترة طويلة. سار حزيناً مع التّيّار في طريق الهروب من الموت، فقد جعل موت والدته من هروبه من بلا معنى. ولذلك فعندما قابل جدّتي للمرّة الأولى أمام أطلال أحد الأسوار، شعر وكأن تيّاراً من الماء يسري بداخله. كانت آثار النُّبْل والثراء قد اختفت من على وجه جدّتي تماماً في تلك الأثناء، كانت تجلس بملابس مُهَلْهَلَة على الحشائش الخشنة، وعيناها الشاردتان المختفيتان خلف شَعْرها المنكوش تتطلّعان إلى وجه جدّي البائس. لم تلبث تلك المرأة التي شارفت على الموت جوعاً أن صارت محمولة على كتف جدّي. وهكذا وجد الشّابّ "سون يو يوان" لنفسه امرأة يتزوّجها، ولن يعيش حياة التّشرّد بعد اليوم. عندما كان "سون يو يوان" الذي عاش حياة الفقر والجوع لفترة طويلة، يحمل جدّتي على ظهره عائداً إلى بيته، بدا وجهه الشّابّ لامعاً مُتورِّداً.

شمعة في مهبّ الريح

بعد ذلك، تذكّرتُ فجأة أحد أعمامي. هذا الرجل الغريب تماماً بالنسبة إليّ يعمل في بلدة صغيرة، عمله هو أن يفتح أفواه الناس، ويقتلع أسنانهم. يقال إنّه يحتلّ إحدى نواصي الشوارع، برفقة جزّار وإسكافي. توارث عمّي مهنة الطّبّ الزائفة التي سبق أن مارسها جدّي لبعض البعض، إلا أن استمراره فيها يدلّ على أن مهارته في الطّبّ تختلف عن تلك الفوضى التي كان جدّي يمارسها. كان ينصب مِظلّته القُماشية العريضة، ويجلس هناك في مواجهة الشارع الصاخب، وكأنه يصطاد السمك. ما إن يرتدي معطفه الأبيض المتّسخ حتّى يشرع في تقمّص دور الطبيب. يضع فوق منضدته المربّعة عدداً من الكمّاشات الصدئة، وعشرات من الأسنان التي لم يجفّ الدم من عليها. هذه الأسنان هي دليل قويّ على براعته، يُظهِر من خلالها مدى مهارته وحِرْفته، ليَجْذِبَ بها الزبائن الذين يعانون من مشاكل في أسنانهم.

في صباح أحد الأيّام، شعر أخي الأكبر بالذهول حينما شاهد جدّي يمرّ أمامنا في صمت حاملاً صُرَّة ملابسه على ظهره وشَمْسِيّة قديمة في يده. لم يتحدّث مع أيٍّ من والدَيّ عند مغادرته، كما أن والدَيّ لم يبدُ عليهما أيّ تغيير، وقف أخي الأكبر على حافّة النافذة الخلفية، وشاهد جدّي وهو يغادر ببطء. بعدها أخبرتْنا أمّي قائلة:

"لقد ذهب إلى بيت عمّكما".

كان جدّي في أواخر أيّامه أشبه بكرسيّ قديم مُهْمَل، ينتظر أن تشتعل فيه النار بصمت. في اليوم الذي حلّت فيه المصيبة، كان أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" قد حصل قبلي على حقيبة كُتُب، بوصفه أكبر منّي سنّاً. لا تزال هذه لحظة لامعة وسط ذكريات طفولتي، ففي الليلة التي سبقت التحاق أخي الأكبر بالدراسة، كان والدي "سون قوانغ تساي" يجلس على عتبة البيت مَزهوّاً بنفسه، وهو يعلّم أخي الأكبر كيف يتصرّف في حال تشاجر معه الصِّبْيَة في المدينة، وهو يقول:

"لو تعرّض لكَ واحد، اضربْهُ، ولو تعرّض لكَ اثنان، اهربْ بسرعة".

كان أخي الأكبر ينظر إلى والدي ببلاهة، فقد كانت هذه أكثر أوقات إعجابه به. كان إنصات أخي الأكبر وصمته قد جعلا من والدي يستمرّ في حديثه دون كلل أو ملل، وكأنه لا يشعر أن ما يقوله كلام فارغ.

والدي ذلك القروي الذكي، يتعلّم الأشياء الجديدة كلها بسرعة. فعندما حمل أخي الأكبر حقيبته على ظهره، وسار نحو المدينة متّجهاً لمدرسته، وقف والدي هناك عند مدخل القرية، يعطيه النصائح الأخيرة. أخذ ذلك الرجل الكبير يقلّد لهجة إحدى الشخصيات الشّرّيرة التي تظهر في الأفلام، بشكل مثير للسخرية، حيث صاح قائلاً:

"كلمة السّرّ".

كان أخي الأكبر يتمتّع بقدرة فطرية غير طبيعية على الإيجاز، فعندما استدار ذلك الطفل ذو الأعوام الثمانية بظهره، ليجيب والده، لم يُكرّر كلام والده له بالأمس بشكل معقّد، بل ردّ عليه ببساطة قائلاً:

"لو واحد، سأضربه، لو اثنان، سأهرب".

على جانب آخر من هذا المشهد المعبّر عن الفرح، حمل جدّي الطاعن في السّنّ حبلاً، وسار بجواري صامتاً مُتوجّهاً نحو التّلّة للاحتطاب. في تلك الأثناء، بدا منظر جدّي "سون يو يوان" من الخلف ضخماً قوياً في نظري، كُنتُ أجلس على الطين، أشاهد قَدَمَيْه القويَّتَيْن تُثيران الغبار وهو يسير، حتّى صار وجهي مغبراً بالتراب. وهو ما جعل غِبْطَتي لأخي حينها تتحوّل إلى بقعة من الغبار الرمادي.

كانت محنة جدّي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بفرحة أخي الأكبر. ففي ذلك اليوم قبل أكثر من عشرين عاماً، عندما كُنتُ ألهو أنا وأخي الأصغر بالحَلَزُون عند البركة، كان أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" الذي عاد للمرّة الأولى من مدرسته في المدينة قد تعلّم كيف يتباهى بنفسه. لن أنسى أبداً منظره وهو يمشي مختالاً عندما عاد حاملاً حقيبته. علّق حقيبته على ظهره، ووضع يَدَيْه في جَيْبَيْه، وسار بخطى أشبه بخطى المُعلِّمين في المدرسة. ثمّ جلس بجوار البركة، وأخرج كُتُبه، وأخذ يطالعها أسفل أشعّة الشمس. كُنّا ننظر إليه مشدوهَيْن أنا وأخي الأصغر، وكأننا جروَان جائعان، ننظر إلى عَظْمَة تطير في الهواء.

حينها شاهدتُ والدي يحمل جدّي ذا الوجه المُتْرِب، ويركض مسرعاً. بدا والدي حينها غاضباً بشدّة، وضع جدّي على الفراش، ثمّ وقف أمام البيت يُحدِّث نفسه قائلاً:

"أخشى ما أخشاه هو أن يُصاب أحد من أهل البيت بالمرض، وها قد وقع ما كُنتُ أخشاه، ستكون الخسارة كبيرة جدًّا، سيكون هناك شخص عالة على البقية، يأكل دون عمل".

رقد جدّي في فراشه لمدّة شهر، وبالرغم من أنه كان يستطيع السير

بعدها، إلا أنه بعد سقوطه من على التّلّة صار ظهره مُتيبّساً. جدّي "سون يو يوان" الذي فَقَدَ القدرة على العمل كان ينظر إلى أهل القرية بابتسامة أكثر خجلاً من تلك التي ارتسمت على وجهه عندما ماتت جدّتي. لا زلتُ أتذكّر ملامح وجهه المرتجفة، وهو يقول للناس:

"لا أستطيع أن أحني ظهري".

كان صوته مملوءاً بالنقد ولوم الذات. فذلك المرض المفاجِئ قد غيّر من مصيره، حيث تحوّل إلى عالة على عائلته، يأكل دون عمل. فقبل أن أغادر قرية الباب الجنوبي بأقلّ من عام، تحوّل هذا العجوز القوي بسرعة كبيرة إلى شخص نحيل شاحب الوجه. بدا واضحاً بشدّة أن وجوده يُشكِّل عبئاً كبيراً، ومن ثمّ، بدأ ابناه يتناوبان رعايته. حينها فقط عرفت أن لديّ عمّاً. أقام جدّي في بيتنا لمدّة شهر، ثمّ خرج وحيداً، وسار على تلك الطريق الصغيرة المؤدّية إلى المدينة. بعد وصوله إلى المدينة، كان عليه أن يركب مركباً، لمسافة ما حتّى يصلَ عند جدّي. وبعدها بشهر، كان ظلّه المتعثّر دائماً ما يظهر على تلك الطريق وقت الغروب عائداً إلى القرية.

عندما عاد جدّي إلى البيت، هُرعنا نحوه أنا وأخي الأكبر فرحَيْن، أمّا أخي الأصغر، فكان يقف هناك عند مدخل القرية غير مُكترِث. بدا جدّي الأكبر حينها حزيناً مهموماً، وكانت يداه ترتعشان وهو يتحسّس رؤوسنا. في الحقيقة أننا كُنّا نجري نحو جدّي ليس فرحاً بعودته، بل كانت منافسة بيني وبين أخي الأكبر. فالشَّمْسِيّة التي كان جدّي يمسكها بيده وصُرَّة الملابس التي يحملها على ظهره كانتا هما سبب تنافُسنا، مَنْ يستطيع أن يخطفْ الشَّمْسِيّة من يد جدّي أوّلاً يكون هو الفائز. أتذكّر أن أخي الأكبر كان قد نجح في اختطاف الشَّمْسِيّة وصُرَّة الملابس مرّة واحدة، فكان يمشي بجوار

جدّي مَزهوّاً، أمّا أنا، فكُنتُ أسير وحدي حزيناً. صرتُ أُحدِّث جدّي عن عجرفة أخي الأكبر طَوَالَ هذه الطريق القصيرة، حيث قُلتُ له باكياً:

"لقد أخذ صُرَّة الملابس، ولم يكتفِ بالشَّمْسيّة فقط".

لم يفصل جدّي بيننا بالعدل، كما كُنتُ آمل، بل كان حزيناً، لأنه أساء فَهْمنا، فقد كان يعتقد أننا نجري نحوه سعيدَيْن بعودته. لا زلتُ أتذكّر منظره وهو يرفع يده لمَسْح الدموع من على وجنَتَيْه. كان أخي الأصغر ذو الأربع أعوام طفلاً انتهازياً، فما إن شاهد جدّي وهو يبكي حتّى هُرع نحو البيت، وأخبر والدي بما شاهده، حيث قال له:

"جدّي يبكي".

بالطبع، كان يفعل ذلك بدافع الانتقام، لأنه كان خالي الوفاض مثلي تماماً.

كان الذّلّ الذي يعانيه جدّي داخل البيت قبل مغادرتي أمر لا يُطاق، بالنسبة إليّ. وحسب ما أتذكّر الآن، فقد كان والدي دائم الغضب خلال ذلك الشهر الذي عاد فيه جدّي إلى بيتنا. لم أكن أعرف أسباب غضبه إلا عندما كُنتُ أراه يشير بيده بوضوح نحو جدّي، ثمّ ينفجر بالسباب والشتائم. كُنتُ أنظر إلى والدي مُرتعِباً، فقد كُنتُ أخشى أن يستمرّ في ثورته، ويركلني بقَدَمه. يمكنني القول إنّ والدي الذي عرفتُهُ في طفولتي كان شخصاً غامضاً، يصعب التّنبّؤ بتصرّفاته.

جدّي الهادئ المطيع، كان دائماً ما يبحث عن وسيله يجعل نفسه بها بعيداً عن الأنظار. كان دائم الانزواء في إحدى الزوايا، يقضي بصمت أيّامه المتبقّية. إلا أنه كان يظهر بسرعة خاطفة وقت الطعام بشكل كان يخيفني

أنا وإخوتي. حينها كان أخي الأصغر يجد الفرصة، ليُعبِّر عن نفسه، فكان يضع يده على صدره تعبيراً عن الخوف.

لا يزال خوف جدّي الشديد في تلك الأوقات عالقاً في ذاكرتي. ذات مرّة سقط أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" على الأرض وهو يبحث عن جدّي، أخذ هذا الطفل الذي يسير بالكاد يبكي بكاء شديداً، ثمّ شرع يشتم ويسبّ بألفاظ غير مفهومة، وكأن أحدا ما أسقطه. بالرغم من أنه كان يحاول جاهداً أن يشتمَ بكلام مفهوم إلا أن ما سمعتُهُ منه كان أشبه بنُباح الكلاب. أُصيب جدّي حينها بالخوف الشديد، فقد كان يخشى أن يترامى صوت بكائه إلى مسامع والدي في الحقل. فوالدي "سون قوانغ تساي" لم يكن ليترك فرصة واحدة لكي ينفجر فيه غاضباً. حينها شاهدتُ نظرات الخوف من وقوع الكارثة تطلّ من عين جدّي.

بعدما أصيب جدّي في ظهره، صار نادراً ما يحكي لنا عن جدّتي. اعتاد أن يجلس وحيداً يتذكر أيّامه الخوالي معها. وحقيقة الأمر أنه لم يكن هناك شخص سواه يستطيع أن يتذوّق طَعْم تلك الأيّام.

دائماً ما كان يجلس على كرسيّه يتذكّر تلك الفتاة الشّابّة الجميلة سليلة الأسرة الغنية. كانت حركات تجاعيد وجهه الذي لم يعد يرى الشمس تنبض بالحياة بشكل غير طبيعي. وعادة ما كُنتُ أختلس النَّظَر إلى ابتسامته التي تتمايل على وجهه مثل العشب الأخضر، هذه الابتسامة التي لا تزال تُحرِّك مشاعري حتّى الآن. في إحدى المرّات، دُهشتُ بشدّة عندما اكتشفتُ أن الشخص المنعزل بإمكانه الضحك، أخبرتُ أخي الأكبر الذي كان يلهو بجوار النهر بما رأيتُهُ، ترك ما في يده، وهرول مسرعاً نحو البيت، كانت ردّة فعله قد برهنت لي أن دهشتي كانت في محلّها. ركضتُ خلفه نحو البيت، ووقفْنا أمام جدّي، كانت

ابتسامته لا تزال مرسومة على وجهه، وتتمايل على نحو غريب. كان أخي الأكبر ذو الأعوام الثمانية يتمتّع بشجاعة تفوق الوصف، سمعتُهُ يصرخ بصوت عالٍ، تسبّب في إيقاظ جدّي من حُلْم اليقظة العاطفي الذي يدور في مخيّلته. ارتجف وكأنه أُصيب بصدمة بَرْق، ثمّ اختفتْ ابتسامته، وأطلّ من عينَيْه بريق من الذعر. بعدها سمعتُ أخي الأكبر يتحدّث بصوته الطفولي المغلّف بالصرامة، ويقول لجدّي:

"كيف لشخص يجلس وحيداً أن يضحك؟ المجانين فقط هم مَنْ يفعلون ذلك".

ثمّ أشار له بإصبعه، وقال له:

"لا تفعلْ ذلك مجدّداً، هل فهمتَ"؟

طأطأ جدّي برأسه حزيناً معبّراً عن موافقته.

حاول جدّي "سون يو يوان" كسب ودّ مَنْ في البيت جميعهم في أواخر أيّامه، ولكنه لم يكن قادراً على كَسْب احترامنا. لفترة من الوقت، كُنتُ أعاني من تناقض نفسي، فقد كُنتُ أُشجّع نفسي أن أُقلّد سطوة أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ" في معاملته لجدّي، فكوني طفلاً صغيراً يعطي الأوامر للكبار هو أمر في غاية الإثارة. إلا أنني كُنتُ دائم الضعف أمام نظرات جدّي العطوفة، فعندما كُنتُ أنظر في عينَيْه، كانت نظراته الحنونة تجعلني غير قادر على إظهار قُوّتي المزيّفة أمامه. فلم يكن بإمكاني سوى أن أخفض رأسي مُغَادِراً الغرفة، وأذهب ساعياً في إثر أخي الأكبر "سون قوانغ بينغ".

بعدما قام جدّي باتّهام أخي الأصغر زُوراً، تخلّيتُ تماماً عن فكرة

إظهار قُوّتي أمامه. ومنذ ذلك الحين، كُنتُ دائماً ما أشعر أن جدّي رجل غريب الأطوار.

كان الأمر في غاية البساطة، خرج جدّي من زاويته، وسار نحو الغرفة، ودون قَصْد، أسقط سُلْطَانِيّة كانت على طرف الطاولة أرضاً. كُنتُ واقفاً حينها غير بعيد منه، شاهدتُهُ خائفاً بشدّة، حيث وقف لفترة طويلة يُحدِّق في تلك السُّلْطَانِيّة التي تهشّمتْ تماماً. عندما أتذكّر هذا المشهد الآن أشعر وكأنه ظلّ قد تلاشى. إلا أنني لا زلتُ أتذكّر تلك الأصوات التي كان يهمس بها من شدّة الخوف، وحتّى اليوم لم أسمع أحداً يهمس بهذه السرعة.

لم ينظّف جدّي سون يو يوان قِطعَ السُّلْطَانِيّة المكسورة كما كُنتُ أعتقد. حينها كُنتُ في السادسة من عمري، هذه السّنّ جعلتني أتنبّأ أن أمراً سيّئاً سيحدث. هذا الأمر السَّيِّئ بالتأكيد له علاقة بوالدي الذي سيعود إلى البيت حالاً. لم أكن أعرف حقيقة أن صوت زئير والدي هذه المرّة سيكون مخيفاً إلى هذا الحدّ، كان والدي المفعَم بالقُوّة والنشاط يُلوّح بقبضته بهدوء وسلاسة تماماً، كما كانت والدتي تُلوِّح بوشاحها. وقفتُ هناك أشاهد جدّي، وهو يغادر عائداً إلى زاويته، لم يحاول إخفاء غلطته بأيّ شكل، بل جلس هادئاً مُطمئنّاً هناك. انتابني الشّكّ حيال هدوئه وطمأنينته، استغرقتُ في النَّظَر إلى قِطَع السُّلْطَانِيّة المكسورة تارة، وإلى وجه جدّي الهادئ تارة أخرى، لا أدري ماذا أفعل، ثمّ انطلقتُ هارباً، وكأنني شاهدتُ ثعباناً.

تماماً كما توقّعتُ، فقد بالغ والدي في غضبه تجاه هذه الخسارة. بدا الأمر وكأن والدي كان يتمنّى أن تنكسر هذه السُّلْطَانِيّة حتّى يجدَ لنفسه مبرّراً أن يكيلَ لجدّي السباب واللعنات. ظلّ والدي "سون قوانغ تساي"

يصرخ كالطفل الصغير بوجه ممتقع من شدّة الغضب، كانت صرخاته أشبه بالعاصفة التي تهبّ نحوي أنا وإخوتي الثلاثة، فتهزّ أجسادنا. وعندما نظرتُ بعينَيّ الخائفَتَيْن إلى جدّي "سون يو يوان"، فوجئتُ به يهبّ واقفاً، يقول لوالدي:

"سون قوانغ مينغ هو مَنْ فعل ذلك".

حينها كان أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" يقف بجواري، هذا الطفل ذو السنوات الأربع لم يهتمّ بما قاله جدّي، فقد كان مصدر علامات الرعب التي ارتسمت على وجهه بعدها هو نظرات والدي "سون قوانغ تساي" الغاضبة، سأله والدي بحنق:

"هل أنتَ مَنْ فعل هذا؟".

وقف أخي الأصغر فاغراً فمه غير قادر على الكلام، فقد أصابه الغضب الذي كان يشعّ من وجه أبي بالرعب الشديد، لم يردّ على والدي إلا حينما اقترب منه، وسأله ثانية بغضب، فسمعتُهُ يقول:

"لستُ أنا".

كان نطق أخي الأصغر غير واضح، ظلّ كذلك إلى أن مات، فكان دائماً يُغَمْغِمُ ويَتَلَعْثَمُ في حديثه.

جعلتْ إجابة أخي الأصغر والدي يستشيط غضباً، فصرخ بصوت عالٍ، وقال:

"إن لم يكن أنتَ مَنْ فعل هذا، فكيف سقطت السُّلْطَانِيّة، إذنْ"؟

في مواجهة غضب والدي، لم يكن بوسع أخي الأصغر سوى أن يهزّ

رأسه نافياً، فهو لا يزال طفلاً صغيراً، يعرف فقط كيف يجيب بالإيجاب أو النفي، ولا يعرف كيف يدافع عن نفسه، أو يذكر أسباباً. ما زاد الطين بَلَّةً، هو أن أخي الأصغر شاهد حينها عصفوراً يقف خارج النافذة، فركض نحوه، حينها لم يتمالك والدي نفسَه من شدّة الغضب، فنادى عليه صارخاً:

"يا ابن اللعينة، عدْ إلى هنا".

بالرغم من أن أخي الأصغر كان يعرف الخوف، إلا أنه لم يكن يعرف مدى خطورة ما يحدث. ركض عائداً إلى الغرفة، وحدّق في والده، وهو يشير إلى الخارج قائلاً:

"هناك عصفور في الخارج".

شاهدتُ كَفَّ والدي العريضة تهوي على وجه أخي الأصغر الغَضّ، ثمّ ارتمى بجسده على الأرض. ظلّ مُلقى على الأرض صامتاً لفترة طويلة. في مواجهة ثورة غضب والدي، كانت أمّي هي الأخرى خائفة مثلي، إلا أنها هُرعت حينها نحو طفلها، حينها فقط اشتعل أخي الصغر بالبكاء. بدا وكأنه لا يعرف لماذا تعرّض للضرب، وعندما انخرط في البكاء، لم يكن يعرف أيضاً لماذا يبكي.

هدأت ثورة والدي قليلاً، ثمّ خبط بيده على المنضدة، وصاح قائلاً:

"ابكِ على أمّكَ".

قالها، ثمّ انصرف مُغَادِراً، ففي مواجهة غضبه وبكاء ابنه الأصغر، اختار أن يتغاضى عن الأمر. وبينما كان يسير مُغَادِراً ظلّ يُتَمْتِمُ:

"عائلة من المبذّرين، أنا أرعى عائلة من المبذّرين، الكبير فيهم ظهره

يؤلمه، لا يستطيع المشي، والصغير فيهم في الرابعة من عمره، ويَتَلَعْثَمُ في حديثه، جميعهم، بلا استثناء، إمّا سيِّئ، وإمّا أسوأ".

ثمّ تبعها بعبارة مملوءة بالحسرة، وقال:

"يا لها من عيشة مُرّة".

بالنسبة إليّ، حدث هذا كله بسرعة خاطفة، فلم أكن قد أفقتُ من دهشتي، حتّى كان والدي قد خرج من البيت. ظلّ جدّي واقفاً مكانه، بينما كُنتُ أنظر إليه نظرة مملوءة بالكره والبُغض. حينها لم أتحدّث وأدافع عن أخي الأصغر، ربّما كُنتُ مشوّشاً حينها، طفل في السادسة يفتقر إلى رَدّ الفعل السريع. بعدها ظلّ الشعور بالذنب يُلازِمني تجاه صمتي. كُنتُ أودّ لو فضحتُ جدّي، وكشفتُ كذبه، إلا أنني لم أفعلْ. ذات مرّة، سرتُ نحو جدّي وحيداً، كان جدّي يجلس في زاويته، نظر إليّ نظرة استعطاف، نظرتُهُ تلك جعلتْني أشعر بالرجفة، إلا أنني تماسكتُ نفسي، وقُلتُ له بجرأة:

"أنتَ مَنْ كَسَرَ السُّلْطَانِيّة".

هزّ جدّي رأسه نافياً، ثمّ ابتسم. كانت ابتسامته أشبه بلكمة قوية، حاولتُ جاهداً ألا أهرب من هذه اللكمة، فصحتُ فيه بصوتٍ عالٍ، يغطّي الخوف والرجفة بداخلي:

"أنتَ مَنْ فعل ذلك".

لم يرضخ جدّي لصوتي الناطق بالحقيقة، ثمّ قال لي بهدوء:

"لستُ أنا".

كانت ثقة جدّي التي لا تتزعزع بنفسه قد جعلتْني أشكّ في نفسي.

وعندما تملّكتْني الحَيْرَة من هذا الموقف، ابتسم لي ثانية الابتسامة نفسها، حينها فَقَدْتُ شجاعتي، ثمّ خرجتُ مُغَادِراً الغرفة.

مرّت الأيّام تباعاً، وشعرتُ أنّ الكشف عن سرّ جدّي صار أكثر صعوبة بمرور الوقت. وفي الوقت نفسه، انتابني شعور غامض بالخوف من جدّي، كان جسدي يرتجف عندما كُنتُ أعود إلى البيت، لأُحضر شيئاً ما، وأشاهده يجلس هناك في الزاوية.

جدّي الذي كان مُفعَماً بالحيوية في شبابه، صار اليوم عجوزاً جباناً، يعيش كالإمّعَة. بالطبع كلّما فترتْ قُوّته الجسدية، زادت قُوّة تفكيره. برهن العجوز "سون يو يوان" الذي يقضي أواخر أيّامه ثانية على مدى ذكائه في فترة شبابه.

كان والدي يحب أن يُعنِّفَ جدّي في أثناء تناوُل الطعام. ففي مثل تلك الأوقات، لم يكن والدي يرغب في مشاهدة نفسه وهو يعاني من الخسارة. وفي مواجهة تعنيف والدي، كان جدّي يخفض رأسه، بينما ترتسم على وجهه ملامح الخوف، إلا أن ذلك لم يكن يُؤثّر على سرعة تناوُله للطعام، فسرعته في التقاط الطعام وبَلْعه كانت، بحقّ، مثيرة للدَّهْشة. كان يصمّ أذنَيْه عن تعنيف والدي له، أو يجعل من هذا التعنيف، وكأنه طعام شهيّ. لا يتوقّف عن الأكل إلا عندما يأخذ والدي الطعام من أمامه. حينها كان يجلس أمام الطاولة خفيض الرأس، ينظر إلى الطعام المتبقّي هناك.

بعد ذلك، كان والدي يترك جدّي يجلس على كرسيّ صغير، في أثناء تناول الطعام، بحيث كان جدّي يستطيع رؤية الأواني أعلى المنضدة، ولا يستطيع رؤية ما بداخلها. حدث ذلك بعدما غادرتُ قرية الباب الجنوبي. فجدّي المسكين كان يكتفي بالجلوس هناك مستنداً بذقنه على الطاولة،

يشاهدهم وهم يغرفون الطعام. أخي الأصغر كان يعاني المشكلة نفسها نظراً لقصر قامته، إلا أن والدتي كانت تساعده. أخي الأصغر "سون قوانغ مينغ" كان مُحبّاً للادّعاء وإظهار النَّفْس، ومن ثمّ، فقد كان يقف على كرسيّه، ليتحرّر من مساعدة والدتي، إلا أن هذا الطفل الأخرق تلقّى عقاباً شديداً على فِعْلته هذه. لم يُبدِ والدي حينها أيّ رحمة تجاهه، قام والدي مكانه، ثمّ قام بِلَكْم أخي الأصغر ورَفْسه، وقال بلهجة الديكتاتور المتجبّر:

"مَنْ يأكل واقفاً مرّة ثانية، سوف أكسر قَدَمَهُ".

جدّي الذكيّ فطن إلى المغزى الحقيقي لكلام والدي، فهذا العقاب القاسي لأخي الأصغر هو في الأساس مفتعَل لإخافة جدّي. لذلك جلس جدّي مستقرّاً على كرسيّه متقبّلاً حُكْم ابنه الجائر بصدر رَحْب، كان مظهره وهو يرفع رأسه، ويمدّ يده بصعوبة، ليلتقط الطعام قد جعل والدي يشعر بالرضا.

إلا أن جدّي كان أشبه بفأر، يحفر أسفل السّدّ، فقد كان يعمل في الخفاء لمجابهة ابنه. فمثلما ألقى بالتهمة على أخي الأصغر عندما كسر السُّلْطَانِيّة، ها هو يستغلّ ذلك الطفل الصغير مرّة ثانية. فأخي الأصغر كان مثله مثل جدّي يحمل حقداً تجاه هذه الطاولة المرتفعة. إلا أن أخي الأصغر لم يكن يشعر بهذا الحقد إلا وقت تناول الطعام، وفي بقيّة الأوقات، كان يلهو هنا وهناك مثل الأرنب الصغير. ذلك الجدّ الذي كان دائم الجلوس في زاويته، كان لديه الوقت الكافي للتفكير في كيفية التّغلّب على مشاكله في البيت.

خلال تلك الأيّام، ما إن كان أخي الأصغر يقترب منه حتّى يقول له بشيء من الغموض:

"المنضدة عالية جدًّاً".

ظلّ جدّي يُردّد عبارته تلك كثيراً، وهو ما جعل أخي الأصغر يقف ذات مرّة بين جدّي والمنضدة، ويتبادل النَّظَر مرّات ومرّات بين جدّي والمنضدة. كانت لمعان عينَيْه قد جعل جدّي يعرف أن هذا الصغير قد فهم ما يعنيه.

أخذ جدّي المطّلع على مكنون قلب ذلك الطفل الصغير يسعل حينها بشدّة، لا أعرف لماذا كان يفعل ذلك، فقد كان يتحلّى بالصبر الكافي للانتظار حتّى يتّخذ أخي الأصغر قراره.

بخلاف كونه يَتَلَعْثَمُ في الكلام، يُعدّ أخي الأصغر ذكياً ماهراً. فقد خُلِطَ ذكاؤه مع رغبته كطفل في التخريب، وفكّر في طريقة، يحلّ بها مشكلة ارتفاع الطاولة، حيث قال لجدّي مَزهوّاً بنفسه:

"سأقطعُها بالمنشار".

حينها شعر جدّي بالدَّهْشة الشديدة، ولكن دهشته كانت مختلطة بالموافقة، وقد شجّع هذا بلا شكّ أخي الأصغر على تنفيذ فكرته. كان أخي مَزهوّاً بشدّة بذكائه وهو يقول لجدّي:

"سأقطع أرجل هذه المنضدة".

حينها هز جدّي رأسه مُعترِضاً، وهو يقول:

"لن تستطيعَ أن تقطَعَها".

أخي الصغير الأحمق لم يكن يدري أنه على وشك الوقوع في الفخّ، أغضبتْهُ نظرة استخفاف جدّي له، فقال له بصوت عالٍ:

"أنا قويّ بما يكفي".

شعر أن صوته العالي غير كافٍ ليبرهن لجدّي على قُوّته، فنزل من فوره أسفل الطاولة، وحملها بعد عناء كبير، ثمّ سار بها خطوَتَيْن، وخرج بعدها ليقول لجدّي بثقة:

"لدي قُوّة هائلة".

استمرّ جدّي يهزّ رأسه مُعبِّراً عن عدم الرفض، أراد من الطفل أن يعرف أن قُوّة اليد تختلف عن قُوّة الجسد، وأنه لن يتمكّن من قَطْع أرجل الطاولة بالمنشار.

ذلك الشّك الذي أظهره جدّي تجاه قُوّة أخي الأصغر، جعل أخي الأصغر مضطرّاً إلى أن يبرهن على قُوّته بالفعل، وليس بالقول. خرج غاضباً من البيت في عصر ذلك اليوم، وذهب إلى بيت أحد النّجّارين في القرية. كان النّجّار جالساً على كرسيّه، يحتسي كوباً من الشاي عندما وصل "سون قوانغ مينغ" إلى بيته. بادره أخي الأصغر بالحديث إليه قائلاً:

"لا بدّ وأنكَ متعَبٌ من العمل".

ثمّ قال له: "هلا أعرتَني منشاركَ عندما لا تكون في حاجة إليه".

لم يعرْهُ النّجّار أيّ انتباه، بل حتّى لم يلتفتْ إليه، فقط أشاحَ إليه بيده قائلاً:

"هيّا من هنا، مَنْ هذا الأخرق الذي قال إنّي سأُعيركَ منشاري".

قال أخي الأصغر:

"أعرف أنكَ لن تفعل، ولكن والدي قال إنكَ ستفعل، فهو قد ساعدكَ من قبل في بناء بيتكَ".

ذلك الطفل الصغير الذي خُدع بواسطة جدّي، ها هو يخدع ذلك النّجّار.

سأله النّجّار:

"ماذا سيفعل والدكَ بالمنشار"؟

هزّ "سون قوانغ مينغ" رأسه نافياً وهو يقول: "لا أعرف".

حينها وافق النّجّار قائلاً:

"اذهبْ، وخذْه".

حمل أخي الأصغر المنشار، وعاد إلى البيت، خَبَطَ به على الأرض، وسأل جدّي قائلاً:

"هل تعتقد أنني سأنجح في قَطْع أرجل الطاولة بالمنشار"؟

هزّ جدّي "سون يو يوان" رأسه نافياً، وقال:

"يمكنكَ بالكاد أن تقطع رجلاً واحدة".

في عصر ذلك اليوم، شرع أخي في قَطْع أرجل الطاولة والعَرَق يتصبّب منه، التفت إلى جدّي بينما كان مُنهمِكاً في العمل، وقال له:

"هل رأيتُ كم أنا قويّ"؟

لم يحفّزه جدّي وهو يعمل، إلا أنه ظلّ محتفِظاً بتعبير الدَّهْشة على وجهه، وكان هذا كافياً لأن يُحفّز أخي الأصغر على الانتهاء من قَطْع أرجل الطاولة الأربعة. لم يمنحْه جدّي وقتها للوقت، لكي يفخر بنفسه، حيث

أظهر له جدّي بلا أدنى رحمة ذلك الواقع المخيف الذي سيواجه حين قال له:

"لقد اقترفتَ ذنباً عظيماً، والدكَ سيقتلُكَ ضَرْبَاً".

أُصيب أخي المسكين بالذهول، فلم يكن يدرك حجم الجُرم الذي ارتكبه إلا عندما قال جدّي تلك الكلمات. نظر إلى جدّي بعينَيْن مغرورقَتَيْن بالدموع، حينها نهض جدّي من مكانه، وعاد إلى غرفته. أمّا أخي، فغادر البيت بعدها وحيداً، واختفى حتّى فجر اليوم التالي. لم يكن يجرؤ على العودة إلى البيت، فقضى ليلته وسط حقول الأرز متحمّلاً الجوع طيلة الليل. كان والدي يقف على الطريق الصغيرة وسط الحقول، حيث شاهد بقعة صغيرة مخفضة وسط حقل الأرز، فعرف أن أخي الأصغر مختبئ هناك. ثورة والدي التي ثارت طيلة الليل لم تكن قد هدأتْ حينها، أمسك بأخي الأصغر، وضربه على مؤخّرته التي صار لونها كالتّفّاحة المعلّقة على الشجرة، بعضها أحمر، وبعضها أخضر. لم يتمكّن أخي الأصغر من الجلوس على الكرسي لشهر كامل، بسبب الألم. أمّا جدّي، فلم يعد مضطرّاً لأن يرفع رأسه وذراعه، كما كان يفعل في الماضي. ظلّ الحال هكذا إلى أن احترقت هذه الطاولة خلال ذلك الحريق الذي التهم منزلنا عندما رجعتُ إلى هناك في الثانية عشرة من عمري.

بعد عودتي إلى قرية الباب الجنوبي، تحوّل ذلك الخوف الذي كان ينتابني تجاه جدّي منذ كُنتُ في السادسة إلى حالة من التعاطف مع نفسي. فبالتزامن مع تزايد صعوبة موقفي داخل المنزل، كان وجود جدّي في البيت، بالنسبة إليّ، بمثابة نوع من المواساة، لا غنى عنه. في الوقت الذي كان فيه الخوف يتملّكني أن يقع مكروه ما داخل البيت، وأنني سأُواجَهُ العقاب، بصرف النَّظَر هل كُنتُ أنا المخطئ أم لا، بدأتُ أفهم لماذا لفّق

جدّي التهمة زوراً لأخي الأصغر في البداية. خلال تلك الأيّام، كان والدي يسير في القرية عاري الصدر، كان يتعمّد أن يُطلع الناس على عظامه البارزة، وكأنه يريد أن يُخبرهم أن هناك سبباً لكونه نحيلاً إلى هذا الحدّ. ألا وهو قوله المستمرّ:

"أنا أرعى شخصَيْن، يأكلان دون عمل".

كُنتُ أنا وجدي مثل ضيفَيْن ثقيلَيْن، نتطفّل للأبد على حصّة الطعام الخاصّة بوالدي "سون قوانغ تساي".

بعدما قام أخي الأصغر بقَطْع أرجل المنضدة، حدثتْ مُشادَّة حادّة بين والدي وجدّي. بالرغم من أن والدي ظلّ محافظاً على أسلوبه الحادّ تجاه جدّي بعدها، إلا أنه كان يعرف في داخله أن جدّي قد هَزَمَهُ. لذلك لم أعدْ أشاهد والدي يُعنِّف جدّي عَلَنَاً بعد عودتي إلى القرية، هذا الأمر الذي كان ذلك اعتيادياً للغاية قبل مغادرتي، حيث صار ضجر والدي من جدّي يتحوّل إلى نوع من قلّة الحيلة. كل ما كان يفعله والدي هو أنه يجلس على عتبة الباب، ويُغَمْغِمُ مثل النساء، ويقول:

"أن تُربيّ أغناماً خير لكَ من أن تُربيّ بشراً، يمكنكَ أن تبيع صوف الغنم، وأن تستخدم روثها في التسبيخ، وأن تأكل لحمها. أمّا البشر، فلا صوف لديهم، ولا أحد يجرؤ على أكْلِهِم، فلو اقتادتْني الشرطة إلى السجن، لن يُنقذَني أحد".

كان الهدوء الذي يتصرّف به جدّي في مواجهة تلك الإهانات قد ترك في داخلي أثراً لا يُمحى. كان يواجه بتسامح وابتسامة مهاجمة الآخرين له. عندما كُنتُ أتذكّر جدّي بعدما صرتُ يافعاً، كُنتُ دائماً ما أتذكّر ضحكته المؤثّرة. كان والدي دائماً ما يخاف من ضحكة جدّي، فكان يستدير بجسده

سريعاً في كل مرّة يشاهد جدّي يضحك فيها، وكأنه قد تعرّض لصدمة، أفقدتْهُ هدوءه. كان يغادر بعيداً، ثمّ يُغَمْغِمُ:

"عندما يضحك يبدو مثل الأموات، وعندما يأكل يعود للحياة".

ذلك العجوز الذي ينام معظم الوقت أخذ يلاحظ تدريجياً محنتي التي أعيشها في ذلك البيت، كما أنه أخذ يتجنّبني أكثر فأكثر بمرور الوقت. ذات مرّة في خريف ذلك العام، مررتُ بجواره بينما كان جالساً بجوار الحائط يتشمّس، توقّفتُ أمامه قليلاً آملاً أن يتحدّث إليّ، إلا أن السكون المُطبَق على وجهه لم يترك مجالاً لكَسْر حاجز الصمت بيننا. بعدها بقليل، سمع جدّي صوت أهازيج العمّال وقد انتهوا من عملهم في الحقول، فنهض بأقدام مرتعشة، وتسلّل إلى زاويته. هو يعرف جيّداً أن والدي يَكرهُنا نحن الاثنَيْن، ويخشى أن يرانا معاً.

ظلّ والدي يشك فيّ أنا وجدّي لفترة طويلة، بسبب ذلك الحريق الذي داهم بيتنا بعد عودتي إلى القرية بفترة وجيزة، وكأنه يعتقد أننا مَنْ تسبَّبْنَا في هذا الحريق. فعندما كان يراني أقف مع جدّي مصادفة، كُنتُ أسمعه يصرخ من بعيد بحالة هِسْتِيرِيّة، ويقول:

"بيتي، بيتي سوف يحترق ثانية، عندما يجتمع هذان الشخصان معاً، فالحريق على وشك القدوم".

قبل بلوغي السابعة، غادرتُ قرية الباب الجنوبي بصحبة "وانغ لي تشيانغ "الذي جاء إلى قريتنا مرتدياً حُلَّةً عسكرية. وبينما نحن نسير على تلك الطريق الصغيرة، قابلتُ جدّي الذي عاد لتوّه من بيت عمّي مصادفة بعد أن مكث هناك لمدّة شهر. حينها لم أكن أعرف أن هذا الشخص الذي جاء ليأخذني معه قد جاء ليتبنّاني، فقد كُنتُ أعتقد أنني ذاهب

في نزهة. أخي الأكبر الذي لم يجد منافسه، لم يعد يجري نحو جدّي القادم من بعيد، ليأخذ شَمْسِيَّتَهُ، فكان يكتفي بالانتظار عند مدخل القرية. كانت نظرات أخي الأكبر لي جعلتْني أشعر بالفخر لكوني أسير بصحبة "وانغ لي تشيانغ" ذو الزّيّ العسكري، ولذلك فعندما واجهتُ جدّي، قُلتُ له متعالياً:

"لا وقت لديّ لأتحدّث معكَ".

سرتُ مختالاً بجسدي الضعيف متعمّداً إثارة الغبار أمام جدّي. لا زلتُ أتذكّر هذا المشهد، وأنا ألتفت برأسي، أتطلّع إلى أخي الأكبر الواقف هناك عند مدخل القرية، ولكن جسد جدّي مثقل الخطى كان يحجب رؤيتي. كان جدّي يلتفت إليّ بنظرات مُريبة، فقد كان حينها مثلي تماماً، لا يدرك ما الذي يُخبّئه له القَدَر. إلا أنه انطلاقاً من تاريخ حياته الطويل، ارتاب من سعادتي وأنا أغادر المكان.

عندما عدتُ إلى الباب الجنوبي وحيداً بعدها بخمس سنوات، جعلتْني الصدفة ألتقي بجدّي وقت الغروب. حينها لم يكن يعرف أحدنا الآخر، فقد حمّلتْني هذه السنوات الخمس بالكثير من الذكريات، وتركتْ ذكرياتي القديمة في زاوية مهمَلَة مُشوّشة. بالرغم من أنه كان بإمكاني التّعرّف على أفراد عائلتي كافّة، إلا أن ملامحهم صارت مُشوَّشة بالنسبة إليّ، وكأنها أشجار اختفت وسط ظلمة الليل. وفي الوقت الذي أخذت فيه ذاكرتي تقوى بمرور الوقت، كان جدّي على النقيض منّي، فالعجز والمرض قد جرّداه من ماضيه بلا رحمة، حتّى إنه أخذ يضلّ طريقه في أكثر الطُّرُق المألوفة له. عندما قابلَني كان مثل الغريق الذي يتعلّق بالقَشَّة، حيث سار خلفي مُتعقِّباً أثري حتّى عاد إلى القرية. في ذلك الوقت، وصلْنا معاً بالتزامن مع اندلاع ذلك الحريق الذي التهم بيتنا.

في اليوم التالي لعودتنا إلى قرية الباب الجنوبي، غادر جدّي مرّة أخرى متّجهاً إلى بيت عمّي، حيث مكث هناك لأكثر من شهرَيْن. وعندما عاد في المرّة التالية، كُنّا قد بنيْنا كوخاً جديداً. لا يمكنني أن أتصوّر كيف لعجوز مثل جدّي قد أوشك على فقدان ذاكرته، وصار يتحدّث بصعوبة أن يذهب إلى بيت عمّي، ويعود وحيداً. مات جدّي بعدها في صيف العام التالي.

قبل موته بقليل، استعاد جدّي فجأة شبابه وحيويّته بشكل مثير للذهول بعدما مرّ بفترة طويلة من الذّلّ والإهانة. يمكنني أن أقول إنّ جدّي كان متألّقاً مُبهِراً في أواخر أيّامه. فهذا العجوز المشرف على الموت كان يستنفد كل ما تبقّى له من طاقة، ليتصارع مع أيّامه المتبقّية.

كان الأرز قد نضج وسط الحقول، وأوشك على الحصاد. والأمطار الوشيكة تُسبّب قلقاً لدى المزارعين. أخذت المياه التي تغمر حقول الأرز تغوص وسط الطين، فبدت الحقول وكأنها مغطّاة بطبقة من البلاستيك الرقيق. سنابل الأرز تتثاقل للأسفل بمرور الوقت، لتقترب من المياه الساكنة التي تزداد بفعل المطر. لا يمكنني أن أنسى ذلك الوقت الذي حلّت فيه الكارثة، حيث وقف الفلاحون مكتوفي الأيدي كالمكلومين، لا حيلة لهم فيما يجري. والعجوز "لوه" مسؤول المخازن يجلس على عتبة الباب، يمسح دموعه، ويقول متشائماً:

"سنخرج للتّسوّل هذا العام".

كان العجوز "لوه" يتمتّع بذاكرة خارقة، بحيث يمكنه أن يُلقي بنفسه وسط تيّار نهر التاريخ بكل سهولة، فشرع يحكي لنا عن كارثَتَي الفيضان المشابهتَيْن اللّتَيْن حَلّتَا بالقرية عامَي ١٩٣٨ و١٩٦٠. كان يحكي لنا، ليجعلَنا نُصدِّق أننا أصبحْنا على وشك التّسوّل.

والدي "سون قوانغ تساي" الذي كان دائم الحركة هنا وهناك كان يجلس حينها في صمت مثل الدجاجة المريضة. إلا أنه كان أحياناً ما يصيح فجأة بعبارات أكثر تشاؤماً من العجوز "لوه"، ويقول:

"حينها لن يكون أمامنا بُدّ سوى أكل لحم الأموات".

شرع كبار السّنّ في القرية في إخراج تماثيل بوذا الصلصالية التي يحتفظون بها، وأخذوا يتضرّعون إليها خلسة، يطلبون من بوذا أن يُنقِذ محصولهم. في تلك الأثناء، تقمص جدّي دور المُنقِذ، وتزعّم الحشود. ذلك العجوز الذي اعتاد الانزواء في مكانه، نهض من زاويته فجأة، وسار مُمسِكاً بشَمْسِيَّتِهِ نحو الخارج. اعتقدتُ حينها أنه ينوي الذهاب إلى بيت عمّي قبل موعده. وجهه الذي صار شاحباً لسنوات قد تورّد فجأة، سار حاملاً شَمْسِيَّتَهُ القديمة وسط المطر، ومرّ بالبيوت جميعها في القرية، كان يُحدِّث الناس، ويقول:

"أَلْقُوا تماثيل بوذا في الخارج، اترُكُوا المطر يُبلِّلها، ولنرى إذا كان المطر يجرؤ على ذلك أم لا".

يا لها من جرأة من جدّي أن يطلب من الناس أن تُلقي ببوذا وسط المطر، تلك الجرأة أصابت هؤلاء القرويّيْن الذين يُقدّسون بوذا بالرعب والخوف. شعر والدي حينها أن منظر جدّي مثير للسخرية، لاحت على وجهه ابتسامة بعد أيّام من العبوس والاكتئاب، فأشار بيده نحو جدّي الذي يسير متثاقلاً وسط المطر، ويقول:

"هذا العجوز لا يزال قادراً على المشي".

وعندما ذهب بعض كبار السّنّ في القرية يطلبون من "سون قوانغ

تساي" أن ينصح والده بالعدول عن هذا التّصرّف المهين لبوذا، حينها أدرك والدي حجم المشكلة التي تسبّب فيها جدّي.

حينها سار نحو جدّي وقال له بلهجة تهديد:

"عُدْ إلى بيتك".

ما أثار دهشتي هو أن جدّي لم يَخَفْ من والدي حينها، كما كان يفعل في السابق، استدار بجسده المُتيبّس، وحدَّق بعينَيْه في والدي، ثمّ رفع يده وأشار إليه قائلاً:

"عُدْ أنتَ إلى بيتكَ".

حينها ثارت ثائرة والدي، وصرخ فيه قائلاً:

"أيّها العجوز الأخرق، يبدو أنكَ قد عشتَ بما يكفي".

ظلّ جدّي يتلفّظ بالعبارة نفسها:

"عُدْ أنتَ إلى البيت".

وقف والدي أمامه مذهولاً، كان يتلفّتُ يمنة ويسرة كالمصدوم، ثمّ قال:

"أيّها العجوز المجنون، لم تعد تخشاني".

كبير القرية عضو في الحزب الشيوعي، شعر حينها أن عليه أن يتحرّك لوقف هذه الخرافات المتمثّلة في التّضرّع لأصنام بوذا، حيث أحضر معه ثلاثة جنود، وخرجوا يجمعون تماثيل بوذا من بيوت القرويّيْن، يُقنعونهم أن كل شيء من فِعْل الإنسان، وأن الإنسان هو وحده القادر على ترويض الطبيعة. استخدم كبير القرية سلطته في تخويف القرويّيْن الجبناء، مُحذِّراً

إيّاهم أن مَنْ يقوم بإيواء تماثيل بوذا في الخفاء سيُعَدّ من المعادين للثورة، وسيُعاقَب بأقصى العقوبات.

صادف أن توافقت طريقة الشيوعيّيْن في القضاء على الخرافات وطريقة جدّي في عقاب بوذا، فشاهدتُ أكثر من عشرة تماثيل لبوذا مُلقاة وسط المطر. في صبيحة ذلك اليوم، استعاد جدّي عافيته التي كان عليها اليوم السابق، سار متثاقلاً حاملاً شَمْسِيَّتَهُ القديمة، يبثّ أفكاره وخرافاته. كان يتسم للناس بفمه الخالي من الأسنان، ويقول لهم مُطمئِناً:

"بوذا لن يتحمّل المكوث وسط المطر لأكثر من يوم، فغداً سيطلب من ملك المطر أن يتوقّف، وستصفو السماء".

لم تتحقّق نبوءة جدّي التي كان واثقاً منها، وعندما وقف في صباح اليوم التالي أمام بيته يشاهد المطر المتساقط، أخذت التجاعيد التي تملأ وجهه تنكمش من شدّة الحزن، شاهدتُهُ يقف هناك لفترة طويلة، ثمّ رفع وجهه للسماء، كانت أوّل مرّة أسمعه يصرخ، فلم أكن أتخيّل أن يكون صوته مُحمَّلاً بهذا الكَمِّ من الغضب. فصرخات والدي الغاضبة في السابق بالنسبة إليه تكاد لا تُذكَر. كان جدّي يصرخ نحو السماء قائلاً:

"يا إله السماء، تعال واقتلْني، إنّ شئتَ".

بعد ذلك، ارتسمت على وجهه فجأة علامات الشرود، وظلّ فمه مفتوحاً مُتحجِّراً كالأموات، ولم يعد إلى طبيعته إلا بعدها ببعض الوقت. ثمّ انخرط في البكاء.

المثير للاهتمام هو أن المطر قد توقّف عصر ذلك اليوم، وهو ما أصاب كبار السّنّ في القرية بالذهول، وهم يشاهدون السُّحُب تنقشع، وأشعّة

الشمس تطلّ من خلفها، فتذكروا فِعْلة جدّي "سون يو يوان" التي كانوا يعدّونها إهانة لبوذا. انتاب هؤلاء المُسنّين المؤمنين بالخرافات شعورٌ بالرهبة والخوف معتقدين بأن جدّي يتمتّع بقوى خَفِيّة، فملابسه البالية جعلتْهم يشعرون بأنه مثل الرهبان المعروفين بملابسهم الرّثّة. وحقيقة الأمر أنه لولا عضو الحزب وجنوده ما كانوا ليُلقوا بتماثيلهم وسط المطر، إلا أنه لم يكن أحد ليتذكّر هذا الأمر، كل ما دار بعقولهم هو كلام "سون يو يوان" ونصائحه لهم. سَرَتْ في القرية لثلاثة أيّام ضجّة كبيرة حول شائعة كون جدّي "سون يو يوان" ذا قوى خَفِيّة، بل حتّى إن والدتي قد أوشكت أن تُصدِّق هذه المقولة، فعندما سألتْ والدي عن مدى صحّة هذا القول، أجابها قائلاً:

"هذا هراء، يُردّده المجانين".

كان والدي مادّيّاً بحتاً، حيث قال لوالدتي حينها:

"أنا من صلبه، ولو كان ذا قوى خَفِيّة، فلماذا لم أصبح مثله"؟

الاختفاء

بدا جدّي قبل موته أشبه ببقرة، يقتادها صاحبها نحو المذبح. مستسلمة لقيودها. كُنتُ واقفاً حينها عند طَرَف ساحة التجفيف، وشقيقاي يقفان أمامي بعيداً. ترامى إلى مسامعي صوت أخي الأصغر يتحدّث، بينما كان أخي الأكبر يُوبِّخه قائلاً:

"أنتَ جاهل حقّاً".

في البداية، كُنتُ أعتقد خطأً أنا وأخي الأصغر أن البقرة لا تعرف ما الذي ينتظرها. إلا أنني رأيتُ دموعها، فبعدما قُيِّدت أطرافها، شاهدتُ دموعها تسقط على الأرض الخرسانية كقطرات مطر ثقيلة. فعندما تواجه الحياةُ الموتَ، تستعرض حنينها اللانهائي تجاه الماضي. لم تكن ملامح البقرة مَكسوّة بالحزن فقط، بل يمكنني القول حقّاً إنني شاهدتُ ملامحها مَكسوّة بنوع من اليأس أيضاً. وهل يوجد ما هو أكثر من اليأس تأثيراً في القلوب؟ بعدها سمعتُ أخي الأكبر يُحدِّث بعض الصِّبْيَة قائلاً إنّ عَيْنَي البقرة قد احمرَّتا بعدما قُيِّدَت أطرافها. في الأيّام اللاحقة، كُنتُ أرتجف عندما أتذكّر مشهد البقرة قبل موتها، كان استسلامها وخنوعها للموت دون أيّ مقاومة قد جَعَلَاني كَمَنْ يرى صورة مكسورة، تجعل مَنْ يراها قَلِقاً مُضطرباً.

لفترة طويلة من الوقت، مَثَّلَ موت جدّي لغزاً كبيراً، بالنسبة إليّ. فقد كان موته مختلطاً بأجواء الغموض وحقيقة الواقع، وهو ما جَعَلَني

غير قادر على معرفة السبب الحقيقي لوفاته. وكالفرح الذي يعقبه تَرَحٌ، فبعدما كان جدّي واقفاً هناك في صبيحة ذلك اليوم يصرخ وسط المطر بشجاعة لافتة، ها هو يسقط في فخّ الجبن والخوف، حيث شاهدتُهُ حينها يقف مشدوهاً، لا يدري كيف يتصرّف. في تلك اللحظة التي كان "سون يو يوان" يقف فيها هناك فاغراً فمه الملآن بالصراخ، أُصيب بالفزع حين شعر وكأن هناك شيئاً ما داخل جسده يوشك أن يخرج من فمه المفتوح، شيئاً ما أشبه بطائر، يخفق بجناحَيْه مُتحفِّزاً للخروج. ثمّ استدار بظهره، وصرخ بصوت مشوب بالذّعر:

"روحي، روحي ستخرج منّي".

روح جدّي على وشك أن تُغادرَ جسده كطائر صغير محبوس بداخله سيخرج من فمه المفتوح، بالنسبة إليّ، هذا أمر مثير للدَّهْشة والخوف أيضاً، في الوقت نفسه.

في عصر ذلك اليوم، شاهدتُ على وجهه الملامح نفسها التي ظهرت على وجه البقرة قبل موتها. حينها كان المطر قد توقّف، وبينما كان المُسنّون في القرية مذهولين من تحقُّق نبوءة جدّي، لم يكن جدّي في حالة تجعله يستمتع بإطرائهم، فقد كان غارقاً في الحزن والألم الذي يعانيه بسبب خروج الروح. قبل ذلك، كان جدّي يجلس على عتبة الباب، وفي مواجه أشعّة الشمس التي أخذت تظهر تدريجياً، خرجت من فمه أصوات بكاء مكتوم، وما إن غادر والدي إلى الحقل حتّى انخرط في البكاء. ظلّ يبكي دون توقّف حتّى عاد والدي. لم أكن قد شاهدتُ في حياتي شخصاً يبكي هذا الوقت كله.

بعد عودة والدي من الحقل، شاهد جدّي وهو يبكي، لم يكن والدي يعرف سبب بكائه، حينها غَمْغَمَ قائلاً:

"أنا لم أمتْ بعد، وها أنتَ تنتحب عليّ".

بعدها قام جدّي من على عتبة الباب، ومرّ بجواري وهو يبكي، لم ينتظر ليتناولَ الطعام معنا، كما كان يفعل في السابق، بل دخل مباشرة إلى غرفته المُهمَلَة، ثمّ اضطجع على فراشه. لم يمرّ بعض الوقت حتّى سمعتُ جدّي ينادي على ابنه بصوت مُتحشرِجٍ قائلاً:

"سون قوانغ تساي".

لم يعرْه والدي أيّ انتباه، فقط قال لوالدتي:

"هذا العجوز بدأ يتكبّر، يريدني أن أوصل له الطعام إلى فراشه".

ظلّ جدّي ينادي قائلاً:

"سون قوانغ تساي، روحي تغادر جسدي، سأموت".

حينها نهض والدي، ووقف أمام سرير جدّي قائلاً:

"ستموت، ولا زلتَ تنادي بهذا الصوت العالي"؟

أخذ جدّي يبكي بصوت عالٍ، كان صوت بكائه متقطّعاً، وهو يقول:

"يا ولدي، والدكَ على وشك الموت، لا أعرف ماهية الموت، أنا خائف للغاية".

ردّ عليه والدي مُضجراً:

"ألستَ حيّاً تُرزَق الآن، ولا يوجد بكَ علّة"؟

ربّما كان كلام والدي سبباً في جعل جدّي يصرخ بصوت أعلى، ويقول:

"يا ولدي، من الأفضل لي أن أموت، فحياتي حمْل ثقيل على كاهلكَ".

كان صوت جدّي العالي قد جعل والدي منزعجاً، فقال له غاضباً:

"هلا خفضتَ من صوتكَ! ماذا لو سمعكَ الناس الآن؟ سيقولون إنيّ أُكرِهُكَ على الموت".

كان شعور جدّي باقتراب الموت قد أصابني بدَهْشة وخوف، لا يُوصَفَان. عندما أتذكّر موتَ جدّي الآن، فقد كان شعوره المادّيّ بالروح وكأنها تطير من داخله بالنسبة إليه هو الشعور الحقيقي، لأنني على يقين أنه لن يختلقَ شعوراً زائفاً وهو يحتضر. ربّما كان "سون يو يوان" قد خطّط لأيّامه القادمة بعدما سقط وأُصيب في ظهره. ومن ثمّ، فقد كان صراخه هو بالفعل إحساساً مادّيّاً خالصاً، هو علامة على دُنُوّ الموت وخروج الروح. كان بكاؤه عصر ذلك اليوم بعد توقّف المطر بمثابة رضوخه لحُكْم الموت.

هذا العجوز الذي أوشكت أيّامه على الانتهاء، ليس لديه خيار بين الوداع الأبدي لعالم البشر الصاخب ولقاء زوجته الراحلة. ظلّ متردّداً لتسع سنوات كاملة، وعندما أدرك في نهاية الامر أنه لا مفرّ من الموت، عبّرت دموعه عن صعوبة فراقه لهذا العالم الفاني. كان طلبه الوحيد هو أن يوافق ابنه على أن يصنع له تابوتاً، ويقيم له جنازة بالطبول والصُّنُوج. حيث قال له:

"أريد أن تكون أصوات الطبول والصُّنُوج عالية، حتّى تعرف أمّكَ أني قادم".

رقد جدّي يحتضر في فراشه، هذه الحقيقة أصابتْني بالذهول. فحينها تغيّرت صورته في مخيّلتي جذرياً، فلم يعد هو ذلك العجوز الذي يجلس

وحيداً منعزلاً في الزاوية. فبالنسبة إليّ، صار جدّي بعيداً جدّاً، حيث صار هو وجدّتي التي لا أذكر عنها الكثير شخصاً واحداً.

أبدى أخي الأصغر اهتماماً بالغاً بجدّي المشرف على الموت. كان واقفاً بجوار الباب طيلة الظهيرة، يتطلّع إلى جدّي من خلف الباب، ثمّ يذهب ليُخبر أخي الأكبر بما يحدث من وقت للآخر:

"لم يمتْ بعد".

ثمّ يستطرد قائلاً:

"بطنه لا يزال يتحرّك".

من وجهة نظر والدي، لم يكن إصرار جدّي على الموت سوى نوع من التهديد، فبعدما حمل والدي مِنْجَله مُغَادِرَاً البيت عصر ذلك اليوم، كان يعتقد أن جدّي يحتال حيلة جديدة، يضايقه بها. إلا أنه بعدما انتهيْنا من تناول العشاء، كان جدّي لا يزال في غرفته، وعندما دخلتْ والدتي غرفتَه حامله الطعام، سمعَتْه يُطَنْطِنُ ويقول:

"أنا أموت، لن آكل".

حينها فقط أثار هذا الأمر حفيظة والدي، فبعدما دخل إلى غرفة جدّي، أخذ هذان الخصمان يتحدّثان إلى بعضهما كشقيقَيْن حميمَيْن. جلس والدي على سرير جدّي يُحادثه، لم أكن قد سمعتُ قطّ والدي يتحدّث بهذا الودّ إلى جدّي من قبل. وبعدما خرج أبي من الغرفة، كان على يقين أن والده سيموت عمّا قريب. لم يُخفِ سروره، فهو لم يكن يهتمّ لكونه ابناً بارّاً أو عاقّاً، حيث أخذ يشيع أن والده قد أشرف على الموت، كُنتُ جالساً في الغرفة، حيث سمعتُهُ يصيح في الخارج، ويقول:

"شخص لا يأكل، بالتأكيد لن يعيشَ طويلاً".

بات جدّي ليلته منتظراً حلول أجله، وعندما دخل والدي إلى غرفته في صباح اليوم التالي، بادرة جدّي بالسؤال قائلاً:

"أين التابوت"؟

أصابت كلماته والدي بالذهول، فلم يكن جدّي يحتضر كما كان يتوقّع، خرج من الغرفة مصاباً بالإحباط، وهو يقول:

"يبدو أنه سيعيش لأيّام قادمة، فها هو لا يزال يتذكّر التابوت".

ربّما كان سبب قلق والدي هو أن ينهض جدّي ثانية من فراشه، ويجلس بيننا، ليأكل معنا عندما يحين وقت الطعام. كان والدي يعتقد أن هذا ليس بالأمر المستحيل، ومن ثمّ، أيقن أن عليه أن يُوليَ اهتماماً أكبر بأمر التابوت. في عصر ذلك اليوم، دخل والدي إلى البيت متسلّلاً كاللصوص حاملاً في يده لوحَيْن خشبيَّيْن، ثمّ طلب من أخي الأصغر بطريقة ساخرة أن يطرق على هذَيْن اللوحَيْن. أصابتْني هذه الحالة التي بدا عليها والدي بالدَّهْشة والاستغراب. حيث شاهدتُ والدي يدخل بعدها إلى غرفة جدّي منتصب القامة، ويقول بلغة مُهذَّبة:

"يا أبي، ها أنا قد أحضرتُ النّجّار".

شاهدتُ من خلف الباب ابتسامة خفيفة، تنمّ عن الرضا، ارتسمتْ على وجه جدّي. في تلك الأثناء، كان أخي الأصغر العاطل قد حصل على وظيفة مؤقّتة، حيث وجد نفسه مستغرقاً في الطَّرْق والحفر على اللوحَيْن الخشبيَّيْن. إلا أن أخي الأصغر لم يكن من ذلك النوع الذي يُقيّد نفسه بالمكوث في مكان واحد لفترة طويلة. ومن أجل الانخراط بشكل

أكبر في مهمّته الجديدة، حمل أدواته واللوحَيْن الخشبيَّيْن، وخرج من الغرفة يتصبّب عَرَقاً، ليكمل عمله. حينها كان أخي الأصغر قد نسي مهمّته الأصلية، واستغرق في التخريب. حتّى إنه سار بعيداً، ولم يعرف أحد أين ذهب. لم يرجع أخي الأصغر إلى البيت إلا بحلول موعد تناول طعام العشاء، حينها كانت يداه فارغَتَيْن تماماً. وعندما سأله والدي عن اللوحَيْن الخشبيَّيْن، بدت على وجهه ملامح البلاهة، وتحدّث بلغة غير مفهومة، وكأنه لا يعرف أيّ لوحَيْن خشبيَّيْن يتحدّث عنهما والدي.

في الوقت الذي كان فيه أخي الأصغر قد غادر البيت، سمعتُ جدّي الراقد في غرفته المعتمة، يقول بصوب مشوب بالقلق:

"أين التابوت؟".

بدا صوته واهناً مبحوحاً بعد اختفاء صوت الطَّرْق على الخشب الذي كان سبباً في جعلِه يشعر بالطمأنينة، فأُمنيُّته الأخيرة قد تحوّلت فجأة إلى سراب، بسبب رعونة أخي الأصغر.

بعد ذلك، اضطلعتُ أنا بوظيفة الطَّرْق على التابوت الوَهْمي لجدّي، فأخي الأكبر الذي كان في الخامسة عشرة حينها، لم يكن ليهتمّ بمثل هذه الأمور. ومن ثمّ، فقد أوْكَلَ لي والدي هذه المهمّة، حيث اكتشف فجأة أن طفلاً كئيباً مثلي يمكنه أن يقوم بعمل ما، رمى إلى بقطعة الخشب، وقال بلهجة مملوءة بالازدراء:

"افعلْ شيئاً، لا يمكنكَ أن تبقى هكذا تأكل دون عمل".

في اليومَيْن التاليَيْن كُنتُ أطرق على الخشب من وقت لآخر، لأُرسل لجدّي رسالة طمأنينة. كُنتُ في حالة من الحزن، لا أستطيع التّخلّص منها،

كطفل في سنّ الثالثة عشر، كُنتُ أشعر أنني أطرق على الخشب لنفسي، وليس من أجل جدّي. فبالرغم من أنه لم يُظهِر نحوي أي ودّ أو تعاطف خلال الأيّام التي تَلَتْ عودتي إلى قرية الباب الجنوبي، إلا أنه بسبب تشابه موقفنا داخل البيت، فقد كُنتُ أشعر أن مشاعر الشفقة التي كان جدّي يُبديها تجاه نفسه كانت تشمل أيضاً مشاعر شفقة تجاهي. زاد كُرهي لوالدي وباقي أفراد العائلة بمصاحبة أصوات الطَّرْق التي يستعجلون بها موت جدّي. ولفترة طويلة تَلَتْ، كُنتُ لا أزال أعتقد أن والدي يعاقبني بقسوة دون قصد. كان شعوري حينها مثل محكوم عليه بالإعدام يقوم بتنفيذ حُكم الإعدام في شخص آخر محكوم عليه بالإعدام.

كانت شائعة احتضار جدّي قد جعلت قريتنا الهادئة تعجّ بالحركة والضجيج. هؤلاء المُسنّون الذين أصابهم الخَرَفُ كانوا مذهولين من استعداد جدّي للموت. فقد كانت طريقة تعامُل جدّي مع أصنام بوذا وقت هطول المطر جعلتْهم يشعرون أنه على وشك الرحيل. كان هناك شائعة مضحكة قد جعلت من ميلاد جدّي مثاراً للسخرية، قيل إنه سقط من السماء كمياه المطر، وتنبّؤه بموته الآن هو برهان على انقضاء أجله، وحلول موعد عودته للسماء، إلى بيته الحقيقي.

الشباب في القرية كانوا مُتمسّكين بتعاليم الحزب الشيوعي، ومن ثمّ، فقد عبّروا عن سخريتهم تجاه هذه الخرافات التي يردّدها كبار السّنّ. كانوا يُوبِّخونهم كما كان يُوبِّخ "سون قوانغ تساي" والده "سون يو يوان"، ويقولون إنهم كلّما كبروا في السّنّ زادوا جهلاً.

حينها كُنتُ أجلس داخل الغرفة، أطرق على الخشب والباب مفتوح أمامي على مصراعَيْه. كان عملي مثاراً للسخرية في نَظَر هؤلاء الواقفين بالخارج. كيف أثّرتْ هذه السخرية على نفسيّتي؟ وخاصّة هؤلاء الأطفال

الذي كانوا يقفون هناك يضحكون بصوت عالٍ؟ شعرتُ أن كرامتي الهشّة قد هجرتْني بعيداً وسط شعور بالحزن والخجل.

أصوات الضجيج خارج البيت جعلت جدّي المشرف على الموت يستعيد ذكرى هروبه من قذائف جيش "الكومينتانغ". ظلّ ينادي على والدي بصوت عالٍ، ليعرف ما الذي يجري بالخارج. وعندما دخل والدي إلى الغرفة، بدا جدّي في حاله معنوية مرتفعة، وهو يسأل عمّا إذا كان هناك حريق في بيت أحد القرويّيْن أم لا.

رقد جدّي على فراشه مستعدّاً للموت الوشيك، إلا أنه قد مضت ثلاثة أيّام ولا يزال بصحّة جيّدة، وبالرغم من أنه كان دائم القول إنه سيموت، ولن يتناول أيّ طعام، إلا أن والدتي كانت دائماً ما تُقدِّم له الطعام في فراشه. كان مُتردِّداً بين الموت المثالي وحقيقة الجوع الذي يواجهه، إلا أنه رضخ في النهاية لسطوة الجوع. فكانت والدتي تخرج بأطباق الطعام فارغة من عنده كل مرّة.

والدي معروف بأنه شخص عديم الصبر. لم يكن جدّي يحتضر كما كان يتخيّل، ومن ثمّ، فقد فَقَدَ الثقة حيال موته. وعندما كانت والدتي تحمل الطعام، وتذهب به إلى غرفة جدّي، كان ينخرط في الحيلة القديمة نفسها، ويقول إنه لن يأكل. في تلك الأثناء، كان والدي يمنع والدتي من الذهاب إلى غرفة جدّي، ثمّ يصرخ فيه قائلاً:

"إن كنتَ ستموتُ، فلا تأكلْ، وإن أكلتَ، فلا تَمُتْ".

حينها بدت على والدتي علامات خوف غير معتادة، وهي تقول لوالدي:

"أنتَ آثم بهذا الفعل، وستعاقبكَ السماء".

إلا أن والدي لم يكن ليستمعَ إلى مثل هذا الكلام، ثمّ خرج من فوره، ووقف خارج البيت، يصيح وسط المارة:

"هل سمعتُم يوماً أن شخصاً ميّتاً يأكل طعاماً"؟

حقيقة الأمر أن جدّي لم يكن يدّعي الموت، كما كان يتخيّل والدي، وأن شعوره بأن الروح تغادر جسده هو شعور حقيقي، وأن موته قد اقترب. حينها كان جدّي قد مات معنوياً، هو فقط ينتظر الموت الجسدي، وأن يغادرَ بروحه وجسده إلى العالم الأبدي. وكلّما بدا والدي أكثر ضَجَراً من مرور الوقت بهذه الحالة، كان جدّي يشعر بالمرارة والإحباط من طول فترة انتظاره للموت.

في آخر أيّام حياته، كان يفكّر بعقله المشوّش حينها في السبب وراء عدم موته. كانت سَبَلات الأرز التي أوشكت على الحصاد تتمايل وسط أشعّة الشمس، والريح الشرقية الجنوبية تهبُّ مُحمّلة برائحة النباتات، لا أعرف هل شَمّ جدّي هذه الرائحة أم لا، إلا أن تفكيره الغريب قد هداه إلى أن موته المتأخّر متعلّق بهذه السَّبَلات التي أوشكت على الحصاد.

في صباح اليوم التالي، نادى جدّي على والدي "سون قوانغ تساي" بصوت عالٍ، وبعدما كان والدي قد صبّ جام غضبه عليه في الأيّام السابقة، دخل هذه المرّة متكاسلاً إلى غرفة جدّي. قال له حينها بصوت منخفض مشوب بالغموض، إن روحه لم تُحلِّق بعيداً، ولذلك فهو لا يزال حَيّاً. كان يُحدِّث والدي بحرص، وكأنه يخشى أن تسمع روحه المُحلّقة هذا الكلام، فتطير بعيداً. أخبره أن حقول الأرز هي السبب وراء عدم تحليق روحه بعيداً، وأن روحه تطير الآن بصحبة العصافير، وتحديداً تلك العصافير

التي تُحلِّق أعلى حقول الأرز. وطلب منه أن يصنع له عدّة فزّاعات، ويضعها حول البيت حتّى تُخيف روحه، وتطير بعيداً، وإلا فمن المحتمل أن تعود روحه، وتسكن جسده ثانية. ثمّ فَغَرَ فمه، وقال:

"يا ولدي، لو عادت روحي ثانية، فسأعود حملاً ثقيلاً عليكَ، وتعاني الفقر بسببي".

حينها نظر إليه والدي قائلاً:

"يا أبي، لا تمُتْ، دَعْكَ من هذه الأفكار. مرّة تطلب تابوتاً، ومرّة تطلب فزّاعة، ماذا تريد منّي"؟

تعاطف كبار السّنّ في القرية مع جدّي عندما سمعوا هذه الأنباء من والدي المتُذمّر. فكون روح جدّي تطير في الأرجاء هو أمر يمكن تصديقه، بالنسبة إليهم. في ظهيرة ذلك اليوم، توقّفتُ عن طَرْق الخشب، حيث شاهدتُ عدداً من الُمسنّين قادمين، يحملون معهم فزّاعَتَيْن، وقاموا بوَضْع واحدة بجوار الجدار عند المدخل، والأخرى بجوار نافذة غرفة جدّي. وكما أخبروا والدي لاحقاً، فقد فعلوا ذلك تسهيلاً على صعود روح جدّي إلى السماء.

بالفعل، كانت نهاية جدّي قد اقتربت، فقد ساءت حالته كثيراً في الأيّام الثلاثة اللاحقة. فعندما دخل والدي إلى غرفته، لم يكن بوسع جدّي أن يتحدّث إليه سوى بصوت ضعيف أشبه بطنين البعوض. حينها لم يعد جدّي ضعيفاً أمام الجوع، كما كان الحال في السابق، يمكن القول إنه قد فَقَدَ شهيّته للطعام، وعندما كانت والدتي تدخل له بالطعام، لم يكن ليتناول سوى لقمَتَيْن أو ثلاث، وهو ما جعل والدي يحوم طويلاً حول الفزّاعات المنتصبة خارج البيت قبل أن يُغَمْغِمَ قائلاً:

"هل من المعقول أن تُجدي هذه الأشياء نَفْعَاً"؟

رقد جدّي في غرفته تلك لأيّام طويلة دون أن يغتسلَ، بل حتّى إنه كان يتبوّل على نفسه في أيّامه الأخيرة، حتّى صارت تلك الغرفة المُهمَلَة من الأساس مملوءة بالروائح الكريهة.

زال القلق عن والدي بعدما بدت على جدّي علامات الموت الحقيقية. ليومَيْن متتاليَيْن، كان يدخل إلى غرفة جدّي في الصباح، ثمّ يخرج قاطباً حاجبَيْه، سمعتُ والدي الذي كان معتاداً على التهويل والمبالغة يقول إن جدّي قد ملأ نصف الفراش بالبول والغائط. لم يجرؤ والدي على الدخول إلى غرفة جدّي في اليوم الثالث، حيث قال إنه لا يقدر على تحمّل تلك الرائحة. طلب من والدتي أن تدخل، لتستطلعَ حالته، بينما جلس هو أمام الطاولة، يُحدِّث شقيقَيّ قائلاً:

"جدُّكما على مشارف الموت، وحجّته في ذلك هي أن الإنسان مثله مثل ابن عُرْس، عندما يهمّ بالإمساك به، يُخرِج رائحة كريهة، تُصيب مَنْ يلاحقه بالقَرَف والدوار، ومن ثمّ، يتمكّن من الهرب، وها هو جدّكما يريد الفرار، ومن ثمّ، فرائحته كريهة حدّ الموت".

خرجت والدتي من غرفة جدّي شاحبة الوجه، خلعتْ مَرْيَلَتَهَا، وجعلتْهُ مثل الكومة، وهي تقول لوالدي:

"اذهبْ، وألقِ نظرة على والدكَ".

قَفَزَ والدي من على كرسيّه، وكأنه قذيفة أُطلقت من فُوَّهَة مدفع، ثمّ دخل إلى غرفة والده، خرج بعدها يُلوِّح بيده، ويقول بعصبية:

"مات، والدي قد مات".

حقيقة الأمر أن جدّي لم يكن قد مات حينها، فقط كان غارقاً في حالة غيبوبة. خرج والدي المُتسرّع لطلَب المساعدة من أهل القرية، فقد تذكّر حينها أنه لم يكن حتّى قد حَفَرَ قبراً لوالده. حمل مِجْرَفَتِهِ، وذهب يطلب المساعدة، ثمّ شرع يحفر قبراً لجدّي بجوار قبر جدّتي.

والدي من الأشخاص الذي يصعب إرضاؤهم، ففي الوقت الذي كان فيه أبناء القرية يستعدّون للعودة إلى بيوتهم بعد الانتهاء من حَفْر قبره، ظلّ والدي يُثرثر مُعبرًا عن عدم رضاه، ويقول لهم إن كُنتُم ستساعدونني، عليكم البقاء معي حتّى النهاية، وإلا فلا داعي لمساعدتكم منذ البداية. كان والدي يريد منهم أن يحملوا جثمان جدّي، بينما يقف هو عند المدخل، وعندما قطب "وانغ ياو جين" الذي تشاجر معه لاحقاً حاجبَيْه مُمتعِضاً، بسبب الرائحة الكريهة، قال له والدي مجاملاً:

"الأموات جميعاً هكذا".

في تلك الأثناء، كان جدّي فاتحاً عينَيْه، وعندما همّوا بحَمْله، لم يكن يعرف أنهم قد جاؤوا ليدفنوه. كان حينها قد استفاق قليلاً من غيبوبته، فابتسم لهم ابتسامة خفيفة، أصابتْهم ابتسامة جدّي بالهَلَع والرعب. كُنتُ جالساً في الخارج حين سمعتُ أصوات الاضطراب والقلقة بالداخل، ثمّ شاهدتُهم يُهرَعُون فَزِعين نحو الخارج واحداً تلو الآخر. بدا "وانغ ياو جين" ذو البنية القوية شاحب الوجه، وهو يُربِّت بيده على صدره، ويقول:

"اللعنة، كدتُ أموت رعباً".

ثمّ سمعتُهُ يسبّ والدي "سون قوانغ تساي" قائلاً:

"اللعنة عليكَ، وعلى أجدادكَ، لو كنتَ تقصد قَتْلَنَا رُعباً، لما كنتَ لتفعل ذلك".

نظر إليه والدي مُندهِشاً، لا يعرف ماذا يقول، فلم يكن قد علم بما جرى بالداخل، حينها أردف "وانغ ياو جين" قائلاً:

"تباً لكَ، والدكَ لا يزال حَيّاً".

حينها سارع "سون قوانغ تساي" بالدخول إلى غرفة جدّي. ارتسمتْ على وجه جدّي الابتسامة نفسها بعد دخول والدي. هذه الابتسامة أصابت والدي بالحنق الشديد، فلم يكن قد خرج من غرفة جدّي حتّى شرع يسبّ ويلعن قائلاً:

"مَنْ سيُصدِّق أنكَ ستموت، لو كنتَ تريد الموت حقّاً، لانتحرتَ شنقاً، أو رميتَ نفسكَ في النهر، لا ترقدْ هكذا على هذا السرير اللعين، تتظاهر بالموت".

كان عدم موت جدّي بعد كل ما أُشيع قد أصاب أهل القرية بالذهول. ففي البداية، كان الجميع على ثقة بدُنُو أجله، إلا أنه أجله كان ممتدّاً أطول من المتوقّع. أكثر ما أصابنا بالذهول هو تلك الليلة التي خرجْنا فيها نجلس أسفل شجرة الدَّرْدَار، نتناول الطعام، بسبب حرارة الجوّ داخل المنزل، ثمّ شاهدْنا جدّي يظهر أمامنا فجأة.

جدّي الذي رقد في فراشه لأكثر من عشرين يوماً، ها هو ينزل من فراشه، ويسير مستنداً على الحائط خارجاً من البيت كطفل يتعلّم المشي. هذا المشهد أصابنا جميعاً بالذهول. كان جدّي غارقاً في الهموم، فحقيقة كونه لم يمتْ قد جعلتْه يشعر بالقلق الشديد. سار متعثّراً نحو عتبة الباب، ثمّ جلس عليها وهو يترنّح. لم يبالِ جدّي لتلك الدَّهْشة التي ارتسمتْ على وجوهنا، فقد كان جالساً هناك مثل جوال بطاطا مُهمَل. سمعتُهُ يقول متنهّداً:

"أنا لم أمتْ، يا للملل!".

مات جدّي في صباح اليوم التالي. عندما وقف والدي بجوار فراشه، وَجَدَهُ يُحدِّق فيه بعينَيْه المفتوحَتَيْن. كانت نظراته مخيفة للغاية، وإلا ما كان والدي ليبدو مذعوراً بهذا الشكل. أخبرَنا والدي أن نظرات جدّي حينها بدت وكأنها تُمسك به، تَجْذِبُهُ نحوها، وتقول له، فلنمتْ معاً. إلا أن والدي لم يهرب حينها، أو يمكنني القول إنه لم يستطع الهرب حينها. فقد كان جدّي الذي يحتضر حينها قابضاً على يده بقُوّة، سقطت من عينَي جدّي قطرَتَيْن من الدموع، ثمّ أغمضهما للأبد. في تلك الأثناء، شعر والدي أن يده أخذت تتحرّر من قبضة جدّي، حينها فقط فرّ هارباً، ثمّ تحدّث إلى والدتي متلعثماً، يطلب منها أن تُلقي نظرة عليه. بدت والدتي هادئة مقارنة بتلك الحالة التي كان عليها والدي، فبالرغم من أنها دخلت إلى غرفة جدّي متثاقلة الخطى، إلا أنها خرجت هادئة، ثمّ قالت لوالدي:

"جسده بارد للغاية".

حينها فقط ابتسم والدي كَمَنْ أزاح عن كاهله حملاً ثقيلاً، ثمّ سار خارج المنزل، وهو يقول:

"اللعنة، ها هو قد مات أخيراً".

جلس والدي على عتبة الباب، ينظر مبتسماً إلى بضع دجاجات تسير غير بعيد منه. إلا أنه لم يكد يمرّ بعض الوقت حتّى علا الحزن وجهه، ثمّ انهمرت الدموع من عينَيْه، فأخذ يمسح دموعه، وانخرط في البكاء. سمعتُهُ يُحدِّث نفسه قائلاً:

"يا أبي، لقد أخطأتُ بحقّكَ كثيراً. أعرف أنكَ تحمّلتَ الكثير من

المشاقّ في حياتكَ. أنا ابن عاقّ، لم أكن باراً بكَ، كما ينبغي، ولكنْ، لم يكن بيدي حيلة أخرى".

مات جدّي كما كان يرغب، وبالنسبة إليّ، لم ينتبني شعور بأنني فقدتُ شخصاً حَيّاً، عاش معي. كانت مشاعري حينها مختلطة وعجيبة، لستُ حزيناً، ولستُ منزعجاً. كل ما أستطيع إدراكه هو أن مشهداً ما سيختفي من حياتي. في المساء، تخيّلتُ جدّي يسير متثاقل الخطى على تلك الطريق الصغيرة متّجهاً نحوي عند البركة. كُنتُ عادة ما أتخيّله قادماً من بعيد حاملاً شَمْسِيَّتَهُ وصُرَّة ملابسة الزرقاء. فكثيراً ما مَنَحَني هذا المشهدُ الدفءَ والأمان من قبل.

الجدّ يهزمُ الأبَ

لم يكن جدّي بالشخص الضعيف، على الأقلّ، هو ليس كذلك في داخله. كان تواضعه وانكساره نابعاً من عدم رضاه عن نفسه. تأزّم موقفه داخل البيت بمرور الوقت بداية من العام الرابع الذي غادرتُ فيه قرية الباب الجنوبي، أيْ بعدما قام أخي الأصغر بقَطْع أرجل الطاولة.

لم يكن قيام جدّي بجَعْل أخي الأصغر يقطع أرجل الطاولة، بمثابة انتهاء الحرب بينه وبين والدي. الذي لا يعترف بالهزيمة، ولم يكن ليترك والده ينعم براحة البال لفترة طويلة. فبعدها بفترة قصيرة، لم يكن والدي يتركه يجلس معنا لتناوُل الطعام على الطاولة، بل كان يغرف له طعامه، ويتركه يأكل وحيداً في الزاوية. بينما كان على جدّي أن يتعلّم الصبر على تحمّل الجوع، فشهية ذلك العجوز الذي يعيش آخر أيّامه للطعام كانت أشبه بشهية شابّ تزوّج لتوّه. إلا أن والدي لم يكن ليعطيه سوى القليل، وكانت نظرات والدي له وهو يأكل قد جعلت من الصعب عليه أن يطلب المزيد، كل ما في وسعه هو أن يجلس هناك بمعدته الفارغة، يتطلّع إلى والدي وأشقّائي وهم يتناولون طعامهم. وحيلته الوحيدة للتّغلّب على جوعه هو أن يَلعقَ الأواني الفارغة جميعها قبل غَسْلها. في تلك الأيّام، كان أهل القرية معتادين على رؤية جدّي وهو يَلعق الأواني من النافذة الخلفية لبيتنا.

بالطبع، لم يكن ليتقبّل الإهانة بصَدْر رَحْب، قُلتُ سابقاً إنه ليس بالشخص الضعيف، ولم يكن أمامه سوى أن يردّ الكيل لوالدي صاعاً بصاع.

فبعدها بحوالي شهر تقريباً، وبينما كانت والدتي تناوله طبق الطعام، تعمّد ألا يمسك به جيّداً، حيث سقط من يد والدتي على الأرض. يمكنني تخيّل حجم الغضب الذي أحاط بوالدي حينها، وبالفعل، فقد نهض من على كرسيّه، وأخذ يسبّ جدّي بلهجة مخيفة قائلاً:

"أيّها العجوز اللعين، لا تستطيع الإمساك بطبق الطعام، لماذا تأكل، إذنْ"؟

في تلك الأثناء، كان جدّي جاثياً على ركبَتَيْه، يلتقط الطعام من على الأرض، ثمّ نظر لوالدي نظرة المجرم المستحقّ للموت، وقال مُكرِّراً:

"لم يكن ينبغي عليّ تَرْك الطبق يسقط، لم يكن عليّ تَرْك الطبق يسقط، هذا الطبق من ميراث الأجداد".

هذه الجملة الأخيرة أصابت والدي بالذهول، فصمت لبُرْهَة قبل أن يُبدي ردّة فعل، ويقول لوالدتي:

"هلا رأيتِ كم هو شرّير هذا العجوز الخبيث"؟

لم ينظرْ إليه جدّي، بل أخذ يبكي، ويُكرِّر جملته الأخيرة مُتعمِّداً:

"هذا الطبق من ميراث الأجداد".

استشاط والدي غضباً، وصرخ فيه قائلاً:

"كفاكَ ادّعاء، أيّها العجوز اللعين".

تعالى صوت جدّي بالبكاء، وهو يقول بصوت عالٍ:

"لقد انكسر الطبق، ماذا سيتبقّى لابني بعد اليوم؟".

في تلك الأثناء، ضحك أخي الأصغر فجأة، كان منظر جدّي مثيراً للسخرية، بالنسبة إليه، ذلك الأخ الأصغر الذي لا يُحسِن تقدير المواقف ها هو ينفجر ضاحكاً في مثل هذا الوقت غير المناسب للضحك. بالرغم من أن أخي الأكبر كان يعرف جيّداً أن هذا ليس وقتاً مناسباً للضحك، إلا أن عدوى الضحك قد أصابتْهُ، فانفجر هو الآخر ضاحكاً. كان والدي حينها مُطوَّقاً من الجهات كلها، تنبّؤات جدّي المشؤومة من جهة، وضحكات أبنائه الشامتين من جهة أخرى. نظر والدي إلى وَلَدَيْه بقلق، ولسان حاله يقول إن هذَيْن الطفلَيْن لا يمكن الاعتماد عليهما.

كانت ضحكاتهما بمثابة تضامن مع جدّي، بالرغم من أنهما لم يقصدا ذلك. والدي الذي كان دائم الثقة في نفسه بدا حينها مرتاعاً بعض الشيء. وفي مواجهة جدّي الذي لا يزال يُردّد العبارة نفسها، انخفضت وتيرة غضب والدي، ثمّ توجّه نحو الباب، وهو يضرب كَفّاً بكَفٍّ، ويقول:

"حسناً، لقد ربحتُ، أعترف أني أخشاكَ، هلا أطبقتَ فمكَ اللعين، وتوقّفتَ عن الصراخ"؟

إلا أنه بعد أن خرج من الغرفة، لم يلبث أن انفجرَ غاضباً ثانية، ثمّ أشار إلى مَنْ يجلسون في الداخل بيده، وأخذ يسبُّهم جميعاً قائلاً:

"أنتم جميعاً أوغاد، أبناء كلاب".

الفصل الرابع

التهديد

في ظهيرة أحد الأيّام بعدما صرتُ بالغاً، شاهدتُ طفلاً يقف بجوار أحد الأرصفة، هذا الطفل قد نجح في لَفْت انتباهي لبعض الوقت، بسبب حركاته البريئة الممتعة. كان يرتدي ملابس زاهية، يشير بذراعَيْه المُمتلئَتَيْن في الهواء أسفل أشعّة الشمس الساطعة، يُحرِّكهما بسلسلة من الحركات البسيطة التي صمّمها بدقّة، لتُعبِّر عن كل ما يدور بخياله. خلال قيامه بهذه الحركات، قام بإدخال يده اليمنى في سرواله فجأة، وأخذ يحكّ جسمه بشكل لا إرادي، فيما ظلّ محتفظاً على وجهه بابتسامة بلهاء، بسبب انغماسه في الخيال. في مواجهة هذا الشارع الصاخب، ظلّ هذا الطفل مستغرقاً في عالمه الصغير الذي لم تُنتَهَك فيه خصوصيّته.

بعد ذلك، مرّ بجواره مجموعة من الأطفال، يحملون حقائبهم المدرسيَة على ظهورهم، حينها فقط أدرك بأنه ليس سعيداً، كما كان يتخيّل. ظلّ واقفاً هناك ينظر إلى هؤلاء الأطفال الذين يكبرونه سنّاً، وهم يغادرون بعيداً. لم أرَ وجهه حينها، ولكني أعرف مدى الحزن الذي كان يعتريه حينها. حقائبهم كانت تتمايل على ظهورهم، وتغادر بعيداً بصحبتهم. من البديهي معرفة ما الذي يعنيه هذا المنظر، بالنسبة إلى طفل، لم يدخل المدرسة بعد. ناهيكَ عن أن سَيْرهم في صفّ واحد، قد جعله يَغْبِطُهُم بشدّة. أثّر فيه هذا المشهد بشدّة، وفي النهاية، تسبّب في شعوره بعدم الرضا عن نفسه. شاهدتُه يستدير بجسده، ثمّ يغادر حزيناً، ويسير وسط أحد الأزقّة.

قبل عشرين عاماً، عندما كان أخي الأكبر يحمل حقيبته على ظهره، ويسير مختالاً، ووالدي يُقدِّم له النصائح الأخيرة قبل مغادرته، كُنتُ أقف عند مدخل القرية أشعر بالتعاسة. ولكنْ، بعدها بعام واحد، عندما حملتُ حقيبتي، وذهبتُ للمدرسة مثله، لم أحصل على نصائح من والدي مثلما حدث مع أخي الأكبر، ما حصلتُ عليه كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

حينها كانت قد مرّت على مغادرتي للباب الجنوبي ستّة شهور، صار الرجل قوي البنية الذي أخذني من القرية هو والدي، ولم تعد تلك السّيّدة النحيلة سريعة الحركة ذات الوشاح ذي المربّعات الزرقاء التي تعمل في الحقل هي والدتي، وحلّت محلّها سيّدة شاحبة الوجه واهنة البدن، اسمها "لي شيو ينغ". في صبيحة أحد الأيّام، قام "وانغ لي تشيانغ" بفتح صُندُوق خشبي متين بذارعَيْه القويَّتَيْن، وأخرج منه حقيبة عسكرية خضراء اللون، ثمّ أعطاها لي، وأخبرني أن هذه هي حقيبة كُتُبي.

كان لدى "وانغ لي تشيانغ" فكرة مثيرة للسخرية عن أطفال القُرى. ربمّا كان ذلك لأنه وُلد في القرية، ولذلك فقد كان يشعر أن أطفال القُرى يتصرّفون كالبهائم، يتبوّلون ويتغوّطون أينما شاؤوا. ففي اليوم الأوّل الذي تبنّاني فيه، ظلّ يؤكّد لي على أهمّيّة المرحاض. كان اهتمامه بهذا الأمر خلال تلك اللحظات المقدّسة التي كُنتُ أهمّ فيها بحَمْل حقيبتي أمر لا يمكن نسيانه. أخبرني حينها قائلاً إنه يتوجّب عليّ أن أرفع يَدي، وأستأذن من المُعلّم قبل أن أذهب إلى دورة المياه.

كُنتُ مَزهوّاً بنفسي كثيراً حينها، أرتدي لباساً نظيفاً، وعلى كتفي حقيبة خضراء، ويسير بجانبي "وانغ لي تشيانغ" بحلّته العسكرية. سرْنا هكذا حتّى وصلْنا إلى المدرسة. شاهدتُ رجلاً يرتدي سترة صوفية، أخذ يتحدّث إلى "وانغ لي تشيانغ" بصوت منخفض، لم أجرؤ على الضحك، لأن هذا الرجل

كان مُعلِّمي. بعد ذلك، شاهدتُ طفلاً في سِنِّي نفسها، يُلوِّح بحقيبته من بعيد، ثمّ يركض قادماً نحونا، تبادلتُ النظرات إلى هذا الطفل، وكان هناك مجموعة من الأطفال يقفون غير بعيد، ينظرون إلينا، ثمّ سمعتُ "وانغ لي تشيانغ" يقول:

"هيّا، اذهبْ أنتَ".

سرتُ نحو تلك المجموعة من الأطفال، كانوا ينظرون إليّ بفضول، وكُنتُ أنظر إليهم بالمثل. لم يكد يمرّ بعض الوقت حتّى شعرتُ بأنني شخص مميّز، فقد كانت حقيبة كُتُبي أكبر من حقائبهم. إلا أنه في ذلك الوقت الذي كُنتُ فيه مَزهوّاً بنفسي، سمعتُ "وانغ لي تشيانغ" يسير نحوي عندما هممتُ بالمغادرة، وقال لي بصوت عالٍ:

"لا تنسَ أن ترفع يَدَكَ طَلَبَاً للإذن، إذا أردتَ التّبوّل أو التّغوّط"؟

حينها شعرتُ أنني قد طُعنتُ في كرامتي طعنة قاتلة.

عشتُ خمس سنوات من طفولتي في المدينة مع ذلك الرجل قوي البنية "وانغ لي تشيانغ" وتلك السّيّدة الهزيلة الضعيفة لي شيو ينغ. لم أكن قد ذهبتُ للعيش معهم في المدينة، لأني طفل محبوب مُطيع، فحقيقة الأمر أن حاجة "وانغ لي تشيانغ" وزوجته لي كانت أكبر بكثير من شَغَفي للحياة في المدينة. لم يكن لديهم أطفال، والدتي بالتّبنّي "لي شيو ينغ "كانت تقول إنها ليس لديها القدرة على إرضاع الأطفال. الجملة نفسها كانت تغيَّرت تماماً عند والدي بالتّبنّي "وانغ لي تشيانغ"، حيث أخبرني أن المرض يفتك بجسدها، ولو حملتْ، فسوف تموت. كان هذا الكلام مخيفاً، بالنسبة إليّ حينها. فهم لا يحبّون الأطفال الرّضّع، ولذلك اختاروا طفلاً مثلي في السادسة، لأنني أستطيع القيام ببعض الأعمال.

إحقاقاً للحقّ، لقد كان ينويان أن يتبنّياني، ويعاملاني كابن لهما طيلة حياتهما، وإلا فقد كان بإمكانهما تبنّي طفل في الرابعة أو الخامسة عشرة من عمره، يمكنه القيام بالكثير من الأعمال، بشكل أفضل منّي. ولكن المشكلة هي أن طفلاً في الرابعة أو الخامسة عشر من عمره سيكون من الصعب تغيير طباعه التي نشأ عليها، وهو ما سوف يُسبِّب لهما صداعاً كبيراً. لكنهما اختاراني، يُطْعِمَانني ويُلْبِسَانني، ويَمْنَحَانني فرصة التعليم والذهاب إلى المدرسة كباقي الأطفال، وفي الوقت نفسه، كانا يعاقبانني بالضَّرْب والسّباب عندما أخطئ. وهكذا فقد صرتُ طفلاً لهما بالتّبنّي.

خلال السنوات الخمس التي قضيتُها معهما، لم تخرج أمّي الجديدة من البيت سوى مرّة واحدة، ولم أرها ثانية بعدها. لم أعرف تحديداً حقيقة المرض الذي كانت تعاني منه، ولكنّ وَلَعَهَا بأشعّة الشمس كان قد ترك بداخلي أثراً لا يُمحى. فجسد هذه المرأة التي صارت والدتي بالتّبنّي كان أشبه بزخّات مطر، لا تنقطع.

أُصبتُ بالدَّهْشة الشديدة حين اصطحبتْني هذه الأمّ إلى غرفتها للمرّة الأولى، شاهدتُ غرفتها مملوءة بالكراسي الصغيرة التي وَضَعَتْ فوقها الكثير من الملابس الداخلية حتّى تتسلّط عليها أشعّة الشمس التي تخترق زجاج النافذة. بدت وكأنها لم تشعر بدخولنا إلى غرفتها، كانت تمدّ يدها تتحسّس أشعّة الشمس، وكأنها تُمسِك بخيط رفيع للغاية. ومع تحرُّك هذا الخيط، كانت تُحرِّك الكراسي حتّى تترك الملابس الداخلية الزاهية مُعرّضة للشمس أكبر وقت ممكن. كانت مستغرقة بهدوء في هذه الحالة الرتيبة، لم أعرف كم مضى على وقوفي هناك، وعندما استدارتْ بظهرها، شاهدتُ عينَيْن كبيرتَيْن مجوَّفتَيْن، وعندما أتذكّرهما الآن أراهما معتمتَيْن. تلى ذلك صوت رفيع، تسلّل إلى أذني مثل خيط رفيع، وَلَجَ في سَمِّ الخيّاط، حدَّثَتْني قائلة إنها لو ارتدت ملابس داخلية مُبلَّلة، فسوف "تموت في الحال".

أُصِبتُ بالخوف حينها، فهذه المرأة ذات الجسد الواهن بدت صارمة للغاية، وهي تتحدّث عن الموت. فبعدما غادرتُ قريتي المألوفة وأشقّائي وأبي وأمّي، وجئتُ إلى هنا، كانت أوّل ما قالتْهُ لي هذه المرأة التي تبعث هيئتها على القلق، هي أنها ستموت في أيّ لحظة.

بعد ذلك، عرفتُ تدريجياً أنها لم تكن تُهوِّل أو تُبالغ. فقد كانت تُصاب بالحمّى في تلك الأيّام التي لا ينقطع فيها المطر، وترقد في فراشها تئنُّ من شدّة المرض. كان منظرها وكأنها تلفظ آخر أنفاسها، قد جَعَلَني أشعر أن نبوءتها ستتحقّق على الفور. إلا أنه بمُجرّد ما إن تسطع الشمس، وتخترق أشعّتُها زجاجَ النوافذ، لتتسلّط على ملابسها الداخلية حتّى تغمرَها مشاعر الطمأنينة والرضا، وكأنها تستسلم لواقع استمراريّتها في الحياة. هذه المرأة حسّاسة للرطوبة بشكل مخيف، بل حتّى إنها يمكنها أن تتحسّس رطوبة الهواء بيَدَيْها. ففي كل صباح، كُنتُ أدخل إلى غرفتها حاملاً قطعة قُماش جافّة، أمسح بها زجاج النوافذ، وكُنتُ أراها تمدّ يدها من داخل ناموسيّتها المطرّزة بزهور زرقاء، تتحسّس الهواء بيدها، وكأنها تلمس شيئاً محسوساً، ومن ثمّ، يمكنها التّنبّؤ هل الجوّ سيكون اليوم رطباً أم لا. في بداية الأمر، كُنتُ أترتجف خوفاً منها، فقد كانت تتوارى بجسدها خلف ناموسيّتها، ولا يظهر منها سوى يدها البيضاء الشاحبة الممتدّة للخارج، كانت تُفرِّج بين أصابعها الخمسة، وكأنها يدٌ مقطوعة، تسبح في الهواء.

من الطبيعي أن تكون "لي شيو ينغ" المُثخَنَة بالمرض مهتمّة بالنظافة. فعالمها قد صار ضيّقاً للغاية، ولو حدث أن عمَّتِ الفوضى هذا العالم، فسيكون من الصعب على جسدها الضعيف الاستمرار في الحياة. كُنتُ مسؤولاً عن أعمال الحفاظ على نظافة غرفتها بالكامل، وأهمّ هذه الأعمال هي مَسْح زجاج النوافذ، فكان عليّ أن أمسحَها مرَّتَيْن يومياً حتّى أضمن

أن تتسلّط أشعّة الشمس على ملابسها الداخلية دون أن تتأثّر بأيّ غبار أو أوساخ على زجاج النوافذ. كانت معاناتي تبدأ مع قيامي بفَتْح النوافذ، حيث كُنتُ أمسح الجهة الخارجية للزجاج بسرعة ونظافة. كطفل صغير، لم تكن سرعتي بالقَدْر الكافي حينها. كانت "لي شيو ينغ" بالفعل واهنة الجسد، تخشى من الرياح بشدّة، أخبرتْني أن الرياح هي أسوأ شيء في العالم، فهي تجلب الغبار والجراثيم والروائح الكريهة معها، ومن ثمّ، تجعل الإنسان يُصاب بالمرض، ويموت. كان حديثها المرعب عن الرياح قد جَعَلَني أتخيّل أن الرياح لها أسنان كبيرة، تتسلّق النافذة ليلاً، وتُلطّخها بالقذارة.

بعدما انتهت من هجومها على الريح، سألتْني فجأة على نحو غامض:

"هل تعرف من أين تأتي الرطوبة"؟

ثمّ تابعتْ قائلة: "الريح هي مَنْ تأتي بها".

بدت غاضبة بشكل مفاجِئ، وهي تقول هذه العبارة، فأصابتْني بالفزع الشديد.

كان للزجاج تأثير سِحْرِيّ، فهو يفصل بهيئته الشّفّافة بين حياة "لي شيو ينغ" والعالم الخارجي، بمعنى أنه يحميها من الرياح والتراب، ويحافظ على علاقتها الحميمة بأشعّة الشمس.

لا زلتُ أتذكّر بوضوح عصر ذلك اليوم، فعندما اختفت الشمس خلف التّلّة البعيدة، وقفت "لي شيو ينغ" أمام النافذة تشاهد ذلك الشَّفَق الأحمر خلف التّلّة بوجه، يغمره الحزن، حيث أخبرتْني قائلة:

"تودّ أشعّة الشمس لو تسطعُ على نافذتي، ولكن التّلّة حجبتْها في منتصف الطريق".

اخترق صوتها الأيّام والسنين، وترامى إلى مسامعي الآن، وهو ما جَعَلَني أشعر بأن هناك تاريخاً طويلاً من الثقة المتبادَلَة بينها وبين أشعّة الشمس. أمّا هذه التّلّة، فهي شيء مُستبدّ، اغتصب أشعّة الشمس الخاصّة بها.

أبي الجديد كان مشغولاً طيلة اليوم خارج البيت. لم يكن يتوقّع أنني قادر على العمل. كان فقط يأمل أن يعمل صوت تحرّكاتي، ويتابع قدرتي على تخفيف قلق زوجته "لي شيو ينغ" الناجم عن الوحدة. وحقيقة الأمر أنها لم تكن تهتمّ بوجودي، كانت تحبّ أن تستغلّ الكثير من وقتها في إظهار التعاطف مع نفسها، فقليلاً ما كانت تهتمّ لأمري. باختصار هي لم تكن تتوقّف عن التّذمّر والشكوى من المرض، وعندما كُنتُ أظهر أمامها مُنتظراً منها أن تطلبَ منّي أن أفعل شيئاً لأجلها، كانت تتجاهلني تماماً. أحياناً كان ذهولي سبباً في شعورها الغامض بحالة من الفخر، كونها مريضة.

عندما جئتُ إلى بيتهما، شاهدت أرضية غرفتها مفروشة بورق الجرائد المصفرّ، وعليه عدد كبير من الديدان البيضاء. كانت "لي شيو ينغ" المثخنة بالمرض تتعاطى أيّ علاج يُوصَف لها، حيث علمتُ بعدها أن هذه الديدان الصغيرة المخيفة هي وصفة علاجية جديدة لها. عندما قامت هذه السّيّدة بطَبْخ هذه الديدان، وأخذتْ تتناولها بهدوء واحدة تلو الأخرى، كُنتُ أقف قريباً منها شاحب الوجه. كان خوفي قد جعلَها منتشية، فشاهدتُها تنظر إليّ مبتسمة ابتسامة غامضة، وتقول لي:

"هذا علاج لمرضي".

بالرغم من أن "لي شيو ينغ" كانت، أحياناً، لا تُطاق، إلا أنها، في الحقيقة، شخص طيّب ومتسامح، شكوكها ووساوسها هي عيوب مشتركة

عند السّيّدات عامّة. في البداية، كانت دائماً قلقة من أن أتسبّب في أيّ أضرار في بيتها، ومن ثمّ، عقدتْ لي اختباراً. ذات مرّة بينما كُنتُ أقوم بمَسْح نافذة غرفة أخرى، وجدتُ نصف يوان على حافّة النافذة. أصِبتُ بالذهول حينها، فنصف يوان حينها كان، بالنسبة إليّ، مبلغاً ضخماً. وعندما هممتُ بتسليمها هذه النقود، كانت كَمَنْ أُزيح عن كاهلها حِمْلٌ ثقيلٌ، عندما شاهدتْ دهشتي وأمانتي. أخبرتْني بوضوح أن هذا كان بمثابة اختبار لي. كانت تمتدحني بنبرة مؤثّرة، فقد كُنتُ على وشك البكاء بسبب إطرائها المُطوَّل. استمرّتْ ثقتها فيّ طيلة السنوات الخمس التي قضيتُها هناك، فعندما تعرّضتُ للمؤامرة داخل المدرسة، كانت هي الوحيدة التي تثق في براءتي.

زوجها ذو البنية القوية كان يبدو خامداً فاتر الهمّة فور عودته إلى البيت، وغالباً ما كان يجلس وحيداً عابساً قاطباً حاجبَيْه. ذات مرّة، في أوّل صيف أقضيه في بيته، طلب منّي أن أجلس على حافّة النافذة، وأخذ يحكي لي بالتفصيل عن النهر الموجود خلف التّلّة، وأن هناك مركباً خشبياً عند النهر، مشاهد بسيطة إلا أنها ظلّت محفورة في ذاكرتي، باختصار كان رجلاً لطيفا معي، إلا أنه كان يتحدّث بلهجة مخيفة في بعض الأحيان. كان لديه قَدَح يحبّه كثيراً، وبوصفه قطعة الديكور الوحيدة داخل البيت، كان يضعه فوق جهاز المذياع، وحتّى يلفت انتباهي، كي أحافظ على هذا القَدَح، حذّرني بلهجة صارمة قائلاً إنه لو حدث أن كسرتُ هذا القَدَح يوماً ما، فسوف يكسر رقبتي. كان حينها مُمسِكاً بخيارة في يده، قَطَمَهَا أمامي إلى نصفَيْن، وقال لي:

"هكذا".

أُصبتُ بالذعر حينها حتّى إنني شعرتُ أن هناك هواء بارداً يلفح رقبتي من الخلف.

قبل بلوغي السابعة بقليل، جعلتْني تقلّبات الحياة أتحوّل إلى شخص آخر. يمكنني القول إنني كُنتُ جاهلاً بحالتي بشكل كامل. فخلال سنوات طفولتي التي كُنتُ منجرفاً فيها وسط التّيّار، تحوّلتُ فجأة من حياة الصخب في بيت والدي "سون قوانغ تساي"، إلى حياة الخوف داخل منزل "لي شيو ينغ" كثيرة الشكوى و"وانغ لي تشيانغ" دائم التّنهّد.

حينها تأقلمتُ بسرعة مع هذه المدينة التي تُسمّى "سون تانغ". في البداية، كان الفضول ينتابني بشكل يومي. تلك الطُّرُق الطويلة الضّيّقة المرصوفة بالحجارة جعلتْني أشعر أنها طويلة للغاية مثل ذلك النهر المارّ بقرية الباب الجنوبي الذي لا أعرف كم يبلغ طوله. أحياناً كان "وانغ لي تشيانغ" يصطحبني من يدي مثل الأب، ونسير معاً في هذه الشوارع، أحياناً كان يُخيّل إليّ أننا قد نستمرّ في السير وصولاً إلى بكين، إلا أنه في تلك الأثناء، كُنتُ أجد نفسي واقفاً أمام باب البيت فجأة، ظلّ هذا السؤال يُؤرّقني لفترة طويلة، فقد كُنتُ أستمرّ في السير للأمام، إلا أنني كُنتُ أجد نفسي واقفاً أمام باب البيت في النهاية. كان أكثر ما أثار دهشتي في تلك المدينة هو برج المعبد المرتفع، فقد كانت هناك الكثير من الأشجار عند نوافذ البرج. كُنتُ دائم التفكير في هذا المشهد، وأحياناً أتخيّل أن هناك أشجاراً قد تنمو فوق فم "لي شيو ينغ"، ربّما لن تكون بالضرورة أشجاراً، فقد تكون حشائش خضراء.

غالباً ما كُنتُ أسمع أصوات الدَّهْس الناجمة عن السير فوق حجارة الطريق، وخاصّة وقت سقوط المطر، فعندما يدوس أحدهم بقُوّة على أحد جوانب الألواح الحجرية، كان الطين يتناثر من الجانب الآخر. كُنتُ مُغرَماً بهذه اللعبة لفترة طويلة، فما إن كُنتُ أحصل على فرصة للخروج إلى الشارع، كُنتُ أنخرط بحواسّي كلها في هذه اللعبة. حينها كم كُنتُ أودّ لو

نثرت هذا الطين فوق سراويل المارّة، إلا أن خوفي كان يمنعني. فالعواقب الوخيمة التي لم تحدث كانت تُصوِّر لي مشاهد عقابي المخيفة. بعد ذلك، شاهدتُ ثلاثة صِبْيَة يقذفون بأغطية البراميل الموضوعة أمام البيوت في الهواء. كانت هذه الأغطية تدور في الهواء بشكل رائع، سمعتُ سكّان البيوت يسبّونهم بصوت عالٍ، ثمّ شاهدتُ الصِّبْيَة يفرّون هاربين، وأصواتهم تتعالى بالضحكات. أدركتُ حينها المغزى من الهروب، فهو يجعلكَ بمنأى من العقاب، ويطيل من مدّة السعادة واللهو في الوقت نفسه. ولذلك فعندما شاهدتُ فتاة جميلة ترتدي ملابس نظيفة قادمة نحوي، دُستُ بقُوّة على أحد الألواح الحجرية الناتئة، فتناثر الطين على ملابس الفتاة. كُنتُ قد رسمتُ لنفسي خطّة الهروب، ولكن المشكلة هي أنني بعدما حقّقتُ رغبتي تلك، لم أشعر بالسعادة التي كُنتُ أتخيّلها. فتلك الفتاة لم تسبّني، ولم تلاحقْني، بل جلستْ هناك في منتصف الطريق تبكي بصوت عالٍ. كان استغراقها في البكاء لوقت طويل، أطالَ من وقت شعوري بالخوف.

عند ناصية هذه الطريق، يسكن صبيّ عادة ما يرتدي قبّعة. كان ينفخ في مِزْمَار هو عبارة عن عصا من الخيزران، فتنطلق منها ألحان، بالنسبة إليّ حينها كان هذا يضاهي روعة تلك الأشجار وسِحْرَها التي تنمو على نوافذ المعبد. كان عادة ما يسير في الشارع مختالاً واضعاً يَدَيْه في جَيبَي سرواله، ويتبادل التّحيّات مع بعض الكبار الذين يعرفهم. كُنتُ قد حاولتُ تقليد مشيته وطريقته. فعندما وضعتُ يَدَيَّ في جَيبَيّ، وحاولتُ أن أتمايل في مشيتي، كما كان يفعل، تعرّضتُ للتوبيخ الشديد من "وانغ لي تشيانغ"، حيث قال لي إنني أتشبّه بالصعاليك.

بعدما كان هذا الصبيّ ينفخ في مِزْمَاره ذي الصوت العذب، كان يُقلِّد صوت مِزْمَار بائع الحلوى المُتجوِّل. وعندما كُنتُ أركض بصحبة بعض

الصِّبْيَة المُتلهّفين لشراء الحلوى، لم نكن نجد بائع الحلوى المُتجوِّل، بل كُنّا نشاهده واقفاً أمام نافذته بيته منخرطاً في الضحك. كانت علامات البلاهة التي ترتسم على وجوهنا بعد تعرّضنا للخداع، تجعله يسعل من شدّة الضحك.

بالرغم من أنه كان يخدعنا مراراً وتكراراً، إلا أنني كُنتُ أركض ساعياً في إثر بائع الحلوى، في كل مرّة، أسمع فيها هذا الصوت. ذات مرّة، اكتشفتُ أنني أنا الوحيد الذي خُدِعْتُ بهذا الصوت، حينها كان صوت ضحكاته المرتفع قد جَعَلَني أشعر بالحرج. فقُلتُ له:

"هذا الصوت الذي تعزفه لا يُشبهُ صوت عزف بائع الحلوى".

ثمّ تظاهرتُ بالذكاء، وقُلتُ:

"ما إن سمعتُ هذا الصوت حتّى عرفتُ أنها خدعة".

ضحك بشكل غير متوقّع، وسألني قائلاً:

"ولماذا تركض خلف الصوت، إذنْ"؟

كُنتُ مثل الأخرس حينها، فلم أكن أتوقّع أن أُسأل مثل هذا السؤال، ولم أكن مستعدّاً للإجابة.

في عصر يوم لاحق، قابلتُهُ في الشارع بينما كُنتُ ذاهباً لشراء زيت الطهو، حينها قام بخداعي بحيلة جديدة. مرّ بجواري حينها، ثمّ أوقفني فجأة. انحنى بجسده ورفع مؤخّرته ثمّ طلب منّي أن أنظر هل هناك قَطْع في سرواله من الأسفل أم لا. لم أكن أعرف أنه ينصب لي فخّاً، فعندما اقتربتُ بوجهي من مؤخّرته، لم أجد قَطْعاً، فأخبرتُهُ بأنني لم أرَ أيّ مَزْقٍ في سرواله. قال لي:

"انظرْ ثانية بدقّة".

نظرتُ بدقّة، فلم أجد أيّ مَزْق.

قال: "حاولْ أن تقترب أكثر".

اقتربتُ أكثر حتّى كاد وجهي يلتصق بمؤخّرته، حينها أطلق ريحاً ذا رائحة كريهة، وأخذ يضحك بصوت عالٍ. وبالرغم من أنه كان يخدعني مرّة تلو الأخرى إلا أنني كُنتُ دوماً معجباً به.

غمرتْني تلك الحياة الجديدة بشكل كامل، حتّى إنني نسيتُ حياة الجري في الحقول التي كُنتُ أعيشها منذ وقت قريب في قرية الباب الجنوبي. إلا أنني أحياناً كُنتُ أتخيّل وشاح والدتي ذا المربّعات الزرقاء وهو يرفرف في الهواء عندما أكون على وشك الاستغراق في النوم ليلاً، حينها كُنتُ أشعر بحزن شديد، يُدخلني في موجة من القلق، إلا أنني كُنتُ أنسي كل شيء بمُجرّد انخراطي في النوم. ذات مرّة، سألتُ "وانغ لي تشيانغ":

"متى ستُعيدني ثانية إلى والدَيّ"؟

حينها كان "وانغ لي تشيانغ" يصطحبني من يدي، ونسير معاً في الشارع وقت الغروب. لم يُجبني على الفور، اشترى لي خمس زيتونات، ثمّ قال لي:

"سأعيدكَ إلى والدَيْكَ بعدما تكبر".

ثمّ مَسَحَ الرجل الذي يعاني من مرارة مرض زوجته على رأسي حينها، وحدَّثني بنبرة مشوبة بالقلق، وقال لي إنه يتعيّن عليّ أن أكون فتى مطيعاً، وأن أجتهد في دراستي، قال لي إنه إذا فعلتُ كما يطلب منّي، فسوف يُزوِّجني زوجة قوية صحيحة الجسد بعدما أكبر.

كانت كلامه مُحبِطاً لي، فقد كُنتُ أتوقّع هدية ما، ولكن النتيجة كانت امرأة قوية صحيحة الجسد.

لم أعد مُتسرّعاً في العودة إلى قرية الباب الجنوبي بعدما أعطاني الزيتونات الخمس، فلم أكن أرغب في مغادرة هذا المكان الذي يمكنني أن آكل فيه الزيتون.

بدا عليّ فرط الحماسة لمرّة واحد فقط. كان ذلك في عصر الأيّام، حيث خُيّل إليّ أنني شاهدتُ أخي الأكبر عندما شاهدتُ أحد الأطفال يسير مُعلّقاً حقيبته أمام صدره، ويعقد يَدَيْه خلف ظهره. نسيتُ فجأة حينها أنني في مدينة أخرى، وشعرتُ وكأني عدتُ إلى قرية الباب الجنوبي، أجلس بجوار البركة، أشاهد أخي الأكبر الذي عاد لتوّه من المدرسة، يمشي متخايلاً، وأنا أركض نحوه، أنادي عليه. جاءت نهاية هذه الحماسة مع التفاتة هذا الطفل الغريب بوجهه نحوي مستغرباً، فأدركتُ حينها أنني قد غادرتُ قرية الباب الجنوبي، أصابتْني هذه الحقيقة المفاجِئة بالحزن الشديد. كانت هذه هي أشدّ لحظاتي حنيناً إلى موطني، بعدها سرتُ باكياً ماضياً في طريقي.

صار لديّ صديقان في المدينة، أحدهما اسمه "كوه تشينغ" والآخر اسمه "ليو شياو تشينغ". لازلتُ أشعر بالسعادة في قلبي عندما أتذكّرهما الآن، فقد كُنّا نلهو معاً في الشارع المرصوف بالألواح الحجرية، وكأننا ثلاث بطّات، لا تتوقّف على الصياح.

كُنتُ أحبُ "كوه تشينغ" أكثر من "ليو شياو تشينغ"، فقد كان "كوه تشينغ" ماهراً في الركض، في المرّة الأولى التي تقابلْنا فيها، ركض نحوي والعَرَق يقطر من جبينه، هذا الطفل الغريب عنّي تماماً، سألني بكل ودّ:

"هل أنتَ ماهر في العراك"؟

ثمّ استطرد قائلاً: "يبدو عليكَ أنكَ ماهر في العراك".

كان سبب علاقة صداقتي مع "ليو شياو تشينغ" هو وَلَعي بعزف أخيه على المِزْمَار. فأخوه كان هو ذلك الفتى الذي يرتدي القبّعة، وهو ما جَعَلَني أَغْبِطُهُ بشدّة.

بالرغم من كونه في مثل سنّي، إلا أن "كوه تشينغ" ذا السّنّ الصغيرة كان يتمتّع بموهبة القيادة. كُنتُ معجباً به، لأنه جعل لطفولتي طابَعَاً خاصّاً. لا يمكنني أن أنسى ذلك الموقف حين اصطحبَني برفقة "ليو شياو تشينغ"، ووقفْنا معاً، ننتظر قدوم الأمواج عند شاطئ النهر، فقبل ذلك، لم نكن نعرف أن أمواج الماء قد تمنحنا مثل هذا الشعور الرائع. كُنّا نقف نحن الثلاثة على مسافة محدّدة على شاطئ النهر في ذلك اليوم من أيّام الصيف، والموجات التي تخلف عبور السفن تدفع أقدامَنا العارية، كُنتُ أشاهد الأمواج تزحف فوق مشطَي قَدَمَيّ طبقة تلو الأخرى. كانت أقدامنا العارية أشبه بمركب يرسو على الشاطئ، يتمايل مع الأمواج. إلا أنه في ذلك الوقت، كان عليّ أن أعود إلى البيت، فقد حان وقت مَسْح الزجاج، وتنظيف الأرضيات. كان صديقاي يستعدّان للاستمتاع بالأمواج للمرّة الثانية عندما شاهدا سفينة قادمة من بعيد، تقترب نحوهما، بينما كُنتُ أنا مُجبَرَاً على المغادرة، والعودة مسرعاً إلى البيت.

أمر آخر لا يمكنني نسيانه، وهو تلك المتعة التي حظيتُ بها عندما صعدتُ فوق بيت "كوه تشينغ"، ونظرتُ من هناك إلى الحقول البعيدة. ففي تلك الأثناء، لم يكن هناك الكثير من سكّان المدينة يسكنون في مبان مرتفعة. كُنّا نقفز سعداء أنا و"ليو شياو تشينغ" مثل عصفورَيْن من

فرط الحماسة، ونحن في طريق ذهابنا إلى بيت "كوه تشينغ" الذي كان يتصرّف كصاحب البيت تماماً، سار وسطنا يحكُّ أنفه بيده من حين لآخر، ويبتسم ابتسامة الكبار، لكي يداري زَهْوه بنفسه.

وصلنا إلى بيته، حيث قام "كوه تشينغ" بالطّرْق على الباب، فُتح الباب قليلاً، وأطلّ من خلفه نصف وجه مملوء بالتجاعيد، ثمّ سمعتُ "كوه تشينغ" يقول:

"كيف حالكِ، يا جدّتي"؟.

فُتح الباب، بحيث تمكّن "كوه نشينغ" من الدخول، شاهدتُ المكان مظلماً بالداخل، كما شاهدتُ وجه هذه العجوز ذات الملابس السوداء بالكامل. كانت تنظر إلينا بعينَيْن لامعَتَيْن، لا تتناسبان مع سنّها.

بينما كان "ليو شياو تشينغ" الواقف أمامي يستعدّ للدخول، هَمّت العجوز بإغلاق الباب ثانية، حيث تركت فتحة صغيرة، أطلّتْ بعينَيْها من خلفها، ثمّ سمعتُ صوتها المبحوح للمرّة الأولى، وهي تقول:

"ناديني، يَا جدّتي".

بعدما ناداها "ليو شياو تشينغ"يا جدّتي، فتحت له الباب، ودخل. كان دوري هو التالي، حيث أغلقت الباب، وأطلّت بعينَيْها من خلفه. كان "ليو شياو تشينغ" قد صعد إلى الطابق العلوي، أمّا، أنا فلم يكن أمامي سوى أن أناديها بصوت مرتجف. بعدما حصلتُ على الإذن بالدخول إلى هذه البقعة المظلمة، قامت العجوز بإغلاق الباب، ولم يكن هناك ضوء إلا أمام السلالم. لم أستمع إلى وَقْع قَدَمَيْها وهي تغادر مكانها عندما هممتُ بصعود السلالم، فعرفتُ أنها واقفة هناك، تُحدِّق فيّ من الخلف، يا له من أمر مخيف!

في كل مرّة كُنتُ أسير مفعَماً بالسعادة نحو بيت "كوه تشينغ" خلال العامَيْن التاليَيْن، كان عليّ أن أتجاوز حاجز الخوف المتمثّل في تلك السّيّدة العجوز. ذلك الصوت الذي عادة ما كان يجعل الكوابيس تهاجمني، كان يُؤرِّقني في أثناء سيري في طريقي أيضاً. كان عليّ أن أستذكر مشاعر السعادة التي أشعر بها عندما أقف فوق بيت "كوه تشينغ" حتّى أحفّز نفسي على المضي قُدُماً، لأطرق باب بيته.

ذات مرّة، بعدما طرقتُ الباب، على عكس المتوقّع، لم تطلب منّي العجوز هذه أن أناديها يا جدّتي، بل ابتسمت لي ابتسامة غامضة، ثمّ أذنت لي في الدخول. ولكن "كوه تشينغ" لم يكن في البيت حينها، وعندما هممتُ بنزول السّلّم، أخذت هذه العجوز تطاردني، وكأنها تطارد كَتْكُوْتاً صغيراً. اصطحبتْني من يدي، وسارت بي نحو غرفتها. كانت يدها مُتعرِّقة وهي تمسك بيدي، وهو ما جعل جسدي يرتعش، ولكني لم أجرؤ على مقاومتها، فقد أُصبتُ بالذهول من فرط الخوف.

كانت غرفتها مضيئة على خلاف بقية البيت، كما أنها كانت نظيفة للغاية. رأيتُ الكثير من البراويز مُعلّقة على الجدران، وسط هذه البراويز، كانت هناك صور بالأبيض والأسود لرجال وسيّدات كبار في السّنّ بملامح صارمة، قالت بصوت هادئ:

"جميعهم قد ماتوا".

كانت تتحدّث بصوت منخفض، وكأنها تخاف أن يسمعوها، وهو ما جَعَلَني غير قادر على التّنفّس بحُرّيّة. بعدها أشارت إلى صورة رجل ذي لحية طويلة، وقالت:

"هو شخص عطوف وودود، فقد جاء لزيارتي ليلة البارحة".

شخص ميّت قد جاء لزيارتها؟ لم أتمالك نفسي، فبكيتُ من شدّة الخوف. أبدت استياءها من بكائي، حيث قالت غاضبة:

"ما الذي يُبكيكَ؟".

بعد ذلك، أشارت إلى صورة أخرى، وقالت:

"هذه المرأة لا تجرؤ على المجيء، فقد سرقت خاتمي، وتخاف أن أطلب منها إعادته".

لم تتركني هذه العجوز الغامضة أغادر غرفتها المرعبة إلا بعدما قامت بتعريفي بأصحاب الصور واحداً وحداً، بلُغتها المخيفة. بعدها لم أعد أجرؤ على الذهاب إلى بيت "كوه تشينغ"، ولم تعد لديّ الجرأة على الاقتراب من هذه العجوز حتّى لو كان حفيدها بصحبتي. مرّت فترة طويلة حتّى بدأتُ أشعر أنها ليست مخيفة في الحقيقة، هي فقط مستغرقة في وحدتها وعزلتها التي لم أكن أستطيع إدراكها بحُكْم سنّي الصغيرة، تقف على الحدّ الفاصل بين الحياة والموت، لا تُنصفها الحياة، ولا يُريحها الموت.

في المرّة الأولى التي وقفتُ فيها أعلى منزل "كوه تشينغ"، أُصبتُ بالدَّهْشة حين شاهدتُ تلك المناظر البعيدة. بدت المسافات وكأنها قد تقلّصت فجأة، وأصبح كل شيء على مَرمَى البصر. صارت الحقول كالتلال ممهّدة نحو الأعلى، لم أتمالكْ نفسي من الضحك وأنا أشاهد الأشخاص الذين بدوا في حجم النمل يسيرون بعيداً. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أستشعر فيها ما هو اللامحدود.

"كوه تشينغ" طفل دقيق في تصرّفاته كلها، دائماً ما يرتدي لباساً نظيفاً،

ويضع في جيبه منديلاً مَطويّاً بشكل منظّم. عندما كُنّا نصطفّ على شكل فِرَق خلال حصّة التربية الرياضية كان دائماً ما يُخرِج المنديل من جيبه، ويمسح فمه. كان أسلوبه الأنيق قد جعل طفلاً مثلي يتدلّى مخاطه من أنفه في حاله من الذهول. كان لديه صُندُوق دواء صغير أشبه بذلك الذي يحمله الأطبّاء، يضع في داخله خمس زجاجات من الدواء مرتّبة بدقّة. بدا هذا الطفل ذو الأعوام الثمانية صارماً دقيقاً، وهو يشرح لي فوائد كل نوع من هذه الأدوية، عيناي المعجبتان كانتا تنظران إليه على أنه ليس طفلاً في مثل سنّي، بل على أنه طبيب. كان دائماً ما يحمل معه صُندُوق الدواء في كل مكان، ذات مرّة، كان يجري في الساحة الرياضية، ثمّ توقّف فجأة، وأشار إليّ بيده إشارة الواثق، يُخبرني أنه يشعر بالمرض، وعليه تناوُل الدواء. ذهبتُ معه إلى حجرة الدرس، وشاهدته يُخرِج إحدى زجاجات الدواء من الصُّندُوق، ثمّ يفتحها، ويأخذ منها قرصاً من الدواء، ويضعه في فمه، ثمّ يميل برأسه إلى الخلف، ويبتلعه دون الحاجة لشرب الماء.

والده كان شخصاً يجعلني أشعر بالخوف والرهبة. كان يأتي إلى ابنه عندما يشعر بالمرض. حينها كان الابن يشعر بالحماسة، فينساب صوته العذب بلا انقطاع، يسأل والده بالتفصيل عن تلك الظروف التي صاحبت شعوره بالمرض، ولا يتوقّف عن الكلام إلا عندما يقاطعه والده بعدما ينفد صبره. كان يفتح صُندُوق الدواء بحركة متمرّسة، ثمّ يشير بيده نحو الزجاجات الخمس المرصوصة في الداخل، ثمّ يتوقّف بيده عند إحداها، ويلتقط تلك التي تحتوي على الدواء الذي يحتاجه والده. وبينما كان يمدّ يده بالدواء يعطيه لوالده، كان يغتنم الفرصة، ليطلب من والده خمسة قروش. في تلك المرّة، وافق والده، وبينما كان والده يستعدّ لإحضار النقود من جيب ملابسه، يعطيها له، سارع "كوه تشينغ" بتقديم الماء لوالده، لكي يتناول الدواء، ثمّ ذهب هو، ودسّ يده في جيب ملابس والده الملقاة فوق

سريرة، أخرج يده، ومَدّها أمام والده، يُطلعه على قطعة الخمسة قروش المعدنية التي أخذها من جيبه، ثمّ دسّها في جيبه. وعندما كُنّا نسير في طريقنا إلى المدرسة، أخرج لي قطعَتَي نقود من فئة الخمس قروش. كان سخياً معي، أخبرني أنه قد أخذ الخمسة قروش الثانية من أجلي. وعلى الفور، اشترى لكل واحد منّا قطعة (آيس كريم).

لم أقابلْ والدة "كوه تشينغ" أبداً. ذات مرّة، بينما كُنّا نحن الثلاثة نلهو عند سور المدينة القديم، نُلوِّح بفروع من أشجار الصَّفْصَاف، ونجري فوق التربة الصفراء، ننادي على بعضنا، وكأننا نخوض معركة وَهْمية. جلسْنا على الأرض من شدّة التعب، حينها سأل "ليو شياو تشينغ" فجأة عن والدة "كوه تشينغ" الذي أجابه قائلاً:

"والدتي صعدت إلى السماء".

ثمّ أشار بيده إلى السُّحُب، وقال:

"ربُّ السماء ينظر إلينا الآن".

حينها كانت السماء زرقاء بشكل يبعث على السكون اللامتناهي، فبدت وكأنها تنظر إلينا. ثلاثة أطفال محاطون بهذا الفراغ العملاق، انتابتْني حينها رعشة بداخلي، فهذا الفضاء الفسيح قد جَعَلَني غير قادر على الاختباء. سمعتُ "كوه تشينغ" يستمرّ في حديثه قائلاً:

"إله السماء يطّلع على أفعالنا كلها، كبيرها وصغيرها، لا أحد يستطيع خداعه".

تمثّل الخوف من السماء الناجم عن السؤال عن والدة "كوه تشينغ" في ذلك القيد الذي شعرتُ به داخل قلبي في البداية. وحتّى الآن، لا

أزال أشعر فجأة بأن هناك عينَيْن تراقبانني، ولا مفرّ أمامي، وأنه لا مكان آمن، أحصل فيه على خصوصيّتي، فهي مُعرَّضة للكَشْف في أيِّ وقت.

ذات مرّة، دار شجار عنيف بيني وبين "كوه تشينغ" عندما كُنّا في الصّفّ الثاني الابتدائي. كان موضوع الشِّجار هو هل لو قمْنا بربْط القنابل الذّرّيّة كلها في العالم بحبل من الكتّان، وفجّرناها معاً هل ستنفجر الكرة الأرضية أم لا؟! كان "ليو" هو أوّل مَنْ طرح هذه الفكرة، كانت فكرته تجعلني أبتسم، وأنا أكتب هذه السطور. لا زلتُ أذكر بوضوح الحالة التي كان عليها وهو يقول تلك العبارة، حيث قام برَشْف مخاطه المتدلّي بقُوة، ثمّ جالت بخاطرة فجأة هذه الفكرة. كان صوت رشفته عالٍ جدّاً، حتّى إنني شعرتُ بالمخاط وهو يَنْجَذِبُ داخل أنفه.

كان "كوه تشينغ" يؤيّد الفكرة، ويعتقد بأن الكرة الأرضية ستنفجر، أو على الأقلّ ستحدث فيها حفرة مهولة مخيفة. حينها ستهبّ ريح عاصفة، تقذف بالناس في الهواء، وسيكون هناك صوت طنين مرعب.

لم أكن أُصدِّق أن الكرة الأرضية ستنفجر، أو حتّى يحدث فيها حفرة كبيرة. كان منطقياً في ذلك هو أن مُكوِّنات القنبلة الذّرّيّة أصلها من الكرة الأرضية، وأنها صغيرة جدّاً مقارنة بالكرة الأرضية، فكيف بإمكان القنبلة الصغيرة تفجير الكرة الأرضية الكبيرة؟ شكَّكتُ في حديثهما قائلاً:

"هل بإمكانكما هزيمة والدَيْكما؟ لن تتمكّنا، لأن والدَيْكما هما مَنْ أنجباكما، أنتما صغيران، وهما كبيران".

لم يكن بإمكان أيّ طَرَف منّا أن يُقنع الآخر، ولذلك سرْنا نحن الثلاثة نحو ذلك المدرّس ذي المعطف الصوفي، نطلب من أن يحكم بيننا بالعدل. كان ذلك وقت الظهيرة في أحد أيّام الشتاء، وكان المدرّس يجلس في أحد الزوايا يتشمّس. استمع إلى حديثنا بعينَيْن مغمضَتَيْن، ثمّ قال لنا بلهجة تأنيب:

"هذا من المستحيل أن يحدث، فالناس جميعهم في العالم يحبّون السلام، كيف لهم أن يربطوا القنابل الذّرّيّة معاً، ثمّ يُفجّرونها"؟!

كُنّا نتناقش من زاوية علمية، أمّا هو، فأجابنا من زاوية سياسية، ومن ثمّ، فقد استمرّيْنا في جدالنا، في الأخير، هاجمتُهما قائلاً:

"أنتما لا تفهمان شيئاً".

ردّا عليّ الهجوم قائلين:

"أنتَ الذي لا تفهم شيئاً".

حينها شعرتُ بالغضب الشديد، فقُلتُ لهما مُهدِّداً:

"لن أكون صديقاً لكما بعد اليوم".

قالا لي:

"ومَنْ ذاك الذي يرغب في صداقتكَ؟".

بعدها كان على أن أتحمّل عواقب هذا التهديد. فقد نفّذ "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" وعيدَهما، وأخذا يتجاهلانني. أمّا أنا، فلم أكن قادراً على تنفيذ تهديدي لهما. هما اثنان، وأنا وحيد، وهنا تكمن المشكلة، يمكنهما الإصرار على تجاهلي بسهولة، ولكن تجاهلهما كان صعباً للغاية، بالنسبة إليّ. بدأتُ أسير وحيداً، عادة ما كُنتُ أقف أمام غرفة الدرس، أشاهدهما يلهوان معاً عند الساحة الرياضية. حينها كانت عزّة نفسي تعاني من عقاب الغَيْرة الذي لا يَرْحَم. كُنتُ أنتظر كل يوم أن يأتياني، ويتصالحا معي، لتعودَ العلاقة بيننا كما كانت في البداية، وبهذا يمكنني الحفاظ على كرامتي، وأيضاً أن أستعيدَ السعادة التي عشتُها برفقتهما في الأيّام الماضية، في الوقت نفسه. إلا أنهما كانا يتغامزان ويضحكان

عندما يمرّان بجواري. بدا واضحاً أنهما عازمان على الاستمرار هكذا، فهذه الحالة لا تُمثِّل لهما أيّ خسارة. أمّا أنا، فكُنتُ على العكس تماماً، كُنتُ أسير وحدي عائداً إلى البيت بعد انتهاء الدراسة، وكأنني أمضغ شيئاً مُرّاً في حَلْقي صعب البَلْع.

كان الانتظار الطويل قد جَعَلَني عنيداً للغاية، ومن جانب آخر، كانت رغبتي في إعادة علاقتي معهما تزداد حدّة بمرور الوقت. بعدما أرّقتْني هذه المشاعر المتناقضة لفترة طويلة، وجدتُ فجأة التهديد الحقيقي الذي أُهدِّدهما به.

فكّرتُ في أن أنتظر "كوه تشينغ" في طريق عودته من المدرسة إلى البيت. ركضتُ مسرعاً، ووقفتُ هناك، أنتظر قدومه. "كوه تشينغ" كان دوماً مُعتدّاً بنفسه، ما إن رآني واقفاً هناك حتّى تعمّد أن يرسم على وجهه علامات التجاهل. أمّا أنا، فناديتُ عليه قائلاً:

"أعرف أنكَ سرقتَ نقود والدكَ".

حينها تبدّدت علامات التجاهل التي رسمها على وجهه فجأة، ثمّ التفتَ نحوي، وصاح قائلاً:

"أنا لم أفعلْ، أنتَ تكذب".

قُلتُ له بهدوء:

"لقد فعلتَ".

ثمّ استطردتُ أُحدِّثه عن تلك المرّة التي طلب فيها من والده خمسة قروش، ولكنه أخذ عشرة قروش.

قال غاضباً:

"الخمسة قروش الثانية أخذتُها من أجلكَ".

صرختُ فيه قائلاً:

"أنا لا أهتمّ لما تقول"، ثمّ قُلتُ بلهجة أكثر حدّة مُهدِّداً إيّاه:

"سوف أُخبرُ والدكَ بهذا الأمر".

بدا وجهه شاحباً، وأخذ يعضّ على شَفَتَيْه، لا يدري كيف يتصرّف. حينها استدرتُ بجسدي مُغَادِرَاً، كُنتُ أسير متبختراً مثل ديك انتهى من صياح الفجر. شعرتُ بقلبي ملآناً ببهجة الانتقام، فذلك اليأس الذي بدا على ملامح "كوه تشينغ "كان هو أساس بهجتي.

بعد ذلك، استخدمتُ طريقة مشابهة لتهديد "وانغ لي تشيانغ". ففي تلك السّنّ، كُنتُ قد تعلّمتُ كيف أصل إلى مرادي، مهما كانت الوسيلة. هذا التهديد قد أعاد لي صداقتي القديمة دون أن أخسر كرامتي. نعم، لقد استخدمتُ طريقة شرّيرة للحصول على شيء جميل.

في صباح اليوم التالي، شاهدتُ "كوه تشينغ" قادماً نحوي، أخذ يتحدّث معي بلهجة مملوءة بالتّودّد، ويسألني إذا ما كُنتُ أرغب في الصعود معه إلى بيته لمشاهدة المناظر الجميلة، حينها وافقتُهُ على الفور. تلك المرّة لم يكن معنا "ليو شياو تشينغ"، فقط أنا وهو. وبينما كُنّا نسير في طريقنا إلى بيته، أخذ يترجّاني ألا أُخبر والده بموضوع العشرة قروش. لقد استعدتُ صداقتي مرّة ثانية، فكيف لي أن أفشي سرّ صديقي، إذنْ؟!

الهجر

كان على "كوه تشينغ" أن يكون سيّد مصيره حين استيقظ في صبيحة أحد الأيّام عندما كان في التاسعة من عمره. فقد استقلّ بنفسه فجأة بينما كان لا يزال طفلاً، تفصله سنوات عديدة عن النضج والتّخلّص من سيطرة والدة. تلك الحُرّيّة المبكّرة جعلتْهُ كَمَنْ يحمل على عاتقه حملاً ثقيلاً، يحمل مصيره، ويسير في الشوارع المزدحمة على غير هُدى.

زميلي المسكين استيقظ مفزوعاً من حُلمه في صباح ذلك اليوم على إثر موجة من أصوات الفوضى. كان الوقت حينها في بداية فصل الخريف، حيث سار هذا الطفل ذو العينَيْن الناعستَيْن نحو الباب، يرتدي سروالاً قصيراً، فشاهد والده يقوم بنَقْل أثاث البيت بصحبة مجموعة من الرجال.

في البداية، كان مسروراً للغاية، فقد اعتقد أنهم سينتقلون للعيش في مكان جديد. كانت فرحته أشبه إلى حدّ كبير فرحتي عندما غادرتُ قرية الباب الجنوبي، إلا أن الواقع الذي سيواجهه لاحقاً كان أكثر قسوة ممّا حدث لي.

سأل زميلي والده بصوته الناعم إذا ما كانوا سينتقلون إلى مكان تعيش في الخيول البيضاء ذوات الأجنحة. لم يتأثّر الأب القاسي بخيال ابنه، بل بدا غاضباً ومُنفعِلاً، وهو يقول لابنه:

"لا تقفْ هنا في طريقي".

من ثمّ، عاد "كوه تشينغ" إلى غرفته، كان أكثر الأطفال فَهْماً للأمور بين أقرانه، إلا أنه لم يكن قادراً على التّنبّؤ بالأمور في تلك السّنّ. أخذ يُلَمْلِمُ متعلّقاته بحماسة، تلك الملابس الصغيرة التي صارت قديمة بعض الشّيء، قبّعته الحَلَزُونية، مقصّه الصغير، مسدّسه البلاستيكي، وغيرها من الألعاب. كان لديه القدرة على أن يجمعهم جميعاً داخل صُندُوق من الورق المقوّى. ظلّ يجمع أغراضه بهمّة وسعادة وسط تلك الأصوات الصاخبة القادمة من الخارج، وكان يجري نحو المخرج على فترات، ينظر إلى والده بإعجاب، وهو ينقل الأثاث نحو الخارج بذراعَيْه القويّتَيْن. جاء الدَّوْر عليه، لينقل متعلّقاته، وبالفعل تمكّن من نقل ذلك الصُّنْدُوق الكبير الذي يماثله في الحجم تقريباً نحو الخارج. كان يدفع الصُّنْدُوق خطوة خطوة بجوار الحائط، فقد كان يعرف أن الحائط بمثابة يد إضافية ستساعده. وبالرغم من أنه استنفد جهده لنَقْل الصُّنْدُوق خلال هذه المسافة، إلا أنه وقف أمام السّلّم، ينظر لوالده القادم بكل فخر، فما كان من والده إلا أن ردّ عليه ببرود قائلاً:

"أعِدْهُ إلى مكانه".

لم يكن بوسع زميلي الصغير سوى أن يمتثل لأوامر والده، وأن يبذل ما وسعه للعودة بالصُّنْدُوق من جديد. كان شعره المبلّل بالعَرَق قد صار أشبه بالعشب المتشابك، بسبب فَرْكه لرأسه بيده. ربّما كان في حَيْرَة من أمره حينها، فجلس على كرسيّ صغير، وأخذ يفكّر في حدود ما يسمح له به عقله الصغير. ليس هناك طفل يفكّر في المستقبل بشكل متشائم، فالأطفال لم يصطدموا بالواقع بعد. كان ذهن "كوه تشينغ" حينها مشوّشاً أشبه بالكرة المطّاطية التي تنطّ فوق أرضية المعلب، فقد كان من الصعب على فكره المشاغب أن يجعله متوافقاً مع والده، وهو ما جعله يفكّر بأمر

آخر. بعدها نظر إلى السماء بسعادة، لا أعرف هل كان حينها يتخيّل أمامه حصاناً أبيض مجنّحاً، يطير في الفضاء أم ماذا.

تلك الأصوات الصاخبة التي كانت تعمّ البيت أخذت تنحسر تدريجياً، كان يشعر بذلك، ولكنه لم يكن يعرف أن هذه الأصوات قد انتقلت إلى الأسفل، حيث وُضع الأثاث فوق عربة ذات ثلاث عجلات، تقف أسفل المنزل، وهو ما جعله لم يسمع صوت العربة وهي تتحرّك. عندما توقّف تفكيره الأشبه بالوطواط الأعمى الذي يطير متخبّطاً، كان والده قد دخل إلى غرفته. شعر حينها بواقع صارم، يتمثّل في جسد والده الواقف أمامه.

لم يُخبرنا "كوه تشينغ" عن بقية التفاصيل، أمّا أنا و"ليو شياو تشينغ"، فقد كُنّا طفلَيْن محدودَي الإدراك. بعدها علْمنا أن والد "كوه تشينغ" قد تخلّى عنه، وتركه وحيداً. كُنتُ أكره والده، ليس فقط، لأنه تخلّى عن ابنه، بل لأن هذا الرجل الذي قابلتُهُ مرّات عديدة كان يجعلني أشعر بالرهبة. عندما عدتُ بذاكرتي إلى تلك الأوقات، شعرتُ فجأة بالتشابه الكبير بينه وبين جدّي. ففي المرّة الأولى التي قابلتُهُ فيها، كان يستجوبني بشكل مريب، وعندما كان ابنه ينوب عنّي في الحديث، كان ينهره ببرود قائلاً:

"دعْهُ يتحدّث عن نفسه".

كانت نظراته لي قد جعلتني مُرتبِكاً، بالتأكيد كان ينظر إلى ابنه بالطريقة نفسها عندما دخل إلى غرفته، إلا أنه تحدّث بهدوء، بل حتّى بنبرة ناعمة، وقال له:

"أنا ذاهب لأتزوّج".

لاحقاً، كان على "كوه تشينغ" أن يتفهّم الحقيقة، وكم هي بسيطة للغاية،

وهي أن والده لن يرعاه بعد اليوم. بالطبع، لم يكن بمقدور زميلي في تلك السّنّ أن يدرك مدى قسوة هذا الأمر، فوقف هناك مشدوهاً، ينظر إلى والده. ترك هذا الرجل النذل خلفه مبلغ عشر يوانات وما قيمته عشرين كيلو جراماً من تذاكر صرْف الحبوب، ثمّ حمل في يده سَلَّتَين، حمل فيهما آخر ما يريد حَمْله، وغادر البيت. وقف زميلي ذو الأعوام التسعة بجوار النافذة، ينظر إلى والده بهدوء، وهو يغادر بعينَيْن، كان يفتحهما بالكاد، بسبب أشعّة الشمس الساطعة.

بدأت مأساة "كوه تشينغ" عندما دخل إلى هاتَيْن الغرفَتَيْن الخاليَتَيْن. فبالرغم من أنه لم يكن يدرك حينها أن والده قد هجره للأبد، إلا أنه انخرط في البكاء فجأة في مواجهة هاتَيْن الغرفَتَيْن الخاليَتَيْن.

أخذ يهدأ تدريجياً بعدما عاد إلى غرفته التي لم تكن قد تغيّرت بعد، ثمّ جلس على سريره مستغرقاً في التفكير. كُنتُ قد ذهبتُ إلى هذه الغرفة مرّات عديدة، وأكثر ما أحبّه هناك هو تلك النافذة. لم يدرك زميلي حجم المأساة التي يعيشها إلا بعدما التقاني في عصر ذلك اليوم. حينها كُنتُ أقوم بمَسْح زجاج النافذة الثمين الخاصّ بغرفة "لي شيو ينغ"، فسمعتُ صوته في الخارج ينادي عليّ. لم أكن أجرؤ على مغادرة المكان قبل تنظيف النافذة تماماً، بينما لم تكن "لي شيو ينغ" قادرة على تحمّل صوت زميلي الأشبه بتكسير الزجاج، وهو ينادي بالخارج، حينها قالت لي تلك المرأة الجالسة على سريرها بغضب:

"اذهبْ، واطلبْ منه أن يصمت".

ولكنْ، كيف لي أن أطلب من شخص يعاني أن يصمت؟ وقفْنا معاً عند الطريق المرصوفة بالألواح الحجرية، وعامود النور خلفنا يُصدِر صوت

طنين معتاداً. لن أستطيع أن أنسى وجه "كوه تشينغ" الشاحب حينها. أخبرني بما حدث في الصباح، وبدا عليه أنه لم يكن يعي ما يجري. كل ما سمعتُهُ منه هو حديث مُبهَم كطنين الذباب، حدّثني عن قُوّة والده، وهو يحمل أثاث البيت، وعن تلك السَّلَّتَيْن التي كان يحملهما وهو يغادر. لم أستطع أن أفهم ترتيب الأحداث أو أيّاً منها سبق الآخر. إلا أنه مع انخراطه في الحديث، بدأتُ أفهم تدريجياً، توقّف فجأة، ثمّ شاهدتُ عينَيْه مغرورقَتَيْن بالدموع، ثمّ قال عبارة واحدة، جعلتْني أستوعب كل شيء:

"والدي لم يعد يُريدني معه بعد الآن".

التقيْنا بثالثنا "ليو شياو تشنيغ" قرب المساء، كان حينها يحمل مِمْسَحَة، ويركض نحو النهر، والعَرَق يتصبّب منه. أُصيب بالذهول عندما شاهد "كوه تشينغ" يبكي، فأخبرتُهُ حينها أن والد "كوه تشينغ" قد تخلّى عنه. أُصيب بالدَّهْشة تماماً، كما حدث معي في البداية، أخذتُ أحكي له ما حدث حتّى فهم هو الآخر تدريجياً. حينها قال من فَوره:

"هيّا معي، لنذهب إلى أخي الأكبر".

ذهبْنا للقاء ذلك الصبي ذي القبّعة، حيث بدا "ليو شياو تشينغ" حينها مُعتدّاً بنفسه. من حقّه أن يفخر بهذا الأخ الأكبر، ومَنْ منّا لا يتمنّى أن يكون له أخ أكبر مثل هذا؟ وقفْنا أسفل النافذة التي كان يطلّ منها، حيث جاء الدَّوْر على "ليو شياو تشينغ" أن يشرح له حينها ما حدث لزميله. بعدما استمع هذا الصبي الذي كان مُمسِكاً بمِزْمَاره في يده إلى حديث "ليو شياو تشينغ" هبّ واقفاً، وقال بغيظ:

"هذا أمر لا يُحتمَل".

دسّ مِزْمَاره في جيبه، وقفز من النافذة، ثمّ لوّح لنا بيده قائلاً:

"فلنذهب، لِنُلَقِّنه درساً".

سرْنا معاً في الشوارع الرطبة، فقد كانت موجة المطر الشديد التي هطلت في الصباح الباكر قد جعلت الأشجار على جانبَي الطريق مُحمَّلة بمياه المطر. كان الصبي ذو القبّعة يسير أمامنا، بالفعل هو ماهر في العزف على المِزْمَار، ولكنْ، هل سيتمكّن من هزيمة والد "كوه تشينغ"؟ سار ثلاثتنا خلفه دون هوية، بدا لنا واثقاً من نفسه، خلال ثورة غضبه. سار حتّى وقف أسفل شجرة، تتساقط منها مياه المطر بكثرة، ثمّ وقف مستغرقاً في التفكير. وما إن وصلْنا خلفه مباشرة أسفل الشجرة حتّى قام برَكْل الشجرة بقَدَمه بقُوّة، حينها تساقطتْ مياه المطر بغزارة من تلك الشجرة حتّى ابتلّتْ أجسادنا. أمّا هو، فأخذ يضحك، ثمّ غادر عائداً إلى بيته.

كان تصرُّفه مشيناً، وهو ما جعل "ليو شياو تشينغ" يشعر بالخجل. وفي مواجهة هذا الخجل، قال لزميله "كوه تشينغ":

"فلنذهب، لنُخبر المُعلِّم".

هزّ "كوه تشينغ" رأسه المبلّلة بالماء مُعترِضاً، وقال وهو يبكي:

"لن أذهبَ لأيّ أحد".

مضى زميلي وحيداً في طريقه، هذا الفتى الذكي يستطيع أن يتذكّر أسماء وألقاب أخواله وخالاته جميعهم. بعدما عاد إلى بيته تذكّر أخوه والدتَهُ التي تُوفّيت، فجلس يكتب لهم خطاباً. كتب خطابَه بالقلم الرصاص على ورقة، قَطَعَها من كرّاسة التدريب. كان واضحاً أنه من الصعب عليه التعبير عن مدى محنته في أثناء الكتابة. وكان مجيء أخواله إلى البيت بعد فترة قصيرة دليلاً على أنه قد عبَّر في خطابه بوضوح عن كل شيء.

كانت فطنة هذا الطفل قد جعلته يتذكّر الأعمال التي يمارسها أخواله وخالاته جميعهم، ومن ثمّ، فقد قام بكتابة ثماني خطابات. المشكلة هي أنه لم يكن يعرف وجهة إرسال الخطابات. جلس في غرفته، وقام بطَيّ الخطابات على هيئة مربّعات صغيرة، فقد كان معتاداً على القيام بالأعمال بشكل مرتّب. حمل الخطابات، وسار متّجهاً نحو مكتب البريد المَطليّ باللون الأخضر. استقبلتْهُ عاملة شابّة داخل مكتب البريد، ووقف زميلي أمامها، يسألها باستعطاف قائلاً:

"أيّتها العمّة، هل بإمكانكِ أن تُخبريني كيف أقوم بإرسال الخطابات"؟

إلا أن تلك الفتاة الشّابّة ردّتْ عليه قائلة:

"هل معكَ نقود"؟

أُصيبَت الفتاة بالذهول عندما شاهدت "كوه تشينغ" يُخرِج لها مبلغ العشر يوانات. وبالرغم من أنها ساعدتْهُ، إلا أنها كانت تنظر له، وكأنه لصّ صغير.

حضر أخواله وخالاته الثمانية، وساروا معه، وكأنهم يحرسونه سعياً لمقابلة والده. بدا "كوه تشينغ" مَزهوّاً بنفسه، وهو يسير وسطهم، وكان يلتفت نحوي أنا و"ليو شياو تشينغ" ويقول أسرِعَا خطواتكما.

كان ذلك وقت الغروب، حيث كُنتُ أسير بصحبة تلك الجماعة من الرجال والنسوة الكبار، ولم يكن زَهْوي بنفسي حينها أقلّ، وكذلك كان الحال أيضاً بالنسبة إلى زميلنا الثالث "ليو شياو تشينغ". حينها قال لنا "كوه تشينغ "مبتهجاً:

"سيعود والدي إلى البيت، ليعيش معي من جديد".

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أخرج فيها في المساء بعد مجيئي إلى مدينة "سون تانغ". عندما طلبتُ من "وانغ لي تشيانغ" الإذن بالخروج، حكيتُ له تفاصيل الحكاية كلها، شعرتُ بالامتنان الشديد عندما سمح لي بالخروج في المساء. كان يدعم وقوفي إلى جانب "كوه تشينغ" في تلك الأزمة، ولكنه حذّرني ألا أتحدّث بأيّ شيء. حقيقة الأمر أنني و"ليو شياو تشينغ" لم نستطع الدخول إلى مسكن الزوجية الجديد الذي يقيم فيه والد كوه تشينغ، كل ما باستطاعتنا هو الوقوف في الخارج في انتظار ما سيحدث. كان أمامنا مجموعة من الغرف الصغيرة، وكُنّا نستغرب من سبب تَرْك والد "كوه تشينغ" لبيته المُكوَّن من عدّة طوابق، والانتقال للعيش في هذا المكان قائلين:

"هذا المكان لا توجد فيه مناظر جميلة كتلك التي يطلّ عليها بيته القديم".

سمعْنا أصوات أخوال "كوه تشينغ" وخالاته يتحدّثون بِلُكْنَتِهم الغريبة، تلك اللُّكْنَةُ التي يتحدّث بها أهل المدينة جعلتْنا محاطين بأجواء المباني الشاهقة والطُّرُق الإسفلتية. في تلك الأثناء، شاهدْنا طفلَيْن أصغر منّا سنّاً يسيران بزَهْو قادمَيْن نحونا، تحدّثا إلينا بطريقة فجّة طالبين منّا أن نغادر المكان. علمْنا بعدها أن هذَيْن الطفلَيْن هما ابنا زوجة والد "كوه تشينغ" الجديدة. يا له من أمر مضحك أن نُطرَدَ بواسطة طفلَيْن أصغر منّا سنّاً! حذّرناهما قائلَيْن إنهما هما مَنْ يجب عليهما المغادرة. ما إن سمعا ذلك التحذير حتّى بَصَقَا علينا، فما كان منّي أنا و"ليو شياو تشينغ" إلا أن انهلْنا عليهما باللكمات. انفجر هذان الطفلان اللذان كانا يتظاهران بالقُوّة بالبكاء، وعلى الفور، خرجت امرأة سمينة تُشبهُ الخنزير من داخل الغرفة، لتتصدّى لنا، كانت هذه المرأة هي أمّهما. انهالت

علينا بالسباب والبصاق من فورها/ فما كان منّي أنا و"ليو شياو تشينغ" إلا أن همَمْنا بالفرار. ظلّتْ تلك المرأة تلاحقنا وهي تسبّنا بأقذع الألفاظ التي يستخدمها الرجال. كانت تتوعّدنا أنها ستُلقي بنا في حفرة الصَّرْف الصّحّيّ تارة، وأنها ستُعلِّقنا من أرجلنا فوق الشجرة تارة أخرى، ولم تتوقّف عن توعُّدنا بأشدّ أنواع العقاب. كُنتُ ألتفتُ بين الحين والآخر بينما أجري بأقصى سرعتي مُحاوِلاً الهرب، لأشاهد جسد تلك المرأة السمينة يهتزّ وهي تجري، هذا المشهد قد جَعَلَني أرتعد خوفاً، فامرأة سمينة كتلك، لو جلست فوقي، فسوف تقتلني.

ما إن وصلْنا أسفل أحد الجسور حتّى شاهدْناها تتراجع. ربّما أنها شعرتْ حينها أن عليها أن تعود للوقوف بجوار عريسها الجديد. بعدما تأكّدْنا من مغادرتها، رجعتُ أنا و"ليو شياو تشينغ" نسير في طريقنا بحَذَر مثل المُخبرين الذين يظهرون في الأفلام السينمائية. كان الليل قد حلّ حينها، وما إن رجعْنا إلى مكاننا الأوّل حتّى سمعْنا أصوات أخوال كوه تشينغ وخالاته تأتي من الداخل، لماذا لم نسمع صوت والد "كوه تشينغ، إذنْ"؟ بعد فترة طويلة، سمعْنا صوتاً آخر، كان هو صوت تلك المرأة السمينة التي كانت تلاحقنا منذ قليل، سمعناها تقول:

"هل جئتُم لتتشاجروا معنا؟ أم جئتُم للحوار وإبداء الرأي؟ الشِّجار يحتاج إلى عدد كبير من الأشخاص، أمّا الحوار، فشخص واحد يكفي للقيام به. عودوا إلى بيوتكم، وأرسلوا شخصاً واحداً، نتحاور معه في الغد".

تلك المرأة المتسلّطة تتمتّع بقدرة عالية على الوعيد والتهديد. طردتْهم جميعاً، كما فعل معنا ابناها وهما يطلبان منّا المغادرة بطريقة فجّة. ساد الصمت أخوال "كوه تشينغ" وخالاته الثمانية القادمين من المدينة للحظات، ثمّ تبع هذا الصمت هَرْجٌ ومَرْجٌ. لم نفهم أنا أو "ليو

شياو تشينغ" أيّ شيء ممّا يحدث وسط هذه الضّجّة، وبدا كما أننا لم نسمع أيّ شيء. في تلك الأثناء، تحدّث والد "كوه تشينغ"، وهو ما ذكّرنا بوجوده بعد أن كُنّا قد نسيْناه تماماً. هذا الرجل الذي لا أحبّه، صاح في أخوال ابنه غاضباً، وقال:

"لماذا تتحدّثون بهذا الصوت العالي؟ ما الداعي إلى ذلك؟ أنتُم أشخاص عديمو المسؤولية، كيف لي أن أقوم بواجبي كفرد في هذا المجتمع، وأنتُم تتحدّثون بهذا الصوت العالي"؟!

ردّ عليه أحدهم قائلاً:

"مَنْ هو الشخص غير المسؤول"؟

ثمّ اندلعت أصوات شِجَار وعراك بالداخل، وكأن سقف الغرف قد سقط. أعتقد أن بعض أخوال "كوه تشينغ" أرادا ضَرْب والده، وأن النساء كنّ يصرخنَ طالبين منهم التّوقّف. لقد دخل أخوال "كوه تشينغ" وخالاته في حالة من الغضب الشديد، بينما لم يكفّ هذان العروسان عن عنادهما، وهو ما جعلهم يستنفدون كل ما في جعبتهم من حديث دون أن يجدوا مَنْ يستمع، بعدما اكتشفوا أنه ليس أمامهم سبيل آخر لإقناع هذَيْن العروسَيْن. حينها قرّر كبيرهم أنهم لن يُسلّموه "كوه تشينغ"، فقال للوالد:

"حتّى لو كنتَ تريد أن تربّيه معكَ، فنحن لن نُسلِّمه لكَ، فأنتَ حيوان، لا أمان لكَ".

سمعناهم يتحدّثون بأصوات مختلطة ومُبهَمَة فور خروجهم من الغرفة. وكان "كوه تشينغ" يسير وسطهم مذهولاً، ثمّ نظر إلينا نظرة قلق وخوف. بعدها سمعتُ أحد أخواله يقول:

"كيف تزوّجتْ أختُنا بشخص كهذا؟".

شدّة الغضب جعلتْهم يُلقون باللوم على والدة "كوه تشينغ" التي تُوفِّيَت.

كان عليهم أن يتحمّلوا مسؤولية تربية "كوه تشينغ". ومنذ ذلك الحين، تعيّن على كلٍّ منهم أن يُرسِل يوانين شهرياً إلى زميلنا الصغير. بعدها صار مكتب البريد ذو اللون الأخضر هو مصدر الثروة بالنسبة إلى زميلنا. كان يتفاخر أمامنا في كل مرّة يذهب إلى هناك يقول:

"أنا ذاهب لمكتب البريد".

كانت أكثر أوقات طفولتي تَرَفَاً هي عندما حصل على مبلغ ستّة عشر يواناً كمصاريف معيشة من أخواله الثمانية، وكذلك كان الحال بالنسبة إلى زميلي ليو شياو تشينغ وبعض الزملاء الآخرين. كُنّا نتبعه خطوة بخطوة، وهو يأكل الحلوى والزيتون. كان طفلاً سخياً، فكان يعطينا ممّا معه، لنشعر بالسعادة معاً. بدا مثل ثريّ صغير، يُنفق بترف، ويُبدّد ثروته القليلة، كُنّا ننتظر إسرافه وتبديده كل صباح، ونحن في طريقنا إلى المدرسة. ولذلك فقد عاد زميلي فقيراً مُعدَماً مع حلول الأيّام العشر الأخيرة من الشهر، وكان يضطرّ بعدها للاعتماد على إحساننا له، لكي يأكل ويسدّ جوعه. لم يكن بإمكاننا أن نفعل معه، كما كان يفعل معنا، ولذلك فقد بدأنا سرقة ما يمكننا سرقته من بيوتنا. نسرق له طبقاً من الأرز المَطهوّ، أو قطعة سمك مطبوخة، قطعة لحم أو بعض الخضروات، كُنّا نلفّها في أوراق جرائد متّسخة، ونعطيها له. وكان هو يفرد أوراق الجرائد على رجلَيْه، ويأكل الطعام بنهم، بحيث كان صوت مَضْغِهِ للطعام مسموعاً لكلّ مَنْ حوله، فيسيل لعابهم، بالرغم من أنهم قد تناولوا طعامهم قبلها. لم تستمرّ تلك الحالة

طويلاً. فمُعلِّمنا "تشانغ تشينغ هاي" ذو السترة الصوفية كان قد أخذ مصاريف "كوه تشينغ" الشهرية، لكي يحفظها له، ولم يكن يعطيه سوى نصف يوان شهرياً. وبالرغم من ذلك، فقد ظلّ "كوه تشينغ" هو أكثرنا ثراء.

اعتاد "كوه تشينغ" على أن يتدبّر أموره بنفسه بعدما تخلّى عنه والده. لم يتقبّل هذا الواقع في أعماقه، ولم يسرْ على نهج والده، ويهجره كما فعل معه. عادة ما كان مُعلِّمنا ينسى هذه الظروف، فكان يُهدِّده بأنه سيُخبر والده في حال ارتكابه لأيّ خطأ، حينها كان زميلنا يُصاب بالقلق والرعب، وينسى أنه قد حصل على حُرّيّته. فبالنسبة إليه كان والده وكأنه لا يزال يراقبه لحظة بلحظة.

على جانب آخر، كان "كوه تشينغ" دائم القلق، بسبب التفكير في أن والده قد يظهر فجأة. حقيقة الأمر أن ظهور والده لن يحدث إلا مصادفة في الشارع، فنذالة ذلك الرجل قد جعلت من المستحيل، بالنسبة إليه، أن يذهب ويطمئنّ على ابنه يوماً ما.

أتذكّر ذات مرّة كُنّا نسير في الشارع، ونقذف أعمدة النور بالحجارة، كانت تلك فكرته، وكُنّا نقذف الحجارة بقُوّة، ويتمنّى كل واحد منّا أن يتمكّن من كَسْر أكبر عدد من مصابيح الإنارة. وعندما كان أحد الكبار ينهرُنا، كُنتُ أهرب أنا و"ليو شياو تشينغ" بعيداً، ما أثار ذهولنا هو أن "كوه تشينغ" كان يقف مكانه دون حراك، ويردّ بصوت عالٍ:

"وما شأنكَ أنتَ؟ هذا ليس مصباح بيتكَ".

في تلك الأثناء، ظهر والده فجأة، حينها فَقَدَ "كوه تشينغ" شجاعته على الفور، ووقف هناك مُنكمِشاً وهو يقول:

"أبي".

أخذ يدافع عن نفسه، ويقول لوالده إنه لم يكسرْ أيّ مصباح، وظهر حينها بمظهر الخائن وهو يشير إليّ أنا و"ليو شياو تشينغ"، ويقول:

"هم مَنْ يقومون بكَسْر المصابيح".

أمّا والده، فلم يهتمّ بأيٍّ من هذا الكلام، وردّ عليه قائلاً:

"أنا لستُ أبوكَ".

كانت صدمة تخلّي هذا الرجل عن سلطته في عقاب ابنه بالنسبة إلى زميلي أكثر حدّة من تخلّيه عن رعايته. بعد ذلك شاهدْنا "كوه تشينغ" يسير كالمسكين، يعضّ على شَفَتَيْه وهو يَعبر الطريق حتّى سال الدم منها، ولم يتمالك نفسه من الحزن، حيث انهمرت الدموع من عينَيْه. وبالرغم من هذا كله إلا أن الأمل كان يحدوه أن يستيقظ يوماً، فيجد والده وقد عاد ليأخذه معه. قال لنا ذات مرّة بلهجة الواثق من نفسه، لو حدث أن مرض والدي "فسوف يعود إليّ من جديد".

كان يريد أن يُثبتَ لنا مرّة تلو الأخرى أنه لو مرض والده، فسوف يطلب منه أن يُطبِّبه، وكان يُوجّه كلامه لي قائلاً:

"لقد شاهدتَ ذلك بنفسكَ من قبل، أليس هذا صحيحاً؟"؟

لم يعد يفتح صُندُوق الدواء الخاصّ به دون سبب، كما كان يفعل في السابق، حتّى لو أُصيب بالسعال، كان يمتنع عن فَتْح الصُّندُوق. كان يعتقد بسذاجة أنه مادام هناك دواء بحوزته، فسوف يعود إليه والده يوماً ما.

في ذلك الحين، لم يعد "كوه تشينغ" يشعر باللامبالاة وهو يتحدّث عن والدته، كما كان يفعل في السابق، بسبب مرور وقت طويل على

فقدانه لوالدته. عادة ما كُنتُ أسمعه يقول كلمة "في الماضي"، فمثلاً كان يقول في الماضي عندما كانت والدته على قيد الحياة كانت حياته رائعة. لم يضرب لنا أمثلة محدّدة عن روعة حياته في الماضي، فقط لم يكن يتوقّف عن التّحسّر على تلك الأيّام. وهو ما كان يجعلنا نَغْبِطُهُ على هذا الماضي المُبهَم، بالنسبة إلينا. عاد ليشتاق إلى والدته، فعندما كان يشعر بالوحدة، لم يكن هذا الطفل ذو السنوات التسع يتطلّع إلى المستقبل، بل كان يحنّ إلى الماضي.

في طفولتنا، كُنّا مغرمين بشكل الحصان المرسوم على علبة السجائر ماركة الحصان الطائر. كُنّا قد ترعرعْنا في بيئة لا نشاهد فيها سوى الثيران، وهي تنعق ذهاباً وإياباً، أمّا الأغنام، فكانت عادة محبوسة داخل حظائرها. كانت هناك خنازير أيضاً، ولكننا لم نكن نحبّها. أكثر حيوان كُنّا نحبّه هو ذلك الحصان الطائر، ولكننا لم نره من قبل. بعد ذلك جاءت مجموعة من الجنود إلى مدينة "سون تانغ"، كان يستقلّون عربة، تجرّها الخيل، ثمّ عبروا المدينة بأكملها في سكون الليل حتّى وصلوا إلى المدرسة الإعدادية.

بعد انتهاء الدراسة في ذلك اليوم، حملْنا حقائبنا، وأسرعْنا مهرولين نحو المدرسة الإعدادية. فردّ "كوه تشينغ "ذراعَيْه مثل الطائر الكبير، وصار يركض أمامنا، كان يركض وهو يصيح قائلاً:

مكتبة

"أنا الحصان الطائر".

بعد ذلك، لم أتمالك نفسي أنا و"ليو شياو تشينغ" من تقليده، فقد كان ذلك بالنسبة إلينا أمراً في غاية الإثارة.

تحوّلْنا إلى ثلاثة أحصنة طائرة، تدكّ الأرض بأقدامها، وهي تصهل. طرْنا عبوراً بالمتجر الكبير، والمسرح، ثمّ المستشفى. ما إن تجاوزْنا المستشفى

حتّى أرخى كوه تشينغ ذراعَيْه فجأة، وكأنه تلقّى ضربة فيهما. أخذ يبكي، وسار ملتصقاً بالجدار متّجهاً نحونا. لم يتحدّث معنا حينها، ولم نكن نعرف ما الذي حدث. هُرعنا نحوه نسأله ما الذي حدث، إلا أنه استدار بجسده، وسار مُغَادِرَاً دون أن يجيب، حاولْنا إيقافه إلا أنه دَفَعَنَا بيَدَيْه غاضباً، وقال وهو يبكي:

"اتركاني وشأني".

أخذتُ أنا و"ليو شياو تشينغ" نتبادلُ النَّظَر إلى بعضنا في ذهول، ثمّ أطلْنا النَّظَر إليه مندهشين وهو يغادر بعيداً. بعدها زالت دهشتُنا ونسيْناه من فورنا. فتحْنا أذرعَنا، وأخذْنا نجري متلهّفين لرؤية الحصان الطائر.

كان هناك حصانان بُنِّيَّا اللون مربوطَيْن وسط الأشجار داخل المدرسة، أحدهما كان يشرب من الحوض، والثاني كان يحكّ مؤخّرته بإحدى الأشجار. لم يكن لديهما أيّ أجنحة، بل كانت جسماهما متّسخَيْن. شَمَمْنا رائحة كريهة تهبّ من هناك، حينها سألتُ "ليو شياو تشينغ" بصوت منخفض:

"هل هذه أحصنة"؟

تقدّم "ليو شياو تشينغ"، وسار نحو جندي شابّ، يقف هناك، وسأله بخجل:

"لماذا لا يوجد لهذه الأحصنة أجنحة"؟

"ماذا؟ أجنحة"؟ ثمّ لوّح له بيَدَيْه منزعجاً، وطلب منه أن يغادر بعيداً.

غادرْنا مسرعين، فيما انفجر كل مَنْ في المكان ضاحكين. حينها نظرتُ إلى "ليو شياو تشينغ"، وقُلتُ له:

"هذا بالتأكيد ليس حصاناً. فالحصان ينبغي أن يكون أبيض اللون".

حينها سمعتُ أحد الصِّبْيَة يقول:

"نعم، هذا ليس حصاناً".

سأله "ليو شياو تشينغ": "وماذا يكون هذا، إذنْ"؟

أجابه الصبي قائلاً: "هذا فأر".

شعرتُ بالفزع أنا و"ليو شياو تشينغ" ولم نتمالك أنفسنا ونحن نقول:

"فأر بهذا الحجم الكبير"؟!

كان "كوه تشينغ" قد رأى والده عند بوّابة المستشفى، فشعر فجأة بالحزن الشديد. والسبب في ذلك هو أن هذا يعني أنه قد فَقَدَ الأمل الأخير في أن يعود إليه والده. ولم يعد هناك معنى لاستمراره في لعبة الحصان الطائر.

في اليوم التالي، حدثنا "كوه تشينغ" عن السبب في عدم الاستمرار في اللعب معنا البارحة، حيث قال لنا بحزن:

"والدي لن يعود إليّ ثانية". ثمّ انخرط في البكاء بصوت عالٍ، واستمرّ قائلاً:

"شاهدتُهُ بالأمس يدخل المستشفى، لقد مرض، ولكنه لم يأتِ طَلَبَاً لمساعدتي، ولن يأتيَ ثانية".

ذهب إلى الملعب، وأخذ يبكي بصوت عالٍ، لم يكن يشعر بالحرج من أن يبكي أمام بقية الزملاء، بينما وقفتُ أنا و"ليو شياو تشينغ" بجواره، لنطرد الزملاء الذين تجمّعوا حوله.

"كوه تشينغ" الذي تخلّى عنه شخص لا يزال على قيد الحياة هو والده، بدأ يُوطّد علاقته بتلك السّيّدة العجوز التي تخلّى عنها أقاربها الأموات. كُنتُ دائم الخوف من تلك المرأة التي تلبس رداء أسود، والتجاعيد التي تملأ وجهها أشبه بأمواج البحر، أمّا "كوه تشينغ"، فلم يكن يخاف منها أبداً. لم يعد "كوه تشينغ" يقضي أوقات طفولته معنا. فكان عادة ما يسير بصحبة تلك العجوز في الشارع مُمسِكاً بيدها، وجهة المُفعَم بالنشاط صار قائماً وهو يسير ملتصِقاً بذراعها المَكسوّ باللباس الأسود. لقد أفسدتْ تلك العجوز بهيئتها الكئيبة تلك الحيويةَ التي دائماً ما كانت تبدو على وجه زميلنا الصغير، وهو ما جَعَلَني أرى وجهه مملوءاً بالحزن والكآبة، وهو لا يزال في أوج طفولته.

لا يمكنني تخيّل مظهرَيْهما وهما يجلسان معاً في غرفة مُوصَدَة الأبواب والنوافذ، بالتأكيد سيسير برفقتها في طريق التّحدّث إلى الأموات، كما اعتادت هي أن تفعل. عندما كانت تلك العجوز ذات الصوت المبحوح تتحدّث عن الأموات كانت تجعل مَنْ يستمع إليها يُصاب بالقشعريرة، لقد تملّكني هذا الشعور مُسبَّقاً. أمّا زميلي، فعلى ما يبدو أنه صار مُغرَماً بحديث هذه العجوز، فكان دائماً ما يحكي لنا عن والدته التي تُوفِّيت، وكيف أنها تأتي له قبل حلول الفجر، تتحدّث معه بعبارات قليلة، ثمّ تغادر بصمت عائدة إلى المكان الذي جاءت منه. وعندما كُنّا نسأله عن فحوى الحديث الذي دار بينه وبين والدته، كان ينظر إلينا شارد الذهن، ويقول إن هذا أمراً ينبغي أن يكون في طَيّ الكتمان. ذات مرّة، أطالتْ والدته في الزيارة حتّى لاح الفجر، وأذّن الديك، حينها أُصيبت والدته بالفزع، ولم تغادر من الباب، بل خرجت من النافذة على عجل أشبه بطائر طار مخترِقاً النافذة. كان استخدام "كوه تشينغ" لتلك التفاصيل قد زاد من واقعية روايته، وهو ما أصابَنا بالشّكّ لأيّام عديدة، فقيام والدته بالقفز

من النافذة قد جعلَنا نشعر بالخوف والقلق عليها، حدث أن سألتُ "ليو شياو تشينغ" ذات مرّة قائلاً:

"هل من الممكن أن تكون قد سَقَطَتْ على الأرض، وماتت"؟

أجابني "ليو شياو تشينغ" قائلاً:

"هي ميّتة بالفعل، ولن تخافَ أن تسقط وتموت".

أدركتُ خطأ سؤالي فجأة، كان "كوه تشينغ" جادّاً للغاية وهو يحكي لنا عن لقائه بوالدته، وأحياناً كانت تبدو عليه علامات السعادة، وهو ما جعل من الصعب علينا ألا نُصدِّقه. إلا أن طريقته في السَّرْد كانت تجعلني أخاف، فطريقته كانت تُشبهُ تماماً طريقة تلك العجوز ذات الملابس السوداء.

كما أنه كان يحكي لنا أحياناً أنه كثيراً ما يرى بوذا، فهناك غرفة كبيرة، بها وهج مثل ضوء الشمس، يظهر بداخلها بوذا فجأة، ويختفي فجأة مثل البرق.

قاطعتُهُ ذات مرّة بينما كُنّا نجلس معاً على حافّة النهر في مساء أحد الأيّام، قُلتُ إنني لا أؤمن بوجود بوذا، وحتّى أُبرهن له على صِدْق كلامي، أخذتُ أسبّ بوذا بأقذع الألفاظ. ظلّ "كوه تشينغ" جالساً مكانه دون أن يبالي بكلامي، ثمّ تحدّث بعد قليل قائلاً:

"لقد شتمتَ بوذا، وأنا أعرف أنكَ خائف للغاية".

لم أكن أعرف ماذا أقول حينها، فكلماته تلك جعلتْني خائفاً بالفعل. كان الليل قد أقبل حينها، نظرتُ إلى سواد الليل يزحف في الأفق، فشعرتُ بقلبي يرتجف، وأنفاسي تتقطّع.

ثمّ سمعتُ "كوه تشينغ" يقول:

"مَنْ لا يخشى بوذا، سيكون عقابه شديداً".

سألتُهُ بصوت مرتجف:

"وما هو هذا العقاب"؟

صمت قليلاً، ثمّ قال:

"جدّتي تعرف".

حدّثتُ نفسي قائلاً: تلك المرأة العجوز المخيفة هي مَنْ تعرف؟

حينها سمعتُ "كوه تشينغ" يقول هامساً:

"الإنسان يرى بوذا عندما يكون خائفاً".

حينها حدّقتُ بعينَيّ على الفور في السماء القاتمة فوقي، ولكني لم أتمكّن من رؤية أيّ شيء. كدتُ أبكي من شدّة الخوف، ثمّ نظرتُ إلى "كوه تشينغ"، وقُلتُ له:

"أرجوكَ، لا تخدعْني".

حينها شجّعني "كوه تشينغ" بلطف ومودّة قائلاً:

"أمعن النَّظَر مرّة أخرى".

حدّقتُ بعينَيّ في السماء القاتمة فوقي مرّة ثانية، حينها كان الظلام يغطّي كل شيء. الخوف والرهبة جعلاني أخيراً أتمكّن من رؤية بوذا، لا أعرف إن كان ما رأيتُهُ حقيقة أم أنه خيال محض. المهمّ هو أنني شاهدتُ

هيئة بوذا بحجم يماثل حجم الغرفة، يشعّ بريقاً كقرص الشمس، إلا أنه ما لبث أن اختفى.

ولأن الحياة مستمرّة بواقعها المرير، كان على تلك العجوز غريبة الأطوار التي تجمعها علاقة حميمة بالأموات أن تتعامل مع ذلك الواقع الغريب جدَّاً الذي تعيش فيه. استخدمتْ طريقة مخيفة، تُهدِّئ بها من روع الفتى الصغير "كوه تشينغ"، أمّا "كوه تشينغ"، فقد كان شجاعاً في حمايتها.

كان أكثر ما يخيفها ويثير قلقها هو ذلك الكلب ذو الفراء الأصفر الذي كان عادة ما يرقد في منتصف الزقاق، كان ذلك الكلب هو مصدر رعبها في كل مرّة، تخرج فيها لشراء حاجياتها من الأرز أو الملح أو الزيت، كان خوفها من الكلب أشدّ من خوفي منها. وحقيقة الأمر أن هذا الكلب القبيح الذي لا يُحبّه أحد لم يكن يتوقّف عن النّباح تجاه المارّة جميعهم، أمّا هي، فقد كانت تعتقد أنها هي عدوّه الوحيد. في كل مرّة، كان يراها، كان يُكشّر عن أنيابه، وينخرط في نباحه، بحيث يبدو وكأنه يتحفّز للانقضاض عليها، ولكن الحقيقة أنه كان يقفز بطريقة اعتيادية. في تلك الأوقات، لم يكن أحد من هؤلاء الأموات التي تُعلّق صورهم على الحائط، ليساعدها. شاهدتُها ترتعد خوفاً، تتراجع إلى الخلف بقَدَمَيْها الصغيرَتَيْن بحركات رشيقة، تلك العجوز الطاعنة في السّنّ كانت تتمايل بجسدها بحركات أشبه بحركة المِرْوَحَة اليدوية. في تلك الأثناء، لم يكن والد "كوه تشينغ" قد ترك بيته وابنه، وكُنّا نقف هناك نحن الثلاثة، نسخر منها بشماتة. لم أكن خائفاً من أن تطلّ بوجهها من خلف الباب، لتُصيبني بالرعب، كما اعتادت أن تفعل عندما سرتُ متّجهاً نحو بيت كوه تشينغ، فهي الآن تجلس داخل غرفتها، تبكي من الخوف. أمّا نحن، فكُنّا نقف أمام فتحة الباب، نستمتع بمنظرها وهي تبكي.

بعد ذلك، نجحت هذه العجوز في بناء تناغم مذهل بين "كوه تشينغ" وهؤلاء الأموات، وهو ما جعلها تحظى بحماية على غير المتوقّع. ففي تلك الأيّام، كانت تطلب منه أن يرافقها في كل مرّة تخرج فيها من البيت، وبهذا لن تكون مضطرّة للخوف من ذلك الكلب. في كل مرّة، كان ذلك لكلب ينبح تجاههما مُحاوِلاً منعهما من العبور، كان "كوه تشينغ" ينحني على الأرض متظاهراً بأنه يلتقط حجراً، حينها كان الكلب ينكمش، ويعود مكانه. وعندما كان يسيران مُستمرَّيْن في طريقهما، كانت العجوز تنظر إليه نظرات مملوءة بالإعجاب، أمّا زميلي، فكان يسير مُتفاخِراً بنفسه، ويقول لها:

"حتّى الكلاب الأكثر شراسة لا تُخيفني".

كان خوفها من الكلب قد جعلها تركع يومياً أمام تمثال بوذا المنصوب داخل بيتها، تتضرّع إليه أن يطيل من عمر هذا الكلب الأصفر. وفي كل مرّة، كان "كوه تشينغ" يعود من المدرسة إلى البيت، كانت تسأله هل لا زال الكلب هناك أم لا، بينما كانت الابتسامة تعلو وجهها عندما كان يجيبها بالإيجاب.

كان أكثر ما يُقلقها هو أن يموت هذا الكلب قبلها. كانت قد أخبرت "كوه تشينغ" أن الرحلة إلى العالم الآخر بعيدة جدّاً، مظلمة وباردة، وعليها أن تلبس لباساً أسود، وتحمل معها مصباحاً زيتياً. ولو مات هذا الكلب قبلها، فسيكون راقداً هناك في طريقها، كما يفعل الآن، ما إن وصلتْ بحديثها إلى هنا حتّى بدت قلقة مرتعشة، ثمّ انهمرت الدموع من عينَيْها وهي تقول له:

"حينها لن تكون موجوداً هناك، لتُساعدني".

تلك العجوز الوحيدة كانت تتحلّى بطابع العناد والجدّيّة اللذَيْن اتّسم

بهما أبناء جيلها. زجاجة الزيت التي استخدمتْها لعشرات السنين كانت هي معيارها الوحيد عندما تذهب لشراء الزيت، فهي لا تثق في أمانة الباعة في المتاجر، فهؤلاء الباعة عادة ما كانوا يتلفّتون يمنة ويسرة وهم يقومون بملء الزيت غير عابئين بالزيادة أو النقصان. لم تكن تفرح إذا تجاوز الزيت حدّ المعيار المنقوش على الزجاجة، بل كانت تسكبه غير راضية عن تلك الزيادة. وإذا لم تمتلئ الزجاجة إلى حدّ المعيار، لم تكن لتغادر مكانها، بل كانت تقف مكانها طويلاً، تنظر إلى الزجاجة بغضب وعناد دون أن تتفوّه بأيّ كلمة.

على ما يبدو أن زوجها قد توفيّ من وقت بعيد، ذلك الرجل قوي البنية كان مُولَعاً بأكل الحَلَزُون بشكل غريب. كان يهوى الجلوس في باحة المنزل صيفاً، يهزّ مروحته اليدوية، ويتناول الحَلَزُون على مهل. تلك العجوز عاشت حياتها أرملة لعشرات السنين، وكان إخلاصها لزوجها يتمثّل في أن توارثت هوايته في أكْل الحَلَزُون. قبل موته، كان زوجها يأكل وحده، ولا يترك لها سوى ذلك الجزء الصغير الذي يبقى مُلتصِقاً بالقوقعة. ولعشرات من السنوات التي تَلَتْ موت زوجها، لم تحاول تلك العجوز أن تتناول ما كان زوجها يحرمها منه، بل ظلّت تتناول ذلك الجزء الملتصِق طواعية، بينما كانت تترك اللحم لزوجها الميّت الذي علّقت صورته على الحائط، فقد جعلت من تلك العادة جزءاً لا يُجتزأ من وفائها لزوجها.

زميلي الصغير لم يكن يحبّ تناول الحَلَزُون، ولكن تلك العجوز كانت تُمَصْمِصُ الحَلَزُون بصوت عالٍ، بل حتّى إنها كان تُخرِج لسانها، تلعق السائل المتبقّي على شَفَتَيْهَا بعد كل مرّة. ومع تكرار العجوز لهذه العادة، كان لُعاب زميلي يسيل من فمه مُتحفّزاً لأكْل لحم الحَلَزُون. الا أنه عندما كان يحاول أن يمدّ يده، ليلتقط بعضاً من لحم الحَلَزُون الموضوع على

المنضدة، كانت العجوز تنزعج بشدّة، وتخطفه من أمامه، ثمّ تقترب من أذنه، وتقول له بلهجة مخيفة:

"سوف يراكَ".

والحقيقة أن هؤلاء الأموات الذين علّقت صورهم على الحائط كانوا ينظرون إليهما.

في ربيع عامي الثاني عشر، رحلت هذه العجوز عن عالمنا إلى الأبد. ماتت وهي تسير في طريقها عائدة إلى البيت. كانت قد ذهبت بصحبة "كوه تشينغ" لشراء بعض الزيت، وفي طريق عودتهما إلى البيت، شعرت بأن قَدَمَيْها قد تيبّسَتَا فجأة. قالت إنها تريد أن تستريح قليلاً، ثمّ حاولت جاهدة السير نحو جدار على جانب الطريق، جلست على الأرض مُمسِكَة بزجاجة الزيت، وأشعّة الشمس الساطعة تغمرها. ظلّ زميلي واقفاً بجوارها، أغمضت العجوز عينَيْها، فظنّ أنها قد نامت. شعر زميلي بالملل، وأخذ يتلفّت يمنة ويسرة، كان الوقت في ذروة الربيع، حيث شاهد بعض الحشائش اليانعة قد نمَتْ بجوار الحائط. قبلها بقليل، كانت العجوز قد فتحت عينَيْها، وسألتْه بصوت خافت إذا ما كان ذلك الكلب موجوداً أم لا، نظر "كوه تشينغ" نحو الزقاق المقابل، فوجد الكلب راقداً هناك، يَرْمُقُهُما بنظراته المعتادة. أخبرها أن الكلب لا يزال هناك، حينها أخذت العجوز نَفَسَاً عميقاً، ثمّ أغمضت عينَيْها ثانية. ظلّ "كوه تشينغ" واقفاً بجوارها، ولبعض الوقت كان ينظر مسروراً إلى أشعّة الشمس المسلّطة على تجاعيد وجهها التي تُشبهُ أمواج البحر.

أخبرَنا "كوه تشينغ" بعدها أنها كانت قد تاهت في طريق عودتها، وماتت من البرد. لقد غادرت عالمنا على عجل، لم يُسعفها الوقت أن

ترتدي معطفها الأسود، وتحمل معها مصباحها الزيتي. فالطريق إلى العالم الآخر طويلة ومظلمة وباردة. لقد سارت في هذه الطريق المظلمة التي لا يستطيع الشخص أن يرى فيها أصابع يده حتّى ضلّت طريقَها، الريح الباردة كانت تلفح جسدها، فصارت ترتعد من شدّة البرد، ولم تعد قادرة على مواصلة السير، فكانت مضطرّة إلى الجلوس، وهكذا ماتت من شدّة البرد.

نجح "كوه تشينغ" أن يُحرّر نفسه تماماً عندما بلغ الثالثة عشرة. لم يكن يرغب في أن يحمل حقيبته المدرسية، ويذهب ليستمع إلى أحاديث المدرّسين التي لا تنتهي. وفي الوقت الذي كان فيه "ليو شياو تشينغ" قد التحق بالمدرسة الإعدادية، كان "كوه تشينغ" قد بدأ يعمل ويكسب المال.

في ذلك الوقت، كُنتُ قد عدتُ إلى الباب الجنوبي، وعندما بدأتُ أعاني من مأساة الحياة في بيتي القديم، كان زميلي قادراً على التّكفّل بنفسه، حيث كان يعمل في توصيل الفحم. كان يُشبهُ عمّال توصيل الفحم تماماً، يُعلّق على كتفه منشفة قذرة، ويلبس قميصاً مفتوح الأزرار، يحمل الفحم لتوصيله إلى بيوت الزبائن، وهو يغنّي. الا أنه كان لا يزال محتفظاً بمنديله كعادة قديمة، اعتاد عليها. في كل مرّة، كان ينزل الفحم فيها من على كتفه، كان أوّل ما يفعله هو أن يتحسّس جيبه، ويُخرِج منديله، ليمسح به فمه، وبالرغم من أن جبينه كان يتصبّب عَرَقاً، إلا أنه كان يكتفي بمَسْح فمه فقط بالمنديل. كان يحمل في جيبه الآخر (نوتة) صغيرة، وقلم رصاص، ويجوب البيوت، يتحدّث إلى الزبائن بصوت طفولي مُهذَّب، يسألهم إذا ما كانوا في حاجة إلى الفحم أم لا. في البداية، لم يكن يحظى بثقة الزبائن نظراً لصغر سنّه، وضعف جسمه، حتّى إن بعضهم كان يسأله قائلاً:

"هل تستطيع حمل جوال الفحم"؟

كان يجيبه بابتسامة ذكية قائلاً:

"إن لم تجرِّب، فكيف ستعرف إن كُنتُ أستطيع أم لا".

بعدها بفترة قصيرة، حاز "كوه تشينغ" على ثقة الزبائن، بسبب إخلاصه في العمل، وبراعته في الحساب. لم يكن باستطاعة عامل التوزيع في مصنع الفحم أن يخدَعَه، بل على العكس، كانت هيئته الطفولية وأحواله المتعثّرة التي يعلمها الجميع سبباً في أن يكسب حبّ هذا العامل ورعايته الذي عادة ما كان يعطيه كمّيّة إضافية مجّانية. بالطبع، المستفيد الأكبر هو الزبون، ولكن هذه الاستفادة كانت سبباً في رواج تجارة زميلي. فقد استطاع أن يقصي زميله الذي عمل لأكثر من عشرين عاماً في هذه المهنة.

صورة الرجل الذي سيكون "كوه تشينغ" زميله لاحقاً ظلّت محفورة بعمق في ذاكرتي. هذا الرجل قصير القامة يمكنكَ أن تعدّه شخصاً معتوهاً. لم يكن أحد يعرف اسمه، وإذا ما نادى عليه أحدهم بأيّ اسم، كان يجيب. وعندما كان يحمل الفحم، ويمشي مسرعاً، لم يكن يجيبنا عندما نادي عليه. فقط عندما كان يسير دون حمل على ظهره، كان يجيبنا بجدّيّة واهتمام عندما نناديه بأيّ اسم يحلو لنا. حينها كُنتُ أناديه باسم "كوه تشينغ" أو "ليو شياو تشينغ"، أمّا هما، فكانا يناديانه باسمي، لم يكن منه إلا أن يُومِئ برأسه مُجيباً "نعم، نعم" دون أن يرفع رأسه أمامنا، ثمّ يمضي مسرعاً. كان دائماً في عجلة من أمره، وكأنه دائم السَّعْي لِلّحاق بالقطار. ذات مرّة، ناديناه قائلين "يا مرحاض"، فأجابنا أيضاً، حينها كدتُ أموت من شدّة الضحك. إلا أن هذا الرجل الذي لم يكن يهتمّ باسمه، لم يكن يتساهل قطّ في أيّ أمر يخصّ المال. كان سريعاً في الحساب، بطريقة مذهلة، فعندما يكون الزبائن حائرين في حساب المبالغ المستحقّة يكون

هو أوّل مَنْ يُخبرهم بالرَّقْم المطلوب. هذه الأرقام التي كان يتفوّه بها كانت هي الكلمات الوحيدة التي يسمعها منه أهل المدينة كلهم.

بالطبع، إنه في الوقت الذي كان يسخر فيه "كوه تشينغ" برفقتنا من هذا الشخص، لم يكن يتخيّل أن يكون زميلاً له في يوم من الأيّام. كان العمل في تلك المهنة بمثابة خسارة كبيرة لهذا الشخص. فلم يعد مشغولاً طيلة اليوم يقوم بتوصيل الفحم إلى الزبائن، كما كان الحال في السابق، بل صار يسير حاملاً جواله فارغاً معظم الوقت. لم يكن يحقد على "كوه تشينغ"، أعتقد أنه ليس لديه القدرة على بُغْض الآخرين. هذا الرجل المتفاني في عمله لأقصى حدّ، لم ترتسم على وجهه ابتسامة قطّ، فبعدما كان يقوم بسَكْب الفحم داخل أجولة الزبائن كان يمدّ يده من تلقاء نفسه، ويأخذ المِكْنَسَة التي غالباً ما تُوضَع خلف الباب، ويقوم بتنظيف بقايا الفحم من على الأرض، ثمّ يلتقط جواله الفارغ، ويغادر بوجه متجهّم. إلا أنه ذات مرّة شاهد "كوه تشينغ" يسير في طريقه حاملاً جواله فارغاً، فارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة.

لا أحد يعرف كيف نشأت علاقة صداقة بين هذَيْن الشخصَيْن، فقد أخذ الناس يعتادون على رؤيتهما والعَرَق والتراب يملآن جسدَيْهما، وهما يجلسان معاً في المقهى، يحتسيان الشاي بسعادة، والسرور يعلو وجهَيْهما. هذا الشخص الذي لديه العديد من الأسماء، ولكنْ، لا يوجد اسم منهم، يخصّه في الحقيقة، كان يجلس في المقهى مثل الخادم، يضع قَدَمَيْه فوق ساقَيْه، ولا يرفعهما إلا عندما يُمسك بقَدَحه لتناوُل الشاي. كان الحال مختلفاً تماماً، بالنسبة إلى زميلي "كوه تشينغ" الذي كان يضع منديله بجوار كوب الشاي، ويمسح فمه بعد كل رشفة. كان يبدو وكأنه سيّد، يمرّ بمحنة، بملابسه الرّثّة المتّسخة. بالرغم من أن علاقتهما كانت وثيقة للغاية، إلا أن أحداً لم يكن قد سمعهما يتحدّثان معاً من قبل.

بعد حصوله على عمل، نجح "كوه تشينغ" في الحصول على الحبّ أيضاً. تلك الطفلة التي أحبّها ربمّا تصبح فتاة جميلة في المستقبل، ربمّا لم يكن هذا جلياً في البداية. سبق أن قابلتُ تلك الفتاة التي تُدعى "هوي لان"، كان ذلك قبل عودتي إلى قرية الباب الجنوبي، حينها لم يكن "كوه تشينغ" مهتمّاً بتلك الفتاة. كان بيتها في الحارة نفسها التي يسكن فيها. وكانت هناك فتاتان بضفيرتَيْن عادة ما تُحبّان الوقوف أمام الباب، وتناديان عليه قائلتَيْن:

"أيّها الأخ الأكبر كوه تشينغ".

كانت هناك شجرة عنب مثمرة داخل فناء منزلها، وفي صيف أحد الأعوام، أعددْنا خطّة مُحكَمَة لسرقة العنب بأكمله في إحدى الليالي. إلا أن سور الفناء كان مرتفعاً للغاية. لم يكن سبب فشلنا الحقيقي هو ارتفاع السور، بل لأن أحداً منّا لم يكن يجرؤ على الخروج ليلاً دون أن يعرف أهله. في ذلك الوقت، لم يكن والد "كوه تشينغ" قد ترك البيت. وعندما فكّرْنا في العقاب الذي سنُلاقيه من أولياء أمورنا، تخلّيْنا عن خطّتنا المُحكَمَة.

ولذلك فعندما ذهب "كوه تشينغ" لرؤية تلك الفتاة ذات الشَّعْر الأصفر بعدها، كان "ليو شياو تشينغ" الذي التحق بالمدرسة الإعدادية حينها يعتقد أنه يفعل ذلك بدافع سرقة العنب، فقال له دون أن يعرف حقيقة الأمر:

"ما رأيكَ في أن أستدعي بعض الأشخاص، ليساعدونا"؟

غضب "كوه تشينغ" بشدّة فور سماعه كلام "ليو شياو تشينغ"، حيث قال له:

"كيف لكَ أن تسرق العنب من بيت خطيبتي"؟!.

حقيقة الأمر أن قصّة حبّهما كانت قد بدأت قبل عودتي إلى قرية الباب الجنوبي. " كوه تشينغ" الذي لم يكن يخضع لسيطرة أحد، كان يُحبّ التّجوّل عاري القَدَمَيْن في أوقات الظهيرة مرتدياً سروالاً قصيراً. كان قد التقى خلسة بالفتاة التي تصغره بعامَيْن في ظهيرة أحد الأيّام، ثمّ ذهبا لتعلّم السباحة في إحدى البِرَك بالريف المجاور. "هوي لان" كانت قد تعلّمت كيف تتودّد إليه، وتهتمّ به، برغم صغر سنّها. في ذلك اليوم، كان "كوه تشينغ" يقفز كالضِّفْدَعَة وهو يسير فوق الطريق الحجرية، بسبب سخونة أرضية الطريق وقت الظهيرة. لم تتحمّل رؤيته يعاني هكذا، فخلعت صَنْدَلَهَا البلاستيكي، وأعطتْهُ له. في تلك الأثناء، لم يكن "كوه تشينغ" يعرف الطريقة المُهذَّبة التي ينبغي التعامل بها مع الفتيات، حيث نهرها قائلاً:

"مَنْ هذا الذي يرتدي صَنْدَلَ فتاة مثلكِ؟!".

كانت قصّة حبّهما أشبه بقصص حُبّ الشباب الكبار. هذا الفتى ذو الأعوام الثلاثة عشر، كان ينتظرها يومياً أمام بوّابة المدرسة بعد انتهاء الدراسة مُمشِّطاً شَعْره، ومرتدياً ملابس نظيفة، يُعدّ هذا بمثابة مكافأة لنفسه عن تعبه طَوَالَ اليوم. بعد ذلك، كان يسير أمامها مختالاً واضعاً يَدَيْه في جَيْبَيْه، أمّا "هوي لان"، فقد كانت تحمل حقيبتها، وتسير خلفه على عجل.

حينها كانت تشتكي له قائلة إنّ أحد الصبيان وضع حفنة من التراب في حقيبتها.

وكان هو يتصرّف كالكبار، ويشيح لها بيده قائلاً:

"وما المشكلة في التراب؟ لقد كُنتُ أضع الضفادع داخل حقائب الفتيات".

كانت أحاديثهما الطفولية قد جعلت حُبّهما بريئاً ساذجاً، وعندما كان يحين موعد فراقهما، كان يُخرِج من جيبه قطعة حلوى، قد اشتراها خصّيصاً لها، ثمّ يدسّها داخل حقيبتها.

بدا أن "كوه تشينغ" ينوي أن يتزوّجها، ويُنجب منها، وإلا ما كان ليتعامل مع قصّة الحُبّ هذه بتلك الجدّيّة. كان دائماً ما يحاول التظاهر بأنه أكبر من سنّه الحقيقية، ومن ثمّ، كان يضفي بعض المرح على جدّيّته وصرامته. صارا معروفَيْن داخل المدينة، بسبب تكرار ظهورهما معاً وسط الشوارع. أخطأ "كوه تشينغ" في تقدير رأي الكبار من علاقته بتلك الفتاة، فعندما كانت الأمور تسير بسلاسة، كان يشعر أن الآخرين قد اعتادوا على هذا العلاقة.

والدا "هوي لان" يعملان صيدلانيَّيْن في المستشفى، وكانا قد لاحظا العلاقة بين هذَيْن الطفلَيْن، ومن وجهة نظرهما، لم يكن هذا أمراً يستدعي القلق، فهما، في النهاية، طفلان. وعندما كان أحد يُخبرهما أن هذَيْن الطفلَيْن يتعاملان وكأنهما حبيبان، كانا يشعران بأن هذه أقاويل سخيفة، لا تستحقّ الالتفات. بعد ذلك، تسبّبت تصرّفات "كوه تشينغ" في أن يكتشف والداها أن هذه الأقاويل كانت حقيقية.

بينما كان زميلي في الثالثة عشر من عمره ذاهباً في صباح أحد أيّام الآحاد لشراء زجاجة خمر وكرتونة سجائر معتزماً الذهاب إلى بيت والدَي "هوي لان". كُنتُ معجباً للغاية بشجاعته، وهو يدخل بيتهم واثقاً من نفسه، ارتسمت على وجهه ابتسامة احترام، وهو يضع هداياه على الطاولة، بدا والد "هوي لان" مذهولاً، وهو يسأله له ما هذا؟

أجابه "كوه تشينغ": "هذه هدية لكَ".

أشاح هذا الصيدلي بيده رافضاً، وهو يقول:

"كيف لي أن أقبلَ هديّتكَ"؟

في تلك الأثناء، كان زميلي قد جلس على الكرسي مُحاوِلاً وضع قَدَم فوق أخرى إلا أن قَدَمَيْه لم تكن تطأ الأرض. ولكنه استمرّ في ثقته بنفسه، وهو يقول:

"هذه هدية بسيطة، بصفتي صهركما".

أُصيبا بالذهول ممّا قاله، وبعد قليل، سألتْه والدة "هوي لان" قائلة:

"ماذا قلتَ لتوِّكَ"؟

قال "كوه تشينغ": "يا حماتي، لقد قُلتُ ....".

لم يُكمل جملته، حيث قاطعتْهُ تلك المرأة قائلة بصوت عالٍ:

"مَنْ هي حماتكَ"؟

لم يُسعفه الوقت للإجابة عن سؤال تلك المرأة حتّى صرخ فيه الرجل، يطلب منه أن يغادر بيتهم على الفور. نهض "كوه تشينغ" واقفاً، وقال مدافعاً عن نفسه:

"نحن نُحبّ بعضنا بإرادتنا".

امتقع وجه والد "هوي لان" غضباً، ثمّ جَذَبَ زميلنا من ملابسه، وقام بجَرِّه نحو الخارج، وهو يسبُّه قائلاً:

"يا لكَ من صعلوك صغير لعين".

كان "كوه تشينغ" يحاول التّخلّص من قبضة الرجل، وهو يقول:

"نحن الآن نعيش في عصر جديد، لقد انتهت الرجعية القديمة".

بعدها قام والد "هوي لان" بطَرْده خارج البيت، وقامت والدتها برَمْي هداياه خلفه. للأسف، انكسرت زجاجة الخمر فور ارتطامها بالأرض. حينها كان هناك عدد من الناس يقفون بالخارج، ولم يكن "كوه تشينغ" يشعر بالحرج ممّا فعله، فأشار بيده نحو بيت "هوي لان" قائلاً:

"هذه عائلة، يسودها الفكر الإقطاعي القديم بشكل فظيع".

لم يكن حُبّهما البريء سوى تصرّفات صبيانية في نَظَر والدَي"هوي لان". فكيف لطفل في الثالثة عشر أن يعرف كيف يُحبّ طفلة في الحادية عشرة؟ كان تصرّف ابنتهما من وجهة نظرهما هو تصرّف ماجن مناف للقِيَم والتقاليد، وشعرا بأنهما صارا مثار سخرية أهل المدينة. بالطبع، لم يكونا ليتسامحا مع مثل هذا التّصرّف، وعليهما أن يُنهيا هذه العلاقة للأبد. صارا يُوجّهان لابنتهما الوحيدة أقذع أنواع السباب، ويضربانها، إن تطلّب الأمر. يمكن تخيّل حجم الألم الذي كان "كوه تشينغ" يشعر به عندما كان يمرّ من أمام نافذة بيتها، ويسمع صوت بكاء حبيبته. بالرغم من السّبّ والضَّرْب كلَيْهما اللذَيْن تلقّتْهما إلا أن "هوي لان" لم تستطع أن تكبح جماح رغبتها في الحصول على سعادتها، لا أعرف تحديداً هل كانت رغبتها تميل بشكل أكبر للحلوى التي كان "كوه تشينغ" يعطيها إيّاها أم ماذا. ظلا يلتقيان، إلا أنهما كانا قد فَقَدَا بهجتهما السابقة، فكل ما كان يشغل بال "كوه تشينغ" هو الانتقام من والدَيها، حيث ظلّ يشرح لها خطّته للانتقام، أمّا هي، فكانت تستمع بخوف شديد، حتّى إنها كانت تبكي قبل أن ينتهي "كوه تشينغ" من حديثه.

ذات مرّة، شاهدها تقف عند نافذة البيت، والدماء تعلو وجهها،

وحقيقة الأمر أن هذه لم تكون سوى بعض قطرات دم، سالت من أنفها، حينها نادت عليه باكية، وقالت:

"كوه تشينغ".

استشاط زميلي غضباً، ففي تلك اللحظة، كان حقّاً يريد قتل والدَيْها. ركض ذلك الطفل ذو الثلاثة عشر عاماً نحو بيته، ثمّ أحضر معه سكّيناً، وتوجّه إلى بيت "هوي لان". حينها شاهده أحده جيرانه بهذه الحالة المريبة، فسأله ماذا تنوي أن تفعل بهذه السّكّين؟ أجابه غاضباً:

"سوف أقتل أحدهم".

هذا الطفل الذي ربّما كان لا يزال يتبوّل في فراشه شمّر عن ساعدَيْه ووضع السّكّين على كتفه، وتوجّه إلى بيت "هوي لان" والشَّرَر يتطاير من عينَيْه. سار في طريقه دون أن يعترضه أحد، فالكبار كلهم الذي شاهدوه بتلك الحالة لم يعيروا أيّ انتباه لحاله الغضب التي كان عليها. صوته الطفولي وهيئته الساذجة قد جعلتاهم يضحكون عندما أخبرهم أنه في طريقه لقَتْل أحد الأشخاص.

وهكذا دخل "كوه تشينغ" بكل سلاسة إلى فناء البيت، حينها كان والد الفتاة يضع الفحم داخل الموقد، بينما كانت والدتها تجلس وسط الفناء، تُطعم دجاجاتها. أصابهما ظهوره أمامهما فجأة حاملاً سكّينه بالذهول. لكنه لم يقمْ بأيّ حركة، بل ظلّ واقفاً هناك، يتوعّدهم ويُحدِّثهم عن دوافعه لقتلهم. بعدها تحرّك نحوهما حاملاً السّكّين، انتفض والد "هوي لان" للخلف، وهُرع إلى غرفته، وهو يصرخ قائلاً:

"النجدة، سيقتلنا".

أمّا الوالدة المسكينة، فظلت واقفة مكانها مصدومة، تشاهد "كوه تشينغ" وهو يسير نحوها حاملاً سكّينه. في هذا الوقت، كانت دجاجاتها سبباً في إنقاذ حياتها، فالدجاجات المذعورة صارت تطير في كل جانب، وكان من بينها دجاجتان طارتا في وجه "كوه تشينغ"، حينها اغتنمت الأمّ الفرصة، وهُرعت تجري نحو الباب.

وبينما كان "كوه تشينغ" يستعدّ لمطاردتهما، شاهد "هوي لان" تستند بيدها على إطار الباب، وتُحدِّق فيه بعينَيْها الواسعَتَيْن، حيث بدت وكأنها ترتعش من شدّة الخوف. نسي زميلي أمر المطاردة، وذهب مسرعاً نحوها. حينها تراجعت "هوي لان" قليلاً، وانكمشت بجسدها للخلف، وهو ما أغضب "كوه تشينغ" الذي قال لها:

"ما الذي يخيفكِ، فأنا لم آتِ لأقتلكِ أنتْ".

لم يكن لكلماته أيّ مفعول، حيث ظلّت خائفة منه، وهو ما جعله يقول بحنق:

"لو كُنتُ أعرف أنكِ ستتصرفين هكذا، ما جئتُ وخاطرتُ بحياتي من أجلكِ".

حينها كان الناس قد احتشدوا أما باب الفناء، ولم يمرّ بعض الوقت حتّى جاءت الشرطة. انتشرت انباء ذلك الطفل الذي حاول قتل والدَي حبيبته مثل النار في الهشيم، وظلّوا يتوافدون على مكان وجوده لمعرفة ما سيحدث. تقدّم شرطي نحو "كوه نشينغ" قال له:

"ضع السّكّين جانباً".

أُصيب "كوه تشينغ" بالرعب، فأصوات الناس المحتشدين بالخارج

ومجيء الشرطة قد جعلاه يمسك بحبيبته "هوي لان" ويضع السّكّين على رقبتها، ثمّ أخذ يصرخ بصوت متحشرج، ويقول:

"لا تتحرّكوا، لو تحرّك أحد، فسوف أقتلها".

حينها تراجع ذلك الشرطي الذي كان قد تقدّم نحوه. بعدها أخذت "هوي لان" تبكي بصوت عالٍ، بينما كان يُطمئنها قائلاً:

"اطمئنّي، فأنا لن أؤذيكِ، أنا فقط أحاول خداعهم".

ظلّت تبكي بصوتها العالي، بينما استمرّ في طمأنتها قائلاً:

"لا تبكي هكذا، فأنا أفعل هذا كله من أجلكِ".

ظلّ يلتفت حوله والعَرَق يتصبّب منه، ثمّ قال مُتحسّراً:

"لا توجد فرصة للهروب".

كانت والدة "هوي لان" تقف ضمن الحشد خارج الفناء، وتبكي بشدّة، أخذت تلوم زوجها الذي نجا بحياته دون أن يلتفت إلى زوجته، بينما كان زوجها يبكي، بسبب سماعه لصوت بكاء ابنته القادم من داخل الفناء، ويقول لها:

"دعكِ من هذه الأمور التافهة، فحياة ابنتنا في خطر الآن".

في تلك الأثناء، قام أحد أفراد الشرطة بتسلّق الجدار من الجهة الخلفية، وصعد إلى سطح المنزل، ثمّ تحرّك نحو الجهة التي يقف فيها "كوه تشينغ"، لكي يقفز، ويمسك به. هذا الشرطي معروف جدّاً في مدينة "سون تانغ"، حدث ذات مرّة أن أمسك وحده بخمسة من الأشقياء، وقام

بتقييدهم برباط حذائه، ثمّ سحبهم خلفه إلى مركز الشرطة مثل شخص يمسك بحفنة من (سَلْطَعُوْنَات) البحر. تسلّق الجدار بمهارة وخفّة، وهو ما أثار إعجاب المحتشدين هناك، ثمّ صار يتحرّك فوق السقف بهدوء، بحركات أشبه بالقطط، ولكنْ، حدث أن داس بقَدَمه على إحدى قِطَع القرميد، فانزلقت قَدَمَاه، وسقط من فوق السقف. سقط فوق المظَلّة التي تعلو أشجار العنب، فسمع الناس في الخارج أصوات تكسير وفوضى، ثمّ سقط من فوق المظَلّة على الأرض الخرسانية. لحُسن حظّه أنه كان قد سقط أوّلاً فوق المظَلّة، وإلا فربّما كان سيُصاب بالشّلَل جرّاء هذه السَّقْطَة.

كان سقوطه المفاجِئ من السماء قد أصاب" كوه تشينغ" بالذعر، فأخذ يصرخ ويقول:

"ابتعدْ من هنا، وإلا فسأقتلها".

حينها حاول هذا الشرطي البائس النهوض من سَقْطَتِهِ، وقال بصوت متعب:

"حسناً، سأبتعد، سأبتعد".

ظلّ هذا الموقف قائماً حتّى حلول المساء، حيث قام أحد أفراد الشرطة بطَرْح فكرة معقولة. ارتدى ملابس مَدَنية، ودخل من الباب الخلفي، وعندما صرخ فيه "كوه تشينغ" يطلب منه الخروج، أظهر له ابتسامة ودّيّة، وسأله بلهجة لطيفة قائلاً:

"ما الذي تنوي فعله"؟

مسح "كوه تشينغ" العَرَق الذي تصبّب من جبينه، وأجابه قائلاً:

"أريد أن أقتل شخصا ما".

أشار الشرطي بيده نحو "هوي لان"، وقال بصوت منخفض:

"ليس عليكَ أن تقتلَها".

ثمّ أشار بيده إلى الخارج، وقال:

"عليكَ أن تقتل والدَيْها".

هزّ "كوه تشينغ" رأسه موافقاً، بطريقة لا إرادية، وهكذا فقد بدأ يقع في شِرَاك الشرطي.

حينها سأله الشرطي:

"هل يستطيع طفل مثلكَ أن يقتل شخصَيْن أكبر منه"؟

أجابه قائلاً: "أنا أستطيع".

وعندما شاهده الشرطي مضطرباً بعض الشيء، مَدّ يده، وقال له:

"سأذهب لأقتلَهما بدلاً منكَ، ما رأيكَ"؟

كان صوته ودوداً مألوفاً، حينها قال "كوه تشينغ" في نفسه، أخيراً جاء شخص، ليساعدَني. في تلك الأثناء، كان قد وقع في شِرَاك الشرطي تماماً. وعندما مَدّ الشرطيُّ يَدَهُ نحوه، أعطاه "كوه تشينغ" السّكّين دون تفكير. لم يعِ على الفور ماذا حدث، بل هُرع نحو الشرطي يحتضنه، فها هو يجد مَنْ يمدُّ يَدَهُ، ليساعدَهُ بعد أن ظلّ وحيداً بائساً لوقت طويل. أمّا الشرطيّ، فقد أمسك بياقة قميص "كوه تشينغ"، وسحبه للخارج. حاول زميلي جاهداً التّخلّص من قبضة الشرطي، إلا أن الشرطي استمرّ في سَحْبه وسط المحتشدين في الخارج. حتّى ذلك الحين، لم يكن يعرف أنه قد قبض عليه، ظلّ يبكي حتّى تحوّل صوت بكائه إلى صوت طويل متقطّع، لأنه كان يتنفّس بصعوبة.

الافتراء

كان مُعلِّمنا لطيفاً بشكل مثير للخوف، هذا الرجل الذي يرتدي نظّارة طبّيّة، كان يُشبهُ والد "سو يوي" الذي قابلتُهُ لاحقاً. دائماً ما كان ينظر إلينا بابتسامة ودودة، إلا أنه كان من الوارد أن يعاقبَنا بشدّة في أيّ وقت.

زوجته كانت تبيع "التُّوفُو" في سوق بإحدى القُرى، تلك المرأة الشّابّة ذات الملابس المُلوّنة كانت عادة ما تأتي إلى مدرستنا في بداية كل شهر. وأحياناً ما كانت تحضر معها فتاتان صغيرتان. وقتها كُنّا جميعاً نعتقد أنها جميلة للغاية، وكان لها عادة، هي أنها دوماً ما كانت تنفضُ مؤخّرتها بيدها. سمعتُ أن الناس في بلدتها يُطلقون عليها لقب أميرة "التُّوفُو". كان مُعلِّمنا يبدو عبوساً غاضباً في كل مرّة، تأتي فيها زوجته إلى المدرسة، فحينها يكون عليه أن يُسلّمها راتبه الذي قبضه لتوّه، بينما كانت هي تأخذ مبلغاً قليلاً، وتعطيه له. حينها كانت تنهره، وتقول له بصوت عالٍ:

"لماذا أنتَ عابس هكذا؟ عندما تحتاجني في المساء، تبتسم، وعندما آخذ منكَ المال تبكي".

لم نكن نفهم حينها لما يبتسم المُعلِّم في المساء. كُنّا نطلق على زوجة المُعلِّم لقب جيش الإمبراطور. فهي، بالفعل، أشبه بالجيش الإمبراطوري الياباني الذي يأتي على الأخضر واليابس، تأتي كل شهر، لتنتزع المال من جيب مُعلِّمنا.

لا أتذكّر مَنْ مِنْ زملائنا أطلق عليها هذا اللقب. إلا أنني لا أستطيع أن أنسى تلك الهيئة المُضحِكَة التي كان عليها "كوه تشينغ" وهو يجري مهرولاً نحو الصّفّ، حيث أخذ يطرق على السّبّورة، ويتظاهر بأنه سيُلقي نبأ هامّاً، ثمّ قال إن المُعلِّم سوف يتأخّر عن الحضور لبعض الوقت، لأن "الجيش الإمبراطوري قد وصل".

يا لها من جرأة، كان "كوه تشينغ" يتمتّع بها ذلك اليوم، فقد سمعناه يقول بعدها:

"والخائن العميل برفقتها الآن".

كان على هذا الطفل الذي لا يزال يدرس في الصّفّ الثاني الابتدائي أن يدفع ثمناً لذكائه الزائد عن حَدّه، حيث فَضَحَهُ زملاؤه حين قالوا أمام المُعلِّم جاء زوج الجيش الإمبراطوري. امتقع وجه المدرّس غضباً، بينما كان "كوه تشينغ" يتصبّب عَرَقاً من شدّة الخوف. شعرتُ أنا أيضاً بالخوف الشديد، فلم أعرف كيف سيقوم المُعلِّم بعقابه، لم أكن أنا وحدي الخائف، الطَّلَبَة الذي فضحوه كانوا أيضاً خائفين. ففي تلك السّنّ، كُنّا نخاف بشدّة من العقاب القادم، حتّى لو لم يكن هذا العقاب موجّهاً لنا.

استمرّ المُعلِّم على تلك الهيئة المخيفة لدقيقة كاملة، ثمّ ابتسم بعدها فجأة، كانت ملامحه مخيفة، وهو يتحوّل من الغضب إلى الابتسامة، ثمّ نظر إلى "كوه تشينغ"، وقال له:

"سوف تُعاقَب على ذلك".

ثمّ نظر إلينا، وقال:

"فلنبدأ الدرس".

ظلّ وجه زميلي شاحباً طيلة الدرس، فقد كان ينتظر بخوف ورهبة عقاب المُعلِّم له. ولكنْ، ما إن انتهى المُعلِّم من درسه حتّى طوى مَلْزَمَتَهُ، وغادر الصّفّ دون حتّى أن ينظر إليه. لا أعرف كيف مرّ الوقت على زميلي ذلك اليوم، فقد ظلّ جالساً على مقعده طَوَالَ الوقت مثل طالب جديد يشعر بالخجل من الطلاب القدامى. لم يعد هو "كوه تشينغ" الذي عهدناه يجري ويمرح وسط الساحة الرياضية، بل تحوّل إلى قطّة خجولة. مررْنا بجواره عدّة مرّات أنا وصديقنا "ليو شياو تشينغ"، وكانت ملامح وجهه توحي بأنه على وشك البكاء. ظلّ هكذا، إلى أن انتهى اليوم الدراسي، وما إن خرج من باب المدرسة حتّى أخذ يجري ويقفز، وكأنه سجين، خرج لتوّه من زنزانته. حينها تأكّدْنا أنه لن يُعاقَب، وأن المُعلِّم قد نسي هذا الأمر. كُنّا نعرف أيضاً أن الجيش الإمبراطوري سيكون موجوداً الليلة، وأن المُعلِّم سيكون مشغولاً في المساء، يبتسم لزوجته.

ولكنْ، حدث في صباح اليوم التالي أنْ طلَبَ المُعلِّم من "كوه تشينغ" أن يقف، ثمّ سأله قائلاً:

"أخبرْني، ما العقاب الذي تستحقّه"؟

نظر "كوه تشينغ" إلى مُعلِّمه بخوف، وأخذ يهزّ رأسه، وكأنه يقول إنه لا يعرف ما العقاب الذي يستحقّه.

حينها قال المُعلِّم:

"اجلسْ، وفكّرْ قليلاً في الطريقة التي ينبغي أن تُعاقَب بها".

لم يكن طلب المُعلِّم منه أن يفكّر في طريقة عقابه سوى حيلة، يُخيفه بها. ولشهر لاحق، عاش "كوه تشينغ" يعاني من شبح الخوف من المُعلِّم. فكلّما بدا أن الولد نسي أمر العقاب، كان المُعلِّم يذكّره به من جديد قائلاً:

"لا تنسَ أنني لم أعاقبْكَ بعد".

كان هذا العقاب المنتظر قد جعل زميلي يعيش في خوف دائم. ففي تلك الأيّام، ما إن كان هذا الطفل المسكين يسمع صوت المُعلِّم حتّى ترتعدَ فرائصه، وكأنه أوراق شجرة تهتزّ في مواجهة الريح. لم يكن يشعر بالأمان إلا عند عودته إلى بيته بعد انتهاء اليوم الدراسي، إلا أن هذا الشعور بالخوف كان يُعاودُه من جديد عند ذهابه إلى المدرسة في صباح اليوم التالي. لم تنتهِ حياه الخوف هذه إلا بحلول اليوم الذي هجره فيه والده، فقد استُبدل بهذا الخوف شعور أكبر بالتعاسة.

بعدها تخلّى المُعلِّم عن فكرة تخويف "كوه تشينغ"، ربّما كان ذلك بدافع التعاطف معه. بل إن الحال قد تبدّلت تماماً بعدها، حتّى صار المُعلِّم يبحث عن أيّ طريقة يمتدحه بها، فكان يعطي له الدرجات النهائية، برغم وجود أخطاء في واجباته. حدث أن قام المُعلِّم باصطحاب زميلنا لرؤيه والده قبل مجيء أخواله. وأخذ يتحدّث مع والد "كوه تشينغ"، ويقنعه بأن ابنه طفل ذكي ومطيع والمُعلِّمون جميعهم يُحبّونه. إلا أن والد" كوه تشينغ" ردّ عليه ببرود بعدما استمع إلى مديحه لابنه، وقال:

"إن كنتَ تحبّه كما تقول، فلماذا لا تتبنّاه، إذنْ"؟.

حينها ردّ عليه المُعلِّم مبتسماً دون تردّد، وقال:

"أنا بالفعل أرغب في أن أتبنّاه".

كُنتُ أُحبّ وأقدّر مُعلِّمي بدرجة كبيرة قبل أن أتعرّض للعقاب. فقد كانت هيئة المُعلِّم وهو يغزل سترة صوفية قد أصابتْني بالدَّهْشة الشديدة في ذلك الوقت الذي قام فيه والدي بالتّبنّي "وانغ لي تشيانغ" باصطحابي

إلى المدرسة، في بادئ الأمر، لم أكن قد رأيتُ من قبل رجلاً يغزل سترة صوفية، ولم أكن أعرف أنه يعمل مُعلِّماً في المدرسة إلا عندما أخذني أبي الجديد من يدي، ثمّ وقفْنا أمامه، حيث طلب منّي أن أُحيِّيه. في البداية، كان عطوفاً وودوداً، أتذكّر أنه مَسَحَ بيده على كتفي حينها، وقال بلهجة مملوءة حناناً:

"سوف أوفّر لكَ مقعداً جيّداً في الصفوف الأولى".

بالفعل، حدث ذلك. كان دائم الوقوف أمامي وهو يشرح الدرس، ولم يكن يغادر مكانه إلا عندما يكتب على السّبّورة. كان يضع دفتر دروسه فوق منضدتي، ويرتكز بيَدَيْه عليها، ثمّ يُسهب في إلقاء الدرس، ورَذَاذ لُعابه يتناثر من فمه. كان رَذَاذ لُعابه يتطاير على وجهي عندما كُنتُ أرفع رأسي أستمع إليه، وكأني أجلس في العراء تحت رَذَاذ المطر، أمّا هو، فكان يمدّ يده المُلوّثة بالطباشير، ليمسح رَذَاذ لُعابه من على وجهي عندما يكتشف ذلك، وهو ما جعل وجهي بعد كل نهاية درس أشبه بقطعة قُماش مُلوّنة، بسبب آثار ألوان الطباشير الممزوجة بلُعابه.

كُنتُ قد تعرّضتُ لعقابه في أثناء الفصل الدراسي الأوّل عندما كُنتُ في الصّفّ الثالث. وألهو مع زملائي المنتشين بكرات الثلج وسط الساحة الرياضية بعد موجة من تساقط الجليد، ولسوء حظّي، قذفتُ إحدى الزميلات بكرة ثلجية في رأسها عن طريق الخطأ. لقد نسيتُ اسم هذه الفتاة، إلا أنني لا أزال أتذكّر صوت بكائها العالي، وكأنها قد تعرّضت للمضايقة عمداً، ثمّ وَشَتْ بي عند المُعلِّم.

ما إن جلستُ على مقعدي حتّى نادى عليّ المُعلِّم. طلب منّي أن أذهب وأُحضر كرة من الثلج، حينها كُنتُ أعتقد أنه يسخر منّي، ومن ثمّ،

لم أجرؤ على الحراك من مكاني. قال جملته، ثمّ استمرّ في شرح الدرس، إلا أنه عاد بعد قليل، وقال:

"لمَ لم تذهبْ، كما طلبتُ منكَ"؟

خرجتُ من قاعة الدرس، وذهبتُ لأُحضر كرة الثلج. وعندما رجعتُ إلى قاعة الدرس، كان المُعلِّم يقرأ إحدى القصص على الزملاء. كان يقرأ بصوت متباين، يعلو تارة، وينخفض تارة كالطريق الجبلية، وهو ما جَعَلَني أنتظر في الخارج، لا أجرؤ على الدخول. انتهى من قراءة إحدى الفقرات، ثمّ اقترب من السّبّورة. ما أثار هَلَعي حينها هو أنه لم ينظر إليّ. كان تجاهله المتعمّد لي جَعَلَني أشعر بالقشعريرة، أخذ يكتب بعض الكلمات على السّبّورة، حينها قُلتُ بصوت منخفض:

"أيّها المُعلِّم، لقد أحضرتُ كرة الثلج".

ساعتها نظر إليّ دون مبالاة، ثمّ استمرّ في الكتابة. بعدما انتهى من الكتابة، قام بوضع الطباشير داخل العلبة، ثمّ نادى على زميلتي التي أصبتُها بكرة الثلج دون قَصْد. طلب منها أن تقف أمامي، ثمّ سألها هل حجم الكرة التي قذفتُها بها كتلك التي أحضرتُها أم لا. لم تكن تلك الفتاة تعرف حجم الكرة التي قذفتُها بها، حيث كانت قد أصابتْها من الخلف، ثمّ تفتّتْ على الفور. هذه الفتاة التي كانت قد هدأت، ونسيت الأمر، ما إن وقفتْ أمامي حتّى تظاهرتْ بالبكاء والصراخ، وقالت:

"لا، بل كانت أكبر من هذه".

طردني المُعلِّم ثانية خارج الصّفّ، حيث طلب منّي أن أذهب لإحضار كرة أكبر. بعدما أحضرتُ كرة ثلجية كبيرة، وعدتُ بها إلى الصّفّ، لم

يستدع المُعلِّم تلك الفتاة ليسألها، بل أخذ يتمشّى داخل قاعة الدرس، ثمّ طلب منّي أن أقف عند الباب حتّى تنصهر الكرة، وبعدها يمكنني العودة لمقعدي.

في ذات اليوم البارد من أيّام الشتاء، كانت الرياح الشمالية تهبّ من النافذة ذات الزجاج المكسور، بينما كان المُعلِّم يضع يَدَيْه داخل جَيبَيْه مُستمراً في قراءة القصّة. أمّا أنا، فكُنتُ أقف عند الباب مُمسِكاً بالكرة الثلجية. بعد قليل، انتابني شعور غريب في يدي، وكأنها تحترق، هذا الشعور جَعَلَني أتألّم وكأن هناك شخصاً يقطع يدي بالمنشار، ومع ذلك، كان عليّ أن أكون حريصاً على ألا تسقط الكرة من يدي.

في تلك الأثناء، اقترب المُعلِّم منّي، وقال بلهجة الناصح:

"عليكَ أن تقبض على الكرة بقُوّة، فمن شأن ذلك أن يجعلَها تذوب بسرعة".

ظلّ الحال هكذا، إلى أن انتهى الدرس، ولكنْ، دون أن تذوب الكرة. حمل المُعلِّم دفتره، ثمّ مرّ بجواري مُغَادِراً، بينما جاء بقية الزملاء، والتفّوا حولي. كانوا يتجادلون ويتساءلون عن وقت ذوبان الكرة وكيفيّته، وهو ممّا ضاعف من ألمي بلا شكّ، فشعرتُ بالظلم حتّى كدتُ أبكي. سار "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" نحو تلك الفتاة التي وَشَتْ بي، وأخذا يسبّانها، وينعتانها بالخيانة. انخرطت تلك الفتاة بالبكاء، ثمّ حملت حقيبتها، وهمّت بالمغادرة قائلة إنها ذاهبة لتُخبر المُعلِّم. لم يكن زميلاي يتوقّعان منها أن تقوم بهذا التّصرّف، فأخذا يتوسّلان لها ألا تفعل. في تلك الأثناء، كان جسدي قد تخدّر تماماً، وكأني أصبحتُ قطعة من (الآيس كريم) المثلّج. لم أشعر بيدي إلا والكرة الثلجية تسقط منها، لتقع على الأرض، وتتفتّت.

كُنتُ خائفاً بشدّة، وأخذت أبكي، وأترجّى من الزملاء الواقفين بجواري ألا يُخبِروا المُعلِّم، وأقول لهم:

"لم أتعمّد إسقاطها، لقد رأيتُم بأنفسكم، لم أكن متعمّداً".

لم تكن سلطة مُعلِّمنا قائمة على الحُكْم الصائب، بل كانت قائمة على سياسة التخويف والعقاب القاسي. كان حُكمه هوائياً محضاً، ولذلك فقد كان عقابه يأتي دائماً بشكل مفاجِئ، لا يمكن التّنبّؤ به. لم يكن يُكرّر أنواع العقوبات التي يُطبّقها علينا، وقد برهنتْ سنوات حياتي التي قضيتُها في مدينة "سون تانغ" على صحّة هذه النقطة. كان بارعاً بحقّ، في هذا الأمر، فقد كان خياله يفوق الجميع. وكان هذا سبب رهبتنا منه، في كل مرّة نراه فيها.

ذات مرّة، كُنّا مجموعة من بضعة عشر طالباً، نلعب الكرة في الساحة الرياضية، فتسبّبنا في كَسْر زجاج نافذة غرفة الدرس عن طريق الخطأ. كان عقاب المُعلِّم لنا حينها هو الأخفّ على الإطلاق. حدث أن قمتُ بمقاومة ضعيفة، بسبب أنني لم أكن أتوقّع أن أكون ضمن مَنْ شملهم العقاب تلك المرّة.

لا زلتُ أتذكّر منظر زميلي الذي تسبّب في كَسْر الزجاج في ذلك الوقت. فلم يكن المُعلِّم قد جاء بعد، بينما كان هو قد انخرط في نوبة من البكاء الشديد، لقد أوحى له خياله مشهد العقاب المخيف الذي ينتظره. بعد ذلك، دخل إلى حجرة الدرس، ووقف مبتسماً أمام السّبّورة، كُنتُ أعرف أنه سيكون في غاية السعادة عندما تُتاح له فرصة عقاب أحدنا. وكالمعتاد، جاءت ردّة فعله خارج نطاق توقّعاتنا. لم يقمْ بعقاب الطالب الذي تسبّب في كَسْر الزجاج بشكل مباشر، بل طلب من الطلاب جميعهم الذين شاركوه في اللعب أن يرفعوا أيديهم، ثمّ قال:

"فليكتب كل منكم تقريراً عن هذه الواقعة".

كُنتُ مذهولاً بشدّة حينها، مع أني أعرف أنه يتصرّف دوماً بغرابة. وأشعر أنني لم أرتكب أيّ خطأ، لماذا عليّ أن أكتب شيئاً كهذا؟ دون وعي صدر من داخلي صوت مقاومة، حيث قُلتُ لن أكتب. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أعارض فيها مَنْ هم أكبر منّي، رأيتُ في قراري مقاومة لهذا المُعلِّم الذي يجعل الجميع يعيشون في رعب مستمرّ.

حاولتُ أن أستجمع شجاعتي، إلا أن قلبي كان يخفق خوفاً. بعد انتهاء الدرس، حاولتُ بقدر الإمكان أن أُقنع بقية زملائي بمقاومة المُعلِّم. كانوا غاضبين ومتحمّسين مثلي تماماً، ولكنْ، ما إن طرحتُ فكرة رفض كتابة التقرير حتّى بدوا متردّدين. حينها قال لي "كوه تشينغ" بلا مبالاة:

"لا ضرر في كتابة التقرير الآن، فنحن لا نزال طَلَبَة صغاراً، وهذا التقرير لن يُحفَظ ضدّنا. هذه التقارير لن تكون مُضرّة إلا بعدما نتخرّج ونلتحق بالعمل".

أمّا أنا، فلربّما كانت تلك من أشدّ لحظات الشجاعة التي مررتُ بها في حياتي، فقد استجمعتُ شجاعتي، وقُلتُ لهم بصوت عالٍ:

"مهما حدث، فلن أكتب".

وقفتُ في إحدى زوايا حجرة الدرس، أتطلّع نحو زملائي، وهم يَرْمُقُونني بنظرات مملوءة بالدَّهْشة. كُنتُ أشعر بالإثارة حتّى إن صوتي بدا مُرتعِشاً، هذه الرعشة المصحوبة بالإثارة جعلتْني أشعر أنني على صواب. نعم، أنا على صواب. سمعتُ المُعلِّم يقول من قبل إنه لا يوجد شخص كامل؛ أخبرتُهم قائلاً:

"المُعلِّم أيضاً قد يُخطئ".

لبقية اليوم كُنتُ مستغرقاً في حالة من الزَّهْو النَّفْسي. فأنا طفل صغير، ولكني استطعتُ أن أكتشف خطأ مَنْ هم أكبر منّي. صرتُ أُحلِّق بخيالي، لاح في مخيّلتي مشهد، رأيت فيه المُعلِّم يتجادل معي داخل حجرة الدرس، أمّا أنا، فكُنتُ أردّ عليه بعبارة تلو الأخرى، فالحقيقة في جانبي. وبالرغم من أنه كان بارعاً في الجدال، إلا أن الحقيقة لم تكن في جانبه، وبالطبع، فقد خسر المُعلِّم هذا النقاش في النهاية. ما أثار حفيظة الزملاء هو أن المُعلِّم اعترف بهزيمته، كما أنه أخذ يمتدحني بعبارات مملوءة بالإطراء. زميلاتي أخذنَ ينظرنَ إليّ نظرات ملآنة بالإعجاب، وزملائي أيضاً. حينها كان بوسعي أن أشعر بالسعادة الناجمة عن إعجاب الفتيات بي. في تلك الأثناء، انتهى بي هذا المشهد الخيالي، حيث كادت دموعي أن تنهمر من عينَي. بينما كُنتُ أرغب أن يتوقّف خيالي طويلاً عند تلك اللحظة، ومن ثمّ، يمكنني أن أستشعر طَعْم تلك السعادة لوقت أطول.

في الوقت الذي كانت فيه حماستي قد بلغت ذروتها، بدا المُعلِّم هادئاً غير مبال، لم يسأل أو يستفسر. بدأتُ أشعر بالقلق تدريجياً، ولم أستطع أن أكبح جماح خوفي، قُلتُ في نفسي هل من الممكن أن يكون المُعلِّم على صواب، وأنا على خطأ؟ فحينها كُنتُ أنا أيضاً ألعب معهم بالكرة، فلو لم أكن أنا قد قذفتُ بالكرة إلى "ليو شياو تشينغ" الذي ألقاها بدوره لهذا الزميل ما كان الزجاج لينكسر، أنا طَرَف أساسي، إذنْ. أخذ خيالي يتمدّد، واعتراني القلق طيلة اليوم، فكيف لي أن أجرؤ على مجادلة المُعلِّم، وأنا في هذا الموقف؟!

استعدتُ ثقتي بنفسي، ولكنْ، هذه المرّة كانت بمساعدة والدتي بالتّبنّي. كُنتُ أمسح زجاج النافذة كالمعتاد، حينها سألتُها هل يحقّ لي لعب الكرة في الساحة الرياضية؟ أجابت قائلة:

"نعم، يحقّ لكَ".

تابعتُ سؤالي قائلاً:

"وماذا لو كُنتُ ألعب مع زملائي، وقام أحدهم بقَذْف الكرة، فتسبّب ذلك في كَسْر زجاج النافذة، هل أكون مخطِئاً؟"

أجابتْني بكل بساطة قائلة:

"أحدهم كسر زجاج النافذة، ما شأنكَ بهذا"؟

ها هو الحقّ قد عاد إلى جانبي مرّة أخرى، لم أعد مضطرّاً للقلق والشّك. ولن يستطيع أحد أن يُغيِّر من ثقتي بأنني على صواب.

إلا أن تجاهُل المُعلِّم لي لفترة طويلة كان قد جعل حماستي تتلاشى، وحلّ محلّها تدريجياً نوع من الإحباط. ففي البداية، كُنتُ أتوق متحفّزاً إلى أن أتجادل معه خلال الدرس. خلال الليل، كُنتُ أُجهّز العديد من الحجج والبراهين، وفي الصباح، كُنتُ لا أنفكّ عن تشجيع نفسي. ولكنْ، ما إن كُنتُ أسمع جرس المدرسة حتّى يخفق قلبي بشدّة. كان أكثر ما يُقلقني هو أن ينتابني الخوف، ولا أستطيع التّفوّه بأيّ كلمة. ومع استمرار تجاهُل المُعلِّم، زادت مخاوفي بشكل واضح. نما الإحباط، واختفت ثقتي بنفسي. بمرور الوقت، بدأتُ أستعيد الهدوء السابق، وبدأتُ أشعر أن هذا الأمر قد انتهى ومضى، ومن ثمّ، بدأتُ أنسى كل ما يخصّ هذه الواقعة. فلربّما كان المُعلِّم قد نسي هو الآخر، وربّما كان الجيش الإمبراطوري قد عاد ثانية، وهو مشغول الآن يبتسم لزوجته ليلاً.

بدا وكأن كل شيء يتصارع بداخلي، كُنتُ أقوم بدوري ودور المُعلِّم في الوقت نفسه خلال هذا الصراع، ولكنْ، في الأخير تخلّيتُ عن خوض

هذا الجدال بعدما استنفدتُ طاقاتي كلها. بدأتُ أُشغل نفسي باللهو داخل الساحة الرياضية الصاخبة، ومن ثمّ، استعدتُ نفسي من جديد، أركض وأصرخ هناك دون قلق أو هَمّ. إلا أنه في تلك الأثناء، جاءني "كوه تشينغ" يقول لي إن المُعلِّم يطلب منّي الذهاب إلى مكتبه.

عاد القلق ثانية، ذهبتُ في عصر ذلك اليوم المشمس إلى مكتب المُعلِّم، أسير بخطى متثاقلة. كان الزملاء يركضون ويصرخون من خلفي، أمّا أنا، فكُنتُ أعلم أن ذلك الوقت الذي كُنتُ أنتظره، ثمّ صرتُ أخشاه، قد حَلّ. حاولتُ جاهداً أن أبحث عن تلك الكلمات التي أعددتُها مُسبَّقاً للجدال المحتمَل، إلا أنني لم أنجحْ في الحصول على أيّ منها. كانت شَفَتَاي ترتجفان، وكأني على وشك البكاء بصوت عالٍ. حاولتُ أن أُشجّع نفسي، وأمنعها من البكاء. كُنتُ أعرف أن المُعلِّم سيُعنّفني بشدّة، ومن المحتمل أن يكون قد فكّر في حيلة جديدة من حِيَله الغريبة، ليعاقبني بها، ولكنْ، بالرغم من ذلك، يجب عليّ ألا أبكي، فأنا لم أرتكب أيّ خطأ. نعم، أنا لم أُخطئ، المُعلِّم هو المخطئ. عليّ أن أخبره بهذا، وعليّ أيضاً أن أتحدّث ببطء، وإلا فسوف أُصاب بالخوف من صوته المرتفع عندما يقاطعني فجأة، كما أن عليّ أيضاً ألا أخاف من ابتسامته الخادعة. وهكذا دخلتُ إلى مكتب المُعلِّم، حيث شعرتُ بثقتي بنفسي قد عادت من جديد.

هزّ المُعلِّم رأسه لي بلطف، فقد كان يتحدّث مبتسماً إلى مُعلِّم آخر داخل المكتب. وقفتُ بجواره، حيث كان مُمسكاً ببعض الأوراق، يُقلّبها ببطء، كانت أوّل ورقة هي التقرير الذي كتبه "ليو شياو تشينغ". ظلّ يتحدّث مع المُعلِّم الآخر وهو يُقلِّب الأوراق ببطء. كُنتُ أرى الأسماء بوضوح، رأيتُ أيضاً التقرير الذي كَتَبَهُ "كوه تشينغ"، كان مكتوباً بحروف كبيرة. بعدها استدار المُعلِّم بجسده نحوي، وقال بوجه باسم:

"أين التقرير الخاصّ بكَ"؟

انهرتُ تماماً حينها. فبعدما شاهدتُ تقارير زملائي جميعهم، فَقَدْتُ شجاعتي كاملة، فقُلتُ له مُتَلَعْثِماً:

"لم أنتهِ من كتابته بعد".

سألني بصوت منخفض ناعم:

"ومتى ستنتهي من كتابته"؟

أجبتُهُ دون تفكير:

"سأنتهي منه على الفور".

بينما كُنتُ أقوم بإيقاد الفحم أسفل البيت في عصر يوم سبت بعدما التحقتُ بالصّفّ الرابع الابتدائي خلال عامي الأخير في مدينة "سون تانغ"، جاءني كوه تشينغ وليو شياو تشينغ يُهرولان، ثمّ أخبراني بخبر، أثار ذهولي. لقد وجدوا لوحة معلّقة على جدار الصّفّ مكتوب عليها "فليسقط المُعلِّم تشانغ تشينغ هاي".

بدا عليهما الحماسة والإثارة، أخذا ينظران إليّ بإعجاب، ويمتدحان جرأتي وشجاعتي، ويقولان إنه كان يجب إسقاط هذا المُعلِّم منذ وقت طويل، لقد عانى الجميع من أسلوبه الغريب وعقابه المخيف. كانا يعتقدان أنني مَنْ كتب هذه اللوحة، وكانت نظراتهما وكلماتهما جعلتْني أودّ لو كُنتُ فعلاً أنا مَنْ كتبها، ولكنْ، لم يكن أمامي إلا قول الحقيقة، فأخبرتُهم وأنا أشعر بالحرج قائلاً:

"لستُ أنا مَنْ فعل ذلك".

خيبة الأمل التي ارتسمت على وجهَي "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" حينها جعلتْني أشعر بالقلق. كُنتُ أعتقد أن السبب في خيبة أملهما هو أنني لم أكن ذلك الشخص الشجاع المُنتظَر.

كُنتُ أشعر في داخلي أن "كوه تشينغ" أكثر جرأة منّي، أخبرتُهُ قائلاً:

"أنتَ أكثر جرأة منّي".

أمّا هو، فتقبّل هذا الثناء، وهزّ رأسه قائلاً:

"نعم، لو كُنتُ مكانكَ، لكتبتُ عبارة مثلها".

كان حديث "ليو شياو تشينغ" هو ما دفعني لأن أتفوّه بتلك العبارة، بالرغم من أنني كُنتُ أعلم هذا جيّداً، فلم أكن أرغب في أن أجعلهما يشعران بخيبة الأمل.

وهكذا فقد نجحا في خداعي، فلم أكن لأتخيّل أن "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" قد جاءا ليخدعاني بإيعاز من المُعلِّم. بعدها بأسبوع، بينما كُنتُ أسير في طريقي إلى المدرسة مبتسماً، تمّ اقتيادي إلى غرفة صغيرة، يجلس في داخلها المُعلِّم "تشانغ تشينغ هاي" ومعه مُعلِّمة أخرى، اسمها "لين"، ثمّ شرعا يستجوبانني.

في البداية، سألتْني المُعلِّمة "لين"إن كُنتُ على علم بموضوع اللوحة المعلّقة على جدار حجرة الدرس أم لا. وفي مواجهة اثنَيْن من المُعلِّمين يستجوبانني في غرفة صغيرة مُوصَدة الأبواب، لم يكن بوسعي سوى أن أُجيب بنعم.

سألتْني وكيف علمتُ بذلك؟ لم أعرف كيف أجيب حينها. هل أخبرها

أنني عرفتُ بذلك من خلال "كوه تشينغ""وليو شياو تشينغ"؟ وماذا لو استدعوهما إلى هنا؟ كيف سيكون موقفي حينها؟ بالتأكيد سينظران إليّ نظرة الخائن.

نظرتُ إليهما بقلق، فلم أكن أعرف حينها أنهما يشكّان فيّ. سألتْني المُعلِّمة بصوت هادئ:

"هل جئتَ إلى المدرسة يومَي السبت والأحد"؟

هززتُ رأسي نافياً. حينها نظرت مبتسمة إلى المُعلِّم زميلها، واستمرّت في استجوابي قائلة بصوت عالٍ:

"فكيف عرفتَ، إذنْ، بأمر اللوحة"؟

أصابني صوتها المرتفع بالخوف، أمّا المُعلِّم الذي كان صامتاً طيلة الوقت، فقد تحدّث حينها قائلاً:

"لماذا قمتَ بكتابة تلك اللوحة"؟

دافعتُ عن نفسي في عُجالَة قائلاً: "لستُ أنا مَنْ كتبها".

قاطعني المُعلِّم قائلاً: "إيّاكَ أن تكذب".

ضربت المُعلِّمة بيدها على المنضدة، ثمّ استمرّت قائلة بصوتها المرتفع:

"أنتَ تعرف بأمر تلك اللوحة، ولم تأتِ إلى المدرسة كما قلتَ، فكيف حدث هذا، إذنْ"؟

لم يكن أمامي بُدّ من أن أقول إن "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" هما

مَنْ أخبراني. أخبرتُهما بالحقيقة، إلا أنهما لم يهتمّا بما قُلتُهُ، بل استمرّ المُعلِّم يقول:

"لقد فحصتُ الخطّ الذي كُتبَت به اللوحة، أنتَ هو مَنْ كتبها".

قالها بكل ثقة وتأكيد. فانهمرت الدموع من عينَيّ حينها، حاولتُ جاهداً أن أهزّ رأسي نافياً، علّهما يصدّقانني. كانا يجلسان على كرسيّهما، يتبادلان النظرات، وكأنهما لم يستمعان إلى كلامي. تسبّب بكائي في جلب اهتمام بعض الزملاء الذين جاؤوا والتفّوا خارج الغرفة، ينظرون إليّ من النافذة، وأنا أبكي، إلا أنني لم لأكن لأبالي لنظراتهم. وقفت المُعلِّمة، وطردتْهم بعيداً عن الغرفة، ثمّ أغلقت النافذة. في البداية كان الباب مغلَقاً، والآن صارت النافذة مغلَقة أيضاً، حينها سألني المُعلِّم قائلاً:

"ألم تقلْ من قبل إنكَ تتمنّى لو كنتَ أنتَ مَنْ كتبها".

نظرتُ إليه بخوف شديد، فلم أكن أعرف حينها كيف أجيبه، هل من المعقول أن يكون قد سمع حديثي مع زميلَيّ ذلك اليوم؟

كان جَرَس المدرسة سبباً في إنقاذي من هذه الورطة مؤقّتاً. طلبا منّي أن أقف هنا دون حراك، وذهبا لإلقاء دروسهما. وقفتُ وحيداً داخل الغرفة، أنظر إلى كرسيَّيْهما القابعَيْن بجواري دون أن أجرؤ على الجلوس. كانت هناك قنّينة حبر حمراء فوق المنضدة، وددتُ أن أتفحّصها، إلا أنني كُنتُ خائفاً، فقد طلبا منّي ألا أتحرّك. لم يكن بوسعي سوى النَّظَر من النافذة، حيث توجد الساحة الرياضية. في تلك الأثناء، كان هناك بعض الطَّلَبَة يصطفّون في طابور طويل، ثمّ تفرّقوا بعدها للَعب الكرة. كان درس التربية الرياضية هو أكثر الدروس التي أحبّها. سمعتُ بعدها صوت مُعلِّم يقرأ شِعْراً قادماً من إحدى الحجرات، كان الصوت خافتاً بعض الشيء،

بسبب إغلاق الباب والنافذة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أستمع إلى صوت المُعلِّم يقرأ شِعْراً وأنا خارج حجرة الدرس، ولكم تمنّيتُ حينها أن أكون هناك في الداخل. بعدها رأيتُ زميلَيْن أكبر منّي يطرقان على زجاج النافذة، ويقولان بصوت عالٍ:

"لماذا كنتَ تبكي منذ قليل"؟

انهمرت الدموع من عينَيّ ثانية، أمّا هما، فكانا يضحكان بصوت عالٍ.

بعدما دقّ جَرَس انتهاء الدرس، شاهدتُ المُعلِّم قادماً، يصطحب معه "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ". أخذت أفكّر في سبب مجيئهما بصحبة المُعلِّم، هل تسبّبتُ في توريطهما معي؟ شاهدَاني من خارج النافذة، رَمَقَاني بنظرة خاطفة، ثمّ أشاحا بأعينهما بعيداً.

ما حدث لاحقاً أصابني بالذهول. فقد عرفتُ أنهما مَنْ وشيا بي، وأبلغا المُعلِّم بحديثي معهما حين قُلتُ إنني أتمنّى لو كُنتُ أنا مَنْ كتبها. نظرت المُعلِّمة "لين" إلى زميلها، وقالت له:

"مَنْ يستطيع أن يفكّر بتلك الطريقة، يستطيع أن يكتب تلك اللوحة".

حينها أشرتُ إلى" كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ"، وقُلتُ:

"هما أيضاً قالا كذلك".

سارعا إلى الدفاع عن نفسَيْهما، قائلَيْن:

"لقد قلْنا ذلك بدافع خداعه".

نظرتُ إليهما بحسرة وخيبة أمل. أمّا هما، فكان ينظران إليّ بغيظ، بعدها طلب المُعلِّم منهما أن يغادرا الغرفة.

لقد كان صباحاً مخيفاً بالنسبة إليّ، المُعلِّمان يتبادلان الهجوم عليّ، وأنا أبكي بشكل دائم دون أن أعترف بأيّ شيء. كانا يصيحان ويضربان على المنضدة بشكل مفاجِئ، وهو ما جعل دموعي مختلطة بالفزع. لمرّات عديدة، شعرتُ كأن جسدي يرتعد من شدّة الخوف دون أن أجرؤ على الحديث. تلك المُعلِّمة "لين" كانت تستخدم أساليب التخويف كافّة، سواء بالحركات أو بالعبارات. بعد ذلك، صارت تتحدّث بلهجة لطيفة بشكل مفاجِئ، حيث قالت لي إن هناك جهازاً لدى الشرطة يستطيع التّعرّف على صاحب الخطّ المكتوب، وأن الكلمات المكتوبة على اللوحة تطابق تماماً خطّي المكتوب داخل كرّاسة الواجبات المدرسية. كان هذا هو الأمل الوحيد الذي لاح لي حينها، ولكني كُنتُ قلقاً من أن يحدث خطأ بهذا الجهاز، فسألتُها قائلاً:

"هل من الممكن أن يُخطئ هذا الجهاز"؟

أجابت قائلة: "هذا مستحيل".

كانت تهزّ رأسه نافية بكل ثقة، وهو ما جَعَلَني أشعر بالطمأنينة، حيث قُلتُ لها فرحاً:

"حسناً، فلنقم بعرض الخطّ على هذا الجهاز".

إلا أنهما ظلا جالسَيْن مكانهما، يتبادلان النَّظَر إلى بعضهما البعض دون حراك. بعدها قال المُعلِّم:

"عُدْ إلى بيتكَ".

كان جَرَس المدرسة قد دقّ قبلها بقليل، وأخير سأتمكّن من مغادرة هذه الغرفة. بدا كل شيء مفاجِئاً بالنسبة إليّ ذلك اليوم، وهو ما جَعَلَني

قلقاً مرتبكاً حتّى بعد أن نلتُ حُرّيّتي، وخرجتُ من تلك الغرفة. لا أعرف كيف سرتُ حتّى وصلت إلى بوّابة المدرسة، حيث قابلتُ "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" يقفان هناك. سرتُ نحوهما، وقُلتُ لهما والدموع تنهمر من عينَيّ:

"لماذا فعلتُما هذا بي"؟

بدا "كوه تشينغ" مرتبكاً حينها بعض الشيء، فقال لي والخجل يملأ وجهه:

"لقد ارتكبتَ خطأً كبيراً، وعلينا أن نُنهي علاقتنا بكَ".

أمّا "ليو شياو تشينغ"، فبدا مُعتدّاً بنفسه، وقال:

"سأُخبركَ الحقيقة، لقد فعلْنا ذلك بأمر من المُعلِّم".

لقد تسبّب تسلُّط الكبار في إنهاء علاقة الصداقة البريئة بين أطفال مثلنا. لم أتحدّث معهما لفترة طويلة بعدها. ظلّ الحال هكذا حتّى عدتُ إلى قرية الباب الجنوبي، حيث عادت العلاقة بيني وبين" كوه تشينغ" إلى سابق عهدها عندما ذهبتُ إليه أطلب منه المساعدة. ولكننا افترقْنا بعدها، ولم أره منذ ذلك الحين.

جلستُ في حجرة الدرس بعد الظهيرة، أنتظر بداية الدرس، ما إن دخل المُعلِّم حتّى وقع نَظَره عليّ، ثمّ سألني مستغرباً:

"ماذا تفعل هنا"؟

أنا هنا، بالطبع، لأحضر الدرس، ولكن سؤاله هذا جَعَلَني لا أعرف كيف أجيب. حينها استمرّ قائلاً:

"قمْ من مكانكَ".

وقفتُ على عجل، فطلب منّي أن أغادر المكان. غادرتُ متّجهاً نحو الساحة الرياضية، وقفتُ هناك، أتطلّع يمنة ويسرة، لا أدري أين أذهب. تردّدتُ قليلاً، ثمّ استجمعتُ شجاعتي، وقرّرتُ العودة ثانية إلى حجرة الدرس. وقفتُ أمام الباب، ثمّ سألت المُعلِّم قائلاً: "أيّها المُعلِّم، إلى أين عليّ أن أذهب"؟

التفت إليّ، ثمّ سألني:

"أين كنتَ في الصباح"؟

التفتُّ برأسي إلى الخلف موجِّهاً بصري نحو الغرفة الصغيرة الواقعة بجوار الساحة الرياضية، فأدركتُ ما يعنيه، ثمّ سألتُهُ قائلاً:

"هل عليّ أن أعود إلى تلك الغرفة ثانية"؟

أومأ برأسه موافقاً، وقال:

"نعم".

استمرّا يستجوبانني في تلك الغرفة الصغيرة، وكان إصراري على عدم الاعتراف قد أصابهما بالضيق. ظلّ الحال هكذا، إلى أن جاء والدي بالتّبنّي إلى المدرسة مرتدياً بدلته العسكرية. كان يستمع إلى شكواهما، وينظر إليّ بلوم شديد. كُنتُ أتمنّى حينها لو استمع إليّ وأنا أدافع عن نفسي، إلا أنه لم يكن مهتمّاً بالمرّة. قال لهما مُعتذِراً إنه تبنّاني بعدما بلغتُ السادسة، وإن طفلاً قد بلغ السادسة من الصعب على أحد أن يُغيِّر من طباعه.

كان هذا أكثر شيء أكره سماعه. إلا أنه لم يُجبرني على الاعتراف كما

فعل المُعلِّمان. نهض في عُجالَة، واستأذن في الانصراف، بحجّة ضيق الوقت، أعتقد أنه فعل ذلك حتّى يتجنّب إيذائي. فلو استمرّ في حديثه معهما، لكان من الصعب عليه إقناعهما. لقد نجح في الخروج من هذا الموقف المحرج. أمّا أنا، فكُنتُ أشعر بالظلم الشديد، لقد استمع إلى حديثهما بكل إنصات، بينما لم يسألني ولو سؤالاً واحداً، هل صحيح ما قالاه أم لا.

لم أكن لأدري ماذا أفعل، لولا ثقة "لي شيو ينغ بي". في البداية كُنتُ أعيش في غمرة اليأس، كان شعوراً صعباً، يجعلني أشعر وكأني أتنفّس بصعوبة. لا أحد يُصدِّقني، مَنْ في المدرسة جميعهم يظنّون أنني مَنْ كتبتُ تلك اللوحة، لقد صرتُ كاذباً في نَظَر الجميع، لأني رفضتُ الاعتراف بشيء، لم أفعله.

كُنتُ كَمَنْ يعاني بين المطرقة والسندان، مطرقة التهمة التي أُلصقَت بي، وسندان الحقيقة التي عليّ أن أواجهها بعد عودتي إلى البيت. وهكذا سرتُ محمّلاً باليأس عائداً إلى البيت. ما إن سمعتْ والدتي بالتّبنّي التي كانت ترقد في فراشها وَقْع خطواتي حتّى نادتْ عليّ، وسألتْني بصرامة:

"أخبرني بالحقيقة، هل أنتَ مَنْ كتب تلك اللوحة أم لا"؟

خضعتُ لاستجوابات عديدة طيلة اليوم، إلا أنه لم يسألني أحد سؤال كهذا. انهمرت الدموع من عينَي حينها، ثمّ أجبتُها قائلاً:

"لستُ أنا".

نهضت "لي شيو ينغ" جالسة، ثمّ نادت على زوجها بصوت عالٍ، وقالت له:

"أنا واثقة أنه لم يكتبْ تلك اللوحة، لقد أعددتُ له اختباراً سابقاً

وقت مجيئه إلى بيتنا، وضعتُ نصف يوان على حافّة النافذة، فأخذها، وسلّمها لي".

ثمّ التفتتْ نحوي، وقالت:

"أنا أُصدِّقكَ".

حينها عبّر والدي الجديد عن عدم رضاه بما فعله المُعلِّمان قائلاً:

"طفل صغير لم يعقل الأمور بعد، ما الضّرر، إذنْ، لو كتب شيئاً كهذا"؟!.

بدت زوجته غاضبة، ثمّ ألقت باللوم على "وانغ لي تشيانغ" قائلة:

"كيف تتحدّث بهذه الطريقة، معنى كلامكَ أنكَ مقتنع بأنه هو مَنْ كتبها".

تأثرتُ بشدّة لوقوف تلك المرأة غريبة الأطوار بجواري في تلك المحنة، فلم أتمالك نفسي إلا وأنا أنخرط في البكاء. عادت بعدها لتَرقُدَ في فراشها ثانية، وهي تقول:

"لا تبكِ، لا تبكِ، هيّا اذهبْ، وامسحِ النافذة بسرعة".

لم تُغيِّر تلك الثقة القوية التي حظيتُ بها في البيت من المصير الذي كان ينتظرني في المدرسة. فقد مكثتُ ليوم كامل داخل تلك الغرفة الصغيرة مرّة ثانية. العزلة بالداخل جعلتْني أعيش حالة من الخوف غير المعتاد. بالرغم من أنني آتي للمدرسة، وأعود منها ككل زملائي، إلا أنني كُنتُ أدخل تلك الغرفة وحدي، حيث أعاني من استجواب المُعلِّمَيْن المتكرّر، وكيف لطفل صغير مثل أن يحتمل هذا الهجوم كله؟!.

بعد ذلك، شرعا يحكيان لي قصّة ذات تفاصيل مثيرة. كانا يمتدحانني بشكل غير مباشر، حيث قالا لي كان هناك طفل في مثل سنّي، وذكيّ مثلي، إلا أنه ارتكب خطأ كبيراً.

تخلّيا عن أسلوبهما المتعسّف، وشرعا يحكيان القصّة التي كُنتُ أستمع إليها بكل تركيز وإنصات. ذلك الطفل الصغير سرق شيئاً من بيت الجيران، وكان يلوم نفسه على هذا، حيث كان يعرف حجم خطئه. وبعد سلسلة من الصراعات النَّفْسية، أعاد الطفل ذلك الشيء إلى جيرانه، واعترف بخطئه.

ثمّ سألتني المُعلِّمة "لين" بلهجة لطيفة:

"هل تعتقد أن هذا الطفل قد عُوقب جرّاء ما فعله"؟

لم أجبْها. حينها قالت:

"لا، لم يعاقَب، بل على العكس، لقد حظي بثناء الآخرين، لأنه أقرّ بخطئه".

وهكذا فقد نَجَحَا في خداعي. فقد جعلاني أدرك تدريجياً أن الاعتراف بالخطأ جدير بالثناء أكثر من عدم ارتكاب الخطأ. كُنتُ أتوق إلى بعض الثناء بعدما تلقّيتُ تلك الاتّهامات كلها، فوجدتُ نفسي في النهاية مضطرّاً بأن أعترف بخطأ لم أرتكبه.

بدا المُعلِّمان وكأنهما تنفّسا براحة، ثمّ استرخيا على كرسيّهما، ينظران إليّ نظرات مريبة. لم يمتدحاني، ولم يذمّاني. بعدها نظر المُعلِّم لي، وقال:

"عدْ إلى مكانكَ".

خرجتُ من الغرفة عابراً الساحة الرياضية وسط أشعّة الشمس

الساطعة، ثمّ دخلتُ إلى حجرة الدرس غير مُدركٍ لما حدث. ما إن دخلتُ حتّى التفتَ زملائي يَرْمُقُونني بنظراتهم، فشعرتُ بالخجل الشديد حينها.

بعدها بثلاثة أيّام، حملتُ حقيبتي في الصباح الباكر، وسرتُ في طريقي إلى المدرسة. أُصبتُ بالدَّهْشة حين دخلتُ إلى حجرة الدرس، حيث كان المُعلِّم جالساً وحده بالداخل ودفتره مفتوح أمامه على المنضدة. أشار بيده لي، فاقتربتُ منه، سألني بصوت منخفض:

"هل تعرف المُعلِّمة لين"؟

كيف لا أعرفها؟! فهي مَنْ كانت تسبّني وتُخيفني بصوتها العذب خلال احتجازي في تلك الغرفة الصغيرة، كما أنها هي أيضاً مَن امتدحتْني بأنني طفل ذكي. أومأتُ رأسي بالإيجاب.

حينها ابتسم المُعلِّم، ثمّ قال لي بلهجة، يلفّها الغموض:

"لقد أُلقي القبض عليها، فقد كانت تُخفي حقيقة عائلتها التي تُعدّ من العائلات الإقطاعية، ولم يكتشف أحد هذا الأمر إلا لاحقاً".

أصابتْني الدَّهْشة حينها، لقد قُبض على المُعلِّمة "لين"؟ لقد كانت تستجوبني منذ أيّام قليلة، كانت بارعة في إلقاء الحجج، عنيدة في إبداء الرأي، وها هي الآن رهن الاعتقال!

عاد المُعلِّم ليطالعَ دفتره، ثمّ خرجتُ أنا من حجرة الدرس، وقفتُ في الخارج، أتطلّع إلى تلك الغرفة الصغيرة التي كُنتُ محتجزاً في داخلها، وأتخيّل حالة المُعلِّمة "لين" الآن، يا له من أمر مثير للذهول! في تلك الأثناء، حضر بعض الزملاء، ثمّ سمعتُ المُعلِّم يحكي لهم بصوت منخفض ما حدث للمُعلِّمة "لين". كانت ابتسامته مخيفة، لقد كان متحالفاً معها في تلك الغرفة قبل أيّام، وهو الآن يبتسم فرحاً بعد ما حدث لها.

العودة إلى الباب الجنوبي

يمكنني القول بأن "وانغ لي تشيانغ" و"لي شيو ينغ" قد تركا في ذاكرتي أثراً لا يُمحى. عدتُ إلى قرية الباب الجنوبي وأنا في الثانية عشرة، ثمّ غادرتُها ثانية وأنا في الثامنة عشرة. نويتُ لمرّات عديدة أن أزور مدينة "سون تانغ" التي عشتُ فيها خمس سنوات من طفولتي، ولكني لم أكن أعرف هل بقيت والدتي بالتّبنّي "لي شيو ينغ" على قيد الحياة بعد موت زوجها "وانغ لي تشيانغ" أم لا.

بالرغم من أنني كُنتُ أقوم بعمل شاقّ خلال سنوات حياتي معهما، إلا أنهما كانا دائماً ما يمنحانني الشعور بالألفة والمودّة. أتذكّر ذات مرّة عندما كُنتُ في السابعة، طلب منّي "وانغ لي تشيانغ" أن أذهب وحدي إلى المقهى لملء التِّرْمُوْس بالماء الساخن، قال لي حينها:

"كيف ستذهب، إن لم أخبركَ بمكان المقهى"؟

فكّرتُ في هذا السؤال طويلاً، ولكني وجدتُ الجواب أخيراً، فقُلتُ له ضاحكاً:

"سوف أسأل الآخرين".

أطلق "وانغ لي تشيانغ" ضحكة كضحكتي. وعندما هممتُ بحَمْل التِّرْمُوْسَين الفارغَيْن ومغادرة البيت، جثا "وانغ لي تشيانغ" على ركبَتَيْه

أمامي، وحاول جاهداً أن يخفض من رقبته، ليكون في مثل طولي، ثمّ أخذ ينصحني مرّة تلو الأخرى قائلاً:

"إن لم تتمكّن من حمل التِّرْمُوْسَين معاً، فتخلّصْ من أحدهما".

شعرتُ بالذهول حينها، فهذان التِّرْمُوْسان في نظري كالمقتنيات الثمينة، فكيف له أن يطلب منّي أن أتخلّص منهما. سألتُهُ قائلاً:

"لماذا عليّ فعل ذلك"؟

أجابني قائلاً:

"لو حدث أنني سقطتُ على الأرض، بسبب عدم قدرتي على حمل التِّرْمُوْسَيْن، فسينسكب الماء الساخن على جسدي". فعرفتُ حينها ما يقصده.

كُنتُ أسير فخوراً بنفسي حاملاً في جيبي قرشَيْن، وفي يَدَي ترموسَيْن فارغَيْن. سرتُ بمحاذاة تلك الطريق المرصوفة بالحجارة، أسأل المارّة بجواري عن مكان المقهى. لم أكن لأهتمّ لكثرة سؤالي، فأخذتُ أسأل طَوَالَ الطريق. وبالفعل، نجحتْ خطّتي، ووصلتُ إلى المكان المطلوب. كان الكبار ينظرون إليّ بدهشة. دخلتُ إلى المقهى، ثمّ مددتُ يدي بالمال إلى العجوز الجالسة هناك، شعرتْ هي الأخرى بالدَّهْشة، ضربتْ بيدها على صدرها، وقالت:

"لقد أَخَفْتَني، أيّها الصغير".

لم أتمالك نفسي وأنا أضحك من ردّة فعلها، أمّا هي، فظلّت تتأمّلني بدَهْشة. وعندما هممتُ بحَمْل التِّرْمُوْسَين ومغادرة المكان بعد ملئهما بالماء، سمعتُها تصيح من الخلف، وتقول:

"لن تقدر على حملهما".

كيف لي أن أرميَهما؟! كان الجميع ينظرون إليّ بشكّ، إلا أن ذلك قد ضاعف من ثقتي بنفسي. كانت نصيحة "وانغ لي تشيانغ" لي قبل مغادرة البيت قد تحوّلت إلى أمل يُحفّزني على طول الطريق. هذا الأمل الذي صوّر لي مشهداً يقف فيه هو أمام البيت، فيراني قادماً أحمل في يدي التِّرْمُوْسَيْن المملوءَيْن بالماء، فتتهلّل أساريره فرحاً، وينادي بصوت عالٍ على "لي شيو ينغ" التي تأتي بدورها، لتقف بجواره، ثمّ يشرع كلاهما بالثناء عليّ.

من أجل الحصول على هذا الثناء، حاولتُ بطاقتي كلها حاملاً التِّرْمُوْسَيْن أن أسير في طريقي إلى البيت. كُنتُ أحفّز نفسي، وأقول، لن أرميَ أيّاً منهما، سأستمرّ، سأستمرّ. ولم أسترح طَوَالَ الطريق سوى مرّة واحدة.

إلا أنني أُصبت بخيبة أمل فور عودتي إلى البيت، فلم تظهر على "وانغ لي تشيانغ" أيّ من علامات الدَّهْشة، فقد أمسك بالتِّرْمُوْسَيْن من يدي، وكأنه كان يعلم مُسبَّقاً أنني سأتمكّن من العودة بهما دون متاعب. نظرتُ إليه وهو يضع التِّرْمُوْسَيْن في مكانهما، ثمّ حاولتُ أن ألفتَ نظره قائلاً:

"لم أسترح سوى مرّة واحدة طَوَالَ الطريق".

نهض مبتسماً، وكأن ما ذكرته لا يستحقّ الالتفات. أُصبتُ بالإحباط الشديد حينها، فوقفتُ جانباً أفكّر:

"لماذا لم يثنِ على ما قمتُ به"؟

ذات مرّة، تدخّلتُ بغباء بين "وانغ لي تشيانغ" و"لي شيو ينغ"، ومن

ثمّ، تعرّضتُ على أثرها للضرب. كان الأحوال بين "وانغ لي تشيانغ" قوي البنية و"لي شيو ينغ" الهزيلة في المساء دائماً ما تبعث على القلق. فبعد مجيئي إلى بيتهما، كُنتُ عادة ما أسمع صوت أنين "لي شيو ينغ" بعدما استغرق في النوم. كان الرعب ينتابني بشدّة حينها، إلا أنني كُنتُ أسمعهما يتبادلان الحديث بكل مودّة في صباح اليوم التالي.

في مساء أحد الأيّام، كُنتُ قد خلعتُ ملابسي، ورقدتُ في فراشي مستعدّاً للنوم. حينها سمعتُ "لي شيو ينغ" التي كانت ترقد في فراشها طيلة اليوم، تنادي عليّ بصوت عالٍ. نهضتُ من فراشي، وارتديتُ سروالي، ثمّ ذهبتُ إلى غرفتهما، كان "وانغ لي تشيانغ" حينها يخلع ملابسه، فرَكَلَ الباب بقَدَمه، ونهرني غاضباً، يأمرني بالمغادرة. لم أكن أعرف ماذا حدث، ولم أجرؤ على المغادرة، فقد كانت "لي شيو ينغ" تصرخ يائسة، تنادي عليّ. اضطررتُ للوقوف أمام الباب، وأنا أرتعد من شدّة البرد. بعد ذلك، قفزتُ من فراشها، تلك المرأة الهزيلة المريضة لم تبالِ بما قد يحدث لها حينذاك. حينها سمعتُ "وانغ لي تشيانغ" يقول لها بصوت خافت:

"ألا تخشين الموت"؟

سمعتُ صوت الباب وهو ينفتح، لم أكن قد أدركتُ ما حدث بعد حتّى وجدتُ "لي شيو ينغ" تَجْذِبُني من ذراعي، وتقول إنني سأنام في معهما في غرفتها، ثمّ توقّفت عن الصراخ، ونظرت إلى "وانغ لي تشيانغ" قائلة:

"سننام هنا نحن الثلاثة".

احتضنتْني بذراعَيْها، وبالرغم من أنها كانت نحيلة للغاية، إلا أنني شعرتُ بدفء جسدها. التفتُّ بوجهي نحو "وانغ لي تشيانغ"، فإذ به يصيح فيّ بغضب قائلاً:

"اخرجْ من هنا".

همستْ "لي شيو ينغ" في أذني قائلة:

"قل له إنكَ لن تخرجَ من هنا".

بالطبع، لم أكن أرغب في مغادرة حضنها الدافئ، ففعلتُ كما قالت لي، وقُلتُ له:

"لن أخرجَ من هنا".

جَذَبَني "وانغ لي تشيانغ" من ذراعي، وطرحني أرضاً. كانت عيناه حينها مملوءَتَيْن بالغضب، شاهدتُهُ يجلس على الأرض بعدها دون حراك، ثمّ نظر إليّ، وقال:

"هيّا، اخرجْ من هنا".

تملّكني العناد حينها، فصرختُ فيه قائلاً:

"لن أخرج".

تقدّم "وانغ لي تشيانغ" نحوي، ليُمسِكَ بي ويطردَني خارج الغرفة، إلا أنني أمسكتُ بكلتا يَدَيّ في عامود السرير غير مستسلم لقبضته. ثمّ أمسك بشَعْري، وأخذ يرطم رأسي بالسرير. سمعتُ "لي شيو ينغ" حينها تصرخ بشدّة. الألم الشديد جَعَلَني أستسلم، ومن ثمّ، سحبني"وانغ لي تشيانغ" بيده، وطَرَحَني خارج الغرفة، ثمّ أغلق الباب. فقدتُ عقلي حينها، نهضتُ من على الأرض، وشرعتُ أطرق على الباب بحدّة، وأنا أبكي وأقول:

"وانغ لي تشيانغ، أيّها الحقير، أريد العودة إلى بيت والدي سون قوانغ تساي".

كُنتُ أبكي بحرقة ويأس، آملا أن تنهض "لي شيو ينغ"، وتساعدني. في البداية، سمعتُها بتشاجر معه في الداخل، إلا أن صوت الشِّجار اختفى بعدها بقليل. استمرّيتُ في البكاء والصراخ، بعدها سمعتُ "لي شيو ينغ" تنادي عليّ من الداخل، وتقول بصوت هَشّ:

"عدْ إلى فراشكَ، واخلدْ للنوم، وإلا فسوف تتجمّد من شدّة البرد".

شعرتُ حينها بالعجز وقلّة الحيلة، ولم يكن أمامي سوى العودة إلى غرفتي. رقدتُ في فراشي، والبغض يملؤني تجاهه. شعرتُ بألم شديد لا يُحتمَل في وجهي صباح اليوم التالي، ولم أكن أعرف أن وجهي قد تورّم. أُصيب "وانغ لي تشيانغ" الذي كان يغسل أسنانه حينها بالذهول عندما رآني بتلك الحالة، أمّا أنا، فلم أكترث له، ومددتُ يدي، لألتقط المِمْسَحَة. ثمّ مدّ يده، ليمنعني وقال بفمه المملوء بالرغوة بعض الكلمات التي لم أفهمها. تخلّصتُ من قبضته، وحملتُ المِمْسَحَة، ثمّ دخلتُ إلى غرفة "لي شيو ينغ" التي أُصيبَتْ بالدَّهْشة هي الأخرى، ثمّ سمعتُها تُلقي باللوم على "وانغ لي تشيانغ"، وتقول:

"يا له من شخص عنيف!".

في ذلك الصباح، أحضر "وانغ لي تشيانغ" قطعَتَيْن من العجين المَقلي، قال إنه اشتراهما من أجلي. ثمّ وضعهما أمامي فوق المنضدة، وبالرغم من أنني كُنتُ أشتهي تلك الوجبة اللذيذة، إلا أنني امتنعتُ عن تناوُلها. حاولا إقناعي بأن آكل إلا أنني شرعتُ في البكاء، وقُلتُ:

"أعيداني إلى بيت والدي سون قوانغ تساي".

لم يكن هذا مَطلبي الحقيقي، بل كُنتُ أقصد تهديدهما. كان شعوره

بالذنب قد جعله يتودّد إليّ، ولكن هذا التّودّد جَعَلَني أكثر عناداً في طلبي. سار خلفي مُسرِعاً عندما حملتُ حقيبتي، وهممتُ بالخروج، حاول أن يتودّد إليّ ثانية، ويضع يده على كتفي إلا أنني لم أمنحه الفرصة. أخرج من جيبه قرشاً، يعطيني إيّاه، ولكني تماديتُ في رفضي، وأخذتُ أهزّ رأسي بعناد، وأقول:

"لا أريد منكَ شيئاً".

كان قلقه عليّ بسبب إضرابي عن الطعام قد حفّزني، لأستمرّ في عنادي، كُنتُ أعذّب نفسي، كي أنتقم منه، ففي بالبداية، كُنتُ فخوراً بنفسي، حيث أقسمتُ ألا آكل أيّ طعام يعطيني إيّاه، كُنتُ أفكّر أنني قد أموت جوعاً، فتنهمر الدموع من عينَي، ولكني كُنتُ أعرف أن إضرابي عن الطعام هو أقوى ضربة، يمكنني أن أُوجّهها له.

ولكني، في النهاية، طفل صغير سريع الضعف أمام إغراءات الطعام. وحقيقة الأمر أنني لستُ من ذلك النوع الذي قد يُضحّي بنفسه من أجل فكرة، يؤمن بها. كان ولائي التّامّ لصوت الحياة الذي يتدفّق في جسدي. فبخلاف الحياة نفسها، لم يكن لديّ سبب آخر، أعيش من أجله.

في صباح ذلك اليوم، شاهد زملائي وجهي المتورّم، إلا أنه لم يكن أحد منهم يعرف حالة الجوع التي كُنتُ عليها. بحلول الحصّة الثالثة، كُنتُ قد فَقَدْتُ صبري على تحمّل الجوع بعد خروجي من البيت بمَعِدَة فارغة في ذلك الصباح. في البداية، شعرتُ بمعدتي، وكأنها فارغة تماماً، مثل زقاق خال من المارّة، تضربه الريح في منتصف الليل. بعد ذلك، تمدّد هذا الفراغ، لينتشرَ في جسدي كله، شعرتُ بأطرافي خائرة القوى، ورأسي يلفّه الدوار. بعد ذلك، شعرتُ بألم في معدتي، هذا الألم الخافت كان أكثر

فظاعة من ألم الورم الذي يعلو وجهي. تغلّبتُ على جوعي حتّى انتهى الدرس، ثمّ هُرعتُ نحو صنبور المياه، وألصقتُ فمي به، لكي أملأ معدتي بالماء. حصلتُ بعدها على راحة مؤقّتة، فقد غادرني الجوع حينها، وجدتُ نفسي أميل بجسدي، أستند على حوض المياه، وأشعّة الشمس الساطعة تغمر جسدي. سرعان ما امتصّت معدتي المياه، فلم يكن بوسعي سوى أن أستمرّ في شُرب ذلك الماء البارد حتّى دقّ الجَرَس.

بعدها هاجمَني الجوع من جديد بشكل لا يمكن تحمّله، وكان عليّ أن أتحمّل معاناة أكثر من سابقتها. شعرتُ بجسدي وكأنه جوال من الأرز، أُلقي على الأرض. بعد ذلك، انتابتْني الأوهام، فكُنتُ أرى السّبّورة وكأنها كهف جبلي، والمُعلِّم يقف داخل الكهف، يتجوّل يمنة ويسرة، فيما بدا صوته بالنسبة إليّ، وكأنه صدى صوت صادر من جوف الكهف.

بينما كُنتُ أعاني من ذلك الألم الفظيع في معدتي، هاجمتْني آلام في المثانة. لقد شربتُ الكثير من الماء منذ قليل، وقد جاء دورها لتقتصّ منّي. لم أجد بُدّاً من أن أرفع يدي طالباً من المُعلِّم الإذن في الذهاب لدورة المياه. لم يكن قد مرّ حينها على بداية الدرس سوى دقائق قليلة، وهو ما دفع المُعلِّم لأن ينهرني غاضباً، ويقول:

"لماذا لم تذهب إلى دورة المياه قبل بداية الدرس".

سرتُ مُتمهّلاً في طريقي إلى دورة المياه، لم أكن أجرؤ على الجري، فمثانتي ستُؤلمني أكثر لو ركضتُ بسرعة. بعدما انتهيتُ من التّبوّل، انتهزتُ تلك الفرصة، لأشرب المزيد من الماء.

كانت الحصّة الرابعة في ذلك اليوم هي الأصعب بالنسبة إليّ. فلم أكن قد عدتُ لتوّي من دورة المياه حتّى عاودتْني آلام المثانة بشدّة، احتقن

وجهي من شدّة الألم. لم أتمكّن من تحمّل الألم، فرفعتُ يدي، أستأذن في الذهاب إلى دورة المياه مرّة ثانية.

نظر المُعلِّم إلى نظرة شكّ، ثمّ سألني:

"هل ستذهب للتّبوّل ثانية"؟

طأطأت رأسي بخجل. بينما طلب المُعلِّم من "كوه تشينغ" أن يرافقني، ليرى إن كُنتُ ذاهباً إلى دورة المياه بالفعل أم لا. لم أجرؤ على شرب المزيد من الماء هذه المرّة، أمّا "كوه تشينغ"، فعاد إلى حجره الدرس، وقال للمُعلِّم:

"كان يتبوّل مثل الثور".

انخرط الجميع في الضحك، ثمّ عدتُ إلى مقعدي وحمرة الخجل تعلو وجهي. وبالرغم من أنني لم أشرب المزيد من الماء إلا أن مثانتي عادت تُؤلمني. نسيتُ حينها آلام الجوع، فآلام المثانة كانت أكبر بكثير. لم أجرؤ على الاستئذان هذه المرّة، فقد كُنتُ مضطرّاً إلى تحمّل ذلك الألم الحادّ حتّى نهاية الدرس. لم أكن قادراً على الحركة، والوقت يمضي ببطء، والألم يزداد حدّة، ولم أعد قادراً على التّحمّل. رفعتُ يدي أطلب الإذن مرّة أخرى، حينها قال المُعلِّم بغضب:

"ما الذي أصابكَ"؟

انخرط الجميع داخل حجرة الدرس في الضحك. لم يسمح لي المُعلِّم حينها بالذهاب إلى دورة المياه، بل طلب منّي أن أقف بالخارج خلف النافذة، وأتبوّل على الجدار، كان يريد أن يتأكّد بنفسه هل سأتبوّل أم لا. بعدما تأكّد أنني أتبوّل بالفعل، عاد ليُلقي درسه. ربّما أنني قد استغرقتُ وقتاً أطول ممّا ينبغي في التّبوّل، وهو ما جعله يعود، ويسألني في ذهول:

"ألم تنتهِ من تبوّلكَ بعد"؟

لم أعد إلى بيتي بعد انتهاء الدراسة، كما يفعل الجميع، بل ذهبتُ وجلستُ بجوار حوض المياه، وعندما كانت تنتابني أعراض الجوع، كُنتُ ألصق فمي بالصنبور، وأملأ معدتي بالماء، ثمّ أعود وأجلس وحيداً كما كُنتُ. لم يكن عنادي حينها سوى نوع من التظاهر، فقد كُنتُ آمل أن يأتي "وانغ لي تشيانغ"، ويأخذني إلى البيت.

جاء بالفعل بعد الظهر، فوجدني جالساً بجوار حوض المياه. أخبرتْني زوجته بعدها أنه كان قد تناول غداءه، وجلس في البيت ينتظر عودتي، فانتابه القلق حيالي. أمسك بيدي يساعدني على النهوض، ثمّ مدّ يده يتحسّس الورم الذي يعلو وجهي، حينها لم أتمالك نفسي وأنا أنخرط في البكاء.

حملني على ظهره، بحيث كانت يداه القويّتان تضغطان على قَدَمَيّ بشدّة. شعرتُ بجسدي الضئيل يترنّح فوق ظهره، وقد تحوّل عنادي وإصراري في الصباح إلى نوع من الحبّ والامتنان. لم أكن أكرهه قطّ، فوجدتُ نفسي أستند بوجهي على كتفه العريض، حيث خالجني شعور بالأمان والطمأنينة.

دخلْنا إلى أحد المطاعم، فقام بوضعي فوق الطاولة، وأشار بيده إلى لوحة مكتوب عليها أنواع المعكرونة كافّة، ثمّ سألني أيّ نوع أشتهي. نظرتُ إلى الطاولة في صمت دون أن أنبس ببنت شفة، فقد كان هناك بعض العناد لا يزال يسري بداخلي. اختار لي أغلاها، ثمّ جلسْنا ننتظر الطعام.

لن أنسى أبداً طيلة حياتي نظراته لي حينها. كُنتُ أشعر بحزن شديد بداخلي عندما أتذكّر تلك النظرات حتّى بعد وفاته بسنوات عديدة. كان

ينظر إليّ بعطف وحنان، من حسن حظّي أنني حظيتُ بأب مثله. لم يكن لديّ هذا الشعور وقتها، ولكني بدأتُ أستشعر هذا الإحساس تدريجياً بعدما عدتُ إلى قرية الباب الجنوبي بعد وفاته. فمشاعر الأُبُوّة التي مَنَحَهَا لي كانت أكبر بكثير مقارنة مع والدي الحقيقي. وعندما أتذكّر الآن تلك الأحداث البعيدة، أدرك تماماً أن موته كان سبباً في حالة الحزن التي عشتُها لسنوات طوال.

لم أشرع مباشرة في تناوُل المعكرونة، بل أخذتُ أنظر إلى البخار الساخن المتصاعد منها في تردّد. فطن "وانغ لي تشيانغ" إلى مكنوني، فنهض واقفاً، وقال إنه ذاهب إلى عمله. ما إن غادر "وانغ لي تشيانغ" المكان حتّى شرعتُ في التهام المعكرونة بنهم شديد. ولكنْ، لسوء حظّي أن معدتي الصغيرة كانت مملوؤة بالماء حينها، ولم أستطع تناوُل المعكرونة بأكملها.

استعدتُ نشاطي وحيويّتي الطفولية، فلم يعد هناك دافع للحزن والعناد. بدأتُ ألاحظ ذلك العجوز ذا الملابس المهترئة الذي يجلس في المقابل، ويأكل أرخص أنواع المعكرونة. كان يراقبني، وكأنه يتمنّى لو غادرتُ المكان، ليأتي ويلتهم ما تبقّى من طبقي الشهي. تعمّدتُ ألا أغادر، وأخذتُ أقلّب في المعكرونة، أمّا هو، فتعمّد أن يأكل ببطء. وهكذا دار بيننا صراع صامت. سئمتُ هذه اللعبة بعد وقت قصير، إلا أنني فكّرتُ في حيلة أخرى. رميتُ عصيان الأكل على الأرض، ثمّ نهضتُ مُغَادِراً المكان. وقفتُ خارج المطعم بجوار النافذة، أراقبه، شاهدتُهُ يخرج نحو الباب، ليتأكّد أنني قد غادرت المكان، ثمّ قام بسَكْب ما تبقّى من طبقي داخل طبقه، وقام بتقليب الخليط معاً بسرعة خاطفة، ثمّ أعاد طبقي مكانه مرّة ثانية، وجلس يأكل، وكأن شيئاً لم يكن. غادرتُ مكاني، ثمّ دخلتُ من باب المطعم ثانية، أسير مختالاً نحو طاولتي. تظاهرتُ بالذهول عندما رأيتُ طبقي الفارغ،

شعرتُ حينها بحالة القلق التي عاشها العجوز، أمّا أنا، فشعرتُ بنوع من السعادة، ثمّ التفتُّ مُغَادِراً المكان.

كُنتُ مولعاً باللهو بعد التحاقي بالصّف الثالث. زالت حالة القلق والخوف التي كانت تنتابني في البداية بعدما تحسّنت علاقتي بكلّ من "وانغ لي تشيانغ" و"لي شيو ينغ" بمرور الوقت. غالباً كُنتُ ألهو خارج البيت حتّى أنسى الوقت، فأتذكّر فجأة أن الوقت قد تأخّر، ثمّ أعود مهرولاً إلى البيت. كانا يلومانني ويعاتبانني، إلا أن هذا اللوم والعتاب لم يكن بالأمر المخيف، بالنسبة إليّ. فقد كُنتُ أعمل بعدها بجد حتّى يتصبّب العَرَق من رأسي، وهو ما كان يُبقيني بمنأى عن اللوم والعقاب.

لفترة من الوقت، كُنتُ مغرماً بإمساك الجمبري الصغير من البركة. فقد كُنتُ أُهرول إلى هناك بصحبة "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" يومياً بعد انتهاء الدراسة. ذات مرّة، شعرتُ بالخوف الشديد حين كُنتُ ألهو هناك، حيث رأيتُ "وانغ لي تشيانغ" يسير على مقربة بصحبة امرأة شابّة. حاولتُ أن أهرب بسرعة، إلا أنه كان قد رآني. سمعتُهُ ينادي عليّ، فتسمّرت قَدَمَاي، وقفتُ أنظر إليه بقلق وهو يقترب منّي، فقد كُنتُ ألهو في الوقت الذي كان عليّ أن أكون فيه في البيت. حاول "كوه تشينغ" و"ليو شياو تشينغ" أن يشرحا له أننا جئْنا إلى هنا، لنلهوَ بالجمبري الصغير، وليس لسرقة الثمار أو الفاكهة من أشجار الآخرين. نظر إليهما "وانغ لي تشيانغ" مبتسماً، وعلى خلاف ما توقّعتُ، فلم يعاقبْني أو يشتمْني، بل تحسّس رأسي بيده الضخمة، وطلب منّي أن أعود معه إلى البيت. كان يسألني بودّ عن أموري في المدرسة، ولم يتحدّث عن لهوي عند البركة، ولو بعبارة واحدة، وهو ما جَعَلَني أشعر بالسعادة الغامرة.

بعد ذلك، وقفْنا معاً أسفل مِرْوَحَة السقف داخل أحد المتاجر، لنتناول

(الآيس كريم). كانت تلك هي أكثر لحظات طفولتي سعادة. في ذلك الوقت، لم يكن لديه مِرْوَحَة في بيته، فوقفتُ حينها أتأمّل هذا الشيء الدّوّار بدهشة. كُنتُ أسير ذهاباً وإياباً أسفل المِرْوَحَة، أستشعر الهواء القادم منها.

في تلك المرّة، أكلتُ ثلاث قِطع من (الآيس كريم)، فقليلاً ما كان "وانغ لي تشيانغ" سخيّاً إلى هذا الحدّ. بعدما انتهيتُ من تناوُل القطعة الثالثة، سألني إن كُنتُ أرغب في تناوُل المزيد أم لا. هززتُ رأسي مجيباً بنعم، أمّا هو، فقد أصابني بخيبة أمل حين قال:

"ستُصاب بالمرض، لو تناولتَ المزيد".

حصلتُ على تعويض آخر، فقد اشترى لي قطعة من الحلوى. ما إن غادرنا المتجر متّجهَيْن إلى البيت حتّى سألني "وانغ لي تشيانغ" بشكل مفاجِئ:

"هل تعرف تلك الخالة"؟

سألتُهُ قائلاً: "أيّ خالة تقصد"؟

"تلك التي كانت تسير خلفي منذ قليل".

تذكّرتُ حينها تلك المرأة الشّابّة التي كانت تسير بصحبته. لم تكن لديّ أدني فكرة أين ذهبتْ. حاولتُ أن أتهرّب من سؤاله، فأجبتُهُ قائلاً:

"لا أعرفها".

استمرّ يقول: "عندما ناديتُ عليكَ، التفتُّ برأسي للخلف، فوجدتُ شخصاً يسير خلفي".

كانت هيئته وهو مندهش مثيرة للضحك.

عندما كُنّا على وشك الوصول إلى البيت جثا "وانغ لي تشيانغ" على ركبَتَيْه، وقال لي بصوت منخفض:

"لا تُخبرْ أحداً أننا تقابلْنا عند البركة، بل قلْ إننا التقيْنا مصادفة في أحد الأزقّة".

كُنتُ سعيداً للغاية حينها، فلم أكنْ أرغب أن تعرف "لي شيو ينغ" أنني كُنتُ ألهو عند البركة.

إلا أنني شاهدتُ "وانغ لي تشيانغ" بصحبة تلك المرأة الشّابّة مرّة أخرى بعدها بستّة شهور. حينها كان من الصعب عليّ أن أُصدِّق أنهما لا يعرفان بعضهما البعض. أسرعتُ بالهرب قبل أن يكتشف وجودي. جلستُ بعدها فوق إحدى الصخور، أفكّر بعمق، طفل مثلي في الحادية عشرة، كان في وسعه أن يُفكّر بعقله في ماهية ما يجري حوله. أدركتُ تدريجياً تلك العلاقة الغامضة بينهما، انتابني الذهول عندما عرفتُ أن "وانغ لي تشيانغ" شخص منحطّ إلى هذه الدرجة. إلا أنني التزمتُ الصمت، ثمّ سرتُ في طريقي عائداً إلى البيت. كان من الصعب عليّ معرفة الدافع وراء هذا الصمت، إلا أنني لا زلتُ أتذكّر شعوري بالخوف والرعشة عندما كُنتُ أفكّر في إخبار "لي شيو ينغ" بهذا الأمر.

ذلك الصمت جَعَلَني أستغلّ تلك النقطة في صالحي، فقد كُنتُ عادة ما أُلوِّح بالتهديد إلى "وانغ لي تشيانغ" في حال أقدم على عقابي، وبالتالي، يمكنني الإفلات من العقاب.

كُنتُ قد كسرتُ القَدَحَ الذي يحتفظ به فوق جهاز المذياع. في ذلك

اليوم، كُنتُ أقوم بمَسْح الأرض بالمِمْسَحَة، وبينما كُنتُ ألتفت بجسدي، ضربتُ بعصا المِمْسَحَة ذلك القَدَحَ دون قَصْد، فسقط على الأرض، وانكسر. تلك العائلة الفقيرة لم يكن لديها سوى قطعة الديكور الوحيدة هذه، وهو ما جعل صوت انكسار القَدَح يصيبني بالرعشة لوقت طويل، فقد كُنتُ أخاف أن يكسر "وانغ لي تشيانغ" عنقي، كما لو كان يكسر بيده ثمرة خيار.

بالرغم من أنني كُنتُ أعرف أنه لن يكسرَ رقبتي، إلا أن مظهره وهو غاضب وعقابه القاسي لي قد جَعَلَني أشعر بالخوف بالشديد. قمتُ بجَمْع بقايا القَدَح المكسور بالجاروف قبل أن تدرك "لي شيو ينغ" التي كانت ترقد في الغرفة الأخرى ما حدث. ما إن عاد "وانغ لي تشيانغ" من العمل حتّى انخرطتُ في البكاء أمامه. حينها جثا "وانغ لي تشيانغ" على ركبَتَيْه، وسألني:

"ما الذي يبكيكَ"؟

قُلتُ له مُهدّداً: "لو ضربتَني، فسوف أفشي سرّ تلك الخالة التي كانت تسير بجواركَ".

امتقع وجه "وانغ لي تشيانغ" فجأة، ثمّ أمسك بي، وقال مُكرّراً:

"لن أضربكَ، لن أضربكَ، ما الداعي لأن أضربكَ؟!".

حينها قُلتُ له: "لقد كسرتُ القَدَحَ".

أصابه الذهول لبُرْهَة، فقد أدرك حينها السبب وراء تهديدي له، ثمّ ارتسمتْ على وجهه ابتسامة خفيفة، وهو يقول:

"لقد كُنتُ أنوي التّخلّص من هذا القَدَح عديم الفائدة".

سألتُهُ بلهجة يملؤها الشّكّ:

"أنتَ لن تضربَني، إذنْ".

أكّد لي أنه لن يفعل، ومن ثمّ، شعرتُ بالطمأنينة، ثمّ اقتربتُ من أذنه، وقُلتُ له:

"وأنا لن أُخبر أحداً بأمر تلك الخالة".

بعد تناوُل العشاء في مساء أحد الأيّام، اصطحبَني "وانغ لي تشيانغ" من يدي، وتجوّلْنا طويلاً في الشوارع. كان يلقي التّحيّة على الكثيرين من المارّة الذين يعرفهم، ولم أكن أعرف حينها أن هذه هي المرّة الأخيرة التي أخرج فيها بصحبته. كُنتُ أشعر بالحماسة حينها، تلك الحماسة التي أثّرت فيه، فصار يحكي لي حكايات من طفولته. أكثر ما أثّر فيّ هو أنه ظلّ حتّى الخامسة عشرة يمشي عاري القَدَمَيْن، بسبب فقره الشديد.

بعدها جلسْنا على حافّة الجسر، ظلّ يُحدِّق فيّ طويلاً حينها، ثمّ قال بلهجة يشوبها القلق:

"يا لكَ من طفل ماكر!".

ثمّ عدّل من لهجته، واستطرد يقول:

مكتبة

"أنتَ، حقّاً، طفل ذكي".

عندما بلغتُ الثانية عشرة، أُصيب الأخ الأكبر لزميلي "ليو شياو تشينغ" ذلك الشّابّ صاحب المِزْمَار الذي كان بمثابة مثلي الأعلى بالتهاب كبدي حادّ، تُوفيّ على إثره.

حينها لم يكن هو ذلك الشّابّ العاطل، بل صار عضواً في فريق العمّال

في الريف. إلا أنه كان يزال يرتدي القبّعة، ويضع مِزْمَاره في جيبه. سمعتُ أنه كان التحق بفريق العمّال، برفقة فتاتَيْن من أبناء الصّيّادين، وأن هاتَيْن الفتاتَيْن قد وَقَعَتَا في حُبِّه، في الوقت نفسه. لقد كان بالفعل ماهراً في العزف على المِزْمَار، وهو ما جعلهما يغرمان به. كان من الصعب عليه تحمّل الحياة القاسية في مكان عمله، فكان دائم العودة إلى المدينة، يجلس بجوار نافذته، ويعزف على مِزْمَاره. وعندما كان يرانا قادمين في طريق عودتنا من المدرسة، كان يتعمد عزف لحن بائع الحلوى، فقد كان يُحبّ أن يشاهدنا ونحن نجري في الشارع مهرولين نحوه. ذلك المكان الذي كان يُفضّله على مكان عمله في الريف كان هو المكان الذي لفظ فيه آخر أنفاسه، بالرغم من أنه كانت هناك فتاتان قد نسجتا له شباك الحُبّ، تنتظران عودته.

كان قد مكث لفترة طويلة في المرّة الأخيرة التي عاد فيها إلى المدينة، فكان والده يُعنّفه بشكل دائم، يطلب منه أن يعود إلى عمله في الريف. مررتُ حينها بجوار نافذة بيته عدّة مرّات، سمعتُهُ يبكي فيها. وسمعتُهُ ذات مرّة يُحدِّث والده، ويقول إنه خائر القوى، لا يريد أن يأكل، ولا يريد أن يعمل.

لم يكن يعلم حينها أنه مصاب بالالتهاب الكبدي، والده أيضاً لم يكن يعلم. جهّزتْ له والدتُه بيضتَيْن، وأخذت تنصحه بأن يعود إلى عمله. وبعد عودته إلى هناك بيومَيْن، أصابتْه غيبوبة. هاتان الفتاتان اللتان كانتا تُحبّانه هما مَنْ حملاه، وعادا به إلى المدينة. بينما كُنتُ في طريق عودتي من المدرسة في أحد الأيّام، شاهدتُ هاتَيْن الفتاتَيْن اللتَيْن اسمرّت بشرتَيْهما، بسبب أشعّة الشمس، وبدت أقدامهما قذرة من أثر الطين، تبكيان خارجتَيْن من بيت ليو شياو تشينغ. أمّا هذا الشّابّ، فقد مات في مساء ذلك اليوم.

لا زلتُ أتذكّر حتّى اليومِ وجهه الشاحب وهو يغادر البيت. كان يحمل على ظهره بطّانية، وفي يده اليمنى بيضَتَيْن، يأكلهما على مهل، ويسير في طريقه نحو المرفأ. حقيقة الأمر أنه كان خائر القوى حينها، يثير متثاقلاً كعجوز طاعن في السّن. فقط مِزْمَاره المدسوس في جيبه، ويترنّح على وَقْع خطواته كان هو الشيء الوحيد المفعَم بالحيوية.

هذا الشخص المشرف على الموت حاول أن يخدعَني كالعادة عندما رآني أسير قادماً نحوه. طلب منّي أن أنظر إلى مؤخّرة سرواله، لأرى إن كان هناك قَطْع أم لا. كان قد خدعَني بهذه الحيلة سابقاً، ولذلك صحتُ فيه قائلاً:

"لن أفعلَ، أعلم أنكَ ستُطلق ريحَكَ الكريه في وجهي".

انخرط في نوبة من الضحك، ثمّ أطلق ريحَهُ، وسار متمهّلاً في طريقه نحو الموت.

كان التهاب الكبد منتشراً بشكل مخيف حينها. فعندما جاء "ليو شياو تشينغ" إلى المدرسة مرتدياً لباساً أسود، كان الجميع يتحاشونه، ويبتعدون عنه. هذا الطفل الذي فَقَدَ لتوّه أخاه الأكبر، كان يرسم على وجهه ابتسامة خفيفة، ويسير نحو زملائه الذين يلعبون كرة السّلّة في الساحة الرياضية، تحاشاه زملاؤه، وساروا نحو الجهة الأخرى من الملعب، كانوا يسبُّونه في صوت واحد، أمّا هو، فوقف مكانه، يبتسم لهم. كُنتُ أجلس حينها على درج السّلّم أمام باب المدرسة، فشاهدتُهُ يقف هناك وحيداً، يُحرّك يَدَيْه، وكأنه حائر، لا يدري ماذا يفعل.

بعد ذلك، سار مُتوجّهاً نحوي، ما إن اقترب منّي حتّى توقّف، ثمّ أخذ يتظاهر بأنه ينظر بعيداً. لاحظ أنني لم أغادرْ مكاني، فتقدّم، وجلس

بجواري. لم نكن قد تحدّثنا معاً منذ حادثة اللوحة المعلّقة على الجدار. فقط الوحدة التي ألقتْ بظلالها عليه فجأة، جعلتْهُ يقترب منّي، حيث بادرني بالحديث حينها قائلاً:

"لماذا لم تهربْ منّي، كما فعل الآخرون"؟

أجبتُهُ قائلاً: "أنا لستُ خائفاً".

بعد ذلك، شعر كلانا بالخجل من الآخر، فَدَفَنّا رأسَينا بين ركبَتَيْنا، وانخرطْنا في الضحك، فقد كان قد مرّ على خصامنا حينها وقت، ليس بالقصير.

خلال يومَيْن فقط، مررتُ بتجربة، شهدتُ فيها الموت يهاجم شخصَيْن بشكل مفاجِئ. الأوّل كان هو الأخ الأكبر لزميلي "ليو شياو تشينغ"، والثاني كان هو والدي بالتّبنّي"وانغ لي تشيانغ". هذان الحَدَثَان كانا بمثابة هزّة عنيفة، أثّرت في طفولتي. لم يكن بمقدوري أن أجزم بمدى التأثير الذي أحدثَهُ هذا الحَدَثَان في حياتي لاحقاً، ولكن موت وانغ "لي تشيانغ" كان قد غيّر مجرى حياتي بشكل كُليّ. كُنتُ قد استعدتُ لتوّي علاقتي السابقة مع "ليو شياو تشينغ"، ولم يُسعفْني الوقت حتّى أستعيد علاقتي مع "كوه تشينغ"، فقد تُوفيّ "وانغ لي تشيانغ" في تلك الليلة.

كانت هذه هي نهاية المطاف والمصير المحتوم لنهاية علاقته بتلك المرأة الشّابّة. فبعدما قضيا معاً عامَيْن من البهجة والمتعة المشوبة بالقلق، تمّ الإمساك بهما في مساء ذلك اليوم.

زوجة زميل "وانغ لي تشيانغ" كانت تعدّ نفسها بمثابة الحارس الأمين للأخلاق والفضيلة في ذلك الوقت. ووفقاً لكلامها، فقد كانت قد

اكتشفت العلاقة المريبة بينهما منذ وقت طويل. تلك المرأة التي هي أمّ لطفلَيْن، كانت تراقبهما خلسة بدافع من الحفاظ على الأخلاق. كان "وانغ لي تشيانغ" يختلي بعشيقته في الأوقات التي يسافر فيها زوجها، يصطحبها ليلاً إلى مكتبه، مُستخدِماً المنضدة، وكأنها سرير، يختلس فوقه لحظات السعادة.

هاجمتْهم تلك المرأة بشكل مفاجِئ، كانت قد فتحت الباب عليهما بسرعة خاطفة مستخدمة مفاتيح زوجها، وبالسرعة نفسها، أضاءت المصباح، ليُفاجَأ بها العاشقان، فيصابان بالذهول من هول الموقف، بل حتّى إن تلك الصدمة أنستْهما أن يرتديا ملابسهما الداخلية. فقط جثيا على ركبَتَيْهما أمامها، يترجّيانها ألا تفضحهما. "وانغ لي تشيانغ" ذلك الرجل القوي صعب المراس في نظري، كان يبكي وينوح حينها.

بالطبع، من غير الممكن أن تعفوَ عنهما تلك المرأة التي جنتْ ثمار عملها بعد مراقبتهما لوقت طويل. قالت لهما بوضوح:

"لا فائدة من هذا الرجاء، لقد أمسكتُ بكما بعد عناء طويل".

ثمّ ذهبتْ، وفتحت النافذة، وأخذت تصرخ وتنادي مثل دجاجة وضعت بيضها لتوّها.

علم "وانغ لي تشيانغ" حينها أن المصيبة قد وقعت، سارع يساعد عشيقته في ارتداء ملابسها، ثمّ أجلسها على الكرسي. بسرعة جاء زملاؤه من الجنود، وكان منهم رئيسه، ما إن رآه "وانغ لي تشيانغ" حتّى قال بلهجة المذنب:

"أيّها الرئيس، لقد أخطأتُ".

أمر الرئيسُ الجنودَ بأن يتحفّظوا على "وانغ لي تشيانغ"، ثمّ سمح للمرأة الشّابّة بالعودة إلى بيتها. كانت عشيقته قد فَقَدَت القدرة على الكلام من كثرة البكاء، فنهضت تغادر المكان وهي تُخبِّئ وجهها بيدها. أمّا تلك المرأة مُتهلّلة الأسارير، فصاحت فيها قائلة:

"انزعي يَدَيْكِ عن وجهكِ، تشعرينَ بالخجل الآن، ولا تشعرين بالخجل وأنتِ في أحضان الرجال".

حينها سار "وانغ لي تشيانغ" نحوها مُتمهّلاً، ثمّ صفعها بيده على وجهها.

لم أتمكّن من معرفة المزيد من تفاصيل الأحداث التي وقعت حينها، ولكني على يقين أن تلك المرأة المُعتدّة بنفسها، صارت تصرخ بجنون بعد هذه اللَّطْمَة المفاجئة. حاولت أن تردّ الهجوم عليه، ولكنها تعثّرت بالكرسي، وسقطت على الأرض. تحوّل غضبها إلى شعور بالضعف، فانخرطت في البكاء. أمر الرئيس الحُرّاس بأن يقتادوا "وانغ لي تشيانغ" إلى مكان آخر، ثمّ حاول إقناع تلك المرأة الجالسة على الأرض، ولا ترغب في مغادرة المكان بأن تعود إلى بيتها.

أُرغِم "وانغ لي تشيانغ" على الجلوس في غرفة مظلمة لما تبقّى من الليل. بعدها تحدّث إلى الحَرَس، يطلب منهم أن يسمحوا له بالعودة إلى مكتبه لإحضار بعض المتعلّقات. تردّد الحَرَس المُنهكُون من قلّة النوم، وكان يشعرون بالحَرَج منه، لأنه أعلى منهم رتبة. أخبرهم "وانغ لي تشيانغ" أنه سيعود على الفور، ثمّ غادر من تلقاء نفسه. لم يذهب الحَرَس خلفه، بل وقفوا عند الباب يراقبونه، وهو يدخل إلى المكتب. ثمّ اختفى بجسده الضخم وسط عتمة الظلام بالداخل.

حقيقة الأمر أن "وانغ لي تشيانغ" لم يذهب إلى مكتبه، بل ذهب وفتح خزانة الأسلحة التي هو مسؤول عنها، وأخذ منها قنبلَتَيْن يدويَّتَيْن، ثمّ غادر. سار بمحاذاة المَبنى وسط الظلام حتّى وصل إلى مكان سَكَن العاملين، ثمّ صعد إلى الطابق الثاني، وتوقّف أمام النافذة الغربية. كان قد جاء إلى هذا المكان مرّات عديدة، ويعرف جيّداً الغرفة التي تنام فيها تلك المرأة التي أوقعتْ به. كَسَرَ زجاج النافذة بيده، ثمّ رمى القنبلة داخل الغرفة، وسارع بالهرب. انفجرت القنبلة، فدوّى صوت انفجار هائل، اهتزّ على إثره المبنى بالكامل، فتناثر الغبار في كل مكان. ظلّ "وانغ لي تشيانغ يركض حتّى وصل إلى السور، واختبأ خلفه وسط الظلام.

بعد ذلك، سادت حالة من الارتباك وسط الجنود، وكأن هناك حرباً تدور في المكان، سمع "وانغ لي تشيانغ" رئيسه الذي كان قد استيقظ من نومه للمرّة الثانية خلال تلك الليلة وهو يُعنّف جنوده بسبب إهمالهم، كما سمع أيضاً صوت أحد الأشخاص وهو يستغيث، يطلب حضور الإسعاف. هذه المشاهد الفوضوية بدت في عينَيْه، والذي كان يعيش حالة من التّخبّط حينها، وكأن سرباً من الجراد يطير فوق المكان. بعد ذلك، شاهد المسعفين يخرجون من المبنى حاملين ثلاثة أشخاص على النّقّالات، بينما كان أحدهم يصيح:

"لا زالوا أحياء، لا زالوا أحياء".

ارتجف قلبه حينها، وبعدما أدخل المسعفون النّقّالات داخل سيّارات الإسعاف، وانطلقوا بها. سارع هو الآخر بالقفز من خلف السور، كان يعرف حينها أن عليه الذهاب إلى المستشفى.

في فجر ذلك اليوم، ظهر رجل عسكريّ، تبدو عليه ملامح القَتَلَة مُمسِكاً

بقنبلة يدوية داخل مستشفى المدينة. في الوقت الذي دخل فيه "وانغ لي تشيانغ" إلى المستشفى، كان طبيب الجراحة المناوب حينها شخصاً شمالياً ذا لحية. ما إن شاهد هذا الطبيب "وانغ لي تشيانغ" بتلك الهيئة حتّى علم أن مجيئه متعلّق بالمصابين الثلاثة الذين حضروا إلى المستشفى منذ قليل، فأخذ يجري وسط رَدْهَة المستشفى، ويصرخ قائلاً:

"الجنود يقتلون الناس".

ظلّ الطبيب ذو اللحية يجري، ويصيح على تلك الحالة، ولم يهدأ سوى بعدها بنصف ساعة. كان يقف حينها بصحبة مُمرّضة ترتعد من الخوف يشاهدان "وانغ لي تشيانغ" وهو يمسك بالقنبلة اليدوية، ويتفحّص غرف المرضى واحدة تلو الأخرى. تجرّأ الطبيب فجأة، فاقترح على المُمرّضة أن يهجما عليه معاً من الخلف، ويُمسِكا به. هذا الاقتراح قد نبّه المُمرّضة إلى اقتراب "وانغ لي تشينغ" منهما، فأخذت تتوسّل إليه خائفة، وتقول:

"هيّا، اذهبْ، وأمسِكْ به".

تردّد الطبيب حينها، ثمّ قال:

"ولكنْ، عليكِ أن تُبلغي مدير المستشفى أوّلاً ".

قالها، ثمّ قفز من النافذة، وسلّم ساقَيْه للريح.

ظلّ "وانغ لي تشيانغ" يتفحّص غرف المستشفى واحدة تلو الأخرى، فيما زادت أجواء الخوف والصخب المحيطة به من قلقه واضطرابه. ذهب إلى غرفة عمل المُمرّضات، ما إن فتح الباب حتّى فُوجئ بمقاومة شديدة من خلف الباب، فانحشر ذراعه الأيسر بين دفّتَي الباب، تألم بشدّة حينها، فاندفع بجسده بقُوّته كلها، وفتح الباب، فُوجئ بأربعة مُمرّضات بالداخل

يصرخنَ ويبكينَ خوفاً منه، ولم يكنْ من بينهنّ تلك المرأة التي يبحث عنها. حاول أن يُهدِّئ من روعهنّ، وأخبرهنّ أنه لن يؤذيهنّ، إلا أنهن استمرّينَ في صراخهنّ غير مبالينَ بكلامه. هزّ رأسه في ضجر، ثمّ غادر المكان. بعدها ذهب إلى غرفة العمليات التي كانت فارغة من الأطبّاء والمُمرّضات. شاهد صَبِيَّيْنْ مُستلقِيَيْنْ على سرير العمليات، استطاع التّعرّف عليهما، فقد كانا هما ابنَيْ تلك المرأة التي يبحث عنها. كانا ميِّتَيْنْ غارقَيْنْ في دمائهما. نظر إليهما نظرة قلق وحسرة، فلم يكن يتخيّل أنهما هما اللذان ماتا وسط الانفجار. خرج بعدها من غرفة العمليات. موت هذين الصَّبِيَّيْنْ قد جعلاه يصرف النَّظَر عن البحث عن تلك المرأة، فخرج من المستشفى، يسير على مهل، توقّف قليلاً أمام المدخل، وفكّر أن عليه أن يعود إلى بيته، ثمّ قال لنفسه:

"دعكَ ممّا تفكّر فيه".

وجد نفسه حينها محاطاً بالجنود من الاتّجاهات كلها، فاستند بجسده على عامود الكهرباء يستمع إلى رئيسه، وهو يصيح:

"وانغ لي تشيانغ، ألْقِ سلاحَكَ، واستسلمْ، وإلا فالموتُ مصيركَ".

ردّ عليه قائلاً:

"أيّها الرئيس، عندما يعود "لاو لين" من فضلكَ أخبره أنني أخطأتُ، وأبلغه أسفي واعتذاري، فلم أكن أقصد أن أقتل وَلَدَيْه".

لم يبالِ رئيسه بما قاله، وظلّ يصيح فيه قائلاً:

"ألْقِ سلاحَكَ، واستسلمْ، وإلا فالموت مصيركَ".

ردّ عليه "وانغ لي تشيانغ" بهدوء قائلاً:

"أيّها الرئيس، الموت هو مصيري بالفعل".

ذلك الرجل الذي عشتُ برفقته خمس سنوات كاملة، كان يعاملني معاملة الأب لابنه تماماً، يُدلّلني، يضربني، وينهرني، بينما كان مشرفاً على الموت، شعر فجأة بحدّة الألم القادم من ذلك الجرح في ذراعه الأيسر، فأخرج من جيبه منديلاً، وأخذ يلفّه حول الجرح بحرص، اكتشف بعدها أنه لا فائدة ممّا يفعله، فحدّث نفسه قائلاً:

"ما الفائدة من هذا"؟

نظر إلى جرحه، وابتسم، ثمّ فجر قنبلته. انفجرت القنبلة فيه، وانفجر عامود الكهرباء الذي كان يركن بجسده عليه، فأظلمت المستشفى، وساد الظلام المكان.

كان "وانغ لي تشيانغ" عازماً على أن يُفجّر جسد تلك المرأة بالقنبلة، ولكن الحقيقة أنها لم تُصَبْ سوى بجروح طفيفة. خرجت من المستشفى عصر اليوم الذي انتحر فيه، تلك المرأة التي لم يهدأ روعها بعد كانت تبكي بحرقة وقت خروجها من المستشفى، ولكنْ، لم يمرّ وقت طويل حتّى عادت إلى سابق عهدها. في المرّة التالية التي ذهبتْ فيها إلى المستشفى بعدها بستّة شهور لعمل فحوصات في قسم النساء والولادة، أكّد لها الطبيب أنها حامل في توأم، خرجت من المستشفى مَزهوّة بنفسها، وصارت تُحدِّث كل مَنْ تعرفه قائلة:

"لقد قُتل وَلَدَاي، وسأُنجب اثنَيْن غيرهما".

كانت الكارثة التي صاحبت موت "وانغ لي تشيانغ" قد ألقت بظلالها على رأس زوجته. تلك المرأة الضعيفة بدت غير مبالية في مواجهة هذا

الضغط الهائل الذي حلّ بها. كانت قد نجحت في تحمّل الصدمة الأولى عندما جاء أحد زملاء "وانغ لي تشيانغ" ليُخبرها بما حدث، لم تضطرب أو تجزع، بل أخذت تُحدِّق في زميل زوجها في صمت، وهو ما جعل الرجل يصاب بالخوف، حينها صرخت فيه قائلة:

"أنتم الذين قتلتُم زوجي".

لم يكن الرجل يدري ماذا يفعل، فأخذ يشرح لها حقيقة انتحار زوجها، أمّا هي فأشاحت له بذراعها النحيل، وقالت له بلهجة مخيفة:

"أنتم، وجميع مَنْ شارك في قَتْل "وانغ لي تشيانغ"، فعلتُم ذلك حتّى تتخلّصوا منّي".

هذا التفكير الغريب المريب جعل الرجل يتألّم بشدّة، فلم يكن يدري كيف يتعامل معها بشكل طبيعي، إلا أنه كان هناك سؤالٌ مُلِحٌّ، عليه أن يطرحه عليها، ألا وهو متى ستأتي لاستلام جثّة "وانغ لي تشيانغ"؟.

صمتت "لي شيو ينغ" لبُرْهَة، ثمّ قالت:

"لا أريد جثّته، لو كان قد ارتكب جريمة أخرى غير تلك، لذهبتُ، واستلمتُ جثّته".

كانت تلك هي العبارة الوحيدة المنطقية التي تفوَّهتْ بها.

بعدما غادر هذا الرجل، جاءتْ، ووقفت أمامي، تُحدِّق فيّ بذهول، ثمّ قالت غاضبة:

"لقد أخذوا زوجي حَيّاً، ويريدون أن يُسكتوني بجثّته".

ثمّ تظاهرتْ باللامبالاة، وقالت:

"لقد رفضتُ طلبهم".

يا له من يوم عصيب! وتصادف أنه كان يوم الأحد يوم الإجازة المدرسية، كُنتُ أجلس في البيت مذهولاً ممّا حدث، ويُخالجني شعور بالخوف والقلق. لقد مات "وانغ لي تشيانغ" فجأة، كان هذا بالنسبة إلى طفل مثلي أمراً صعب التصديق.

مكثت أمّي البديلة في غرفتها ليوم كامل، ظلّ تعتني بملابسها الداخلية كالمعتاد، تُحرِّك كرسيّها، كلّما تحرّكت أشعّة الشمس، إلا أنها كانت تُطلق أصوات صرخات مخيفة من وقت لآخر. كان هذا أسلوبها في تعبيرها عن الحزن واليأس، أصوات صرخات حادّة تأتي بدون مقدّمات، وكأن هناك لوحاً زجاجياً، انكسر فجأة وسط مكان، يلفّه السكون.

بالنسبة إليّ، كان ذلك الصباح مُفزِعاً للغاية. كانت صرخاتها غير المتوقّعة تزيد من هَلَعي حتّى فقدتُ قدرتي على التّحمّل. فتحتُ باب غرفتها خلسة، فإذا بها تجلس هناك، تنظر إلى ملابسها الداخلية، ولكنْ، لم يمرّ بعض الوقت حتّى نهضتْ، ورفعتْ رأسها، وصرختْ:

"آآآآآآآآآه".

عادتْ إلى بيت والدَيْها في فجر اليوم التالي، لم تكن الشمس قد أشرقتْ حينها، شعرتُ بيد تهزّ جسدي، لتُوقِظَني، ووسط ضوء المصباح، شاهدتُ شخصاً يرتدي كمّامة، وجسده مغطّى بالملابس من رأسه حتّى قَدَمَيْه، صرختُ حينها من شدّة الفزع، ثمّ سمعتُ صوتها وهي تقول:

"اهدأ، اهدأ، إنه أنا".

عبّرتْ عن رضاها بتلك النتيجة، حيث إنني لم أستطع التّعرّف عليها، فقالت مُعتَدَّة بنفسها:

"لم تعرفني، أليس كذلك؟".

كانت تلك هي المرّة الأولى التي تغادر فيها "لي شيو ينغ" البيت منذ مجيئي إلى هنا منذ خمس سنوات. ارتدت ملابس شتوية في غير فصل الشتاء، ثمّ سارت نحو المرفأ، بينما كُنتُ أسير خلفها حاملاً كرسياً صغيراً.

كانت الشوارع خالية سوى من بعض كبار السّنّ الذين يتناولون الإفطار. لي شيو ينغ الضعيفة لم تتمكّن سوى أن تسيرَ لمسافة مائة متر، ثمّ توقّفتْ تلتقط أنفاسها، وضعت الكرسي أسفل مؤخّرتها، لتجلس عليه. استمرّ الحال هكذا، نسير قليلاً، ونتوقّف قليلاً وسط نسمات الفجر. حاولتُ أن أتحدّث إليها عدّة مرّات إلا أنها كانت تمنعني من الحديث، وتقول:

"لو تكلّمت، فسوف يكتشف الناس أمرنا".

هذا الغموض الذي كانت تحيط بها نفسها قد جَعَلَني مضطرباً بعض الشيء.

غادرتُ المدينة وسط هذه الأجواء الغامضة. كانت رحلة طويلة، بالنسبة إليّ، ولكني الآن أشعر بأنها ليست سوى ومضات خاطفة وسط بَحْر ذكرياتي. تلك المرأة الغريبة التي تلفّ نفسها بالملابس، التفتت نحوي، وهي تغادر المرفأ، ولوّحتْ لي بيدها. نظرتُ إليها من النافذة المحطّمة بغرفة الانتظار داخل المرفأ، وهي تقف هناك حائرة، فقد كان عليها أن تعبر جسراً خشبياً ضيّقاً حتّى تصعد إلى متن السفينة. لم تأبهْ حينها بأن يكتشف أحداً هويّتها، فكانت تنادي، وتقول:

"هل من أحد يساعدني".

كان هذا آخر عهدي بها بعدما صعدتْ إلى متن السفينة، ومنذ ذلك

الحين، لم أقابلها إلى الآن. ظَلَلْتُ واقفاً أمام النافذة أراقبها حتّى اختفت السفينة عن الأنظار. حينها فقط أدركتُ حقيقة، عليّ أن أُواجهها، ألا وهي:

"ماذا عليّ أن أفعل الآن"؟

تركتْني "لي شيو ينغ" وحيداً مُهمَلاً، فجرعة الحزن والألم الزائدة قد جعلتْها تنسى أيّ شيء بخلاف نفسها. ومع شروق شمس ذلك اليوم، صرتُ فجأة بلا عائل.

لم يكنْ بحوزتي أيّ شيء، فحتّى ملابسي وحقيبتي كلها كانت داخل البيت الذي كان بيتي، وليس معي مفاتيحه. كانت ثروتي الوحيدة هو ذلك الكرسي الخشبي الذي تركتْه لي "لي شيو ينغ". حملتُ هذا الكرسي على ظهري، وغادرت المرفأ باكياً.

كالعادة، رجعتُ إلى البيت، ومَدَدْتُ يدي مُحاوِلاً فَتْح الأبواب المُوصَدة، ولكنْ، بلا فائدة، فجلستُ أمام الباب، أبكي بحرقة. كُنتُ أمرّ بحالة من الذهول، لا أدري كيف أتصرّف. استمرّ الحال هكذا حتّى شاهدتُ "ليو شياو تشينغ" قد جاء حاملاً حقيبته المدرسية مستعدّاً للذهاب إلى المدرسة، فانخرطتُ في البكاء من جديد. قُلتُ لزميلي الذي كُنتُ قد استعدتُ علاقتي به منذ يومَيْن فقط:

"لقد مات "وانغ لي تشيانغ"، و"لي شيو ينغ" غادرتِ المكان، وأنا الآن وحيد، بلا مأوى".

قال لي بحماسة وودّ:

"تعال معي إلى بيتي، يمكنكَ أن تنام على سرير أخي الأكبر".

قالها، ثمّ سارع مُهرولاً نحو بيته، ولم يلبث أن عاد بعدها بقليل والحزن يكسو وجهه. فقد لاقى اقتراحه اعتراض والدَيْه اللذَيْن عنّفاه بشدّة. حينها قرّرتُ أن أعود إلى قرية الباب الجنوبي، كُنتُ أرغب في العودة إلى والدَيّ وأشقّائي. أخبرتُ "ليو شيا وتشينغ" بهذا الأمر، إلا أنني لم يكن لديّ مال لأشتري به تذكرة للعودة.

لمعتْ عينا ليو شياو تشينغ فجأة، ثمّ قال لي:

"اذهبْ، واقترضْ من كوه تشينغ".

ذهبْنا إلى المدرسة، حيث عثرْنا على "كوه تشينغ" عند الساحة الرياضية، وعندما نادى عليه" ليو شياو تشينغ"، ردّ عليه قائلاً:

"لن آتيَ، فأنتَ مصاب بالالتهاب الكبدي".

حينها قال له "ليو شياو تشينغ" متودِّداً:

"سنأتيكَ نحن، ما رأيكَ"؟

لم يعترضْ حينها "كوه تشينغ"، فتقدّمتُ بصحبة زميلي نحو هذا الثريّ الصغير. لم أكنْ أعرف كم سيكون من الصعب عليّ العودة إلى الباب الجنوبي، لولا تلك المساعدة السخية التي قدّمها لي "كوه تشينغ". رفيقا طفولتي أوصلاني إلى المرفأ، لأغادر مدينة "سون تانغ"، وبينما كُنّا نسير في طريقنا إلى هناك، قال لي" كوه تشينغ" مَزهوّاً بنفسه:

"لو احتجتَ إلى المال مجدّداً، فقط أرْسِلْ لي خطاباً".

أمّا "ليو شياو تشينغ"، فكان يسير خلفنا حاملاً الكرسي بدلاً منّي. ولكني في النهاية نسيتُ هذا الكرسي، تماماً كما حدث مع "لي شيو

ينغ". بعدما انطلقت السفينة، شاهدتُ "كوه تشينغ" جالساً على الكرسي واضعاً قَدَماً فوق الأخرى، ويُلوِّح لي بيده، بينما كان "ليو شياو" تشينغ واقفاً بجواره، يُحدِّثه بكلام ما. ثمّ نهضا مغادرَيْن المكان، واختفيا بسرعة.

وطأت قَدَمَاي أرض قريتي مساء أحد الأيّام في منتصف الخريف. فبعد خمس سنوات عشتُها بعيداً، لم يكن بوسعي سوى أن أسأل مَنْ قابلتُهم في طريقي بلُكْنَة غريبة عن الطريق إلى قرية الباب الجنوبي. وبينما كُنتُ أسير على الطريق الضّيّقة المؤدّية إلى هناك، إذ بطفل أصغر منّي بكثير، يقف أمام نافذة بيته، ويصيح قائلاً:

"طفل صغير، طفل صغير".

سمعتُ لُكْنَةً مختلفة تماماً عن تلك التي اعتدتُ سماعها طَوَالَ السنوات الخمس الماضية. لحسن حظّي أنني كُنتُ لا أتذكّر اسم قريتي، وأسماء والديّ وأشقّائي، وجدّي أيضاً. بقايا ذكرياتي عندما كُنتُ في السادسة جعلتْني أتمكّن من السؤال على طول الطريق. في تلك الأثناء، قابلتُ جدّي "سون يو يوان"، ذلك العجوز الذي كان يسير حاملاً أمتعته على ظهره، وفي يده شَمْسِيّة قديمة. كان يسير في طريق عودته إلى قرية الباب الجنوبي بعدما قضى شهراً كاملاً في بيت عمّي. ذلك العجوز الهرم كان يسير تائهاً في طريق، من المفترَض أنه أكثر الطُّرُق المألوفة، بالنسبة إليه. ويا لها من مفارقة! فكل واحد منّا كان قد نسي هيئة الآخر عندما جمعتْنا الصدفة على الطريق.

في ذلك الوقت، كُنتُ غادرتُ المدينة، وجئتُ إلى الريف، وفي مواجهة مفترق الطريق، لم أكن أعرف إلى أين أتّجه. كان ذلك وقت الغروب، مشهد الغروب الخلاب هدّأ من روعي وحَيْرتي، هذا المشهد كان أكثر المشاهد

روعة في طفولتي، شاهدتُ السُّحُب الجارية تندمج مع الشَّفَق الأحمر تدريجياً، وقرص الشمس الأحمر بدا ملتصقاً بالأرض هناك بعيداً، والهالة المحيطة به تأفلُ شيئاً فشيئاً. كُنتُ أقف وسط الضوء الخافت المتبقّي من قرص الشمس، وأنادي على الشمس قائلاً:

"هيّا، انخفضي بسرعة، انخفضي بسرعة".

ثمّ جاءت كتلة من السُّحُب الرمادية، وغطّتْ قرص الشمس كُلّيّاً، وهو مشهد، لم أكن أرغب في رؤيته.

حينها فقط رأيتُ جدّي "سون يو يوان"، كان يقف خلفي مباشرة. هذا العجوز الطاعن في السّنّ وقف هناك، ينظر إليّ نظرة استجداء، سألتُهُ حينها:

"أين الطريق إلى قرية الباب الجنوبي"؟

هزّ رأسه قائلاً:

"لقد نسيتُ".

لقد نسي؟ يا لها من إجابة طريفة. سألتُهُ قائلاً:

"إذا كنتَ لا تعرف، فقلْ إنكَ لا تعرف، ما الداعي لأن تقول نسيتُ"؟

نظر إليّ، وابتسم في تواضع. كان الظلام قد حلّ حينها، ولم يكن أمامي سوى أن أختار إحدى الطُّرُق، وأسير فيها. سرتُ لبعض الوقت، ثمّ اكتشفت أن هذا العجوز يسير خلفي. لم أكترث له، واستمرّيتُ في طريقي، شاهدتُ امرأة وسط الحقول، سألتُها قائلاً:

"هل هذه هي الطريق المؤدّية إلى قرية الباب الجنوبي"؟

أجابتْني قائلة:

"أنتَ تسير في الطريق الخطأ". ثمّ أشارت بيدها قائلة: "عليكَ أن تسير في تلك الطريق".

حوّلتُ من وجهتي على الفور، وكذلك فعل العجوز. كان يلاحقني بطريقة، أثارت انتباهي، فما كان منّي إلا أسرعتُ خطاي، نظرتُ بعدها إلى الخلف، فوجدته يحاول جاهداً اللحاق بي. شعرتُ بالغضب الشديد، فانتظرتُهُ حتّى اقترب منّي، وقُلتُ له:

"لماذا تتعقّبني؟ اذهبْ، وسرْ في طريق أخرى".

قُلتُ له هذه العبارة، ثمّ التفتُّ بجسدي، ومضيتُ في طريقي. وصلتُ إلى مفترق الطُّرُق مرّة أخرى، حينها كان الليل قد أطبق تماماً. كانت ليلة غير مُقْمِرَة، وسمعت دَويّ رعد في الأجواء. سرتُ في الطريق الأخرى بخطى مسرعة، بعد قليل، اكتشفتُ أن ذلك العجوز لا يزال يتعقّبني. توقّفتُ حينها، وصرختُ فيه قائلاً:

"لا تتعقّبْني، أنا من عائلة فقيرة، ولن تستطيع رعايتكَ".

هطل المطر حينها، فسارعتُ بالركض. شاهدتُ ألسنة لهب تتصاعد من بعيد، والمطر المتزايد يختلط أمام عينَي بشعلة النار البعيدة. لم تُطفِئ مياه المطر تلك النيران، بل على العكس، كانت النار تشتدّ شيئاً فشيئاً، بدت وكأنها تصرخ دون أن يتصدّى لها أحد، تنتفض بارزة وسط المطر.

في ضوء تلك النيران، شاهدتُ الجسر الخشبي المؤدّي إلى قريتي. بقايا ذكرياتي القديمة جعلتْني فرحاً كوني قد وصلتُ إلى قرية الباب الجنوبي. ركضتُ وسط المطر، شعرتُ بموجة من الهواء الساخن تضرب

جسدي، ثمّ سمعتُ أصوات فوضى مختلطة. عندما اقتربتُ من القرية، كانت النيران قد هدأت، والمطر أيضاً. نعم، وصلتُ إلى مدخل القرية وسط هذا المشهد.

كان شقيقاي يقفان هناك، يلفّان جسدَيْهما بملاءة السرير، وتبدو عليهما علامات الفزع. لم أكن أعرف حينها أنهما "سون قوانغ بينغ" و"سون قوانغ مينغ". وبالمثل، لم أكن أعرف أن تلك المرأة التي كان جاثية على ركبَتَيْها هناك وتصرخ بحرقة هي أمّي. شاهدتُ بجوارهم بعض الأمتعة المبعثرة التي نجحوا في إنقاذها من الحريق. بعدها شاهدتُ رجلاً يقف عاري الصدر، ينوح بصوت مبحوح، يُخبر من حوله عن كَمّ الأشياء التي احترقت وسط بحر النيران. كان يبتسم والدموع تنهمر من عينَيْه، ويقول:

"هل رأيتُم حجم تلك النيران؟ نيران ضخمة، أليس كذلك؟ لقد دفعتُ ثمنها غالياً".

لم أكن أعرف حينها أنه والدي، لكن شيئاً ما جَذَبَني إليه، تقدّمتُ نحوه، ثمّ قُلتُ له:

"أريد العثور على سون قوانغ تساي".

مكتبة

telegram @ktabpdf

telegram @ktabrwaya

جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

فهرس الرواية

مقدّمة بقلم المترجم.. ٧

الفصل الأوّل... ١٧

الباب الجنوبي ١٩

الزواج ٤٣

الموت.. ٥٧

الميلاد ٩٩

الفصل الثاني... ١٠٧

الصداقة ١٠٩

الرعشة.. ١٢٦

الصديق الصغير ١٦٥

الفصل الثالث.. ١٨٩

البُعْد... ١٩١

شمعة في مهبّ الريح................................... ٢١٧

الاختفاء ٢٤٢

الجدّ يهزمُ الأبَ... ٢٥٨

الفصل الرابع ٢٦١

التهديد ٢٦٣

الهجر... ٢٨٦
الافتراء ٢٢٢
العودة إلى الباب الجنوبي ٢٤٦

من الرواية:

لم يكن الحنين يحدوني تجاه هذا المكان الذي هو مسقط رأسي. فقد كُنتُ متمسِّكاً بوجهة نظري لفترة طويلة. وهي أن تذكّر الماضي أو الحنين إلى الموطن ليس سوى تظاهر بالهدوء والقناعة بعد فقدان القدرة على مواجهة الواقع، فحتّى لو طرأ علينا نوع من المشاعر والحنين، فهو ليس سوى مظهر خارجي

دائماً ما كانت تظهر أمامي خيالات مشوّشة، وكأني أري الوقت يتحرّك. يظهر الوقت أمامي على هيئة رمادية شفّافة، تُغلِّف كل شيء في داخلها. فنحن لا نعيش على هذه الأرض، نحن، حقيقة، نعيش داخل نهر الزمن. الحقول، الشوارع، الأنهار، البيوت كلها تُشارِكنا الانخراط داخل الزمن. الوقت يدفعنا سواء للأمام أو للخلف، ويُغيِّر من هيئاتنا.

المتوسط

يحكي لنا بطل الرواية «سون قوانغ لين» من موقف المُتفرّج تفاصيل المسار الزمني لأحداث حياته منذ كان في السادسة، إلى أن بلغ الثامنة عشرة.

الراوي «أنا» يظهر في الرواية بصفَتَيْن: الأولى هي «أنا» الطفل، والثانية هي «أنا» البالغ. حيث يسترجع «أنا» البالغ في الوقت الحاضر ذكريات «أنا» الطفل في الماضي، وهو ما يتجلّى واضحاً عبر اختلاط الأزمنة والأحداث داخل الرواية. وعندما يتذكّر «أنا» البالغ معاناة «أنا» الطفل في الماضي، يتحوّل الغضب والبؤس اللذان كانا يسيطران عليه في الماضي إلى عفو وتسامح.

تدور أحداث الرواية في ستّينيات وسبعينيات القرن الماضي بالصين حول حياة طفل منعزل عمّنْ حوله، يحاول أن يفهم حياته غير الطبيعية. كما أنها مملوءة بالكوميديا السوداء والأحداث المتناقضة، فنجد ابناً عاقّاً، يعامل والده بقسوة، وأب عديم الرحمة، يترك طفله وحيداً، ليتزوّج بامرأة أخرى. نجد مشاهد من الحياة في الريف، ومشاهد من الحياة في المدينة، هناك أصدقاء طفولة وأصدقاء صبا، مزارعون وجنود، أطفال وعَجَزَة، أغنياء وفقراء، شفقة وقسوة، ميلاد وموت، زواج وجنازة، لقاء وفراق، فَرَح وتَرَح.

تتخلّل الرواية الكثير من المشاعر المختلطة والمتناقضة، يمكن للقارئ أن يشعر بها، يراها ويلمسها، تظهر أمامه بطريقة تجعله مغرَماً وحزيناً في الوقت نفسه.

يـو هـوا: وُلد الروائي الصيني الشهير "يو هوا" في الثالث من أبريل عام ١٩٦٠ في مدينة هانغتشو جنوب الصين.

يُعدّ "يو هوا" الأبرز من بين جيل الأدباء المعاصرين الذي يضمّ أيضاً "مو يان" صاحب نوبل. كما أنه أكثر الأدباء الصّينيّين المعاصرين بزوغاً على الساحة العالمية.

من أهمّ رواياته: "على قيد الحياة" (١٩٩٢)، "مذكّرات بائع الدماء" (١٩٩٥)، "الأشقّاء" (٢٠٠٥)، "اليوم السابع" (٢٠١٣)، وغيرها.

تحوّلت بعض أعماله إلى أفلام سينمائية، مثل فيلم "على قيد الحياة" الذي أخرجه المخرج الشهير زانغ ييمو.

تُرجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة، وحصل على العديد من الجوائز الأدبية المحلّيّة والعالمية، منها جائزة "جرينزان كافور" الإيطالية عام ١٩٩٨، و"وسام الفروسية الفرنسي للأدب والفنون" عام ٢٠٠٤، كما فاز بجائزة "الإسهام المتميّز في الكتاب الصيني" عام ٢٠٠٥ وغيرها من الجوائز.

بيت الحكمة
智慧宫
منشورات المتوسط